



الحمراء

AL - HAMBRA

قصة

«أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي على الأندلس وأشبانيا»

تأليف

واشنطن ايرفينغ

« القسم الأول »

ترجمة

د. هاني يحيى نصري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



واشنطن ایرفینگ

اصحاء المترجم

اوقفتني أمي: «وداد بنت محمد المسكي المكي الشريف» وأنا في مراحل الصياغة الأخيرة لهذا الكتاب، برحيلها عنا. لأهدي لروحها الطاهرة التي لحقت بوالدي في جنة الخلد، هذه الكلمات. عسى أن يضعها معي تحت أقدامهما هناك.

الدكتور

يحيى نصري هـ

مقدمة

الطبعة

العربية

• **الخلفية الثقافية والاجتماعية لمؤلف الكتاب:**

هناك حقيقة ألسنية هامة في اللغة الإسبانية اليوم، وهي ان هذه اللغة ذات الأصول «الغالية»⁽¹⁾ لازالت تستعمل أَل التعريف العربية، في كل جملها. إضافة إلى أن كل الكلمات التي تبدأ بأَل والتي تشكل مايزيد عن ثلث المنطوق الاسباني المعاصر، كلمات عربية.

كذلك هناك حقيقة تاريخية أخرى وهي: أن مكتشف أمريكا الأول «كريستوف كولومبس» CHRISTOPHER COLUMBUS الجنوي الأصل، كان جندياً في الجيش الاسباني الذي فتحت به «إيزابيلا» مع «فرديناند» آخر مواقع الأندلس أي «غرناطة» وأسقطت هذه القلعة العربية الأخيرة، في شبه الجزيرة

(1) Gallic :

«الايبيرية» عام 1492 م. وما أعقب ذلك من احتفالات سميت TE DEUMR في كل أوروبا.

ومما يفسر وجود أمثال «كولومبس» من الأوروبيين في جيش «فرديناند» و«إيزابيلا» أن الهوية الاجتماعية في أوروبا القرون الوسطى كانت هوية دينية لاقومية.

لذلك اعتبر النصر الثاني الذي حققه «كولومبس» بعد ذلك بعدة سنوات في اكتشاف العالم الجديد، نصراً أوروبياً لا إسبانياً فقط. ودوافع هذا الكشف بالاساس تجنب البحر الأبيض المتوسط، الذي كان بحيرة تركية. إذ كان الاتراك يتحركون بدوافع دينية مشابهة في نفس هذه الفترة نحو الغرب ويدقون أبواب «النمسا»

ففي الوقت الذي كانت آخر معاقل «المور»⁽²⁾ أو العرب في الاندلس تسقط وهي «الحمراء» كانت أوروبا الشرقية وحتى حدود فيينا تترنح تحت ضربات الامبراطورية العثمانية الفتية. مما يعني أن الحروب الصليبية انتقلت إلى الغرب، الذي أراد أن يعيدها إلى الشرق من البوابة الهندية.

وازاء واقع وجود القارة الأميركية بينهما، شعر فرديناند وإيزابيلا بضآلة انتصارهما على الأندلس أمام الغرب ككل، ازاء اكتشاف كولومبس للعالم الجديد. وهو مجرد جندي ايطالي في جيشهم.

لذلك لفقوا له التهمة الرائجة في ذلك العصر تهمة «الهرطقة» وأقالوه من منصب «الأميرالية الاسبانية» ، وعينوا بدلاً عنه حاكماً إسبانياً على العالم الجديد، وهو مجرد موظف تابع له هو «أمريكو فيسبوتشي». الذي نسبوا له افتتاح العالم الجديد كجزء من LA RECONQUISTA أي إعادة الفتح للشرق، الذي يجب أن تكون طليعته إسبانيا لأوروبا المهزومة بالنمسا من الاتراك.

وبينما كان كولومبس في السجن كان «فيسبوتشي» يضع اسمه على الخارطة البحرية التي يرسمها للعالم الجديد، «أمريكو».

إلا أن الهجرات الأوروبية غير المنظمة الهاربة حرقياً من الاضطهاد الديني الكاثوليكي، في أماكن سيطرتهم بأوروبا، والهاربة من اضطهاد البروتستانت، في

(2) : عرب الغرب العربي، وهي تحريف لكلمة مراكشي.

أماكن تواجدهم فيها أيضا بسبب محاكم التفتيش التي شاعت في كل أوروبا لاسبانيا فقط إلى العالم الجديد. قلبت المعيار الديني في فهم الأمور، وشكلت من المستعمرات الأميركية خليطاً اجتماعياً، عبر عن نفسه لأول مرة بعد ذلك، باستقلال أمريكا الشمالية عن التاج البريطاني، الذي يتسابق مع الاسبان في موضع القدم هناك.

وما إن أطل القرن الثامن عشر إلا وكانت الولايات المتحدة الأميركية دولة عظمى، تضاهي كل الامبراطوريات الأوروبية الهزيلة بالنسبة لها مساحة وعدد سكان.

وفي هذه الفترة كان لابد من وضع دراسات تاريخية حيادية تُعرفُ هذا الشعب المشكل من عدة شعوب واعراق، بمعنى ظهوره العملاق كقوة كبرى بين شعوب الأرض.

في هذه الفترة ولد واشنطن إيرفنج - WASHINGTON IRVING - (1783 - 1859 م) :

في الوقت الذي دعت فيه الحاجة الاكاديمية إلى وجود باحث ثقافي يربط بين العالم الجديد والعالم القديم.

وايرفنج الذي ولد في نيويورك ومات فيها، في «تري تاون» هو أول امريكي أكاديمي يسد هذا الفراغ.

فمنذ كتاباته الأولى في جريدة أخيه الصباحية في نيويورك تحت اسم «جونسون اولد ستايل» بانكليزية راقية كان دقيقاً ومعبراً ورائجاً.

وقد حاول في البداية اكتشاف الكتابات الالمانية القصصية الشعبية، وبدأ بالقصص العاطفية والاجتماعية. إلا أنه ما لبث أن عين بعد عودته من رحلاته الأولى إلى اسبانيا وزيرا مفوضا فوق العادة في اسبانيا، لما اشتهر به من بحث أكاديمي في الاصول التاريخية لتشكيل الشعب الامريكي، وقد اكتسب هذه السمعة بفضل البحوث التالية :

- تاريخ نيويورك 1809 م.

- حياة ورحلة كريستوفر كولومبس 1828

- غزو غرناطة 1829 م.

- الحمراء 1832 .

- محمد وخلفاؤه 1849 م.

ويعتبر واشنطن « إيرفينغ » اليوم من أعمدة الكتاب الكلاسيكيين الأميركيين لما يتمتع به أسلوبه من انكليزية راقية، مبنية حتى في المجال القصصي على وقائع وحقائق تاريخية، عالجه بأسلوب حيادي علمي دقيق.

والحمراء:

هذا الكتاب القصصي الأدبي الذي نحن بصدده هو نتاج كل هذا الجهد الأكاديمي التاريخي الضخم، ويحوي في خلفيته القصصية الأدبية أصول أسباب تشكل شعوب العالم الحديث.

تلك الأصول التي نظر إليها « إيرفينغ » بمنظار لما يتأثر بعد في القرن التاسع عشر بأية أفكار مسبقة عن الشعب العربي. كما هو حال الأميركيين اليوم. بعد أن فعلت فيهم ما فعلته الدعاية الصهيونية المنظمة، وخاصة بعد الثلاثينيات من هذا القرن.

كتب إيرفينغ في نيويورك قبل أن تزدهم بالهجرات اليهودية من أوروبا، بعد الحرب العالمية الأولى. ومات قبل قرن من تتويج اللوبي اليهودي لفاعلية قواه الصهيونية، في أروقة مراكز القراز الأميركية في الولايات المتحدة.

لذلك يمكننا القول: إنه القلم الحيادي الذي يكاد يكون وحيداً بين الأميركيين من أصول غير عربية في أمريكا. وأهميته بالنسبة لنا اليوم ترجع إلى، أنه من أكبر الكتاب في تاريخ الأدب الأميركي. وحيادية قلمه، بل تحيزه للحضارة العربية دليل من أسطح الأدلة ومن صلب الفكر الأميركي على مصداقية الحضارة العربية ورسوخها بين أمم الأرض، حتى في أسباب تشكل القارة الأميركية.

وتحكم هذا الكتاب خلفية تاريخية ضخمة وصافية في فهم الرسول (ص). عبر عنها « إيرفينغ » بعد ذلك بكتابه « محمد وخلفاؤه 1849 » وخلفية تاريخية دقيقة سبقت كتابه « الحمراء » حول أسباب غزو الأسبان لغرناطة بكتابه غزو غرناطة 1829م ، وكتابه « حياة ورحلة كريستوفر كولومبس 1828 م » .

وإن دَخَلَ هذان الكتابان بالمجال الاكاديمي التاريخي البحث. ودخل كتاب «الحمراء» بالمجال الأدبي. فإن أثرهما على كتاب «الحمراء» واضح في مجال إبراز الواقع التاريخي بالجمالية الادبية القصصية، التي وصلت إلى حد أن الذي رسم الصور الملحق بهذا الكتاب، في طبعته عام 1851م وهولا يعرف شيئاً عن الحضارة العربية، إلا من الوصف القصصي في هذا الكتاب. قد جاءت مطابقة لواقع الزي والشكل الاندلسي بشكل لا يصدق.

والنسخة التي بين أيدينا عن هذا الكتاب عبارة عن إعادة تصوير لطبعة عام 1851 م بما فيها من صور ILLUSTRATIONS ورغم انها نشرت عام 1982 من قبل SLEEPY HOLLOW RISTOR ATTON INC. فقد أصر الناشر على عدم استخدام التقنية الطباعية المتطورة الحديثة حتى يبقى للقارئ عبق قراءة الأمس البعيد بأسلوب الأمس القريب الإنكليزي، كما أخبرني بذاته حين أهداني هذه النسخة، في مدينة TARRYTOWN التي يسكنها هذا الناشر السيد «بروكاريو» والتي مات بها «ايرفينغ» وبها ضريحه الفخم.

ومنذ ذلك الوقت، بعد أن قرأت مجموعة القصص الرومنطيقية الرائعة التي تشكل كتاب الحمراء هذا، وأنا أفكر بوضعها باللغة العربية لإعادة بضاعتنا إلينا. تلك البضاعة الراقية التي مرت معتقة بأروع قلم امريكي كلاسيكي، تمكن من نقلها كما يوجب النقل المنهجي من جهة، وكما تتوجب شرائط العمل القصصي من جهة أخرى.

وبين فاصلتي الأدب الراقي، والفكر المنهجي ينداح الجمال الأندلسي الفريد ليفوق كل ما كتب عن جنة الأمس «الأندلس» التي تقاسمتها يد الأيام. فلا أقل من أن تبقى بذاكرة القارئ العربي بقاءها بذاكرة القارئ الاميركي مع «ايرفينغ» وتبدأ هذه المجموعة القصصية عن أيام «الحمراء» الاندلسية بذكر الزحلة التي قادت المؤلف إلى هناك برفقة الأمير الروسي «دول غوركي» الذي أصبح بعد ذلك وزيراً مفوضاً لروسيا القيصريّة في «إيران» حيث بدأ يظهر للمؤلف بوضوح اثر الشعر العربي في الأغاني الشعبية الأندلسية.

وبعد وصف السهوب وجبال سييرانيفاذا «التي سميت باسمها ولاية من الولايات المتحدة. يصف الكاتب بدقة تاريخية معالم قصر الحمراء وقلعته

التاريخية في غرناطة» والتي هي كناية عن مصيف عذب الهواء بالمقارنة مع جو المدينة الحار.

مشيرا إلى أهمية الزخارف الخطية العربية، وإلى أنها أبدعت لأول مرة في دمشق. ومن هنا الصلة بين الأندلسيين وسوريا. كذلك تتبع أصل البورسلين الذي يشتهر به الهولنديون وهم جالية كبيرة في نيويورك أيامه، وكيف أنهم أخذوه من تلك الأصول الدمشقية.

ثم يصف مواضع إقامة أبي عبد الله النصرى آخر ملوك الاندلس وكيف أن مدفأة وضعت في غرفته يدمر رمادها «الارابسك» القديم الرائع.

مشيرا إلى أن قصور «الحمراء» في أساس بنيانها المعماري، الذي ياكل عليه الدهر ويشرب، بسبب إهمال الجانب الحضاري الاسلامي في اسبانيا، قد قامت لتشخص التصور الاسلامي لجنة الخلد في الارض.

وسكان الحمراء الذين رأهم وصفهم بأنهم أناس يعيشون كما لو كانوا بإجازة دائمة على حد قوله: «إن فن (أن لاتفعل شيئا) لايتقنه أي شعب من الشعوب إتقان الاسبان المعاصرين له» عل النقيض من أجدادهم. ثم يفرد المؤلف فصلا لوصف قاعة السفراء في قصر الحمراء حيث أكمل بناءها «يوسف الاول» وجعلها حاضرة ملكه وامبراطوريته التي هي كناية عن آخر موجة من موجات الامتداد العربي إلى الغرب.

هناك حيث كانت جامعات «قرطبة» و«طليطلة» و«اشبيليا» و«غرناطة» مركز إشعاع حضاري للوجوه الباهتة الاوروبية حسب تعبير المؤلف.

ويعدد القرون الثمانية من الاشعاع الحضاري على العالم من الاندلس، من رجال فتحوا وحكموا وازدهروا، ثم بادوا بسبب التعصب الديني.

والافرنسيون الذين نهبوا «مكتبة العدل» في الحمراء بعد فتحها لم يكونوا يعرفون شيئا عن أهمية هذا المركز الحضاري لكل أوروبا.

لذلك يعيدنا إلى تاريخ إنشاء الحمراء على يد «محمد بن الأحمر» من «ارغونا» سليل عائلة بني نصر التي امتد سلطانها على كل الاندلس. تلك العائلة التي بدأت حروب الطوائف بين أبناء عموماتها، مما أذن بسقوط الاندلس.

ثم يفرد فصلا عن يوسف بن الحجاج الذي أكمل بناء الحمراء وقتل فيها اغتيالاً.

وبعد أن يضع الكاتبُ القارئَ بهذا الجو التاريخي ينتقل به تدريجياً، نحو التفسيرات الشائعة للظروف الغامضة التي صنعت كل هذا الأمر الذي أقام الناس وأقعدهم. والتي تنسل في أساطير سكان الحمراء بأيامه، من الرجال الذين وصفهم بإتقان فنَّ عمل اللاشيء.

لينقلنا بعد حوالي مائة صفحة إلى قصة الغرفة الغامضة في الحمراء. ثم يخرج بنا إلى «البانوراما» من «برج التجار» بقصة مشوقة أخرى. وبعدها قصة عن الشريد، ثم قصة «ابن سراج» فوصف اللحظات التاريخية «لأبي عبد الله النصري» آخر ملوك الأندلس، ثم أعياد غرناطة.

وهكذا في كل معلّم وزاوية من معالم القصر والمدينة قصة يرددها صدى الأساطير الشعبية، ويعيدها «ايرفينغ» بقصص قصيرة رائعة تخلد الحدث التاريخي وترسخه بإشراقه الخيال الرومانسي.

إن قراءة هذه القصص الصغيرة تحت عنوان الحمراء، هي استعادة لحضارتنا هناك، نقلها الفنان «ايرفينغ» من المنطوق الشعبي، إلى المنطق الفني، بلوحات متتابعة يمكن رؤيتها حين قراءتها - كما حصل مع الفنان الذي رسم لوحات الكتاب بعد ذلك - فإذا تأتت لها عين مخرج سينمائي عربي وامكانات يمكنها أن تتحول إلى مجموعة أعمال مسرحية وسينمائية يسهل قبولها والاعجاب بها في أي مكان. وتشكل رداً مسبقاً على كل فكر قبلي يريد العدو أن يشيعه عن العرب في الغرب.

قصتي مع الكتاب:

لقد عومل كتاب «واشنطن ايرفينغ» على أنه كتاب قصصي أدبي، ولعل هذا يتأكد مع القسم الثاني الذي قسمت فيه هذا الكتاب إلى حد ما وأقول: «إلى حد ما» لأنني أعني أن القسم الثاني في صيغته القصصية لا يهدف إلى سرد حكايات تصورها الكاتب، بقدر ما يهدف إلى رسم الواقع الاجتماعي والفكري والحضاري لتاريخ الأندلس القديم، من خلال الحكايات وعلى نفس هذا النمط يتضمن القسم الأول رسماً للواقع الاجتماعي والفكري والحضاري المتردي لاسبانيا القرن التاسع عشر في الأندلس. لامن خلال حكايات وقصص تعتمد على حدث تاريخي سابق،

بل من خلال حكايات وقصص حدثت مع المؤلف نفسه، في رحلته إلى «غرناطة» وإقامته بقصر «الحمراء» فيها.

مما يعني أن لقصص الكتاب قصصاً حصلت مع مؤلفه. ويمكن للقارئ من خلال كليهما أن يشكل رأياً حول الحضارة العربية هناك والتي كان يجب أن تبقى، كما يؤيد المؤلف ذلك.

ولأنني رايت أن قصتي مع هذا الكتاب تشكل جزءاً من هذا التتابع التاريخي له من جهة، وخوفاً من أي ادعاء وغرور من جهة أخرى، ولأنني لا أريد أن أتعاطى مهنة الأدب من جهة ثالثة. لا بد من إيجاز هذه القصة للقارئ بشكل مكثف.

ودون أن أدعي بأن هذا الكتاب لم يصل إلى يد عربية قبلي. كانت فرحتي به غامرة.

ففي خريف 1986 م دفعتني الأقدار إلى ترك التدريس في جامعة الملك عبد العزيز في جدة بسبب مرض صدري أصاب والدي واكتشفنا لاحقاً في مستشفى «ديجون» في «باريس» أنه بسبب فيروسات التبريد المركزي التي لا يتحملها صدر الشيوخ. ولأن إجماع الأطباء هناك كان بضرورة نقله إلى جو لا يحتاج إلى التكييف، كان حقاً علي أن أبقيه في «أوروبا» وسرعان ما شكلت هذه الإقامة الطويلة والمملة له ولنا كعائلة كرسيت نفسها للاعتناء به، شكلت ضيقاً نفسياً، زاد عنده بازدياد تحسن صحته نسبياً.

ولأن جو لبنان كان مثالياً له، لكنه مشتل بالحرب الأهلية، قررنا الإقامة «بدمشق». وقد ساعد الإيثار الرائع الذي تتمتع به زوجتي وحبها المثالي له على إصرارها على مرافقته. تاركين لي فرصة العمل بأي مكان أكاديمي مناسب، على أن تصير «دمشق» مركز تلاقينا.

وبذات الوقت جاءني من جامعة «روزهل – برونكس» في نيويورك قبول للتدريس فيها، كما وافقت جامعتي «فوردهام» التي تخرجت منها على أن أدرس في فرعها أيضاً في «منهاتن – لنكلن سكوير» فكانت فرصة لكسر عزلتي الأكاديمية التي استمرت حتى خريف عام 1987 م.

أقول عزلتي الأكاديمية ولا أقول انقطاعي الأكاديمي، لأنني اهتبلت فرصة إقامتي في باريس، بسبب استئجار منزل من مدير «البيبلوتييك ناسيونال» صارت

هذه المكتبة الضخمة معيناً لي لمزيد من الاطلاع على أعمال ومخطوطات «ابن خلدون» و «ابن الأزرق» ، وكذلك تفرغت لصياغة الكثير من أبحاث «ابن سينا» وخاصة كتاب «النجاة» باللغة الانكليزية.

وبذلك كنت مُعداً لرصيد لا بأس به من الأعمال التي يمكنني أن أحاضر بها في مواد الفلسفة المشرقية القرن وسطية.

وهكذا فعلت في نيويورك حين عهد إلي بتدريس علم الاجتماع والفلسفة القرن وسطية المشرقية.

وبطبيعة الحال كان لابد من التعرف على مدير مطبعة الجامعة لطباعة النصوص غير المتوفرة لطلابي، وللأسف كانت الخلفية الإعلامية و الدعائية ضد العرب فاعلة فيه. فبُعثت من إمكان تعاونه ولجأت إلى وسيلة الإملاء على الطلبة. إلا أنه مالبث أن عين وكيل جديد للجامعة، وكانت لي صداقة حميمة معه، ومع زميل له أسمه «جوزيف بروكاريو» والده مهاجر إيطالي فقير عمل على صقل مواهب ابنه الأكاديمية إلى الحد الذي مكّنه من ترقية مهنته بتجارة الكتب إلى أن أصبح مختصاً بالمكتبات ، وناشراً من الطراز الأول في «نيويورك» فاستقطبت الجامعة هذا الناشر الفذ لتحسين مطبعتها، فأصبح مساعداً لمدير مطبعة الجامعة، وراح يحسن من إمكاناتها المحدودة نسبياً مما ساعدني بعمل «ببليوغرافيا» متكاملة لكل ما ترجم إلى اللغة الإنكليزية من الأعمال الأكاديمية العربية قديمة وحديثة. وبذلك صارت لدي قائمة هامة بكل أسماء الكتب الكلاسيكية المترجمة من العربية إلى الإنكليزية.

ومكنني التوسع السريع والمنهجي لاستخدام «الكمبيوتر» في الجامعة والذي كان لصاحبي يد في تطويره أيضاً «روز - هيل» .. من نقل أي مرجع أشياء، أو أي مصدر مترجم من مكتبة الكونغرس الضخمة المعروفة ، قبل أن يترد إلى طرفي.

وهكذا تلافيت عدم وجود نص لموادي بيد طلابي، بزخم هائل من المراجع، التي كل ما عليهم إزاءها هو تصوير النسخ التي أقدمها لهم منها.

ولما كان السيد «بروكاريو» مسهماً أساسياً بإعادة نشر كل أعمال «واشنطن إيرفنج» بنفس صيغتها التقليدية التي ظهرت فيها في طبعاتها الأولى في القرن التاسع عشر. كان كتاب «الحمراء» بطبيعة الحال بجانب سريري أقرأ منه قبل

النوم، في كل يوم قصة جديدة. من ضمن كتب «ايرفنغ» الأخرى التي سبق لي ذكرها.

كذلك لأن السيد «بروكاريو» يسكن في نفس قرية «إيرفنغ» «تري تاون» في «نيويورك» تمكنت في بعض أوقات العطل من زيارة منزل المؤلف وقبره. ونحن نقضي الساعات الطوال حديثاً عن أثر الحضارة العربية غير المنظور في القارة الأمريكية. والحاجة الماسة لنقل كتب «ايرفنغ» إلى اللغة العربية. والمساهمة إذا أمكن بتوسيع نشر كتبه خارج الإطار الأكاديمي في أمريكا نفسها، فيما لو تبنت هذا الأمر أي جهة عربية مسؤولة كرد مسبق على ماتصوره الدعاية الصهيونية عن العرب هناك.

لقد كان «السيد بروكاريو» وأمثاله من الأكاديميين الأمريكيين وأخص بالذكر المرحوم الدكتور الأب فنست بوتر مساعد عميد جامعة فورد فورد هام والدكتور بايرون شيفر، وسواهم يشعرون بخطر نتائج التطميس الإعلامي للفكر والفلسفة العربية وتشويهها، على تقدم الفكر الإنساني المعاصر، وتقصير الأكاديمية العربية من جهة أخرى بالرد على هذا التجهيل السياسي القصير النظر. وكل ماكانوا يستطيعونه هو استقطاب من يقدر من الامكانات العربية، التي يجب أن أعترف بأنها كانت أقل من أن أستطيع حتى الإشارة لها في هذا المجال.

وعلى كل حال ؟!

هذه هي أعمال «ايرفينغ» وسواه من سيوف الكلمة العربية في الغرب بيدي منذ عام 1987م، فماذا استطعت أن أفعل بها؟ ! علينا أن نعترف أن الإمكانيات الفردية مهما أوتيت تظل حبيسة القدرة المحدودة. فأنا لا آمل أن أستطيع حتى الآن 1995م سوى أن أقدم الجزء الأول من كتاب «الحمراء» على أحسن تقدير، وإن ساعدتني الظروف. ولولا الحماسة الشخصية لصديقي الأستاذ عبد الكريم ناصيف لكان حتى هذا شبه محال، فهو وحده حمل ثقل الاتصال بالناشر بحلب وصعوبة توصيل الأفكار.

هذا هو موجز قصتي مع هذا الكتاب والتي آمل أن أكون قد وضعت في ثناياها بعض ملامح هذا العصر الذي نعيش فيه، في موقفه من الحضارة والفكر والفلسفة العربية، على غرار نهج «ايرفنغ» بإضاءة قبسات الملامح. مع الاعتراف المسبق بكل صنوف التقصير عن بلوغ شأوه.

حصتي من الكتاب:

إنني منذ أن أنهيت رسالتي في الماجستير في الجامعة اليسوعية ثم اللبنانية في بيروت عام 1974م حول مفهوم «العصبية» عند ابن خلدون إلى أن نلت شهادة الدكتوراه في نيويورك في جامعة «فورد هام» عام 1974 بعنوان: «بدائل الفكر العصبي» وأنا أحاول أن اضع يدي على الأسباب الاجتماعية الرئيسية لانحياز وتداعي حضارتنا العربية بالصيغ المختلفة التي صيغت فيها في الماضي، ودواعي تراجعها المعاصر.

ولئن وضعني التاريخ المعاصر في صلب الحرب العشائرية الأهلية اللبنانية — بسبب ظروف الدراسة — فقد فرض علي التاريخ القديم مقارنة هذا الوضع الطائفي المتردي، مع دول الطوائف في الأندلس.

لذلك كان لابد لي من الغوص في الفكر الاجتماعي والفلسفي الأندلسي، لعلني أدرك تجربة ذاك الشقاق الذي لازال فعالاً في مجتمعاتنا العربية المعاصرة. فكانت الدراسات المطولة التي كتبت عن «ابن حزم» «وابن باجة» و«ابن طفيل» و«ابن رشد»، وحتى عن «ابن ميمون» مروراً بالفكر الصوفي مع «ابن عربي» ومدرسة وحدة الوجود في صيغتها منع «اسبينوزا» أقول: كانت هذه الدراسات المطولة الأساس الذي شكل خلفية بحثي في رسالة الدكتوراه عن «بدائل الفكر العصبي»

وما إن أنهيت هذا العمل الأكاديمي الذي تطويه أروقة مكتبة الكونغرس اليوم، حتى التفت إلى مزيد من النشر حول هذا الموضوع في المجلات العلمية الأكاديمية الأمريكية، حتى كان البحث الذي نشرته في J P Q بعنوان: THE MYSTIC AND SOCIETY، وله ضمن غيره من البحوث على الأقل فضل في ترقية إلى استاذ مشارك حين كنت أدرس في نيويورك، حتى عام 1993 م. لكن كل هذا ظل حبيس الأروقة الأكاديمية من جهة، واللغة الإنكليزية من جهة أخرى.

ولم يفك هذه العزلة البحث الذي نشرته باللغة العربية في النادي الأدبي الثقافي في جدة عام 1985 تحت عنوان «الفكر الاجتماعي الأندلسي» — المجموعة الثانية — ولا قبله ما كنت قد نشرته في لبنان بمشاركة المرحوم الدكتور كمال يوسف الحاج: (المسيحان والعصبية في الإسلام والصهيونية مطابع الكريم

الحديثة، عام 1973). أو لاحقاً (عصبية لاطائفية، دار القلم بيروت 1982) فعدت إلى النشر المكثف في دمشق في مجلة الثقافة الأسبوعية والشهرية، ومجلة المعرفة. وعلى سبيل المثال لا الحصر المقال الذي نشرته بالمعرفة عام 1991 / شباط حول ما يهمنا من البنيوية المعاصرة، ثم أسس الجهل الغربي بالحضارة العربية 1992م آب. والإكراه الحضاري لأمتنا 1994 / ايلول.

وحتى المحاضرات التي ألقيتها في المركز الثقافي العربي بدمشق سواء في المرة أو العدوي أو أبو رمانة، والتي لاقت اهتمام وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة - مثل «رسائل الفلسفة المشرقية» التي نشرتها جريدة تشرين 13 / 4 / 1992 على سبيل المثال لا الحصر أو محاضراتي في المركز الثقافي وطىء المصيطبة في بيروت: «مقالات في الطبيعة الإنسانية ... التعصب والعصبية» كانون 2 / 1994). أو كتابي الذي نشرته 1995 بالإنكليزية THE RAHMANIC VERSES أقول: حتى كل هذا لم يفك الطوق الأكاديمي والإطار الجامعي الصعب بين القارئ أو السامع العادي وبينني.

وإزاء هذا وأول ما يخطر أمام النقد الذاتي هو لوم قدرتي على نقل الأفكار الفلسفية والاجتماعية المعقدة بأسلوب سهل وبسيط يمكن لغير المختص أن يفهمه. ومحك تعديل الأسلوب هو طبعاً المحاضرات العامة، التي لم أجد ولا في أي واحدة منها أي اعتراض على الفهم، بل على العكس من ذلك نالت رواجاً وفهماً أوسع مما كنت أتصور.

أما البديل الآخر للنقد فهو النقد السلبي للمجتمع بأنه مثلاً مجتمع لا يقرأ، وإن قرأ لا يحب أن يتعب نفسه بمنظومات الأفكار الصعبة، والذي يحاول أن يؤكد كل ناشر باللغة العربية من منطلق أن أفضل الكتب التي تكتب باللغة العربية، لا يوزع منها أكثر من ألف إلى ألفي نسخة على أحسن الأحوال. فمحطات الترفيه التلفزيوني بالأقمار الصناعية، وتجارة الفيديو، قد سرقت القارئ العربي إلى غير رجعة!؟

وإزاء شعوري الذاتي كمحاضر أفنى من عمره أكثر من عشرين سنة يحاضر في الجامعات العربية والأمريكية (إحدى عشرة سنة في جامعة الملك عبد العزيز في جدة وثمانين سنوات في نيويورك ونيو جيرسي) عدا عن محاضراته العامة الكثيرة بكلتا اللغتين. ودعواتي كأستاذ زائر... الخ أقول: إزاء شعوري الذاتي بأن لافرق

بين متتبع المحاضرات العربي ونظيره الأميركي أو الغربي، ولا كبير فرق بين مقتني الكتاب العربي، ومقتنيه الغربي، فكلاهما متراجع نسبياً، وإن كانت الظروف الاقتصادية العربية تزيد من تراجع مقتني الكتب من القراء العرب. فلا بد من سبب آخر يخص هذه المنطقة من العالم دون سواها بما يخص هذا الطوق بين القارئ وبين الفكر العلمي والفلسفي والاجتماعي.

وقد لفت نظري إلى هذا السبب الآخر معاملة الجمهور - السامع - العربي في المحاضرات العامة لكل محاضر على أنه أديب.

فبمجرد أن تقف لإلقاء محاضرة، مهما كان عنوانها يدل على أنها علمية اجتماعية أو فلسفية، يظل الجمهور العربي يعاملك على أنك أديب يلقي خطبة ما؟!

حتى أن المتقربين منهم يريدون أن يحاسبوك على بدائل المصطلحات العلمية التي تستعمل في إمكان إشتقاق عربي لها. وكأنه من المسموح للغرب أن يستعمل مصطلحاتنا، حتى البسيطة منها - قهوة سكر جبر كيمياء.. الخ، ومحرم أن نستعمل مصطلحاتهم بأي لفظ عربي؟! زد على ذلك أن مراعاة الضمة والكسرة هي أهم ما يشد أذن القلة المتقيرة التي استطاعت أن تفرض قبلاً على كل قارئ أو سامع أن كل ما يكتب أو يحاضر به خطأ لغوي لأنه يجب أن يكون أدباً؟!

هكذا بدا لي أن طغيان الأدب على القلم العربي، وعلى المنبر العربي، هو السبب الأساسي في إحكام تلك العزلة بين القارئ العربي وكل فكر أكاديمي علمي وفلسفي أو اجتماعي يطرح عليه.

وإذ يعلمنا علم الاجتماع استحالة المواجهة الفورية والآنية مع كل - قبلية - اجتماعية أو فكرية عامة. لا بد لنا من أن نقدم الفكر للقارئ العربي بصيغة أدبية. ونحن نعلم أنه وإن كان يعامل كل فكر على أنه أدب، قد مل في الوقت ذاته من كل الصيغ الأدبية الفضفاضة التي أصبحت رتابتها لا تثير أي جمالية جديدة عنده بل تعكرها.

نحن إذاً أمام قارئ متطلب، يريد الفكر بصيغ أدبية راقية. وفي الوقت نفسه يطلب شبه المستحيل من الفكر، أن يصير أدباً؟!

ومثل هذا المطلب شبه المحال. لا يمكن أن يقدمه سوى قلة في كل الحضارات الإنسانية، من بينهم:

واشنطن إيرفنج، الذي اخترعه هنا لأنني لأدعي أي قدرة أدبية مشابهة له، بل فقط لأنه يستطيع أن يوصل النمط الذي كرست عملي الأكاديمي الفلسفي والاجتماعي في معظم جوانبه له. ألا وهو خط البحث عن إمكان حل معيقات تقدمنا العربي نحو المعاصرة، اجتماعياً وفكرياً وفلسفياً.

واستطاعته وصل هذا الخط عن طريق الأدب، لا أطلب منها الكمال الفكري بقدر ما أطلب لفت النظر، للقارئ العربي المتطلب الذي أعاقه الأدب للأسف ولا زال يعيقه عن كل شمولية فكرية، حقيقية تطالبه بالغوص في عمق الفكر دون أي مغريات جمالية.

وانني إذ أقدم الجزء الأول من هذا الكتاب باسمي أضع الشص الذي أريد به أن أجلب القارئ إلى البحث الأعرق الذي جعل من الأديب «إيرفنج» فيلسوفاً عالمياً ومستشرقاً - بالمعنى الجيد للكلمة - في الحضارة العربية. حتى لأكاد أقول: لولا هذه الحضارة لظل «إيرفنج» مجرد أديب أمريكي راقى العبارة جميل التعبير فقط.

الفكر والفلسفة العربية بقمة رقيهما في المجتمع الأندلسي هو هدي في تقديم هذا الكتاب، أما قدرة نقل الجمالية الأدبية لنصوصه فمسألة أخرى. سأحاولها بنصي في الجزء الأول من هذا الكتاب. وسيجدها القارئ بإذن الله في الجزء الثاني منه مع قلم الأستاذ عبد الكريم ناصيف الغني عن التعريف.

الدكتور

هاني يحيى نصري

مقدمة طبعة

1851 م

كتبت هذه الحكايات والقصص القصيرة كتابة أولية، حين إقامتي «بالحمرا»، ثم أضفت لها فيما بعد ملاحظاتي التي سبق أن دونتها - أثناء رحلتي إلى هناك. آخذاً بعين الاعتبار المحافظة على ألوان النظرة المحلية، لأظهر هذا العالم الأصغر - الأندلس - حياً ومعبراً - تماماً - كما ساقني حسن الحظ لأن أجد نفسي فيه. ولأن العالم خارجه ليست لديه إلا فكرة ناقصة عنه، حاولت أن ألتقط - وأبرز - وأعبر عن شخصيته بنصفية الشرق والإسباني، في ذاك الخليط الأسطوري من البطولة والشعر، متتبعا كل ما تلاشى في آثاره من العظمة والجمال. بهدف تسجيل تقاليد الفروسية التي نبعت منه، والتي كانت تجوب في قاعات ذاك الملك، بأسطورية خارقة جسدها عرق خليط من الناس، والشاهد عليها اليوم هو تلك الأطلال.

وقد ظلت أوراق وملاحظاتي التي كتبتها حبيسة عندي مدة ثلاث سنوات - إلى أربع ولم أقرر تهيتها للطباعة، إلا وأنا في «لندن» عام 1832 م، عشية عودتي إلى الولايات المتحدة. لكن ظروف السفر وضرورة الاستعداد له حرمتني من

تلك المتعة. ولذلك لم أجمعها إلا بطريقة فوضوية عشوائية، كما أن جزءاً منها ظل غير مكتمل.

وفي هذه الطبعة أعدت تنظيم العمل ككل بتوسيع بعض أجزائه وإضافة إلى أخرى. حتى أوراقى الأصلية تضمنت تلك الإضافات لجعلها أكثر كمالاً، وبالتالي لتكون مهيأة للانتقاء والاختيار الأمثل.

واشنطن إيرفينغ

صيف ، 1851 م

الرحلة

قاد الفضول وحب الاستطلاع مؤلف هذا الكتاب في ربيع 1829 إلى إسبانيا — وبدأ الأمر — برحلة استكشافية من سفيل — إشبيلية — إلى غرناطة، برفقة صديق من السفارة الروسية بمدريد. والصدف هي التي جمعتني — مع هذا الصديق — ونحن من طرفي العالم، كما جمعنا الذوق المتشابه، بالاندفاع إلى التطواف معا في جبال الأندلس الرومنطيقية أما إذا كانت هذه الصفحات ستلاقي عينيه سواء كان الآن يقوم بواجباته الملكية في قصره، أو يتأمل عظمة الطبيعة التي اخترقتها مغامرتنا معا. فإن لطفه لن يمحوه لا الزمان ولا المسافات بيننا، وكذلك أهميته — في هذا العمل⁽³⁾ —

(3) : كان هذا الصديق المرافق للمؤلف الأمير الروسي «دول غوركي» الذي هو الآن — عام 1851م — وزير

مفوض لروسيا في البلاط الإيراني

علي الآن إذا أن أقدم بعض الملاحظات عن هذه الرحلة الإسبانية، وما شاهدته فيها . فالكثير من الناس يعتبرون إسبانيا مجرد مقاطعة جنوبية - من أوروبا - تشبه إيطاليا بفخامتها. بينما وعلى العكس من ذلك بإستثناء بعض محافظاتهما ، تجد أنها بلد تغلب على معظمه الكآبة، التي تبرز بشكل جباله القاسية، وسهوله الممتدة الطويلة الصامتة والتي تشبه افريقيا. وغياب الطيور المفردة يضيف إلى ذاك الصمت تلك الوحدة. كما أنك ترى - الصقور - والجوارح تحلق في منحدراتها الجبلية، وتجوب سهولها، دون وجود أي طيور صغيرة كصفة مميزة لمعظم مقاطعات إسبانيا، باستثناء عدد قليل من تلك الطيور حول الحدائق العامة التي صنعها الإنسان.

وتمتد حقول القمح على مد النظر في المقاطعات الداخلية، كما تلوح للناظر بينها الأرض العارية دون إمكان رؤية من قام بفلاحتها. أما تحت الروابي فيمكن ملاحظة بعض القرى الممزوجة بخرائب كأنها ناتجة عن معارك حربية مما يعطي لتلك القرى منظراً قاسياً، خاصة وإن تلك القرى كانت في الماضي - قبل تخريبها ثم إعادة بنائها فوق الخرائب - معقل قوية في الحروب الأهلية. أو الغزو المغربي العربي - المور - . لذلك ظلت عادة التلاحم بين الفلاحين بعضهم مع بعض لتبادل الحماية راسخة في معظم أقسام إسبانيا ومقاطعاتها، للرد على كل حذاء يطأ أرضهم.

وهذا لايعني أن الغابات والأحراج غير موجودة في قسم كبير من إسبانيا حيث في تلك الأماكن ترسخ حضارة أرغد، يعكسها محتد كريم يظهر في صفات هؤلاء الناس. مما جعلني أفهم بشكل أفضل صفة الإباء والقسوة إزاء صفات الهشاشة عند الإسباني، بمجرد أن أعرف البلد الذي يسكنه.

إن في الصفات الظاهرة للأرض الإسبانية شيئاً آخر أيضاً يضغط بشكل غير محدود على مشاعر الإنسان. فعظمة سهول (كا شتلا أوف لامنشا - منشأ سهول قشتالة) - الممتدة على مد النظر، بكل عريها وجلالها تملك صفات البحر المحيط، خاصة حين تلتقط العين قطيعاً من البقر هنا وهناك يرعاه راع واحد، يقف كالتمثال. بعصاه الطويلة كالرمح المرتفع في الهواء. أو حين ترى قافلة من البغال تتحرك من بعيد وكأنها قافلة جمال في الصحراء. أو تلمح فارساً وحيداً مسلحاً بغدادة وبندقية يطرد حصانه في السهول. مما يجعلك تشعر ان العادات - وحتى شكل البلاد والناس ككل به شيء من الشخصية العربية. على أن الاستعمال

الواسع للسلاح في هذه البلاد يوضح بشكلٍ بين جداً عدم الأمن العام فيها. فللفلاح في الحقل، وللراعي في السهول دائماً خنجر وغدارة وبندقية. ومن النادر أن يذهب الأثرياء إلى السوق بدون مرافقة خادم مسلح. وحتى أقرب رحلة يجري التهيؤ لها بما يشبه الذهاب إلى الحرب.

إن المزاج الخاص الذي أنتجته أخطار الطرق حين الترحال، يشبه إلى حد بعيد ما يحصل في القوافل في الشرق، حيث تلحق بها المرافقة المسلحة في يوم محدد. لذلك يقلل المسافرون الإضافيون عددهم، ويعتمدون على قوتهم الذاتية. وبهذه الطريقة البدائية تتحرك التجارة في تلك البلاد. من جبال البرنيه - البرنس - والآوسترا إلى البكازارا - البقصار - والسيرادي روندا حتى جبل طارق. حيث على المسافر أن يعيش عيشة قاسية ويعتمد في بضاعته وزاده على نفسه مزوداً راحلته بزق مائه المدلى على سرج حصانه، والذي يحوي الماء بقدر ما يحوي الخمر أحياناً، بسبب نضابة الماء في تلك الجبال الجرداء والسهول العطشى. أما فراشه فهو من جلد البغال يفرشه تحته لينام في الليل، ومخدته سرج حصانه. والمسافر الإسباني قوي البنية، أسمر القسمات، هادئ في التعبير ما لم تستفز حركته مفاجئة. وهو صريح في تعامله، لا يمر عليك دون أن يحييك بعبارة: «ليحكم الله» أو: «الله معك أيها الفارس».

وتظل أسلحة هؤلاء الرجال بأيديهم، أو معلقة على سروجهم استعداداً لإشهارها بسرعة مستميتة، لأنهم يحملون معهم كل ثروتهم دوماً. كذلك يعتمدون في حمايتهم على عصبتهم ضد الخارجيين على القانون «الباندوليرو» الذين من طبعهم الهجوم فرادى بخيولهم الأندلسية السريعة، معتمدين على تسليحهم التام، ومناورتهم حول القوافل، لانتهاز فرصة مناسبة للهجوم.

وعند الإسباني مستودع ضخم من الأغاني - الشعبية - التي تمجد مغامرات الترحال بأنغام قاسية تغنى بصوت مرتفع. وعند معظمهم أدوات العزف التي يعلقونها على سروج خيلهم. وغالباً ما تكون «الكوبلة» أو النغمة المغناة رومانسية عن أيام العرب القديمة، أو أساطير بعض القديسين، أو عن قصص الحب، أو مغامرات قطاع الطرق «الكونترا بانديستا» التي غالباً ما يتشجع بها اللصوص والمهربون الذين يتمتعون بموهبة شعرية، غالبية بصورة عامة على الطبع الإسباني. ويقال إنها من وراثة العرب هناك. وهي تعبر عن شعور الوحدة

والقسوة الذي تحركه سكنى القفار بالنفس. ويرافق كل هذا طنين أجراس البغال المصاحبة.

إن رؤية قافلة البغال في الممرات الجبلية ذات تأثير بصري آخاذ. حيث تسمع أول ما تسمع صوت الأجراس التي تقطعها الريح ممزوجاً أحياناً بصوت سائسها الذي يلاحق أحدها، أو يغني بملء صوته أغنية تقليدية. ثم ترى بعد ذلك البغال وهي تتحرك ببطء على جوانب المنحدرات إما فوقك أو تحتك حسب مكانك في الجبل. وكلما اقتربوا منك تتبدى معالم زينتهم الخلابة، وسروجهم الملونة. وحين يعبرون بك يظهر وراءهم حامي القافلة الذي يعطيك فوراً الشعور بخطر الطريق وعدم أمنها.

ومملكة غرناطة التي نحن على وشك الدخول إليها، واحدة من أكثر المناطق الجبلية في إسبانيا «فاست سيرا» وهي عبارة عن سلاسل جبلية شامخة مليئة بالرخام والغرانيت. وفي قواعدها القاسية وإد خصب تتجاذب الحداثك كتل الصخور فيه، حيث يخرج من جوانبها التين والبرتقال والليمون، والورود والرياحين المتفتحة.

وعبر هذه الممرات الجبلية الموحشة القاسية تبرز أحياناً مناظر قرى أو مدن محصنة، وكأنها أعشاش النسور فوق المنحدرات وتحيط بهذه المدن أو القرى المواقع الحربية العربية - القديمة - أو البروج العالية المهدمة التي تشرف من القمم العالية. مما يعيد الذهن فوراً إلى الأيام الخوالي للفروسية في الحروب التي كانت دائرة بين المسيحية والإسلام، وخاصة في ذاك الصراع الرومانطقي حول إعادة فتح غرناطة. ويضطرك السفر في هذه السلاسل الجبلية إلى النزول عن حصانك أحياناً، لتقوده صعوداً أو نزولاً على ما يشبه الدرج المحطم. حيث يتسع الطريق حيناً ليضيق أخرى على هذه المنحدرات الخطرة. المليئة بكل أخطار الطبيعة واللصوص مما يشعر المسافر كأنه طريدة، فهو قد يكون تحت مراقبة أحد اللصوص في هذه اللحظة. أو أنه سيقع تحت حوافر حصان أو ثور أندلسي - ثور مصارعة - فيما لو ظهر الوادي فجأة أمامه. والتفكير بهذه الحيوانات الخطرة التي يمكنها أن تكون قريبة من متناولك. ومنظر هذه الثيران وهي تخفض رؤوسها على تلك المرتفعات الشاهقة الصخرية، يضيف على المنظر ككل مزيداً من الوحشة، خاصة وأنها لم تر وجه إنسان عدا رعيانها، وحتى هؤلاء لا يجروون على الاقتراب منها، لقوتها الهائلة المنفلتة في البراري.

ولعل قصدي اللاشعوري من هذا الوصف المطول هو الحديث عن العالم العامة للسفر بإسبانيا، غير أن هناك إضافة لكل هذا شيئاً رومانطيقياً حول هذه الجزيرة - الإيبيرية - يعجز الوصف عن تصويره.

ولأن الطريق إلى غرناطة يمر عبر مناطق جبلية، وممرات ضيقة لاتصلح إلا لقوافل البغال، فهو أفضل مكان للصوص وقطاع الطرق. وبوضع هذا الأمر في اعتبارنا رحنا نتقدم ببطء مما استغرق منا عدة أيام لقطعه. كما أننا لم نأخذ معنا إلا الضروري من الثياب والغذاء والمال لمثل هذه الرحلة، مع بعض الدولارات الإضافية لدفعها كخوة» لقطاع الطرق لإرضائهم. حيث أن المسافر الفارغ اليدين الذي يقع بين أيدي هؤلاء السادة سيء الحظ جداً. حيث يعتبرونه وكأنه يغشهم ويحتقرهم، فهم أولاً وقبل كل شيء لم يخاطروا - ضد القانون كي لا يحصلوا على أي شيء.

ولأجل هذا جهزنا عدة ركائب لأنفسنا، وأخرى لتاعنا، وأخرى للدليل الذي كان أيضاً يحرسنا، وهو في العشرين من عمره، يتمنطق سلاحه الذي وعدنا أن يدافع به عنا ضد كل معترض. ولكن عصابة قوية كعصابة «أبناء إيسيبما» أقر لنا بأنها أكثر من قدرته. ورغم إظهاره سلاحه لنا كي نراه، كان يتركه معلقاً دون ذخيرة خلف سرجه.

أما الذي استأجرنا منه الخيل فقد تعهد بنفقات إطعامها أثناء الرحلة، ورغم هذا التعهد ظل هو والخيل يعيشون على حسابنا، والمال بجيبه لا ينفق منه. ولكي نفوز بولائه لنا كان لابد لنا من تضييفه بعض «السيكار». وهو في الواقع إنسان ذو قلب طيب وسريرة جيدة، ومرح. عاملناه باللفة كاسبنيار حقيقي، وهو من طرفه لم يتخط حدوده.

تلك كانت تجهيزاتنا الأولية للرحلة. والأهم من كل هذا تمتعنا بروح المرح على أن نأخذ الأشياء كما نجدها، صعبة أو سهلة. لذلك كان زينا أشبه بزي قطاع الطرق، وكنا نختلط بكل الطبقات، ونواجه كل الظروف التي تواجه مثل هذا الاختلاط. وهذه هي الطريقة الصحيحة للسفر في إسبانيا. فبمثل هذه الإرادات صارت أسوأ الفنادق كأحسن القصور بالنسبة لنا، وشكلت كل وجبة نتناولها إنجازاً بحد ذاته. فالنكهة النفيسة للرومانطيقية الإسبانية القديمة هي في الطرقات الصعبة شبه المتوحشة مع الوجه الرحب المضياف.

بهذه التجهيزات تحركنا من ضواحي إشبيلية «فيرسفيل ستي» في الساعة السادسة والنصف من صباح يوم مشرق من أيام «مايو» يصحبنا سيد وسيدة من معارفنا سارا معنا عدة أميال، كما العادة عند الإسبان في إظهار ودهم لمعارفهم وأصحابهم. وهكذا سرنا في طريق «الكالا» - القال - بجانب نهر «آييرا» الذي يزود إشبيلية «سفيلا» بالماء. ومررنا بالمعامل التي تصنع «عيش الله» والمخبز الذي يزود المدينة بالخبز الشهى، ومعظم أبناء المدينة من الحرفيين الذين ينقلون بضائعهم إلى عملهم على قوافل من البغال.

وكذلك مررنا على الخزانات التي تزود إشبيلية بالماء من - القال - «الكالا» والتي بناها الرومان ثم العرب بدقة هندسية متساوية. مع ملاحظة أن ينابيع - القال - «الكالا» الحارة كالفرن تضيء على خبز إشبيلية - «سفيلا» نكهته الخاصة.

وعند هذه الينابيع توقفنا بعض الوقت في خرائب قصر عربي قديم، يعد مصيفاً للمدينة، حيث أمضينا وقتاً طيباً داخل فناء الضخم المعمد بالعمد والبقايا المهتمة، والمحاط بجدران عريضة جداً. بينما الرياح تعصف بالهضبة كلها، والتي تحفل بالزهور بألوانها الزاهية تحت أشجار البرتقال والليمون. وهنا سمعنا غناء العندليب على أفنانها.

والجسر الذي يقطع النهر الذي بنهايته الطاحون العربي التابع للقصر محمي ببرج مبني من الأحجار الصفراء، علقت عليه شبكة صيد لتجف، وقارب الصياد في النهر، وعلى ضفته تمر القرويات الحسنات بأثوابهن المزركشة، يبدو كالصورة، ويشكل موضوع صورة زيتية رائعة لرسام فنان.

ولعل الصفة الأساسية من صفات الريف الإسباني هو منظر الطاحون العربية القديمة، التي تنتصب دائماً على جداول الأنهار الأندلسية، مع ما يرافقها من بروج للدفاع، حيث يتمركز المحاربون في أيام الحروب المتكررة، وهي التي تدعو إلى تأمل ماضي هذا الريف، و تلك البلاد التي كانت دوماً عرضة للهجوم من قبل طرفي الحدود، والحاجة إلى الأبراج كملاجئ مؤقتة فيها.

وقد كان توقفنا الثاني في «الفاندول» حيث بقايا قصر عربي آخر مع برجه المصاحب والمطل على سهل «الكامبين» الخصب الفسيح، والذي يمتد حتى جبل «روندا» البعيد. إن هذه القصور كانت معازل قوية لحماية السهول من الغزوات والنهب الذي كانت تتعرض له المحاصيل والماشية التي تساق خارج الحدود.

وحين توقفنا في « الغاندول » لم نعرف الوقت بدقة، لأن الساعة العامة هناك تدق فقط مرة واحدة كل يوم فيما بعد الظهر بساعتين لذلك يخضع الوقت عندهم إلى التخمين. وبناء على هذا التخمين قررنا الغداء وطلبنا «الباستا» وبينما هي تحضر زرنا قصر المركيز في المدينة وهو خرائب عدا غرفتين أو ثلاث مسكونة ومفروشة بأثاث فقير، كذلك ظلت بقايا من سطحه «تراسه» الذي كانت تمشي عليه خطوات الفرسان الرشيقة، مع نسائهم الشقراوات، مع حديقة خربة بها حوض سمك وعريشة، وأشجار نخيل تحمل رطباً. وهناك لحق بنا مسؤول القصر وبيده باقة ورد جمعها وقدمها بلطف للسيدة التي ترافقتنا.

أما تحت القصر فالطاحونة وأشجار البرتقال على جدول ماء عذب فتفيانا ظلالها. ورافقنا بالجلوس عمال الطاحونة الذين تركوا عملهم للانضمام لنا، معبرين عن طبيعة الأندلسيين المستعدين للراحة دوماً. وقد كانوا بانتظار الحلاق الذي يزورهم أسبوعياً لهندمة لحاهم. وبعد قليل وصل الحلاق، وهو صبي في السابعة عشرة من عمره، يركب حمارة عليه سرج قال: إنه اشتراه بسعر معقول، حوالي دولار واحد يسدده في عيد القديس «جون» - يحيى - حيث - يجتمع لديه إلى ذلك الوقت مالٌ كافٍ لتسديد أقساطه.

وبينما كانت الساعة العامة في القصر تدق دقيقتها، كنا على وشك إنهاء غدائنا. فودعنا أصحابنا الذين رافقونا من إشبيلية وتركنا عمال الطاحون مع حلاقهم ليهندم لهم لحاهم. وركبنا باتجاه «كمبيننا» لنعبر السهول الواسعة المعتادة في إسبانيا، والتي ليس فيها لأشجار، ولا بيوت. حيث يتعرض المسافر فيها إلى المطر الغزير الذي لا مأوى ولا مفر منه، إلا بالعباءة الإسبانية التي تغطي الحصان وراكبه معاً تقريبا، والتي يزداد ثقلها كلما ابتلت وكانت كلما. تخف حدة غيمة ماطرة تعقبها أخرى، نراها وهي تتقدم نحونا ببطء. يعقبها لحسن الحظ فواصل مشمسة دافئة دفء شمس الأندلس، التي تسمح لعباءتنا أن تجف قبل أن تعود لتبتل ثانية ووصلنا إلى «الأرحال» بعد غروب الشمس بقليل، وهي قرية صغيرة بسفح الهضبة، مسلحة ومستعدة ضد اللصوص، ومنظر الغرباء أمثالنا يبدو لهم كشيء غير عادي، وخاصة حين دخولهم للقرية وبمرافقة مسلحين مغطين بعباءاتهم. تفحص مضيبي جواز سفري بدقة، وهو يملي على أحدهما معناه على ضوء فانوس خافت. حيث أن جوازي مكتوب بلغة أجنبية يصعب عليهم فهمها. لكن مرافقتنا الذي ساعدهم على الفهم ضخم من أهميتنا في أعين هؤلاء

«الإسبنيارد» بينما قمنا نحن بتوزيع «السيكار» عليهم ففزنا بقلوبهم جميعاً، وبسرعة صار كل الناس يرحبون بنا. امتلأت الغرفة التي كنا بها بالكراسي، وازدحمت بالراغبين بالتعرف على هؤلاء الغرباء الزوار المرموقين. وهكذا تناول قائد المجموعة الحارسة العشاء معنا. وهو رجل مليء بالحياة والمرح الأندلسي، وأخبرنا أنه كان في غزو لشمال أفريقيا، ثم أعاد على مسامعنا مغامراته بالحب والحرب بقصائد مقعمة، أضاف إليها مزيداً من التعبير بحركات يديه وعينيه البراقطين. اضاف بأن لديه قائمة بأسماء كل اللصوص في البلاد، وعرض علينا رجاله للمرافقة قائلاً: «إن واحداً منهم كافٍ لحمايتكم أيها السنيور. فاللصوص يعرفونني. ويعرفون رجالي. وحيث يظهر واحد منا يكفي لإشاعة الرعب في قلوبهم عبر كل «السييرا» فشكرناه على ما قدم، وأكدنا له بنفس أسلوبه بأننا وبحمائية مرافقين لن نخاف كل قطاع الطرق في الأندلس.

وبينما كنا نتبادل الأنخاب على ذلك سمعنا صوت «الغيتار» وطرقات الصنجات - التي توضع بين الأصابع - «كاستانيتس» مع صوت يغني أغنية شعبية. فقد فاجأنا مضيفي بأنه جمع في ساحة الفندق الذي انتقلنا إليه جميع هواة الغناء والموسيقى والراقصين في الحي المجاور، مما أعطانا شعوراً بالاحتفال الإسباني «الفستفال» الحقيقي. فوضعت كرسي بين مضيفي ومضيفتي تحت القوس الذي يحمل سقف الساحة وإزاء قائد الفرقة الموسيقية. بينما تناقلت الأيدي الغيتار، حتى وصل إلى إسكافي أظهر براعة بالضرب عليه، وهو يلتف بعباءة ضخمة، وراح يغني أغنية حب جميلة، جمال ملامح قسماته، موجهاً كلماتها إلى امرأة كانت حتماً على علاقة حب معه. وعقب على ذلك بأن قام يرقص رقصاً أندلسياً يسر المشاهد. إلا أن جمال ابنة مضيفي «ببتا» التي تزينت زينة خاصة للمناسبة فاق جمال كل النساء الحاضرات، وخاصة حين ملأت شعرها بالزهور. ورغم كل هذا الخليط من القرويين و المسلحين والجنود، فإن أحداً لم يتجاوز حدوده في المرح البريء.

فقدمنا للجميع الشراب على حسابنا، وكان الانسجام يستأهل صورة زيتية فنية. فالراقصون والجنود بنصف لباسهم الرسمي، والفلاحون بعباءاتهم من جهة، وذاك العجوز الذي يكتب على الضوء الخافت لمصباح كبير مصمم على غرار مصباح «دونكي شوت» - دون في يوتي - الذي لا يلتفت من جهة أخرى يشكل صورة فنية جميلة.

وفي صباح اليوم التالي من أيام «مايو» المشرقة غادرنا «ارهاال» - الأرحال - في الساعة السابعة صباحاً. والناس على بيوتهم يودعوننا، باتجاه السهوب الخصبة التي تبدأ في موسم الحصاد في الصيف تكتسي اللون البني فتعطي الشعور بالخواء والوحدة. وكمسيرة الأمس لم يكن في طريقنا لأناس ولا بيوت فالقرى في معازل الهضاب كأنها تركت تلك السهوب الخصبة لغارات العرب حتى الآن.

وعند الظهيرة وتحت ظل مجموعة أشجار نادرة في منتصف الطريق، حضرنا طعامنا محاطين ببقعة رائعة. من الأزهار البرية والعشب ذي الشذى. والعصافير تغني حولنا. وكانت زقاقنا مليئة بالخمير وجعبنا بالطعام لأننا كنا نعرف أننا لن نصادف أي مكان أوفندق نتزود منه بعد الأرحال فملاً مرافقنا خرج الدواب⁽⁴⁾ بكل أصناف الزاد الذي يكفي مدة طويلة.

وفرش المرافق أماننا الزاد على بساط الحشيش الأخضر وطيبه بلحم الخنزير الجيد الذي أحضرناه من اشبيلية. فتذكرت بهذه المناسبة أشعاراً قالها «دونكيشوت» ويعتبرها معظم الأسبان أنها قيلت في مناسبة تاريخية حقيقية، وحين تلوتها قال مرافقي: لقد حصل كل هذا في زمن بعيد ايها السنيور.

فأجبت: بزمن بعيد حقاً؟! حتى لأجرؤ على القول: إنه أكثر من ألف سنة، وأنا أنظر له نظرة شيطانية

ولأنني لم أضف أكثر من ذلك دخل السرور إلى مرافقي، هذا البسيط القلب الذي لايسره شيء أكثر من مقارنته «بسانكشو» - مرافق دونكي شوت - فهو يعجب بولائه لعمله، لذلك سمى نفسه بهذا الاسم طوال الرحلة.

وبعد الغداء فرشنا تحت الأشجار ورحنا في قيلولة «سيستا» على الطريقة الإسبانية، إلى أن أنذرنا الغيم وريح الجنوب الشرقي بالهبوب فتابعنا السير حوالي الساعة الخامسة إلى أن وصلنا إلى «اوسونا» وهي قرية قائمة بجانب هضبة، بل قصر خرب وكنيسة، ويعيش فيها حوالي خمسة عشر ألف نسمة. أما الخان فيها فمنظره متواضع غير جذاب به نزلاء تجمعوا حول الموقد - الشومينة - في

⁽⁴⁾ : والخرج هو اختراع عربي مصنوع من الجلد أو من القماش المتين وذو فتحات ضيقة، ويتدل على

جانبي الدابة تحت السرج أو فوقه أو خلفه

زاويته بسبب البرد الليلي. و المضيئة فيه امرأة مسنة جافة تبدو مثل «المومياء» وبينما نحن ندخله حدقنا الجميع على الطريقة الإسبانية في البخلقة، التي ينظر بها الإسبان إلى الغرباء. والتي كان يجب أن نقابلها بإبتسامة وتحية فرحة من جانبنا، لإضفاء جو التفاخر الإسباني. ثم جلسنا معهم وأشعلنا سيكارة لكل منهم، وبذلك تحقق لنا النصر الكامل. فأنا لم أعرف أي إسباني يرفض سيكارة مهما كانت درجته أو مكانته، لأن هذه الهدية لا يستطيعون مقاومة إغرائها، شرط أنك حين تقدم شيئاً - للإسباني - أن تهتم بأن لا تظهر عليه أي شيء من التعالي، فهو لا يقبل أي خدمة تقدم له على حساب كرامته.

وبمجرد أن غادرنا «اوسونا» في اليوم التالي دخلنا في «السييرا»، وهي مجموعة من السلاسل الجبلية، بها طرقات جميلة كاللوحات الفتية. لكن الدخول بطرقاتها الفرعية يضيف شعوراً بالوحدة، حيث علائم الجرائم هنا وهناك. كدليل على أننا نتقدم في مناطق قطاع الطرق. وتشتهر هذه البلاد الموحشة بسهولة وجبالها، بالخارجين على القانون «بانديتو». ومنذ القديم كان هنا يربض اللص «عمر بن حسان» في أيام المسلمين، في القرن التاسع ويفرض الجزية حتى على الخليفة في غرناطة. كذلك كانت هذه المنطقة مهد الثورات والانتفاضات أيام «فردناند وإيزابيلا» والتي كان يقودها «علي العطار» السيد - السيد - القديم للأقصى «لوكاس»، والذي كان والد زوجة أبي عبد الله⁽⁵⁾ «بابدول». آخر ملوك الأندلس من العرب الذي طرده «فردناند وإيزابيلا». ولذلك سميت هذه المنطقة بحديقة علي العطار. وهنا أيضاً كان «جوز ماري» الإسباني المشهور بقيادة العصابات يتخذ مكانه.

وخلال النهار مررنا عبر «فونتا لابيديرا» - نبع البيدر - بجانب بحيرة مالحة صغيرة لها نفس الاسم، وتعكس على صفحاتها الجبال البعيدة كالمرآة. حيث بدت معالم «أنتي كويرا» على أطراف سلسلة «السييرا» التي تخترق الأندلس، تلك المدينة القديمة ذات الشهرة الحربية الواسعة. وقد بدت كبقعة خضبة مؤطرة بإطار من حجار الجبال. ثم دخلناها بعد أن عبرنا نهراً صغيراً رقيقاً

(5) : التي قالت لزوجها قولتها الشهيرة: «ابك على ملكك بكاء النساء، لأنك لم تحفظه حفظ الرجال». كما ينسب هذا القول لأم أبي عبد الله، وقد وضعه الأدب العربي في بيت مشهور هو: ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال. - المترجم -

كجدول بين حدائق وأزهار يغرد فيها العندليب أغنياته المسائية. ومع حلول الظلام كنا على أبواب المدينة الإسبانية الصبغة والطابع في كل ما فيها. فكان كبار السن يعتمرون «المونتر» وهو غطاء رأس أصله للعيد وشائع الاستعمال في إسبانيا. بينما يعتمر الشباب غطاء رأس أصفر مستديراً على شكل قبعة، يلفها شريط فيبدو شكلها كالفنجان الموضوع بالصحن. أما النساء فلا زلن يعتمرن «الباسكويتا» ربما لأن الأزياء الباريسية لم تصلهن بعد وعبرنا شوارع المدينة لنصل إلى ساحة «القديس فرنارندنا ومنها إلى فندق رث غير معتنى به، لأن المدينة ليست على طريق المسافرين لذلك لاعناية بفنادقها. لكن غرف هذا الفندق نظيفة وطعامه وفير. ولذلك ذهب «سانكشو» إلى المطبخ كما كان يفعل خادم «دونك وفي الصباح الباكر من الرابع من «مايو» زرت خرائب القصر العربي هناك والذي كان قد بنى على أنقاض قلعة رومانية. وعلى أنقاض برج من أبراجه المتهدمة جلست لأنتمتع بمنظر الأرض المنبسطة أمامي والمزارع المليئة بالجمال والقصص الرومانطيقية الماضية. فأنا الآن في قلب البلاد الشهيرة بالتنافس الفروسي بين العرب والمسيحيين. وتنتمي المدينة التاريخية التي ذكرها المؤرخون في موسوعاتهم والتي من أبوابها خرج وتصارع الفرسان الذين كانوا من أرقى، وأرفع الرتب من الإسبان، مع نظيرهم من العرب خلال الحروب التي رافقت فتح غرناطة. والتي انتهت بمذابح مروعة على جبال «مالاغا» - ملقا - تاركة كل الأندلس في حداد. وكل هذا الآن مغطى بالحقول والأزاهير، حتى صخرة العشاق المتمطية في السهل، والتي القت ابنة السيد العربي وعشيقها نفسيهما عليها من اليأس، لازالت باقية.

وحين بدأ جرس الكنيسة التي تبدو تحتى من السفح يدق تراتيل الصباح في الهواء العذب بدأت أنزل نحو المدينة باتجاه السوق الذي بدأت تدب به الحركة والزحام، حيث تعرض البضائع وتباع الورود، فكل امرأة أو فتاة أندلسية لاتعتبر فستانها كاملاً دون وردة تزينه.

ولما عدنا إلى الفندق وجدنا صاحبنا «سانكشو» مع صاحب الدار وإبنيه المسلحين، يتحدث عن قصص «إشبيليا» الرائعة ويقابلها بما حصل في الماضي الأندلسي عندهما. وهنا أخبره مالك الفندق - أنه كان في المدينة بحرة في إحدى ساحاتها العامة إسمها «بحرة الثور» ماؤها يخرج من فم راس ثور محفور بالصخر وتحتة كتب:

EN FRENT DEL TORO SE HALLEN TESORO

أي : أمام الثور يوجد كنز. مما دفع الكثيرين إلى حفر البحرة، بجهد ضائع ولم يجدوا مالاً. إلى أن فسر أحد الأذكىاء الشعار بطريقة مختلفة، بمعنى أن الكنز في رأس الثور، فجاء ليلاً وكسر رأس الثور. فماذا تظنه وجد؟!

قال «سانكشو» : الكثير من الذهب والماس !!

فأجابه المضيف صاحب الفندق ضاحكاً مع أبنائه : لاشيء لقد دمر التمثال والبحرة فقط. وظلوا يقهقهون لأن القصة مشيت على «سانكشو» ومشيت عليه خدع الألفاظ فيها.

- فحملها «سانكشو» في نفسه دون أن يظهر ذلك - ثم تركنا «انتيكوبرا» في الساعة الثامنة صباحاً، وركبنا بمحاذاة النهر عبر حدائق الأوركيد التي تملأ الجو بالعطر، وتغريد العندليب، ومررنا بصخرة العشاق، ثم قطعنا خلال الصباح «أرشيدونا» - قرية أرشدونا - المحاطة هضبتها بثلاثة أبراج جبلية، وبها خرائب قصر عربي ويقطع القرية طريق معبد بالحجارة يسمونه : «الطريق الملكي للحقول» وكان علينا أن نجتاز هذه القرية نزولاً من الجهة الأخرى من الهضبة التي تربض عليها.

ومع الظهيرة كنا في حقول الزيتون في موقع مطل مددنا على أعشابه سباطنا، تاركين لسانكشو مهمة إعداد الطعام، وخیولنا لترعى بالقرب منه. وهو صامت خلافاً لعادته هذا الصباح منذ أن سخر منه صاحب الدار. ويهيء «الفورجاز» - الفالونج - بفخر من استطاع أن يضيف لزواته من كل أصناف طعام الفندق المختلفة من لحم خنزير ودجاج وخضراوات إضافة إلى عدة أرغفة وكمية من الفواكه والتين والزبيب والبندق، وخمر من «مالغا» - ملقة - وهو يسترجع بين الفينة والأخرى قصة بحرة الثور ويضحك قائلاً : لقد ظنوا أن سانكشو خدع في «الأنتكويرا» لكن «سانكشو» يعرف أين يجد الكنز الحقيقي !!

وبينما نحن كذلك برز لنا شحاذ يمشي وحيداً، وكأنه عائد من الحج، ومعه خبز رمادي عفن قديم، وبيده عصاه يتكئ عليها رغم أن الزمن لم يحنه بعد، إذ كان طويلاً منتصباً أكل الزمن منه بشكل متناسب. ويعتمر طاقية أندلسية مستديرة، وعليه رداء من جلد الخروف، ويلبس بنطالاً يصل إلى ركبتيه فقط من

الجلد، تحته شراب وصندل. وبذلك بدا لباسه القديم محتشماً. وحيانا بطريقة الطبقة الدنيا للإسبنيارد. لكن مزاجنا كان يمكنه تقبل مثل هذا الزائر، الذي يبدو كطالب صدقة مزيف. فأعطيناه رغيفاً سميكاً من الخبز، وقليلاً من خمر «ملقة» فتقبلها شاكراً بصورة مقتضية، ثم رفع الخمر إلى الضوء دهشاً قبل تذوقها، وجرعها دفعة واحدة، وقال: لقد مضى مدة طويلة قبل أن أتذوق مثل هذه الخمرة، إنها منعشة لقلب رجل عجوز مثلي. ثم نظر إلى الرغيف وقال: ليتبارك مثل هذا الخبز.

ثم وضعه في محفظة. إلا أننا طلبنا أن يأكل منه الآن!!

فأجاب: لا أيها السنيور، لقد كان عليّ إما أن أشرب الخمر أو أتركه أما الخبز فباستطاعتي أخذه إلى المنزل لأتقاسمه مع أسرتي. لذلك وبسبب هذا التعبير، وما تنم عليه نظراته التي لاحظها «سانكشو» قدم له وليمة على شرط أن يجلس ويأكلها.

فانتبذ مكاناً قصياً عنا، وبدأ يأكل ببطء وكرامة وأناة. دلالة على أن هذا الرجل العجوز يمتلك زمام نفسه، مما جعلني أعتقد أنه كان في رغبٍ سابق، إضافة إلى أن لغته رغم بساطتها تبرز بها صيغ شعرية عابرة في صيغة جملها. إلى حد أنني اعتبره فارساً حط به الدهر. والواقع أنني كنت مخطئاً، فكل هذا لم يكن إلا تعبيراً عن ذات كل إسبنيارد. إذ يمكنك أن تجد الرقة الشاعرية في أوضح الطبقات لهذا لشعب الحاد الذكاء. وهو حين أخبرنا أن مهنته كانت منذ خمسين سنة رعي أغنام، لكنه الآن عاطل عن العمل - تداركت خطأ حكمي السابق عليه - ثم أردف قائلاً: لم يكن أي شيء يؤذيني أو يزعجني لما كنت يافعاً، لذلك كنت دائماً مرحاً وأشعر بالرضا. ولكنني وقد بلغت التاسعة والسبعين بدأ قلبي يخذلني فصرت شحاذاً.

وعرفنا أنه لم يكن يشحذ دائماً، بل يشحذ حين تجبره الحاجة على مثل هذه المهانة، كما أعطانا انطباعاً يدل على الصراع في نفسه بين الجوع والكرامة. خاصة عندما تعرض الأشياء عليه لأول مرة. ولأنه كان عائداً من «مالطا» بدون مال، ولم يذق طعاماً منذ زمن، وهو يعبر أوسع سهول إسبانيا الخاوية تقريباً. من السكان، وإزاء مشارفته على الموت - شحذ - . وأخبرنا أنه حين شارف على الموت، طرق باب خان سائلاً أصحابه أن يعطوه من مال الله. ولما كان الجواب

الإسباني رفض كل شحاذة، قال: لكرامة قلبي - ونفسي - علي اقتربت من نهر عميق وكدت أرمي نفسي فيه . فما قيمة العيش لرجل عجوز لا قيمة له مثلي؟! ولكنني عندما كدت أندفع في التيار، فكرت بمريم المذراء، فعدت أدراجي؟! واستمررت بالسير حتى رأيت معالم قرية بعيدة قليلا عن الطريق، ودخلت من الساحة إلى بوابة الدخول التي كانت مغلقة. فأغلق الشباك في وجهي. مما اضطرني إلى العودة إلى الساحة وقد غلبني الجوع وإنهار قلبي. حتى ظننت أن ساعتني قد أزفت. فاستلقيت أمام الباب مسلماً نفسي للعذراء ومغطياً رأسي استعداداً للموت. وبعد قليل ظهر سيد المكان عائداً إلى بيته. فرآني مستلقياً أمام البوابة، فرفع الغطاء عن وجهي. وأشفق على شيبتي. وأدخلني إلى منزله. وأعطاني طعاماً. وهكذا ترون أيها السادة أن على الإنسان أن يشعر دوماً بمريم العذراء؟!!

لقد كان هذا الرجل العجوز في طريقه إلى مسقط رأسه «أرشيدونا» - أرشدونا - التي كانت تبدو على المنحدر من ذاك الجبل القاسي. فإشار لنا إلى خرائب قصرها، وقال: ذاك القصر كان مسكوناً بملك عربي أيام الحروب في غرناطة. وغزته الملكة «إيزابيلا» بجيش كبير. فنظر إليها الملك العربي من عليانه وسخر منها. فظهرت العذراء للملكة أثناء ذلك، وقادتها وجيشها بطريق سري لم يكن معروفاً من قبل عبر الجبل وعندما رأى ملك العرب جيشها أمامه اندهر وقفر بحصانه من قمته. فوقع إلى الأرض قطعاً. وعلائم حوافر حصانه يمكنك رؤيتها على هامش الصخر إلى هذا اليوم. وكما ترى أيها السنيور فإن ذاك الخيط الذي يبدو كالشريط على جانب الجبل. هو الطريق الذي عبره جيش الملكة والمعجزة هي أنه رغم إمكان رؤيته من بعيد. فهو يختفي عندما تقترب منه؟!!

وهذا الطريق المثالي الذي أشار إليه. كان بلا شك حزاماً من حول الجبل. لا يعود منظوراً حين الإقتراب من الجبل بسبب نتوءات الصخر. لكنه يتضح حين الاقتراب أكثر.

وبعد أن لعبت الخمر بقلب هذا العجوز، راح يخبرنا عن قصة الكنز المدفون الذي تركه الملك العربي في ذاك القصر. وكيف أنه لقرب منزله من القصر سمع صهره في إحدى الليالي - وقع معاول الخوري ونائبه اللذين عرف فيما بعد أنهما رأيا الكنز في الحلم ثلاثة أيام. لكن أحداً لم يعرف ماذا وجدوا. إلا أن المعروف هو أنهما أصبحا أغنياء فجأة، دون البوح بسرهما لأحد. وهكذا أكد لنا هذا الشحاذ

أنه كان جاراً قريباً من ثروة ضخمة في يوم من الأيام. لكنها قدر لها أن لاتكون تحت سقفه.

و نلاحظ أن قصص الكنز المخفي من أيام العرب شائعة في كل اسبانيا، وفي كل مكان فيها، ومتداولة بين الطبقات الفقيرة جداً. ومثلهم في ذلك مثل الرجل العطش الذي يحلم بالماء والبحيرات، والجائع بالطعام، كذلك يحلم هؤلاء الفقراء بالذهب المخفي، ولا شيء أكثر سعة في تخيل مثل هذه الأمور من خيال الشحاذين.

تابعنا مسيرنا، بعد ظهر هذا اليوم نحو جبل منحدر عاس وكثير الشعاب يسمى طريق الملك، والذي يعتبر أحد أهم الممرات نحو غرناطة، وهو نفس الطريق الذي عبره جيش «فردناند» باتجاهها. ثم أخذ الطريق بالاتساع مع تقدمنا وحلول المساء فرأينا «لوكاسا» - الأقصى - تلك المدينة الحدودية التي ردت «فردناند» عن أسوارها، ولأن اسمها العربي هو : «الأقصى» فهي تعني البعد الأخير، وتعني «القدس» أو الحامي. فهي حقل غرناطة وإحدى حامياتها المتقدمة. وقد كانت في تلك الأيام معقلاً للمقاتل الناري «علي العطار» هو أبو زوجة «ببدول» - عبد الله - حيث جمع جنوده هناك وظل يقاتل بهم - بعد سقوط غرناطة - حتى أسر هذا السيد - السيد - وقتل صبراً. فالأقصى لم تقبل بتسليم مفاتيح غرناطة لأنها هي البوابة الحقيقية لها، وموقع القيادة نحو الممر باتجاهها. ومنظرها كلوحة مرسومة على جبل قاس يزيد بهاء قلعتها الداخلية التي تبرز من وسط المدينة. أما النهر الذي يتمسح بأقدامها، ويعصف بين الصخور والمنحنيات نحو بساتينها فعليه جسر بناه العرب. أما كل مافوق المدينة فعار من الأشجار وموحش وقاس. وعلى التقيض منه بساتينها الوارفة فوق كسل تصور، والنهر هو الذي يفصل بين هذا الاختلاف المتعارض بين مافوق الجسر وماتحته من حدائق وجنات، ويسير بانحدارات مائية ذات خرير آخاذ. ويمثل الحدود الأخيرة لهذه الأرض المتنوعة، والأكثر رومانطيقية في اسبانيا - الأندلس - الجبل الملكي لغرناطة والمعمم بالثلوج، «السييرا نيفادا» - السير النافذ -.

وحين ترجلنا على مدخل المدينة، وأخذ «سانكشو» الخيول ليضعها في الخان، بدأنا بالتجول في هذا الحصن على صوت دقات جرس الكنيسة. الذي يؤذن بوداع يوم العمل، ومعه بدأ الناس برفع قبعاتهم تهيؤاً للصلاة المسائية. كعادة تلاحظ في كل اسبانيا ناتجة من ذاك الخضوع العنيف للكنيسة، وخاصة في

الأماكن النائية منها. ومع ذلك كان مشهداً مسائلاً جميلاً الغسق، يشير إلى بداية ظهور القمر اللامع بين ذرا النخيل. ولم ينبهنا من هذه المتعة الهادئة سوى صوت صاحبنا المتقطع الأنفاس الذي اندفع يبحث عنا وهو يقول: سيدي إن سانكشو لايساوي شيئاً دون دونكه شوت. فقد أقلقه عدم عودتنا إلى الخان - الفندق - بمثل هذه المدينة التي فيها الكثير من قطاع الطرق والدخلاء، فالأقصى مشهورة بوحشتها هذه، وهو لم يعرف ماذا يمكن أن يكون قد حصل لنا. لذلك انطلق يبحث عنا سائلاً كل انسان يصادفه، حتى تتبعنا عبر الجسر فلمحنا عبر الظلال !!

وعدنا معاً إلى النزل الذي دلنا عليه والذي لازال يحمل روح الأمس باسمه «كورونا» أي التاج. وكانت مضيقتنا أندلسية يافعة جميلة. أرملة تتشح بمئزر أسود يزيد شكل جسدها بضاعة واستدارة، تخطر بقوام رشيق ونظرات تشع نارا من عيني سوداوين. ودلها وغنجها يدلان على أنها اعتادت نظرات الإعجاب. ولها أخ بعمرها تقريباً يبدوان كأندلسيين حميمين. وهو طويل حسن البنية حاد الملامح غامق البشرة والعينين، وبذقنه طابع جميل، يلبس جاكيتاً أخضر وردياً مزينا بأزرار فضية يلائم شكله، ويضع بكل جيبة من جيوبه محرمة بيضاء متدلية، مغلقاً كل أزراره حتى الرقبة، حيث يطوقها بمحرمة أرجوانية معقودة بخاتم، كوردة تخرج من قميصه الأبيض. ويتزنى بزنا ملامح من القماش حول وسطه من الجلد الفاخر الذي صنع بدقة وأناقة متناهية. وتحت بنطاله حذاء أنيق، يظهر قدمين متناسقين.

بينما كنا نقف معه على الباب، وصل فارس وراح معه بحوار حميم بصوت منخفض، وكان هذا الفارس بزي مشابه له. وبأناقة متقاربة. وهو رجل في الثلاثين من عمره تقريباً، مربع القامة مكتنز البنية، ذو ملامح رومانية بها جمال، وتبدو عليه علائم الجرأة والصراحة. ويعطي مع حصانه الأسود القوي المزركش بطرر جميلة متراقصة، مع بندقيته القصيرة ذات الفوهة الواسعة والمعلقة خلف سرجه، سمة هؤلاء اللصوص الذين رأيتهم في جبال «روندا». وقد كان واضحاً تفاهمه مع شقيق مضيقتنا، فهو إن لم أخطئ محظي لدى الأرملة. إن الفندق ككل يوحي بأنه مأوى لقطاع الطرق هؤلاء، فالبنادق ذات الفوهات العريضة تنتصب في الزاوية قرب الغيتار. الذي استعمله الفارس ليقضي الأمسية وهو يغني أغان جبلية رومانطيقية. وبينما كنا على العشاء جاء رجلان من

«أستوريا» معريان من ثيابهما وكل أموالهما لتعرضهما لقطاع الطرق الذين سرقوا خيولهما وكل تجارتهم، يطلبان الطعام والمأوى وأثار الضرب عليهما نتيجة محاولتهم المقاومة. ونتيجة للكرم المتأصل بمرافقي الأمير الروسي، أمر لهما بعشاء وغرفة، وأعطاهما بعض المال كي يعودا إلى ديارهما.

ومما زاد الجو ثقلًا على هذا العشاء، دخول رجل في الستين من عمره ذي ملامح تدل على القوة، وبدأ بالتحرش بمضيفتنا، بخيلاء هشة وكل واحد من الحضور ينظر إليه نظرة مختلفة. وكان أندلسي الزي، ذا شاربين كبيرين ويتأبط سيفاً رفيعاً.

وهمس «سانكشو» لنا أن هذا هو: «دون فنتورا رود ريغوس» بطل الأقصى والشهير بقوة ذراعيه. الذي فاجأ أيام الغزو الفرنسي ستة جنود نيام بسكينة، فقتل بعضهم وأسّر بعضهم الآخر، وغنم خيولهم، مما سر الملك، فأعطاه معاشاً قدره دولار يومياً مع لقب «دون Don» المشرف.

وقد كان هذا يفترض فيه أن يكون مؤدباً وحسن السلوك والتصرف. لكنه كان وقحاً يحمل سيفه الرفيع كما يحمل الطفل لعبته، ويسميه قديسته «تريزا» ويقول: عندما أمتشقه تهتز الأرض؟!!

وقد اختلط هؤلاء الناس المختلفون حسب الطبع الإسباني، فجلست إلى وقت متأخر أسمع من كل هؤلاء. وهكذا حصلنا على أغنيات قطاع الطرق، وقصص السرقات، وحروب العصابات وذكرى أساطير العرب. أما المسحة الشعرية لقصص «الأقصى» التي يؤكد الناس أن بها كنوزاً في مغارة أغلقها ملك العرب ولم تعرف إلى الآن، فقد أعطتها سيدة جميلة بجو من الغموض زادت أصوات خريز الجداول.

وهكذا عدت إلى سريري مفعماً بتصورات قصصية مما سمعته ورأيت في هذه المدينة المقاتلة. وعلى هذا الشعور من الرهبة نمت لأصحو فجأة على صوت زمجرة مروعة، تخيف حتي البطل «لامنشا» نفسه، ورغم ما عرفه من الفئادق الإسبانية المليئة بالضجة دائماً - كان ذلك يفوق الحدود. إذ بدا للوهلة الأولى كما لو أن العرب قد عادوا إلى المدينة، أو أن ما أخبروني به قد أطلق من نطاق الخيال إلى الواقع. فنهضت نصف عار زعراً، لأتبين أن ليس في الأمر أكثر من أن رجلاً

عجوزاً قد فاز بليلة دخلته على عروسه . فتمنيت له السعادة عائداً إلى هدوء سريرى لأنام بعمق حتى الصباح .

وحين صحوت في الصباح لأرتدي ثيابي . لمحت من الشباك جماعة من الشبان الأندلسيين بأزيائهم المهندمة الجميلة ، ويتمشون بعباءات بنية على النسق الإسباني التي لا يمكن صنع مثيل لها . وعلى رأسهم القبعات الفريدة «ماجيوها» ، وملامحهم تشبه أولئك الذين صادفتهم في جبال روندا . لأن الملامح والصفات في هذا الجزء من إسبانيا متشابهة . وهم يجوبون الطرقات كمن لديه كل الوقت والمال الكافي - للبطالة - ، وتحتهم خيولهم ويدهم أسلحتهم . من بنادق طويلة وأخرى ذات فوهات عريضة ، وغيتاراتهم التي يغني بعضهم عليها أنغام «البوليرو» الشهيرة . فال فراغ الطويل الذي يتمتع به كل الأسبان مرسخ عندهم كصفة من صفات الفروسية ، فعلى الفارس دائماً أن لا يظهر في عجلة من أمره . أما الأندلسيون فيزيدون على ذلك صفة المرح ، وعدم ادعاء أي مثالية . كذلك تبرز عند قطاع الطرق عندهم من الأماكن الجبلية حتى حدود الأندلس الصفات - المورفولوجية - الغالبة .

لكن على العكس من منظر هؤلاء كان هناك اثنان من «فالنسيا» ذوا سيقان طويلة يسوسان حماراً ، محملاً ببضائعهما . ويعلقان بنادق طويلة على ظهريهما ، استعداداً للدفاع ، ويلبسان جاكيتات مستديرة «جاليكوس» من الحرير القطني تصل إلى الركبتين وكأنها فستان امرأة . وحول وسط كل منهما شلة حمراء . وينقلون الصنادل ، وعلى رأس كليهما منديل ملون يشبه العمامة يترك قمة الرأس مكشوفة . أي بصورة موجزة يبدو مظهرهم بمجمله مظهر أعربياً .

ثم غادرنا «الأقصى» بمرافقة فارس مسلح يعمل رئيساً لقسم الجمارك ، ومهمته مرافقة وحراسة الطرق من الخارجيين على القانون ، ومعه حارس يسير على قدميه ، حيّاناً وتركنا نغادر . وخلال ركوبنا معه علمت منه كيف يتحول المهربون إلى فرسان في إسبانيا . قال : جاؤوا إلى الأندلس من أماكن مختلفة ، وخاصة من «لامنشا» - المنشأ - ليهربوا البضائع عبر خط «البلازا» أو عبر جبل طارق . وينزلون أحياناً من السفن التي ترسو في ليلة محددة على الشاطئ . وهم دوماً يسيرون مع بعضهم البعض ، ويسافرون ليلاً . أما في النهار فينامون بهدوء في الأجرار ، أو في شعاب الجبال ، أو في البيوت المهجورة ، أو عند الفلاحين الذين

يرحبون بهم بسبب ما يقدمون لأسرهم من مهربات، فمعظم أدوات التجميل والزينة لدى نساء القرى الجبلية والسهول. هي هدايا من هؤلاء المهربين.

وفي الوقت الذي يفترض أن تلاقيهم السس يصلون إلى أماكن معينة على الشاطئ، ويرصدون قدوم السفن من الشعاب الصخرية والمرتفعات. فإذا قرروا النزول إلى البحر بعد إشارة ثلاثية من السفينة، ينزلونه فرادى، ويقومون بعملهم بسرعة حين تقترب السفينة لإنزال المهربات على شكل حزم صغيرة يسهل وضعها على الخيل. ثم يتحركون بسرعة بعد التحميل إلى الجبال. ليسافروا عبر أصعب الطرق الموحشة، حيث تصبح مطاردتهم مستحيلة تقريباً. لذلك لا يلاحقهم رجال الجمارك، بل يكمنون لهم في طرق أخرى. فإذا عرفوا بوجودهم تكمن لهم قوة من اثني عشر فارساً وثمانية مدافع في مكان توقع نزولهم من الجبل نحو السهل. وبعد أن تمهلهم المدفعية حتى يبتعدوا عن الجبل، تمطرهم بقذائفها. فإذا حاولوا العودة تظهر لهم كمائن الفرسان. وهنا يحصل قتال حقيقي قد يضطر فيه المهرب إلى النزول عن حصانه وإطلاق أحماله لإعاقة الهجوم. والنجاة بنفسه. ومن ينجو يفقد متاعه، ومن يؤسر يؤسر مع كل شيء. وهنا صاح «سانكشو» الذي كان يسمع هذا بأذن نقدية: بعد ذلك يجعلونهم لصوصاً شرعيين.

فضحكت على هذه الشرعية في قطع الطريق التي أشار إليها «سانكشو» لكن رئيس الجمارك أكد لي أن هذا ما يحصل فعلاً. فعند تضيق الخناق عليهم يصبح من حقهم قطع الطريق. فيضعون الجزية على المسافرين. كتعويض يمكنهم من تجهيز أنفسهم ثانية. وعلى هذا النحو يتحول المهرب إلى قاطع طريق.

وعلى هذا ودعنا مرافقنا وتابعه حوالي ظهر ذاك اليوم. وبعد قليل خرجنا من الجبال، ودخلنا وادي غرناطة الشهير. حيث قضينا الظهيرة بالاستراحة تحت شجرة الزيتون محاطين بالزهور وقد كنا ببقعة معروفة تقليدياً. فبالقرب منا بستان «سوتو دي روما» الذي أشاده كما تقول الاسطورة الكونت «جوليان» ليسلي ابنته «فلورندا». ثم صار منتجاً ريفياً لملك غرناطة العربي. وهو الآن إقطاع للدوق «أوف ولنغتون»⁽⁶⁾. وبمسحة أسى من وصل إلى غاية رحلته الاستكشافية هذه قال مرافقنا: مع فرسان مثلكم يمكن السفر إلى أقاصي المعمورة. مبدئياً بعد ذلك بعض البهجة لإشرافه السعيد على هذه الرحلة. وكان النهار صحواً تلطف حرها جرة

(6) : القائد الإنكليزي الذي هزم «نابليون» في معركة «واترلو» الشهيرة - المترجم -

الشمس فيه الرياح القادمة من الجبال، التي تحرك أمامنا وادي «فيغنا» المجيد. حيث من البعد تبدو غرناطة الرومانطيقية محاطة بأبراج قصر الحمراء، وفوقها إكليل من الثلج على سفوح جبال «سيرانيغادا» - السير النافذ - يشع كالفضة.

وهلى الأغطية التي فرشناها أخذنا قيلولة يهمل لنا فيها أزيز النحل على الورود، وهمهمة الحمام فوق أشجار الزيتون، إلى أن مرت الهاجرة وتابعا رحلتنا. لنصادف بعد قليل من السير رجلاً سميناً كالضفدع يركب بغلاً، دخل «سانكشو» في حديث معه. وحين تأكد أننا غرباء دلنا على مكان استراحة، مدعياً أنه مكاري⁽⁷⁾ وأنه يعرف المدينة كراحة يده، وقال: «أي مدينة سوف ترى أيها السنيور؟ بطرقاتها وساحاتها وقصورها، والبناء؟ أي نساء بحق «سانتا ماريا». فقلت له - مقاطعاً: «ولكن الاستراحة التي نتحدث عنها، هل أنت واثق من جودتها.

جيدة! ! بحق «سانتا ماريا» هي الأفضل في غرناطة بصالوناتها وحدائقها الفخمة، وغرفها الرائعة وأسرتها المفروشة... ستكون أيها السنيور مثل الملك «شيكو» في الحمراء.

وهنا سأله «سانكشو»: كيف ستطعم جيادي؟ فأجاب: مثل جياد الملك «شيكو» تنال الحليب والشوكولاتة على إفطارها؟

ولأننا لانرغب فيما نتجه اليه بأكثر من شبه هذا التقدير الجيد ركبنا بهدوء، والدليل يدلنا ويلتفت إلينا بإعجاب إزاء كل مشهد نقرب منه.

وبمثل هذا النوع من المرافقة، عبرنا حقول التين الهندي والزنجبيل. في برية الحدائق التي تحف بالوادي من كل جانب. ومع الغروب كنا على أبواب المدينة. ودليلنا الصغير - القصير - هذا يقودنا عبر الأزقة، حتى وصل إلى ساحة الفندق، وكأنه وصل إلى داره، فحيا صاحب المكان باسمه المسيحي. وادعى أنه تركنا بعنايته كفرسان نستحق كل تقدير، مؤكداً ومذكراً بأن العادة هي مصاحبة السادة أمثالنا بالزفة والأبواق من مضيف ومضيعة الفندق، مع ترجمان خاص للمرافقة على نفقتهم. وهنا قال صاحب الفندق: «إنكم لاتعرفون ماالذي حصلتكم عليه؟» فهذا المرافق الذي معكم كنز يجب أن تحافظوا عليه، فهو عجيبة من عجائب

(7) : الرجل الذي يؤجر الحمير للركب.

الدنيا الثمانية، فالسنيور «جيل بلاس» يستحق أن يخدمه كل شيء في هذا المكان
كأمير؟!

لكننا من جهتنا قررنا أن لا يبقى هذا المكاري على حسابنا دائماً، واكتفينا
بدعوته فقط على العشاء، حتى لا نبذو كناكري جميل. وتأكد حدسنا عند الصباح
عندما اكتشفنا أن هذا المكاري الحقير الذي هو قطعاً صديق صاحب الفندق، قد
دلنا على أكثر فنادق غرناطة فوضى وسوء ترتيب.



قصر الحمرا

إن قصر الحمرا هو كعبة زوار إسبانيا، من الذين ينشدون رؤية الجانب التاريخي والشعري الرومانطيسي لتلك البلاد. فكم من أسطورة وتقليد صحيح ووهمي، وكم من رقصة وأغنية عربية وإسبانية حول الحب والحرب والفروسية، مرتبطة بهذا الركن التاريخي. فهو سرير ملك العرب هناك، المحاط بالروائع والعجائب من أفخم ما صنعت يد الفن الجميل. بهدف تشخيص وتكريس تصور الجنة السماوية عند المسلمين في إمبراطوريتهم الإسبانية. والقصر الملكي يشكل جزءاً أساسياً من حصن الحمرا في غرناطة. وهذا الحصن تمتد جدرانها بأبراجها المرتفعة على امتداد الرابية - المظلة على البلد - بشكل مواز ومناظر لسيرا نيفادا وثلوج جبالها. ويطل على المدينة من جهة أخرى ملاحقا الهضبة بانحناءاتها غير المنتظمة، فيبدو من ظاهر عمارته الخارجية أقل بكثير من انطباع العظمة والجمال بداخله.

وقد كان هذا الحصن في أيام العرب يستوعب جيشاً لا يقل عن أربعين ألف مقاتل. يقومون أيضاً باخضاع رعايا المدينة في حال ثورتهم. وظل قصر الحمرا قاعدة للملك النصارى بعد أن خضعت المدينة لهم، فسكنه العديد من الملوك القشتاليين، مثل الإمبراطور «شارل الخامس» بما بناه من قصر خاص له داخل هذا القصر، ولم يتمكن من إنهائه بسبب الهزات الأرضية المتعاقبة. ولعل آخر سكان قصر الحمرا من الملوك، كان «فيليب الخامس» وزوجته الجميلة «إليزابيث أوف بارما» اللذين سكناه في مطلع القرن الثامن عشر. حيث أُعيدت تأسيسات ضخمة لاستقبالهما، فأعيد إصلاح القصر وحدائقه، وبنيت ملحقات جديدة، وأُثنت بآثار صنعه فنانون من إيطاليا، رغم أن إقامتهما كانت عابرة وقصيرة. ثم خلا القصر بعد رحيلهما وأقفر ثانية. لكنه ظل تحت الصيانة العسكرية. وبعد ذلك استلمه المحافظ من التابع، وامتدت الأوقاف الملحقه به إلى ضواحي المدينة، فظل مستقلاً عن الحاكم العسكري لغرناطة رغم بقاء حامية عسكرية لأبأس بها فيه. وهكذا صار للمحافظ شقة فيه، توجد في مواجهة القصر العربي، وكان المحافظ لا ينزل إلى المدينة بدون مرافقة عسكرية، خاصة وأن الحصن بحد ذاته كناية عن مدينة

صغيرة، فيها عدة شوارع وبيوت داخل أسواره، إضافة إلى كنيسة صغيرة وبيت عبادة لرهبان «الفرنسيسكان».

وهكذا هجر القصر داخل الحمرا فكان هجره ضربة فاتلة لها، حيث بدأ الخراب يدب في قاعاته الجميلة إلى حد تداعي بعضها، كما دوت حدائقه، وتوقفت نوافير بحراته عن التراقص. وظلت القلعة ككل مفتقرة إلى السكان إلى حد ما. مما مكن المهربين واللصوص من دخولها والاختباء بها. بعد أن يقوموا بعملياتهم في النهب من غرناطة وجوارها. ومع الانتقال التدريجي للحامية والحكومة منها، لم يبق لها كساكن رسمي ذي حق بسكنها إلا القليل من أصحاب هذا الحق، وبذلك زال قسم كبير من البيوت الملحقه بالقلعة في داخلها، والذي بقي منها أهل. وأهملت الكنيسة و«الفرنسيسكان» معاً. ثم تحولت الحمرا خلال الأحداث الأخيرة مع الاحتلال الفرنسي إلى معسكر لجنودهم. فسكن القصر قادة فرنسيون، حافظوا على هذا الأثر العربي من الزوال النهائي الذي بدا شبه محتم، حسب طريقتهم المعهودة في الأماكن التي يحتلونها. فأصلحوا السقوف وحملوا الصالونات وأثاثها من عوامل الجو، وزرعوا الحدائق، وأعادوا تجهيز برج

المراقبة، وهكذا عادت نوافير القصر للتراقص، فعلى إسبانيا أن تشكر غزاتها، لأنهم حفظوا لها أجمل وأهم أثر من آثارها.

لكنهم حين رحلوا نسفوا بعض الأبراج في الحصن الخارجي، دون أن يعني هذا أنهم لم يتركوا الحصن قابلاً لأن يحتفظ به ككل. بل يعني أن الحصن لم يعد مركزاً عسكرياً. لذلك صارت الحامية التي فيه قليلة. هدفها الأساسي حراسة بعض الأبراج التي تستخدمها الحكومة كسجن. وهجر المحافظ هذه الرابية وقصرها وسكن في قلب المدينة لإنجاز مهامه الرسمية بطريقة أكثر عملية. وأنا لن أنهي هذه الملاحظات السريعة دون أن أشير وأشهد للقائد المعاصر لهذا الحصن النبيل «دون فرانسيسكو دو سرن» الذي يوظف كل الإمكانيات القليلة تحت يده لترميم القصر بصورة دائمة. فيقظته وحذره وحدهما يحميان هذا المكان من التداعي، تماماً كما فعل أسلافه بإخلاص مثابه. لذلك يمكننا القول: إن الحمرا اليوم مكان لا زال يحتفظ بجماله الأصلي. والقابل لأن يحفظ لأجيال قادمة ستعجب به، وبأرض ستجذب فضول المثقفين من كل مكان.

وصبيحة يوم وصولنا كان أول موضوع لنا طبعاً هو زيارة هذا المكان الواقف ضد الزمن، الذي نال دقة وصف زواره من الرحالة، الذين لن أسهب في الحديث عنهم، بل سأرسم مغالماً انطباعاتهم التي تركوها عن هذا المكان.

فتركنا مكان إقامتنا، وعبرنا ساحة «فيفا رامبلا» التي كانت في يوم من الأيام مسرحاً للفرسان العرب بزينتهم الخلاب، وصارت الآن سوقاً مزدحمة، وتابعنا نحو «زاكاتين» - الزقاقين - الذي كان أيام العرب الطريق الرئيسي لسوق المدينة المسقوف - بازار - والذي فيه إلى الآن متاجر صغيرة، وزواريب ضيقة تسمه بالطابع الشرقي. ثم عبرنا قصرًا مفتوحاً خلف قصر الحاكم العسكري، ونزلنا بشارع واسع ذكرنا اسمه «كالي» - قال لي - بفرسان غرناطة. و«التالي» أو «القوالون» أسرة من المغنين العرب نسب المكان لها. وهو طريق يقود إلى «بيوتادي لاس غرانادا» وهي بوابة ضخمة مبنية على الطريقة الهندسية الاغريقية، بناها «شارل الخامس» لتشكل المدخل الرئيسي للحمرا.

ويحرس هذه البوابة عدد من الجنود كبار السن يجلسون محملقين بالأحجار، بينما يقف غلام طويل يتشح عباءة قديمة تحتها ثياب أقدم، ويثرثر مع أحد الخفراء. وبمجرد دخولنا البوابة عرض علينا خدماته السياحية ولازمنا.

أما من جهتي فقد كنت أمقت المتسكعين الرسميين . لذلك لم يعجبني عرضه بعضه على بعض . فقلت له : إنك تعرف القصر على ما أفترض؟!

أجاب لأحد يعرفه أكثر مني . أنا ياسيدي ابن الحمرا!! والواقع أن لدى الإسبنيارد طريقة مقنعة لإظهار مآلديهم . فكلمة : ابن الحمرا!! استولت علي مباشرة ، ورفعته في عيني . إنه حتماً يعرف كل خرائب الحصن . لذلك حين سألته المزيد من الأسئلة وجدت أن إجاباته مقبولة . فأسرتة قد عاشت في الحصن جيلاً بعد جيل منذ أيام فتحه . ولأن اسمه «ماتيو كزيمنس» قلت له : ربما أنت من سلالة «غرا دينال كزيمنس» الشهير؟! فأجاب : الله أعلم أيها السنيور . قد يكون هذا؟! لكننا أقدم أسرة من المسيحيين في الحمرا بدون أي أصل عربي أو يهودي . وأعرف أننا ننتهي إلى أسرة عريقة الأساس لأعرف من هي . لكن أبي يعرف ذلك ، فعنده درع معلق في كوخه الصغير في الحصن .

إن كل إسبنيارد يدعي كرم المحتد مهما كان وضعاً أو فقيراً . وهذا الأشعث الأغبر قد التقطني بعبارة : ابن الحمرا . فقبلت خدماته بسرور . وهكذا اتجهنا عبر زقاق ضيق مليء بالزهور . ومرصوف بالحجارة ، يتسع في أماكن بها «فستقيات» تخرج منها النوافير المائية . وعلى يسارنا برج الحمرا . ونحن نمر تحت أبراج أحاطت بنا بعد ذلك . والتي علمنا أن اسمها أبراج «فرميليون» ولا أحد يعرف من أسسها قبل بناء الحمرا . ويفترض البعض أن الرومان كانوا قد بنوها . بينما يعتبرها آخرون مجرد بقايا مستعمرة «فينيقية» . وبعد نزولنا عبر زقاق منحدر وصلنا إلى ساحة برج عربي — مراكشي التصميم يمكن المرور عبره إلى المدخل الرئيسي للحصن . حيث هناك أيضاً مجموعة أخرى من الحراس المجندين عديمي الأهمية . يمتطي أحدهم حصاناً للحراسة . بينما يلتف الآخرون بعباءاتهم وينامون على صخور مجاورة . وتسمى فرقة الحراسة هذه : حراس باب العدالة . وهم من عماداتهم وزيتهم الموروث منذ الفتح الإسلامي إلى اليوم يشبهون العرب . وفوقهم نقش الآية الكريمة : «إذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل» .

أما القوس الكبير فوق البوابة فهو على شكل قوس عربي . أشبه ما يكون بحدوة الحصان . وهو بنصف ارتفاع برج كامل . وفي الحجر الرئيسي في وسط هذا القوس صورة يد ضخمة محفورة بالصخر ، وهي رمز إسلامي . ترمز اليد فيه إلى الإنسان ، والأصابع الخمس إلى أركان الإسلام الخمسة وهي : (الصوم وطهارة

الصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد ضد الكفر⁽⁸⁾ وبجانب اليد المحفورة في الصخر، مفتاح محفور أيضاً في الصخر وهو يرمز إلى مفتاح الإيمان الذي انتقل من «داود» إلى الرسول (ص). ففي التوراة: «سألني مفتاح داود على عاتقه - على كتفي الرسول القادم - ليفتح ما لا يغلقه أحد، ويغلق ما لا يفتحه أحد». وقيل لنا إن هذا المفتاح كان رمزاً للمسلمين في مقابل الصليب عند النصارى عندما غزوا الأندلس، ويعني رمز قوة الفتح الإسلامي. إلا أن هناك تفسيراً آخر تكرم بإعطائنا إياه ابن الحمرا، على عادة كل العوام الذين يلصقون السحر والغموض بكل شيء عربي، ويتطهرون من كل ما يتصل بهذا العقل الإسلامي. لذلك أخبرنا «ماتيو»: أن الأمر يتعلق بتقاليد قديمة لسكان الحمرا، عرفها من أجداده. وتؤكد أن اليد والمفتاح أدوات سحرية تتصل بتحديد مصير الحمرا، وعليها يعتمد بقاء هذه المدينة

فالملك العربي الذي بنى الحمرا كان ساحراً كبيراً. باع نفسه للشيطان كما يؤكد البعض. لذلك وضع كل هذا الحصن تحت هذا الرمز الذي يشكل تعويذة سحرية. وهذا هو السبب الذي أبقى الحمرا كل هذه المئات من السنين رغم كل عوامل الطبيعة والزلازل، بينما تهدمت باقي بيوت العرب هناك؟! وتذكر التقاليد أن هذه التعويذة ستظل إلى أن تصل اليد المنحوتة وتقبض على نحت المفتاح. آن ذاك سيتداعى القصر كله إلى حطام، وتظهر الكنوز التي دفنها العرب تحته؟!

أما أنا اليوم فلم أتحمل هذا التنبؤ الساذج، لذلك استمررت بالسير عبر البوابة تحت هذه التعويذة المفترضة، وأنا أشعر بضعف الثقة بفن سحري يحميه تمثال العذراء فوق البوابة؟!

وبعبورنا للبوابة واجهنا نزول بخط ضيق بين الجدران، ينفتح بباحة داخل الحصن تسمى: «مكان الأحواض». حيث تحتها خزانات المياه الضخمة التي حفرها العرب بالصخر ليجمعوا فيه الماء الذي يصل إلى الحصن من «دارو» - دارق -

(8) :الحديث المشهور : «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

من أجل تزويد المكان بالماء. وبها أيضاً بئر عميق يخرج منه ماء بارد جداً. كعلامة أخرى على ذوق العرب الرفيع كشعب يهتم دوماً بكل عنصر نقي.

لكن خلف هذه العظمة ينتصب نصب «شارل الخامس» الضخم، والذي وضع هنا كما قيل لنا لكي يخسف ذكرى ملوك العرب. ولهذا السبب أزيل بناء المشتى من قصر العرب ليفسح المجال لهذا النصب، الذي سد المدخل الرئيسي للقصر. فصار المدخل إلى قصور العرب حالياً يمر عبر ممر جانبي صغير وحقيقير في زاوية المكان. ورغم ضخامة نصب «شارل الخامس» والفن المعماري الراقي المسخر له، بدا لنا كدخيل في هذا المكان، لذلك مررت بجانبه مرور المسلم الغاضب من الصنم.

ووقفنا بعد ذلك ننتظر السماح لنا بالدخول، مع «ماتيو» الذي فرض نفسه علينا، وراح يخبرنا أن العناية بالقصر الملكي بعهدة سيدة تدعى «دونا أنطونيا مولينا»، ويسمونها حسب الطريقة الأسبانية؛ العمدة أنطونيا. وهي التي تعتني بالقاعات العربية وتنظم الحداثق وترشد الزوار. وبينما نحن نتحدث فتحت الباب سيدة أندلسية ذات عينين سوداوين، خاطبها «ماتيو» باسم «دولوريس»، وهي تبدو لماحة النظرات وتستأهل أن يكون لها اسم أكثر إشراقاً. ثم همس «ماتيو» لي بأنها ابنة أخت العمدة أنطونيا. بينما كنت كمن وجد فيها كما في القصص الخيالية - أسطورة ستقودنا إلى عالم سحري من زمن غابر، كمن يمزق لنا الزمن لنشهد قصة عربية بعالم شرقي آخر. فلا شيء أكثر تعارضاً مما بداخل هذا المكان عن خارجه بدا بمجرد أن دلفنا إلى قاعة فسيحة بطول مائة وخمسين قدماً، وبعرض ثمانين قدماً، معبدة بالرخام الأبيض، ومزينة بكل ركن فيها بالزخارف العربية الآخاذة، حتى لتشعر وكأنك بمعرض لهندسة عمارة المنمنمات. فأحجار الزفير⁽⁹⁾ الكريمة التي تتداخل في الجدران تبدي شخصية الفن العربي المعماري الرفيع، مع تكرار الشعار السابق للحمرا في أماكن مختلفة. كما تظهر عظمة وروعة الفسيفساء. وفي وسط القاعة «فستقية» ضخمة بطول أربعة وعشرين قدماً، وبعرض سبعة وعشرين. وتسمى هذه القاعة بقاعة «البركة». وتسيج هذه الفستقية الورود، ويسبح السمك الذهبي في مياهها.

ثم إجتزنا قاعة «البركة» عبر قوس عربي ندخل إلى قاعة السباع، التي يمكن القول : بأن الزمن لم يؤثر عليها أبداً. حيث في وسطها البركة الشهيرة في الشعر والأدب. والإثنا عشر سبعا التي أعطت هذه القاعة اسمها لإزال يخرج الماء الصافي من أفواهها وهي مركوزة حول القاعة تماماً كأيام أبي عبد الله. لكن على الأغلب أن سبب كون السباع منحوتة بشكل سيء هو أن الذي نحتها كان نحاساً مسيحياً أسيراً.

والقاعة محاطة بسيرير من الزهور، كان بينها ممرات رخامية جميلة، لكن الافرنسيين عندما كانوا هنا عمدوا إلى وضع ممرات حجرية تدل على ذوق سيء. أما في الزوايا الأربعة للقاعة فقد حفرت زهور الأوركيد على دعائم عواميد رخامية بيضاء، بفن معماري أنيق ورائع يسم كل هذا القصر ويدل على ذوق رفيع، كما يشعر بالبهجة. والغريب كيف بقي هذا العمل الفني المرفه الناعم كل هذه المدة، ونجا من عوامل الجو، ودموع القرون، وهزات الأرض، وقسوة الحروب؟ ألا يمكننا أن نعذر التقاليد الشائعة بعد رؤية كل هذا الجمال بأنه محروس بعمل سحري؟! وبجانب قاعة السباع هذه باب مزركش يفتح على قاعة «ابن سراج» الذي يقال إنه قام بإعدام عدد كبير من الفرسان هنا. والبعض يشك بكل هذه القصة. لكن «ماتيو» السانج أشار فوراً إلى المدخل الذي أدخل إليه الفرسان واحداً إثر واحد من قاعة السباع، إلى البركة التي تلقت رؤوسهم المقطوعة. ولم يكتف بذلك بل أرانا بقعاً من الصدا القديم على رصيف البركة، مدعي أنها آثار دماهم، والتي لا يمكن إزالتها حسب المعتقد الشائع.

ولأننا نسمع له ونجاري مايقوله بسهولة، أضاف أنه يسمع أحياناً في الليل، وفي قاعة السباع بالذات أصواتاً مشوشة خافتة تشبه الهمس، وكذلك طرقات سلاسل حديدية، وهي من أرواح الذين قتلهم المجرم «ابن سراج». فالمكان المسكون بأرواحهم ليلاً حيث يستعيدون آلامهم، مطالبين بثأرهم ممن كان سبباً لدمارهم.

والواقع أن هذه الأصوات ناتجة عن حركة الماء في مجاريه التي توصله إلى البركة، كما تبين ذلك لاحقاً، دون أن أبرز هذه الفكرة لروائي قصر الحمرا المتواضع الإمكانيات هذا.

لكن تشجعه من قبولي السهل لما يقول جعله يضيف ما ادعاه أنه حقيقة
لاشك فيها عرفها عن جده وهي :

أنه كان هناك جندي يرشد السواح إلى القصر، وعند غسق إحدى
الأمسيات، سمع وقع خطوات في قاعة ابن سراج، فتوجه للمكان علّ بعض
الغرباء قد ضل طريقه ليرشدهم، لكنه بدلاً عن ذلك ولشدة استغرابه، شاهد أربعة
عرب بزيهم الفخم وعمائمهم اللماعة التي توضع الجواهر في مقدمتها، يتمشون
بهدوء في القاعة جيئة وذهاباً. وحين رأوه توقفوا واستداروا نحوه، ففر هذا
الجندي الكهل، ولم يعد يجرؤ أن يدخل ثانية إلى قصر الحمراء. فأدار بذلك
ظهره عن ثروة ضخمة، لأن هؤلاء الأموات كما يعتقد «ماتيو» يريدون أن يدلوا
الناس على كنوزهم الخفية. بدليل أن من حل محل هذا الجندي كان أنبه منه
لأنه أتى إلى الحمراء فقيراً، لكنه بعد سنة ذهب إلى «مالغا» - ملقا - واشترى منزلاً
وعربة، ولا زال يعيش هناك كأثرى ما يكون. لأنه عرف السر الذهبي من هؤلاء
الأموات العرب برأي «ماتيو»؟!

ومعلومات - ماتيو - التي أطلعني عليها، على افتراض أنني أصبحت
صاحبه، وتنبؤاته التي لا أنظر إليها أكثر من أنها أوهام، ربما ركام عقلية غيبية،
قررت أن أعرف عليها بصورة أكثر.

وهكذا تابعت التجوال عبر مدخل مزين بشكل ثري، مقابل غرفة ابن سراج،
إلى قاعة أقل صلة بالحوادث التراجيدية. معبدة بالرخام الأبيض، ومضيئة مشرقة
بكل زينتها المعمارية، تحمل اسم: قاعة الأختين، المكتوب اسمهما على رصيف
القاعة، والمخرب أحدهما على ظن أنهما رقيقتان من العبيد. وقد أكد ذلك
«ماتيو» بشدة. بينما يعتبرهما آخرون مجرد جميلتين عربيتين رومانطيقيتين سكنتا
هذه القاعة، التي كانت جزءاً من قسم الحريم. وقد أيدت هذا الرأي مضيقتنا
حوراء العينين «دولوريس» وقالت: إنها علمت أن هذه القاعة كانت تابعة لشقة
النساء. وكما ترى أيها السنيور: كل هذا الجمال الرائع الشبيه بالمتحف الفني
المطل على ما يشبه الكنيسة، هو بسبب أن نساء العرب كن مثل الراهبات اللواتي
يشهدن القداس من وراء حجاب. لأن ملوك العرب كانوا يعزلون النساء كما تعزل
الراهبات.

فعبّر هذا الروشان - الخص - تستطيع النساء مشاهدة الراقصين وعروضهم الترفيحية، دون أن يراهن أحد. أما على طرفي القاعة فقد فرشت المطارف والحشايا حيث يجلس سيد القصر آن ذاك لتتجسد أمامه كل أحلامه الشرقية.. والضوء يخترق القاعة من الأعلى، بينما من جنباتها تمر تيارات هوائية لطيفة، وينساب إلى الأذن معها مهمة خريز الماء المنعش من بركة السباع، وما يلحق بها من مسابح حدائق «ليندا راكسا» - ليندا رقصا -.

ولعله من الصعب على القارئ تتبع هذا المشهد بدقة، دون معرفة بقصص الحب العربية المتصلة به. فبإمكانك أن تتصور الأيدي البيضاء البضة - للأميرات الغامضات وكما لو أنها تخرج من تلك التحف المعروضة، أو تتخيل عيوناً دعجاً تلمح خلف تلك «الرواشين» في الشرف، وكأن هذا الجمال الأخاذ يوحي بساكني الأمس البعيد قريباً. ولكن؟! من هما هاتان الأختان «زريدا» و«ليندا رقصا»؟! اللتان يزود الماء البارد حمامهما، مجلوباً من الجبال بأقنية عربية طويلة، تدور حول القصر وتتراقص لامعة بمجاريها الرخامية. وبعد أن تدفع جزيتها للقصر الملكي بأن تزود حدائقه وأقسامه، تنزل عبر طريق طويلة إلى المدينة. لتعود وتندفع في نوافيرها، لكي تصون خضرة وجمال الحمى ككل.

ولا يقدر نعمة هذا المكان إلا الذي يعرف حر هاجرة الجنوب. فالهواء العليل القادم من الجبال، والمحمل بشذى السهول يصل إلى الحمرا قبل المدينة الأكثر حراً تحتها. ويلعب هذا الهواء الرقيق القادم من «سيرا نيفادا» بقاعات الحمرا، مدخلاً معه عبق الأزهار المجاورة. وبينما تتراءى لك ومضات عيون سوداء وراء خص الروشان، تمتليء الأذن بهممة تصاحب خريز الماء المجاور. وكأنه قد سخر كل ما هو موجود من أجل نعيم هذا المكان.

وهدي من هذا الوصف العام لأقسام القصر الرائعة، هو أن أعطي فكرة عامة للقارئ لما سأتي على تفصيله، حتى يتحرك معي بشوق من يألف هذا المكان يوماً بعد يوم، قبل عرض تفاصيل القصص فيه.

ملاحظة حول

«الهندسة المعمارية العربية»

يبدو «الأرابسك» للعين غير الخبيرة، والذي يزين جدران قصر الحمراء، أنه مجرد عمل من حفر اليد. لكن التفاصيل الدقيقة فيه لا تظهر إلا للعين الفاحصة، التي عليها أن تراعي عمومية الانسجام في متغيرات تلك التفاصيل المذهلة. ويمكننا أن نعمم هذا الأمر على كل النمارة والمنمنمات التي تزينها، أو التي تزين الأواني والأدوات الأخرى، فتتصفي عليها صفة سماوية سامية. ونحن حين نكتشف زخارف المرمر على صحن الدار نجد مطابقات شكلية لأشكال مربعة ومسدسة ومثمنة وإثني عشرية، لا تكف عن التشكل أمام عين الناظر بصيغ مختلفة، حسب زاوية منظور الرؤية لها. وهي أبدعت أول ما أبدعت في دمشق، لكن التحسين عليها حصل في المغرب — العربي — مما أضاف خطوة إضافية رائعة للأرابسك السوري، فأبدع تفاصيل زخرفية إضافية بديعة، مما جعل العمارة

والنحت - العربي - يشكل فناً قائماً بذاته. أما المبدأ الذي تقوم عليه كل هذه الروعة التي ترضي كل تصورات الخيال السماوية، فهو بأساسه بسيط، شأن كل المبادئ الهامة في الوجود. إذ على الفنان أن يرسم الخطوط والدوائر على الحائط المراد زخرفته، بزوايا متقاطعة. تماماً كما يفعل الرسام الذي يريد أن ينسخ صورة ما. وفوق هذه الخطوط والدوائر ترسم أحياز المربعات والمثلثات المتقاطعة. ثم يبدأ العمل بكل واحدة منها ليؤكد لها ويوضحها ثقة الفنان. مدخلاً القطع الخشبية أو الرخامية أو الحجرية النفيسة حسب مقاساتها الدقيقة بكل نقوشها على المخطط الرئيسي. مستعملاً الكثير من الغراء في تثبيت هذه الزخارف، ويرسم على فواصل الغراء بذاته ألواناً زاهية، جاعلاً من الغراء النافر جزءاً أساسياً من التصميم. كمن يضع الغراء على بيضة مثلاً فيصبح نافعاً ثم يلونه. أما الألوان التي كانوا يستعملونها فقد كانت ألواناً مجلوبة من الطبيعة، تماماً كتلك التي استخدمها القراعنة ومن بعدهم الاغريق. لتعود وتظهر مع العرب في الحمرا، سواء كان الفنان عربياً مشرقياً أم مغربياً - مور - أندلسياً. ولهذا السبب بقيت تلك الألوان عبر القرون.

أما الجزء السفلي من الجدران في القاعات، فيشكل إطاراً لهذه اللوحات الحفرية، بارتفاع عدة أقدام، وبه خلفيات لونية مختلفة، وعلى بعضها أسماء ملوك الاسلام وشعاراتهم، وتسمى باللغة العربية: «الزُلاَج». وهو أيضاً من أصول مشرقية. ونظافة ونصاعة هذه الأطر تضيء شعوراً بالبرودة يتلاءم مع الجو الحار المحيط، كذلك تعبد أرضيات النواقر بها أيضاً، إضافة إلى غرف الاستحمام والنوم. كذلك تضيء هذه الأطر على الزخارف فوقها نوعاً من القدم، خاصة إذا كان بها نصوص قرآنية مقدسة، غالباً ما تكون بألوان زاهية بين الزرقاء إلى الزفير. كالنص القائل: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ» (الرحمن 22).

أما السيراميك أو البورسلين فقد أدخل إلى إسبانيا مع بداية الفتح الاسلامي، ويمكن رؤية بقاياه في خرائب بيوت العرب المغاربة هناك. فمنذ القرن الثامن الميلادي إلى اليوم لا زالت صناعته قائمة في شبه الجزيرة الإيبيرية، ولا زال يستخدم في البيوت الإسبانية الراقية، وخاصة في المقاطعات الجنوبية، حيث تزين وترصف به البيوت الصيفية بشكل خاص.

وقام الإسبنيارد في جهتهم بتصديره إلى «نيزرلاند» عندما احتلوها، ومن هناك تبنى الهولنديون هذه الصناعة، لأنها تلائم طبعهم في حب نظافة بيوتهم. وهكذا وصل هذا الاختراع العربي تحت اسم «الزلاج» للهولنديين(10) واشتهروا به.

(10) : الهولنديون هم الذين اسسوا مدينة نيويورك، وظلوا يشكلون الجالية الرئيسة فيها، حتى وصلتهم الهجرات الإيرلندية والإيطالية ثم البولندية الهاربة من الإضطهاد الديني لأسباب مختلفة، وأخيراً الهجرات الزنجية من جنوب الولايات المتحدة الأميركية إبان الحرب الأهلية فيها. ثم أعقبهم اللاتين من بورتوريكو وكوبيين، فاليهود بعد الحرب العالمية الأولى والثانية حيث سيطروا على الولاية اليوم، ولازالوا في نزاع قوي مع الجاليات الأساسية فيها.

- المترجم -



مناقشات عامة

توصل المؤلف إلى قصر أبي محمد الله

هكذا مضى معظم النهار دون أن نتمكن من انتزاع أنفسنا من هذا المكان الشاعرى الرومانسى. فعلىنا أن ننزل ثانية إلى المدينة، لنواجه واقعنا فى ذاك المنزل الأسباني. لكن كانت معنا رسالة للحاكم الأسباني للمدينة، فزرناه بطريق عودتنا كى نوصلها له. وأعربنا له بحماس عن عجبنا من عدم سكناه قصر الحمرا، وبقائه فى المدينة. لكنه بين لنا أن الصعوبة ترجع إلى بعد القصر عن المدينة، فهو على قمة الرابية حيث تصعب اتصالات العمل. وهو كذلك مكان يصلح للملوك الذين هم بحاجة إلى أسواره لتعصمهم من رعاياهم. وبعد أن لفت نظرنا إلى ذلك أضاف: إذا كنتم ترغبون بالسكن هناك فشقتى فى الحمرا تحت تصرفكم؟!

ولأننا نعرف أن محط الحديث عند الإسبنيارد، هو ضرورة إخبار مضيفه أن بيته هو بيته كمجاملة عامة، يجب أن يرد عليها بعدم القبول، وكذلك عدم قبول ما يعجبك فى منزله حين يقدمه لك فوراً. كدلالة على كرم عندك. كدنا أن نفهم

من عرض الحاكم لشقته الملكية هذا النحو. لكننا كنا مخطئين. إذ أن الحاكم كان يعني ما يقوله حين أضاف: ستجدون غرفة غير مفروشة، ولكن العمة «أنطونيا» المسؤولة عن القصر يمكنها أن ترتبها لكم، كذلك ستعتني بكم طوال إقامتكم، فإذا نحن رتبنا الأمر معها سيكون قصر الملك «شيكو» تحت تصرفكم!!.

وبمجرد أن لمسنا محمل الجد في كلام الحاكم عدنا فوراً دون أي تأخير إلى الباب الرئيسي الكبير للعدل، لنفاوض العمة «أنطونيا»، ونحن نشك فيما إذا كنا بعلم أم بحلم، واثقين من أن لنا صديقاً سيساعدنا في هذا الأمر من القصر هو: لامعة العينين «دولوريس» التي أظهرت لنا طيبتها من أول لحظة، متمنية عودتنا إلى القصر بلغة عينيها الثابتتين.

وهكذا سار كل شيء على ما يرام، فالعمة أنطونيا قامت بفرش الشقة، رغم كل تأكيداتنا بأننا مستعدون أن ننام على الأرض، وعدم مطالبتها بأكثر مما تؤديه بطريقتها البسيطة في تهيئة الغرفة، بينما راحت ابنة أختها دولوريس ترمقنا بنظراتها عندما تم كل شيء ونحن نرمي بقبعاتنا في الهواء فرحاً.

ثم نقلنا في اليوم التالي متاعنا إلى القصر، مشاركين بدورنا في هذا الملك المقسم، ومرت الأيام كالحلم. لكن مرافقي وصديقي اضطر بعد عدة أيام إلى العودة إلى «مدريد» من أجل واجب «دبلوماسي» كان ينتظره هناك، ليتركني متوجاً وحدي في هذا الملك المنعزل. وأنا أطلق كل فضولي في مشاهد روعته، باحثاً عن كل ما يجب أن أعرفه عن هذا القصر المسكون؟! وسأودع القاريء أسرار كل ما شاهدته، وما أعرفه عن هذه الحضارة بكل بحوثي حولها؛ لثقتي فيه وشعور صداقتي إزاءه. فإذا كانت لدي القدرة على نقل ما أنا معجب به إلى تصورات من كل هذا السحر، لن يمل التجوال معي في هذا القصر الأسطوري، قصر الحمرا.

ومن أجل هذا الغرض أبدأ بإعطاء القاريء فكرة عن أثاث شقتي هناك، والتي هي طبعاً أقل بكثير من أثاث أسلافها، من شقق الملوك بنفس هذا المكان.

فأنا قد أقمت بنهاية شقة الحاكم، التي كانت فارغة تماماً والمطللة على منظر رائع اسمه: «مكان الأخوة»، والمؤثث بأثاث حديث. وفي نهاية الطرف المواجه لغرفة نومي، تتصل غرفة صغيرة نصف تصميمها عربي، والنصف الآخر إسباني. متصلة بدورها بشقة العمة أنطونيا، التي تصون القصر كما تصون منزل عائلتها، وتوجب على زوار القصر المتطلبات الضرورية منهم، كما تنسق هذه

السيدة المسنة الأزهار وتزرعها وتنتجها، وتبيع ثمار الفواكه في القصر «ضمانة»، وتعطي قسماً من ذلك إلى الحاكم على شكل هبات من الثمار والأزهار. أما عائلتها فمؤلفة من ابن أخ وابنة أخت، وابن أخيها «مانويل» شاب صغير ذو جاذبية إسبانية، كان قد خدم في الجيش في إسبانيا وجزر الهند الغربية. لكنه الآن يدرس الطب. على أمل أن يصير في يوم من الأيام طبيباً لحامية القصر. وهي وظيفة تدر حوالي 140 دولار في السنة. أما ابنة أختها دعجاء العينيين اللامعتين «دولوريس» التي سبق لنا ذكرها، فمهيأة لأن ترث في يوم من الأيام مركز خالتها المرموق في الحصن. وقد تأكدت من «ماتيو أكزيمنس» أن أجر ذلك 150 دولاراً في السنة وهو ميراث ضخم كما عبر عن ذلك ابن..... الحمراء. وكذلك أخبرني هذا المراقب الموثوق، أن العلاقة بين أبناء الخؤولة قوية ولا يمنعهم من الزواج إلا انتظار شهادة الدكتوراه، وموافقة البابا على زواج الأقارب هذا.

وكنيت من جانبي سهل الإرضاء، بعد أن أنجزت العمة الطيبة أنطونيا التزامها بنقلي إلى الشقة، خاصة وأن دولوريس بطيبتها ومرحها دوماً توضحب شقتي بشكل جيد، وتقدم لي الطعام الذي تعده بيدها في كل وجبة. وكان تحت تصرفي خادمٌ أشقر اسمه «بي بي» كان يعمل أساساً بالحدائق. مما أشعر ابن الحمراء بضرورة التنافس معه أخذاً بالتداخل في كل مشاريعي منذ أن التصق بي يوم لقيته على باب الحمراء. حتى أنه عين نفسه مرافقاً لي، ومرشداً، وحتى حارساً ومرجعاً تاريخياً! لذلك كان علي أن أحسن من هندامه، حتى لا يسيء ذلك إلى عمله ككل. فنزعت عنه عباءته البنية القديمة، كما تنزع الأفعى جلدها، وأصبح يتبختر في الحصن بقبعة أندلسية وجاكيت جديد. مبدياً الرضا إزاء استغراب زملائه. فتصور نفسه على أنه مهمٌ لدرجة دفعته إلى التدخل بمستخدمي. فأظهرت له عين المراقب من خلال طبيعي الهاديء. وهو بذكائه بالمقابل كان يحاول أن يظهر أنه دوماً تحت أمري. لدرجة - مزعجة - فلا أكاد أظأ أي مكان في القصر إلا ويهرع لمساعدتي بشرح كل ما أراه. وإذا أردت التجول في التلال المجاورة، أصر على حراستي. وأسرع ليلحق بي. وكلي ثقة بسرعة رجليه لا بقوة ذراعيه في حال أي هجوم.

إنه وعلى كل حال ساذج مسكين، ولديه حسن دعاية مسل يشبه حلاق القرية الذي يعرف كل ما يشاع هنا. إلا أنه يضخم من قيمة هذه المعلومات

المحلية، وينسب للناس قصصاً شبيهة بما ينسبه من قصص لمشاهد القصر وأبراجه، ويصر على تأكيدها بإيمان ساذج.

وهذه المعلومات في معظمها استقاها من جده حسب قوله. ذاك الخياط الأسطوري الذي عاش مئة سنة، سافر خلالها مرتين خارج الحمرا. أو أصدقاء جده الذين يغص بهم متجره حتى منتصف الليل. وهم يتحدثون عن الأيام الخوالي؟! والأحداث الهامة والمخابئ السرية للقصر. ولحسن الحظ لم تمت هذه المعلومات بموت هذا المؤرخ الخياط الملتصق بجدار الحمرا. حيث ولد وعاش ومات ودفن، فتوارث «ماتيو» معلوماته وظل راوية حديث موثوق عن جده. وأحد حواريه من متجر الخياطة. لذلك هو مؤتمن على معلومات قيمة عن الحمرا. لا يمكن أن توجد في الكتب، وتستأهل اهتمام كل سائح.

هؤلاء كانوا مستخدمي الذين أشك أنه كان لدى من كان قبلي مسلماً كان أم مسيحياً في هذا القصر مثلهم. بمثل هذا الاخلاص أو بمثل هذه الطريقة في الترويج.

فعندما أستيظ يحضر الغلام الثأء «بي بي» الأزهار من الحديقة. ثم تنظمها بعد ذلك دولوريس في المزهرة وتعطي لترتيب غرفتي لمسة أنثوية. ثم أتناول الإفطار في القاعات العربية أحياناً، وأحياناً تحت ظلال الأوركيد في قاعة السباع. محاطاً بالنوافير و الزهور، ولكن عندما أخرج يرافقني «ماتيو» إلى أحسن النزه الزومنتيقية الجبلية. ولا يتركني دون خبر عن كل ما أرى؟!.

لقد كنت أقضي معظم أيامي وحيداً، ونادراً ما ألتحق بحلقة السيدة العمة أنطونيا في المساء. حيث تعقد غالباً في قاعة عربية. تجلس فيها العمة المسنة وهي تهيء الطعام للطبخ وحولها الأهل والأصدقاء. لكن المدفأة التي وضعت حديثاً بزاوية هذه القاعة، التي كان بها بريق أيام العرب. وخاصة «في التراس» الذي لا زال باقياً فيها، أدت إلى تغيير ألوان الجدران بسبب دخانها. مما يكاد يقضي على الأرابسك العربي في القاعة. لكن في القاعة نافذة تطل على شرفة تشرف على وادي «داره» يمكنها أن تدخل الهواء المسائي العليل لو فتحت. وكنت إذا حضرت أتناول عند العصر الفواكه والحليب، وأتحدث قليلاً مع العائلة. فالإسبان يتمتعون بذكاء فطري يجعل منهم أناساً جيدي الصحبة. مهما نقصت مرتبتهم الاجتماعية أو ثقافتهم. زد على ذلك عدم تهتكهم، لما هو مطبوع بهم من كرامة

روحية وراثية. والفاضلة العمة أنطونيا من هذا النوع غير المثقف، وكذلك لامعة العينين دولوريس قليلة الثقافة، فهي لم تقرأ أكثر من كتاب أو اثنين في كس حياتها. مما جعلها خليطاً من السذاجة والحس المرهف. إذ تفاجئني غالباً بتعبيرات تدل على حس جمالي عال. أما ابن خالتها فأحياناً يقرأ لنا بعض القصص الكوميدية ليرفه عنا من جهة، ويزيد معلوماته من جهة أخرى، بقدر ما يرغب بتسلية ابنة خالته دولوريس، لكن لخيبة أمله تنام السيدة الصغيرة عادة قبل إنتهاء الفصل الأول. وتأتي إلى حلقة العمة أحياناً إحدى زوجات سكان الحصن، أو إحدى زوجات العسكر فيه، وهن يعتبرنهما الأكثر ثقافة وفهماً، لأنها قبل كل شيء المسؤولة عن كل الحامية. لذلك يزودنها بالمعلومات كجزء من واجبهن تجاهها. وأحياناً يتحدثن عن الشائعات المتداولة في غرناطة. والواقع أن استماعي إلى هذه الجماعات المسائية أحياناً جعلني أخرج بالكثير من الحقائق الهامة، التي سمحت لي بتشكيل لوحة عن الخاصية التي يتميز بها هذا الجوار والمواطنون فيه.

ولعله من غير المهم ذكر تفاصيل هذه التسلية البريئة هناك، لولا وجود القصر. فأننا بمكان يسكنه الماضي ومحاط فيه بصحبة رومانطيقية. خاصة وأن هذه المدينة كانت موضوع حلمي الواعي منذ نعومة أظفاري حيث كنت أقرأ على نهر الهدسون⁽¹¹⁾ قصص «جني بيرز دو هيتاس» تلك القصة عن فروسية الحرب الأهلية في غرناطة. وفرسان الإقطاع هناك، أمثال «زعزير» و«ابن سراج». وكثيراً ما تصورت بخيالي صالات قصر الحمراء. والآن أستعيد من الواقع، وألتقط بالحواس تصوراتي تلك. إذ أنني حقاً وفعلاً أسكن قصر أبي عبد الله، وأنظر حقاً من شرفاته إلى مدينة الفروسية غرناطة. وها أنا ذا أتجول بهذه القاعات الشرقية، وأسمع خرير مياهها وغناء العندليب على أفنانها، وأستنشق عبير زهرها الفواح. وأشعر بأثر الطقس على سكانها. حتى لقد ظننت نفسي أسكن الجنة الحقيقية التي وصفها النبي محمد «ص». وأن الحوراء براقعة العينين دولوريس، إحدى تلك الحوريات فيها المكرسات لسعادة المؤمنين الآخروية.

(11) : نهر ضخم يفصل بين ولايتي نيوجرسي ونيويورك.



سكان الحمرا

لاحظت التناسب العكسي بين عظمة القصور التي تسكنها بيوتات الملك في أوج سلطتها، وبين حقارة سكانها عندما تنهار وتهجر. وكيف أن قصور الملوك تعود مع الزمن لتصبح أوكار لصوص ومتكدين.

والحمراء تسير في اتجاه هذا التغير بسرعة، فكلما انهار برج من أبراجها، سيطرت عليه أسرة وضيفة، لتسكنه برفقة البوم والوطواط. رافعة أعلام الفقر والضعفة العائلية، بحبال الغسيل الذي ينشر من النوافذ والشرفات.

هكذا كنت اراقب مشاهد هذا التعدد بالصيغ، بين الملكيات التي كانت تحكم في القديم، ووضعها الحالي اليوم، الذي كأنه إعلان عن نهاية مأساوية لكل نبل إنساني. لذلك يكثر هنا مدعو الأصول النبيلة، أمثال: «ماريا انطونيا سابونا» التي تدعي الانتساب إلى أسرة «كوكلي» الملكية. ولا أحد - كما تقصيت - يعرف أصلها، كما أنها هي بحد ذاتها أصغر من أن تكون استمراراً لأي أسطورة. وهي تسكن غرفة أشبه بخزانة تحت درج القصر، وتجلس طول النهار على صخر

الدهليز المجاور تغزل الصوف، وتغني من الصباح إلى المساء، مستعدة لأن تمزح مع كل من يمر. لأنها أفرح كل النساء رغم كونها أفقرهن. كما أنها تتمتع بموهبة قصصية، فلديها قدرة على اختلاق حكايا تفوق حكايا «ألف ليلة وليلة». وقد سمعت بعض حكاياتها في حلقة العمة أنطونيا المسائية، حيث أحضرها بتواضع المستمع. وأشعر بضرورة وجود نوع من الموهبة عند هذه المرأة الصغيرة الحجم الكبيرة السن، تمكنها من سرد كل هذه الحكايات الخيالية. كما أنها تجسد كل حظ عاثر وقبح في الحجم الصغير. والفقر، حين تعد لك خمسة أزواج تعاقبوا عليها، وتضيف خمسة ونصفاً. أما هذا النصف فهو الزوج الذي مات أثناء حفل زواجه منها.

ويماشي هذه الشخصية الخيالية تقريباً، رجل صغير الحجم، له أنف كأنه قنينة ملصوقة بوجهه، يلبس قفطاناً رثاً قذراً، وعلى رأسه طاقية زيت جلدتها من الاتساخ. وهو أيضاً من الأبناء الشرعيين اليوم لقصر الحمراء. فقد قضى كل حياته في القصر، فعمل مساعد حارس، ومنظف كنيسة، وواضع علامات على قواعد الأبراج... الخ. وهو أفقر من جرد قذر، لكنه يتظاهر بكرامة من ينحدر من سلالة «أغويلار» التي منها ظهر «غوتزا فلو القرطبي» الكاتب المشهور. وأكثر من ذلك حمل هذا الجرد اسم «آلنوزو دي أغويلار» وهو نفس الاسم الذي ذكر كثيراً في حروب إعادة فتح غرناطة. والذي أعطاه «البابا» لقب: «الأب المقدس». كلقب كنت أظنه مقدساً عند الكاثوليك لدرجة لا تمكنهم من تركه لهذا المخلوق أمامي. والذي يدعي التحدر من ذاك الرجل الذي كان يمثل مرآة الفروسية الأندلسية. والذي كان يحتل مركزاً مرموقاً بين من فتحوا في يوم من الأيام هذا الحصن. وكل هذا يشبه رؤية شحاذ في خرائب «طروادة» يقول لك: إنه من سلالة «أفيلس» أو «آغا ممنون»؟!

ومن هذا الخليط الاجتماعي الحوارى الملتصق بي «ماتيو أكزيمنس» والذي شكل ركناً أساسياً من أركان هذا الاختلاط. فهو يدعي أن أسرته سكنت هذا الحصن من يوم فتحه. وكأنه نتيجة ذلك قد ورث الفقر أباً عن جد. فوالده ورث مهنة الخياطة من جده صانع الضمادات، وهو يعيش اليوم بتخشيبه بناها بيده فوق الباب الحديدي، ويعمل شبه خادم يضع في تخشيبته نفايات الأثاث. من سرير سيء الصنع وعدة كراسي مهشمة. إلى صندوق خشبي به أخلاط الثياب الرثة، إضافة إلى شجرة العائلة. المؤلفة من مجموعة من الأوراق المهورة بأختام

العهود المتتالية؟ ولكن ومع ما فيه هؤلاء الناس، يبدوون مرحين وغير مهتمين، ويتعرضون دوماً إلى جيرانهم الذين يصرون على أنهم ليسوا استمراراً للمسيحيين الأوائل، بل هم من أصول يهودية أو مغربية. مما جعلني أشك كيف أن غيرتهم على أحسابهم سمحت لهم بأن يكونوا ويستمرروا بهذا الفقر، ولا يفخرون إلا بالتصاقهم في هذه الجدران، أو بأسلحة «المركيز» القديم التي يجعلها فقرهم عديمة المعنى، والنفع.

حتى «ماتيو» الذي يبلغ اليوم الخامسة والثلاثين من عمره، قد بذل كل جهده كي يحافظ على سلالة بالاحتفاظ والاستمرار بفقره. تاركاً زوجته وأطفاله بجحر آخر في هذا القصر. فكيف تستمر هذه العائلات بالحياة؟ إن أحداً غير المكشوف عليهم لا يمكنه أن يعرف؟ لذلك كانت معضلة بالنسبة لي معرفة كيفية استمرار سلالات ملوك الإسبان. ولكنها مستمرة. والأسوأ استمتاع هؤلاء بوجودهم هذا. حيث تسير زوجاتهم في ساحات وطرق غرناطة بمرح، وعلى يد واحدتهن رضيع وحولها نصف دزينة من الأطفال، والبنات العذراوات الأكبر يزين شعرهن بالورود، ويرقصن بالصنجات مرحاً؟.

لذلك يمكن القول: ان الحياة تبدو كإجازة طويلة لطبقتين من الناس، الأغنياء جداً، والفقراء، فالأولى لا تحتاج أن تفعل شيئاً، والثانية لأنها ليس لديها شيء لتفعله؟ إلا أن فن أن لا تفعل شيئاً، لا يتقنه أحد أكثر من الطبقات الفقيرة في إسبانيا. اللوم نصفه على الطقس ونصفه الآخر على الحرارة. فإذا أنت أعطيت «الإسبنارد» الظل في الصيف، والشمس في الشتاء، وقليلاً من الخبز والثوم والزيت، وعباءة قديمة وغيتاراً. فليسر الغالم بعدها كما يشاء. وهو لا يعتبر الحديث عن الفقر عاراً، لأنه يجثم فوقه مثل عباءته، ويظل يعتبر نفسه شريفاً وإن كان على البساط.

وتجسد قمة هذه الفلسفة بإبن الحمراء، الذي لا يفعل شيئاً ولا يملك شيئاً، ولا يهتم بشيء. وأنا الذي كنت أتخيل أن أضواء الماضي الذهبي لازالت مشعة في هذا المكان، تماماً كما تصور العربي الجنة السماوية في هذه البقعة من العالم، أرى أمامي أناساً لا يعملون طوال الأسبوع، ويظلون ينتظرون أيام العطل والأعياد، وأعياد القديسين، مثلهم مثل كل كادح حربي مفترض. وهم يحضرون كل احتفال بالعيد أو الرقص في غرناطة وجوارها، فتشعل المشاعل على الروابي في عيد

القديس جونز - يحيى - وتقام حلقات الرقص في حقول المحصول القليل من القمح في القلعة.

إن علي قبل إنهاء هذه الملاحظات أن أذكر - للقارىء - واحدة من تسلّيات هذا القصر التي فاجأتني؟! فهم يستعملون شباك صيد السمك لصيد الطيور. وينصبونها في مواقع الدفاع فيه. ولأنني لم أكن أعرف سبب وجودها هذا، سألت «ماتيو» الذي أزال هذا اللغز من أمامي؟!.

إذ يبدو أن هواء هذا القصر العليل يجلب الطيور كما يجلبها قصر «مكبث» - في قصة شكسبير - فعندما ينهي أطفال هذه السلالات الكريمة المحتد مدارسهم يساهمون بهذه الفخاخ للطيور، كإحدى التسلّيات، إضافة إلى « كش الحمام » التي يفضلها أبناء الحمراء. فهم حيث لم يعودوا يستطيعون أن يوقعوا أحداً بفخاخ أصولهم وأحسابهم التي اخترعوها، نصبوا فخاخهم للايقاع بالسماء.

قاعة السفراء

لاحظت باباً مخفياً غامضاً في إحدى زوايا القاعة التي تطهو فيها العمة «أنطونيا» الطعام وتحضره، حين تستقبل ضيوفها، في إحدى زياراتي لها في هذه الغرفة الشرقية. فأثار حب الاستطلاع لدي، لأنه قد يقود إلى قسم قديم من القصر، ففتحته. لأجد نفسي إزاء دهليز معتم، قادني حين دخلته إلى فسحة درج معتمة تؤدي إلى أسفل برج التجار. فنزلت أتلمس الجدران المعتمة، حتى وصلت إلى باب صغير آخر بأسفل الدرج. ففتحته بصعوبة، وحين دفعته وجدت نفسي وأنا أندفع بذهول إلى الغرفة المواجهة لقاعة السفراء، حيث تتألق أمامي فستقية قاعة - البركة - «البركا». ويفصل هذه الغرفة عن القاعة معرض «غاليري» أنيق به دعائم مزخرفة بالأسلوب الزخرفي العربي المغربي الرائع. وفي كل زاوية من هذه الغرفة - المواجهة لقاعة السفراء - مخدع سقفه مزين برسوم غنية، فاجتزتها عبر

باب رائع إلى قاعة السفراء. التي كانت مجلساً للملوك العرب هناك. وهي قاعة بعرض 37 قدماً، وارتفاع 60 قدماً، وتشغل كل الحيز الداخلي لبرج التجار. ولا زالت تحمل كل آثار ماضيها العريق. فالجدران الجميلة المبنى والمليئة بالزخارف المعمارية تحمل كل تصورات العرب عن الجمال. وكذلك السقف به نفس المواد المفضلة من هذه الزخارف وكأنها مرسومة بقلم سماوي به ألوان حية لماعة، ورائعة إلى أقصى درجات الروعة.

لكن شرخاً أدى بالسقف لسوء الحظ إلى إسقاط عمود من أعمدته بسبب الزلازل، وقد ظل هذا العمود ممدداً عبر القاعة. واستبدل مكانه عمود جديد من خشب الأرز ليحمل السقف، بجذوعه المتفرعة لكنها المدهونة على شكل شرقي. والمشهد ككل يذكر بالسقوف الخشبية التي نقرأ عنها بقصص أمثال «يوكهارت» عن الليالي العربية وعن أعمدة هرقل.

وقد محي الجزء الأعلى من القسم الأكبر فوق الشباك ودمر. ورغم ذلك لا زال يعطي تألقه السابق العظيم، الذي نلمحه دوماً بذاك «القلم» الفني العربي المتألق.

أما العرش الملكي بإزاء المدخل فلا زال يحمل طابع الملك «يوسف الأول» الذي أكمل بناء الحمراء، وجعلها سرير ملكه. وقد صمم كل شيء في القاعة ليحيط العرش فيها بانطباع مشرق بالروعة والإباء. ولا يماثله نظير بأي قسم آخر من القصر. والبرج الراسخ المتين الذي يحتوي هذه القاعة فوق مرتفات الهضبة المنحدرة على جوانبه - يشكل دليلاً آخر على الرسوخ والقوة - وبه فتحت على الجوانب الثلاثة لقاعة السفراء شبابيك عبر الجدران السميكة. كأماكن تشرف على الخارج. ويصاحب شرفة الشباك المتوسط بصورة خاصة إطلالة على وادي «دارو» - داره - ومنه يمكن مد متعة النظر إلى «الفيغا» من بعيد. بينما تظهر أمامه مباشرة منطقة «البسين» - البائسين - بطرقاتها وشوارعها، وحدثها التي كان يضمها حصنٌ وكأنه تاج للحمراء. حتى أن الملك «شارل الخامس» عندما نظر مرة من نفس هذا المكان ورأى هذا المشهد، قال: «سأظل أدين الرجل الذي فقد كل هذا».

لهذا صارت هذه الشرفة من أفضل أماكن خلوتي. حيث أجلس هناك لأستمع بنهاية غروب كل يوم. فالشمس حين تهبط خلف الجبال الزهرية

للحمراء، ترسل بأشعة ملونة على وادي «داره» وكأنها توزع أنغام قصيدة حزينة على بروج الحمراء. بينما الوادي مغطى بالضباب الذي تتراقص عليه ألوان الغروب هذه، فيبدو من بعيد وكأنه بحر من الذهب. وسكون مثل هذه الساعة الذي لا تهزه ولا نسمة، تخرج منه همسات الموسيقى الخافتة بين الفينة والأخرى من جهة الوادي. فيعطي هذا السكون المخيم حولي ظلالاً تلف الزمن الذي أنا فيه بقوة سحرية تأسر الذاكرة، لتعيدها إلى ذاك الماضي المجيد، تماماً كما تعود أشعة الشمس إلى حضن أمها في الغروب.

وإذ أراقب غروب الشمس عن هذا الركن العربي، لابد من أخذ الاعتبار لتلك الشخصية الأنيقة للعرب التي تتبدى عبر عمارتهم، ومقارنتها مع العمارة «الغوطية» التي تمثل شخصية الفاتحين الإسبان. فالعمارة هنا هي التي تظهر التعارض بين الطبقتين المختلفتين لهذين الشعبين المحاربين، اللذين تصارعا لمدة طويلة من أجل السيطرة على شبه الجزيرة «الإيبيرية» هذه.

لذلك أشعر إلى حد بعيد، أن: دخولي الوحيد والمحظوظ بين العرب والإسبان سيسهم في استعادة تشكيل هذا التاريخ، الذي شكل وجودهما بقصة فريدة من قصص التاريخ الانساني.

فعلي أن أعرف الجوانب المسيطرة منه علينا، والتي لا نكاد نعرف حتى ماذا نسميها. فهما أمة بدون اسم شرعي يوحداهما، نتجت عن مد موجة الفتح الاسلامي على شواطئ أوروبا. مشكلين كما يبدو امتداداً فريداً من جبل طارق حتى «البيرينة»، سريعاً وقوياً يشبه ذاك الامتداد الذي شكله العرب في سورية ومصر قبل ذلك. وأكثر من ذلك تجد آثار بصماتهم في سهول «تولوز» في فرنسا، وكل أوروبا، التي كانت معرضة لاجتياحهم المائل للشرق. فقد كان من الممكن للهلال أن يتألق على صواري «باريس» و«لندن».

لكن ارتدادهم عند حدود «البيرينة» دفع بذاك الخليط من الأفارقة والعرب، الذين شكلوا تلك الامبراطورية العظيمة، إلى ترك المبدأ الاسلامي في الفتح، ليعملوا على توطيد أقدامهم في اسبانيا فقط، وهم كفاتحين كافأت بطولاتهم عدم تعصبهم فتضاfer هذان العاملان مع الزمن على تشكيل أمة فريدة في مكان تواجدهم في الأرض التي افترضوا أن الله قد أعطاها لهم، لذلك أرادوا أن يزودوها بكل ما يمكن أن يرفد سعادة الانسان فيها. فساعدوا كل علم وفن، مما حسن الزراعة،

والصناعة والتجارة. ومكن من تأسيس امبراطورية لا تضارعها أي امبراطورية مسيحية. جاذبين إلى فلكهم كل عظمة وإتقان الحضارة العربية في المشرق. لذلك كانوا في أوج عظمتهم الحضارية النور الشرقي الذي اهدت به ظلمات أوروبا.

ولهذا كانت مدن إسبانيا العربية منهلاً للغرب الأوروبي المسيحي لتعلم كل الفنون، فجامعات «طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة» كانت مقصد الطلاب من الغرب ممن أرادوا تعلم العلم من العرب، ليستخرجوا من ذاك الكنز الذهبي العتيق رغادة العيش بالعلم. ومن مراكز «قرطبة» و«غرناطة» التي انبثقت منها الموسيقى والشعر، تعرف محاربو الشمال أيضاً كيفية الاستعمال الأمثل لزخم واندفاع الفروسية.

فقد ظلت الآثار الاسلامية في اسبانيا كالجوامع في قرطبة والكنزار(12) في اشبيلية، والحمرا في غرناطة تشهد على تأثر الغرب بكل ما كتب فيها. كما ظلت الأرض لهم على مر القرون مدة تفوق مدة دخول «النورمانديين» إلى «انكلترا». لذلك لم يتوقع المنحدرون من «موسى بن نصير» و«طارق بن زياد» أن يطردوا إلى المنفى بنفس الاتجاه الذي جاء منه أجدادهم، تماماً كما لم يكن يتوقع المنحدرون من «رولو» و«وليم» وأمثالهم أن يطردوا إلى شواطئ «النورماندي» مرة ثانية.

وعلى الرغم من كل ما حصل، وبكل الأحوال ظلت الحضارة الاسلامية في اسبانيا، شعاعاً مشرقاً، وومضة لم تجذر في الأرض التي طورتها. بسبب عوائق الدين التي أحاطها بها جيرانها، وهي المفصولة عن مثيلاتها في الشرق بعائق البحر. وبذلك صار مراكشيو اسبانيا شعباً معزولاً. فصار كل وجودهم يعتمد على صراع فكري، وفروسي فريد، من أجل ترسيخ القدم بأرض رجراجة.

لقد كانوا ثغراً اسلامياً بمعنى الكلمة. وأرضهم ساحة حرب مستمرة بين الفاتحين «الغوط» من الشمال، والمسلمين من الشرق. حيث كان اللقاء بينهم دوماً من أجل تحديد من تكون له السيطرة فدائماً كانت ترتد الشجاعة النارية للعرب، بالاحتياطات المتأنية «للغوط».

ونتيجة ذلك كان المراكشيون الإسبان، أكثر الشعوب غربة وشعوراً بالشقاء. واليوم إن أنت سألت: أين هم الآن؟ يجبك شاطئ المغرب في المنفى وهناك لم

يقوموا بأي تأثير يذكر بعد نفيهم، إذ كفوا عن التواجد كأمة ذات معالم. ولم يتركوا ولا أي اسم محدد خلفهم. رغم أنهم كانوا شعباً تشكل بثمانية قرون يختلف عن كل شعوب المغرب العربي. وهكذا رفض المغرب العربي حيث منقاهم وجودهم كما رفضتهم بلادهم التي كانوا فيها؟ لقد رفض الجميع اعتبارهم إلا كغزاة أو لاجئين؟ ولذلك لم يبق لهم أي أثر إلا على صخور الحمرا، وبعض الآثار الشاهدة على عظمتهم وسيطرتهم كرمز اسلامي في قلب الأرض المسيحية. والدليل الذي لدينا الآن على هؤلاء الشجعان الأذكىاء المتألقين من ذاك الشعب العظيم، هو: الحمرا، هذا القصر الشرقي بقلب العمارة «الغوطية». لشعب غزا وفتح وحكم وازدهر ثم غاب عن الوجود(13) .

(13) : عن نفح الطيب، عن الحلل السندسية، لشكيب آرسلان، دار مكتبة الحياة، بيروت عام؟، مج

1، ص 450 . قال شاعر أندلسي مجهول:

عظيم أن يكون الناس طراً باندلس قتيلا أو أسيرا.

المكتبة اليسوعية

دفعني انخراطي في هذا الهاجس إلى استطلاع كل شيء عن هؤلاء الأفراد، الذين تركوا وراءهم هذا الأثر التاريخي الشرقي الرائع. والذين لا زالت أسماؤهم تزين جدرانهم. ولهذا قررت النزول من عالم الحلم والقصص الشاعرية، إلى المكتبة اليسوعية في الجامعة، وهناك بدأت أبحث بين أكداس الكتب المغبرة. وهذه المكتبة بالرغم من أن أعمالها النادرة تعرضت إلى السرقة من قبل الإفرنسيين، عندما كانت لهم السيادة على غرناطة، إلا أنه بقي مع الآباء اليسوعيين الكثير منها، ولم يجروا الإفرنسيون على مسهم أو مسها. وفي ضمنها الكثير من الآثار الأدبية الإسبانية. وعدد من المقالات المخطوطة الملفوفة، التي كان لي اهتمام خاص باختراقها.

ولأنني أئتمنت على مفاتيح الأبواب في هذه المكتبة، وتركت وحدي دون أي إزعاج، قضيت ساعات طويلة هادئة في هذه المكتبة القديمة كما أشاء بعزلة نادرة.

كما لو كنت فيها بدير، أو كما لو كنت تلميذاً عطشاً للمعرفة إزاء منبع من المعارف.

وقد كشفت النقاب عن الكثير من الحقائق التاريخية، خلال زياراتي هذه، وعن شخصيات تاريخية تتصل بالحمراء، سأعرض بعضها على القارئ، عسى أن يلاقي منه قبولا:

مؤسس الحمراء

لأن العرب كانوا يعتبرون «الحمراء» معجزة فنية. ظهر في تقاليدهم ما يشير إلى أن مؤسسها كان يتعاطي سحراً كانوا يسمونه: «الكمي» أو — السيمياء — وبه استطاع أن يحول كما هائلاً من المعادن الرخيصة إلى ذهب، أنفقه على بنائها؟ ويعرف هذا الرجل في التاريخ العربي باسم: «محمد بن الأحمر». ويكتب اسمه عادة «الأحمر». وقد أعطي له هذا الاسم بسبب لون بشرته الحمراء.

وهو ينحدر من نبلاء بني نصر، أو قبيلة «بني نصر». ولد في «أرغونا» في السنة الهجرية 592هـ الموافقة 1190م. وقد طالع النجمون برجه، حسب التقليد الشرقي، فاعتبروه في فلك عال جداً، ولذلك تنبؤوا له بمستقبل ماجد. فلم يُبخل عليه بأي إنفاق تربوي كي يلاقي هذا المستقبل. وهو قبل أن يبلغ طور الرجولة، كانت «حرب السهول» في «تولوسا» قد دمرت الإمبراطورية العربية في إسبانيا، وفصلت مسلمي إسبانيا عن مسلمي أفريقيا. ونتيجة ذلك ظهر عند الأندلسيين

زعماء طوائف يطمحون إلى الاستقلال في الجزيرة. وانخرطت غرناطة بهذه الحروب، وكان صاحبنا قائداً من قواد بني نصر فيها. وهو في تعارض مع طموحات «ابن هود» ذي التجهيزات الحربية القوية في شعاب جبال «البقصارا» النبعة. والذي أعلن نفسه ملكاً على «ملقا» و«غرناطة» بعد عدة صراعات خاضها مع ملوك الطوائف التي كانت تحكمها، فخضعت الحمرا له، وأعلن بعد ذلك أنه خليفة على كل الأندلس. وكان رجلاً ذا نفس طموحة وكريمة، فما يناله بيد ينفقه بأخرى. وبعد وفاة «ابن هود» هذا عام 1238م. أعلن ابن الأحمر نفسه وصياً على كل أملاكه. ودخل غرناطة رسمياً بنفس السنة، مع هتاف الجماهير. التي اعتبرته أعظم موحد لتلك الانقسامات الملكية، التي تهدد بجعل الامبراطورية تحت رحمة أمراء النصارى.

ومن يومها جعل ابن الأحمر غرناطة قاعدة ملكه. فكان أول من شكل سلالة بني نصر فيها. واضعاً كل الاحتياطات التي تجعل من مدينته معقلاً، ضد كل الهجمات على مملكته الصغيرة، المحاطة بجيرانه النصارى الذين يمدون ويقوون حدودهم باتجاه عاصمته. وشكل جيشاً نظامياً لحماية معقله، لأنه لم يكن مقتنعاً بالقانون التقليدي القاتل: بأن كل مسلم جندي. وكافاً جنوده بثغر لكل واحد منهم على الحدود. كأجر لهم، مما مكنه من تقوية الدفاع عن أرض يملكها جنود. وقد أثبتت الأحداث صحة هذا المنهج. إذ أن النصارى كانوا ينتظرون فرص خلو الأرض بسبب حروب الطوائف، فيستعيدونها مباشرة وبسرعة. وهذا ما فعله «جيمس الفاتح» حين أخضع كل «فالنسيا»، و«فردناند القدس» حين أخضع قبل «جين» معظم ملحقات «غرناطة»، فاصطدم مع «ابن الأحمر» بساحات حرب اضطرت الأخير إلى العودة للاعتصام بغرناطة، فحصر العرب بهذا الجيب، بسبب مقاومة «جين»، بينما عمد «فردناند» إلى عدم مهاجمتهم حتى يجد في نفسه القوة الكافية لتدمير معقلهم هذا. مما بدا واضحاً «لابن الأحمر» أن سقوط مدينته صار وشيكاً، إذا هي حوصرت. وأدرك عدم فائدة حلفه مع «قشتالة» البعيدة، فاتخذ مبادرة سلام مفاجئة، حين ذهب إلى المعسكر المسيحي وبرز بدون توقع أمام الملك «فردناند». وبعد أن عرف عن نفسه بأنه ملك غرناطة، قال: لثقتي بحسن إيمانك جئت لأضع نفسي تحت حمايتك؟ خذ كل ما أملك واقبلني مولى لك؟ ثم انحنى وقبل يد الملك بطريقة أنيقة.

وبهذه الثقة ربح «ابن الأحمر» «فردناند» الذي كافأه عدوه السابق، بأن رفعه عن الأرض، وقبله كصديق، رافضاً ملكه. وتاركاً له هذا الاقطاع، مقابل جزية سنوية، يدفعها كغيرة من النبلاء في امبراطوريته. شرط تزويد جيش «فردناند» بعدد من الجنود في حال أي حرب مع أعدائه؟ ثم أعطاه مقابل ذلك لقب فارس وألبسه خلعة ودروع الفروسية بيده.

ولم يمض وقت طويل حتى دعا ابن الأحمر ليؤدي واجبه القتالي معه، ويدعمه - هذه المرة - في حصار «اشبيلية» الشهير. وهكذا ظهر هذا الملك العربي مع خيرة من فرسان غرناطة المشهورين باستعمال الحراب الطويلة، ليشهروا حرابهم وسيوفهم هذه المرة ضد إخوانهم عرب «اشبيلية» إخوانهم بالايما؟

وشكلت مشاركة ابن الأحمر في هذا الفتح. عبئاً كبيراً علي نفسه. لكنه ظل على عهد الفروسية مع فردناند. وعاد إلى إقطاعه حزينا عندما استسلمت «اشبيلية» المدينة العربية الشهيرة عام 1248م لملك قشتالة المسيحي. يردد عبارات كانت تصدر منه وقت حزنه وهي:

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل؟

لكنه دخل غرناطة دخول المنتصر من فتح فتحه. فخرج الغوغاء والعوام للترحاب به. خاصة وأنه كان محبوباً من الجميع. وحيثما سار كانوا يحيونه بعبارة: الغالب؟ .

لكن المسلمين في الحمرا كانوا يعرفون شعارهم الأساسي: شعار الأندلس ككل: «لا غالب لكم إلا الله». وهو ما رفعه كي يخفف من غلواء عوامه. فظل شعاراً أساسياً لكل خلفائه من بعده. وهو موضوع إلى الآن في قاعات الحمرا.

إلا أن ابن الأحمر كان يعرف أن خضوعه للنصارى، لن يجعلهم يقبلون به مدة طويلة، بسبب ذاك العداء المديد والراسخ بين الفتنتين. لذلك عمل بالمثل القديم: «اشتر ثياب الشتاء في الصيف، وتسليح في وقت السلم». ولهذا زاد من تحصين قلاع ملكه، وقوى دفاعاته، وأغدق على كل علم وفن يزيد من قوته. وولى على مدنه رجالاً صالحين يقبل بهم الشعب، ونظم الشرطة، ووضع قوانين صارمة لحماية العدل. وكان يجلس بنفسه للقضاء بين الناس، دون أن يبخس حق فقير أو مظلوم. كذلك بنى «التكايا» لغير القادرين على العمل، و«المارستان» للعميان

وكبار السن. وأشرف على كل هذا بنفسه، معطياً لكل شيء وقته وحقه ونظامه. لدرجة أنه كان يتعرف بنفسه على كيفية علاج المرضى، ويحقق في أي سوء طبابة يقلقونها. وأوجد المعاهد والجامعات وأشرف عليها بنفسه.

وأهتم أيضاً بتوجيه الدراسة فيها، وزيارتها بين فينة وأخرى. وبنى المسالخ والأفران العامة، ليضبط أسعار الغذاء. وهو الذي جر الماء إلى المدينة، لدورها وحماماتها وبركها، فشكل نظام سقاية زاد من سعة خضار الوادي ككل. وهكذا ازدهرت المدينة وزاد جمالها بهاءً. مما جعل التجار يطرقون أبوابها، فامتلأت بكل السلع من كل مكان في البلاد.

كذلك أعطى امتيازات للحرفيين، وعمل على تحسين سلالات الخيول وباقي الحيوانات، ودعم الزراعة وحتى المزارعين، مما جعل هذا الوادي الخصب في مملكته حديقة غناء. فازدهرت صناعة وزراعة الحرير لدرجة تفوق بها حرير غرناطة على الحرير السوري بجودة صناعته. والأهم من كل هذا أنه استخرج مناجم للذهب والفضة والمعادن التي وجدت في المناطق الجبلية التابعة له. فصنّع هذه المعادن، وكان أول من يصك العملة باسمه، من ملوك غرناطة بصناعة نقدية متقنة.

وهو لم يبدأ ببناء قصر الحمرا إلا بعد عودته من «إشبيلية»، منتصف القرن الثالث عشر. وأشرف على بنائها بنفسه، موجهاً العمال والفنانين فيها.

ورغم كل هذه الصفات الرائعة العظيمة فيه، كان متواضعاً، معتدلاً في نزواته، فثيابه أنيقة، لكنها لا تمتاز عن ثياب رعيته، وحريره جميالات لكنهن قليلات، ولا يزورهن إلا قليلاً رغم تمتعهن بكل الإمكانات. وكانت زوجاته من بنات نبلائه، يعاملهن كصديقات ورفاق حياة عاقلات. وهن مع بعضهن بالمقابل يعشن بصداقة. وكان يقضي كثيراً من وقته في حدائق قصره، في الحمرا. حيث زود هذه الحدائق بأندر النباتات، وبأجمل عبق الزهور. وهو يقرأ التاريخ. أو يستمع لقارىء يقرؤه له، ويشرف على تثقيف أولاده الثلاثة، الذين يقوم على تدريسهم أفضل المعلمين أيضاً.

وقد ظل على ولائه لفردناند يؤدي له الجزية التي فرضها على نفسه، كدليل صداقة. وعندما مات «فردناند» في «إشبيلية» عام 1254م، أرسل سفراءه مع مائة فارس عربي إلى وريثه «الونزو العاشر» وواكبوا الجنازة برتبهم المختلفة الرفيعة

وشاراتهم. وكرر هذا الأمر بموت الملك «فردناند آل سانتير» الذي سار معه من الكاتدرائية إلى مرقد، مائة فارس عربي برماحهم الطويلة.

وعمر ابن الأحمر إلى أن بلغ السابعة والتسعين عاماً، ومات عام 1272م. وحادث موته كان إثر خروجه لرد غزوة عن مملكته بصحبة فرسانه، فكسر أحدهم رمحه الطويلة وهو يخرج من باب الحصن، ولأن ذلك كان يعد نذير شؤم، عاد الملك متطيراً ليقع فوراً بالمرض، ولم يعد يقوى على ركوب الخيل. ورغم إخراجه إلى الوادي، زاد مرضه دون أن يعرف الأطباء سبب ذلك أو علاجه. ومات بعد عدة ساعات وهو يتقيأ الدم بشكل عنيف. وكان بجانبه الأمير القشتالي «دون فيليب» أخو «آلونسو العاشر» عندما لفظ أنفاسه. فكفن ووضع بتابوت فضي. ودفن تحت قبر رخامي في الحمرا، مشيعاً بصرخات شعبه الذي ودعه كمن يفقد أباً.

هذا المؤسس الأول لملك بني نصر في إسبانيا، كان مؤسس آخر مملكة عظيمة من ممالك المسلمين القوية الرائعة في الجزيرة «الإيبيرية» أيضاً. والتي بلغت بصيتها أقصى الممالك، وبعظمتها أقصى هيبة. ولأن خزائنها كانت مليئة دوماً، كانت الشائعات بأن ملكها يتعاطى «السيمياء» والسحر، وأنه كان يعرف سر تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. أما الذين كانوا يعرفون طبيعة ذاك السحر والسيمياء البسيطة في سياسته ومنهجه الحكيم الذي نهجه في حكمه، فهم الذين يعرفون بسهولة السبب الذي جعل خزائنه مليئة دوماً بالذهب !! من الحكمة.

الذي أنسى بناء الحمرا يوسف أبو الحجاج

سأضيف لمحة موجزة عن الملك الذي أنهى بناء الحمرا: «يوسف أبو الحجاج» - أبو الحجاج - أو كما يكتب اسمه أحيانا: «هاكسس». إضافة إلى ذكر الأمراء الذين حكموا هذا المكان.

وهو واحد من نبلاء آل نصر. استلم تاج غرناطة عام «1333م». ووصفه المؤرخون المسلمون بأنه: كان نبيلاً قوي البنية، أشقر الملامح، ذا حضور مهيب، ولحية طويلة يصبغها باللون الأسود. رقيقاً مرهف الإحساس، ومتمدناً إلى أبعد الحدود. ويحمل صفاته هذه معه إلى كل الحروب، مانعاً كل قسوة وتعدي فيها. فكان يحمي الأطفال والنساء العجزة من مصائبها، كما كان يحمي رجال الدين المسيحي حين كان يهزم جيوشهم. وكان شجاعاً ذا نفس عالية، وعبقري سلم أكثر منه عبقرى حرب. فرغم اضطراره لها كان لا يحالفه الحظ فيها.

ومبادرته بالتحالف مع ملك مراكش، لم يكتب له الحظ فيها ضد ملك قشتالة والبرتغال. فهزم في المعركة الشهيرة «سلا دور» التي شكلت ما يشبه الضربة القاضية للنغوذ الاسلامي في اسبانيا.

وبعد هزيمته حصل «يوسف» على هدنة طويلة، أظهرت شخصيته الفذة في السلم. فقد كان موسوعة علم وثقافة، ذا ذاكرة فائقة، ورهافة شعور، مما مكنه من أن يكون أفضل شاعر في عصره. وهو الذي كرس نفسه لرفع معنويات شعبه وسلوكهم، فأسس المدارس في كل قرية، على منهج موحّد بسيط، منقياً المشاعر الدينية من البدع. والأعياد والاحتفالات منها أيضاً. ضابطاً سياسة المدن بتكثيف دوريات الحرس فيها. كما كان يشرف بنفسه على الشؤون المدنية، موجهاً جل اهتمامه إلى إكمال فن العمارة الذي بدأه أسلافه، وهو يوجه الكل للأخذ بخططه. وقد كانت الحمرا التي بناها وأوجدها الفاضل ابن الأحمر هدفاً من أهدافه الأساسية، فتوجه كلية لإنهائها. ولهذا أسس باب العدالة كمدخل رئيسي للحصن الذي أنهاه عام 1348م. كما أنهى بناء الكثير من قاعات القصر، ويمكن رؤية ذلك على النقوش الجدارية الكثيرة فيه، حيث يتكرر اسمه عليها.

كذلك بنى قلعة - مالقا - «مالاغا» الرائعة في «الجزائر» - القصر - وهي اليوم ولسوء الحظ كتلة من الخراب. لكن الذي كان فيها يشبه ما في الحمرا، روعة وبناء وعمارة.

هكذا ترك بصمات عبقرية على ما بقي من زمن العرب هناك، فغرناطة الشريفة التي ملئت بالقصور المشرفة، المرصوفة قاعاتها بالموزاييك وسقوفها وجدرانها بالأرابسك، المدهون بدقة بالأزور وغيره من الألوان المشرقة. والمدعمة بالأرز وباقي الخشب النفيس، وغيره من المواد التي نجت من تقلبات الزمن عبر العصور، عكست كلها ذوق «يوسف». كما عكست ذاك الفن الراقي الرفيع لشعب راق ورفيع. فقد كان للكثير من البيوت فستقياتها، وبركها التي تقذف الماء في الهواء لإنعاش المكان، ولها أيضاً أبراج. من الخشب أو الأحجار المحفورة بدقة والمزخرفة، أو المغطاة بصفائح المعدن المتألق في أشعة الشمس. فإذا استخدمنا عبارات الكتاب العرب عن غرناطة قلنا: «لقد كانت غرناطة في أيام يوسف إبريقاً من الفضة المملوء زمرداً».

ويكفي ذكر واقعة واحدة لإظهار عظمة هذا الأمير الكريم. فقد أدت الهدنة الطويلة التي أعقبت معركة «سلا دور»، والتي باءت كل جهود «يوسف» بالفشل

لتجديدها، مع عدوه المميت «الفونسو الحادي عشر» صاحب «قشتالة»، أدت إلى حصار جبل طارق. وذون جدوى حاول يوسف مراراً رفع هذا الحصار. وفي غمرة هذا التوتر، تلقى نبأ بأن خصمه المميت قد وقع ضحية الطاعون؟ وبدل أن ينتهز هذه الفرصة، يعيدنا يوسف إلى ماضي العرب المشرق في مثل هذه الظروف حين يحزن عليه ويقول: «إن العالم قد خسر أحسن أمرائه»، فهو رجل يعرف كيف يقدر الامتيازات بأصدقائه وأعدائه.

والمؤرخون الإسبان الذين شهدوا على هذا القول، أكدوا أن فرسان العرب، ولتأثرهم بقول أميرهم هذا، أعلنوا الحداد على موت «ألفونسو». ولم يقم أي منهم من الذين كانوا قرب جبل طارق المحاصر بأي عمل عدائي ضد المسيحيين أثناء الحداد. وخاصة حين انقسم معسكرهم وانسحب الجيش حاملاً جثة «الفونسو» على مرأى من الفرسان العرب الذين لم يتحركوا حداداً عليه. والواقع أن هذا ما حصل على كل الحدود، وما فعله القادة كافة، كما رصد ذلك المؤرخون، فمرت الجنازة بأمن وسلام بالنعش من جبل طارق إلى إشبيليا.

ولم تمتد الحياة «بيوسف» كثيراً بعد عدوه الذي عامله بمنتهى الكرم، ففي عام 1354م، بينما كان يصلي في مسجد الحمرا اغتاله مجرم متمسحن متعصب، حين طعنه بسكين في جنبه، فاندفع حرسه وبطانته لمساعدته، فوجدوه مكللاً بدمائه، ويحاول أن يقول شيئاً: لكن كلماته لم تكن مفهومة، فحملوه إلى جناحه في القصر حيث توفي فوراً. فغضب الجمهور وقطع القاتل قطعاً ثم أحرقه.

أما جسد الملك فقد دفن في قبر رخامي أبيض، كتبت عليه آيات بالذهب والأزور، تذكر فضائله وتقول: «هنا يرقد الملك المجاهد الشهيد، النسيب العالم، الرفيع الفاضل، المحيي لسنن آبائه وفضائلهم. وأياديه البيضاء التي تنعم بفضلها مملكة غرناطة، تدل على أمير عظيم، وقائد مرموق، وسيف من سيوف الاسلام الماضية. وواحد من أفضل السلالات الملكية».

والمسجد الذي شهد مصرع «يوسف» لا زال باقياً، لكن النصب الذي وضع لتخليد فضائله، أزيل منذ زمن بعيد. بينما لا زال على كل حال اسمه يدل على عظمته على جدران قصر الحمرا، ليدل بدوره عبر الزمان على مدى صلة هذا النصب الضخم به، معبرا بفخر عن جمال مبهج خالد.

الغرفة الغامضة

في إحدى قاعات القصر باب بعيد ، لفت انتباهي له التحف الفنية التي تحيط به ، وتحف من كل جانب. فهو حتماً وكما يبدو متصل بمكان ما في الحمراء لم أكتشفه بعد. لذلك حاولت فتحه فوجدته مقفولاً ، وحين قرعت عليه لم يجب أحدٌ ، وبدا صدى قرعاتي ترددها قاعة خاوية. فكيف علي أن أدخل هذا الجزء السري المغلق عن عيون الناس ؟ الذي تراءى لي فيه سر جناح مسكون ؟ فهل علي أن أحضر في المساء سيفي ومصباحي كما يفعل من تحكي عنهم القصص الرومانطيقية ؟ أم أستدرج فلاح الحديقة الثرثار ليبوح لي بهذا السر ؟ أم دولوريس ، أو ماتييو الثرثار ؟ أم يجب أن أذهب إلى العمة أنطونيا وأطلب منها بصراحة لتميط لي هذا اللثام ؟ فطبعاً اخترت هذا كأبسط الأفكار وأقلها رومانطيقية. وحين رحبت بفتح الباب ، وأعطتني المفتاح ، دهشت لأنني وجدت أن ليس هناك سر «ولما يحزنون»

فعدت إلى الباب والمفتاح بيدي ، وفتحت له لأجد أمامي غرفة فارغة. تختلف عن بقية القصر، إذ رغم غزارة الفن المعماري فيها وقدمه إلا أنه فن أوروبي ولا شيء عربي فيه، وقد تأكلت القاعتان الأولى والثانية، وكذلك سقفهما المبني من خشب الأرز المقطع بعدة أماكن، والمحفور عليه الزهور والفواكه المتداخلة برسومات تشبه أقنعة الوجوه.

أما الجدران التي كانت في الماضي مستورة بستائر «الدامسكو» فهي الآن عارية، وتذخر بالأسماء التي تركها عليها زوارها من السياح، بشكل فوضوي. والشبابيك مفتوحة ومتروكة للرياح لتلعب بها. وهي تطل على حديقة منعزلة، فيها نافورة ماء جار تتدفق ببركة محاطة بالزهور، وتطوقها أشجار الليمون والبرتقال التي تدخل بعض أغصانها من هذه النوافذ. وخلف هذه القاعة، صالونان أطول منها وأقل تأكلاً، يشرفان على نفس الحديقة، زين سقف كل منهما بوسطه بسلة من الفواكه المنحوتة والزهور المحفورة بالسقف، والمدهونة بشكل سيء. لتشكل منظراً غير مستحب. أما الجدران فمدهونة ومزخرفة على الطراز الإيطالي. ويكاد دهانها أن يختفي كلية. وشبابيك هذه القاعة على نفس حال تآكل شبابيك سابقاتها. وتنتهي هذه القاعة بمتحف - «غاليري» مفتوح على درابزين يمتد بزاوية اليمنى على الجهة الأخرى من الحديقة. وقد أيقظ بي هذا الجناح الأنيق ككل، والمزخرف جداً، والممتاز بعناية ليطل على حديقة معزولة والمختلف بفن عمارته عن جاراته من الأجنحة الأخرى في هذا القصر، أيقظ بي حب استطلاع تاريخه. وبعد تقص عرفت أنه من صنع فنان إيطالي في بداية القرن الماضي - الثامن عشر - أيام «فيليب الخامس» وزوجته الثانية «اليزابيث الفرنسية» ، ابنة دوق «بارما» التي كرست هذه الشقة لها ولحاشيتها، عندما كان من المتوقع وصولها إلى الحمراء. وخصصت للملكة أكثر غرف النوم راحة، والتي تصل إليها من داخل هذا الجناح بدرج، هو الآن مغلق، ويقود إلى غرفة سلطان عربي متصلة بشقة حريمه. التي أعيد تأثيثها كي تصبح ملائمة لنوم «آلهزابيث» الشقراء، وعليها اسم لازال بارزاً وهو: مكان زينة الملكة «توالييت»

وأحد شبابيك هذه الشقة يشرف على المنظر العام للقصر وخارجه، والآخر على الحديقة سالفة الذكر، وذات الطابع العربي الأصيل. وذات التاريخ الخاص

بها أيضاً. فقد كانت هذه الحديقة حديقة «ليندا رقصا» التي يذكر اسمها كثيراً على جداريات الحمرا. فمن هي «ليندا رقصا» هذه وماذا كانت؟!

هذا ما لم يوضحه لي أحد، لكن بعض البحوث التي قمت بها، مكنتني من أن أعرف بعض الأشياء عنها. فقد كانت غانية جميلة معروفة في عصر وقصر السلطان «محمد الأعسر» وهي ابنة تابعه المطيع «الأسيد» - سيد - ملقا، الذي آوى السلطان في مدينته حين طرد من العرش، وعندما استعاد ملكه كافأه على إخلاصه، فكان لإبنته جناحها الخاص في الحمرا، وبه زوجها إلى الأمير «نصر» الشاب المنحدر من سلالة «ابن هود» العادل. واحتفل بزواجها في القصر الملكي في الحمرا حسب عادة تزويج الأسياد في القصر الملكي، حيث تخصص لدخلتهم شقق خاصة. وهنا حتماً تم الاحتفال بدخولهما معا في هذه الغرفة.

لقد انقضت أربعة قرون على موت «ليندا رقصا» ولم يبق إلا ظلال الجمال الهش للمكان الذي شغلته!! لكن الحديقة لازالت تزهر كما كانت، ولا زالت البحيرة تغدق بالماء كالمرآة التي عكست في يوم من الأيام سحر - ليندا - الفاتن. لكن المكان فقد نضارته، فامتألت «جرون» الحمام بالطحالب، وعشعشت به السجالي. ففي المشهد ككل، تداعى يدل على عرضة الإنسان مع كل ما يتركه من صنعة.

كذلك طوت هذه الجدران فخر ونضارة وأناقة «أليزابيث» وانعكس كل هذا عليّ بلمسة سحر، كأني أقف أمامهما، وبحضورهما الرائع، وهما تتألقان وتؤلّقان روعة القصر.

لكن كل شيء عاد عادياً، عندما عدت إلى مخدعي في شقة الحاكم. بعد أن تركت ذاك القسم الشعري. وتداعيت علي الأفكار: فما المانع أن أغير مكان إقامتي إلى تلك القاعات؟ التي بها وحدها يمكن القول: إنني أعيش في الحمرا، محاطاً بحداثتها ونوافيرها، تماماً كما في أيام العرب بذروتها. وعرضت الأمر على العمة أنطونيا وعائلتها، فأبدوا الاستغراب؟ إذ كيف يمكن لأي شخص عاقل أن يختار جناحاً منعزلاً موحشاً ومنفرداً؟ وتساءلت «دولوريس» عن أي شيء يمكن أن يوجد هناك سوى البوم والوطواط، والثعالب التي ترتع مع القطط الوحشية في تلك الحمامات، وتجول وتصول في الليل؟ وكان للطيبة «تيا» اعتراض أكثر منطقية، فبجوار هذا المكان على الهضاب يتجول الشذاذ من الغجر،

والقصر خرب، ومن السهل دخوله من كل مكان. وبمجرد أن يشاع أن فيه غريباً وحيداً، في شقة قصية متهدمة، بعيداً عن سمع الباقين من سكانه، قد يغري ذلك بزوار غير مرغوب بهم ليلاً. إذ من المفروض أن الغرباء مليئة جيوبهم بالمال؟ ورغم تأثير مقاله هؤلاء الطيبون على معنوياتي، بقيت على مزاجي المرح ولم أغير رأيي؟ فأصلح مرافقي الرسمي «ماتيو» بعون أحد النجارين الأبواب والشبابيك

بشكل آمن نسبياً، وهيؤوا غرفة نوم «اليزابيث» لإستقبالي. وتطوع «ماتيو» بالنوم كمرافق حراسة، في غرفة مقابلة. دون أي ميل لي باختبار ولائه هذا.

ومع كل الجهد الذي بذلته، وكل الاحتياطات التي اتخذتها، أعترف بأن الليلة الأولى التي قضيتها هناك، قضيتها بحالة ترقب لا يمكن التعبير عنه. والسبب ليس فقط من خوف الخطر الخارجي. بقدر ما هو بسبب هذا المكان الخاص بحد ذاته. مع كل ما رافقه من غرائب في الماضي: فأفعال العنف التي ارتكبت في هذا المكان، والنهايات المحزنة لمن حكموا هنا، كانت عجيبة.

وفيما كنت أجتاز برج التجار باتجاه غرفتي هذه، استدعى عقلي شعراً كان يثيرني زمن الصبا، وفيه:

يجلس القدر العابس في تلك الليالي المعتمة.

وحين يفتح الباب لأدخل.

يتردد صوت الصدى من جدران القصر.

مليئاً بأفعال أناس لا مسمى لهم.

وكانت كل العائلة ترافقني إلى غرفتي، كما لو أنني ذاهب لأنخرط في مغامرة. وعندما غابت أصوات أقدامهم وهم عائدون، يردد صداها قاعات «الغاليري» وأقفلت غرفتي علي، تذكرت إحدى قصص المردة، حيث يترك البطل لينجز مهمته وحده في البيت المسكون.

والذي أضاف سحراً للسحر الذي أنا فيه، أفكاري حول «اليزابيث» الشقراء، وجمال مرافقاتها الملكيات، اللواتي شرفن هذا المكان في يوم من الأيام. فهذا المسرح الذي تجلى فيه حسنهن وفرحهن. وهنا الآثار الباقية التي مرت

عليها متعهن وأناقتهن: ولكن أين كل هذا؟! أشباح ذكرياتهن فقط!! والباقي رماد وغبار!! تراب إلى تراب في قبورهن؟!!

لقد كان ينسل نحوي التزام غامض، عللته بأنه من فكرة إمكان وجود لصوص في هذا المكان، التي أثارها حديثنا المسائي السابق، لكنه في الواقع شيء غير حقيقي. قد يعود إلى خرافات قديمة مدفونة في لاشعوري، تعود لتؤكد وجودها عبر خيالي. هذا الخيال الذي راح يؤثر حتى في الأشياء المحيطة بي. فهمس الريح في أشجار الليمون تحت شباكي، صار به شيء ذاتي. وحين حدثت بحديقة «ليندا رقصا» تراءت لي أشباح تتحرك في الظلال. فأغلقت النافذة، لتمتد العدوى إلى غرفتي بذاتها، ففوق رأسي صوت خافت أعقبه انطلاق خفاش من شق من السقف، ليملأ الغرفة حركة أدت إلى إطفاء فانوسي. وهذا الطير الذي كاد أن يلامس وجهي بحركاته السريعة، كان كمن يصرخ في وجهي حقاً.

ولكي أخرج نفسي من هذا الضعف المؤقت الذي سيطر عليها، شجعت ذاتي بأنني إزاء أرواح أبطال تسكن هذا المكان المسكون. فاشعلت مصباحي ثانية وتجولت رغم كل هذا الضغط النفسي، ليحاصرني ضوءه حولي وأنا أتحرك بهذه القاعات الواسعة، ويمتد لمسافة قريبة جداً أمامي، فسرت وكأنني محاط بهالة في ليل حالكة غير قابل للاختراق. وراحت الممرات كالسراديب مع السقف تومض وتعلم. فعاد لي الشعور بالخطر، وتذكرت كل ما ذكر عن هذه الغرف النائية. فهل يوجد متطفل ما يسير خلفي أو أمامي، في هذا الظلام الحالكة الوقب. وبدأ خيالي يزعجني حين راح يتمدد على الجدران، ويوقفني صدى خطواتي عبر الممرات لأنظر حولي. وتابعت بممر قادني إلى المسجد الذي كان فيه الملك العربي الذي أنهى بناء «الحمرا» «يوسف»، وبه قتل. وفي مكان آخر، وصلت إلى متحف صالون قتل فيه ملك آخر، من قبل ربيبه ومحل ثقته الذي كان يحبه.

ثم راحت تصل إلى أذني في تلك اللحظة الأصوات الخافتة كقرعات السلاسل الهامسة، من قاعة «ابن سراج». وكنت أعرف أنها من حركة مجاري الماء تحت القاعة. لكنها تبدو الآن غريبة في هذا الليل. فتذكرت القصص التي أنكرتها حول هذا المكان وقد قيلت في وقتها.

وبينما أنا كذلك، وصل إلى أذني صوت أوضح من أن يكون من صنع الخيال، وأنا أجتاز قاعة السفراء، وكأنه أنين لا يتقطع يتبع أقدامي. فتوقفت

وانصت ١٩ ليبدو وكأنه آت من خارج البرج، ثم اقتحم وأصبح من داخله كما لو كان عواءً لحيوان، فآثر ذلك علي بشكل قوي، فعدت أدراجي إلى غرفتي، مسرعاً، إذ لم يعد لدي أي رغبة بالتقدم . ودخلتها بسرعة أكبر لالتقط أنفاسي فيها، وأقفل الباب.

وحين شع ضوء الصباح من شباكي، وأضاء كل المكان، بشعاعه المبهج، استيقظت وأنا ناس تقرباً أوهام ومخاوف الليلة السابقة. فمن غير المصدق أن المشهد الرائع المحيط بي الآن، هو نفسه الذي غلل تصوراتي المربعة في الأمس.

وحينما أكدت لي دولوريوس وجود وحش افترس أخاً لعمتها، عندما كان مرة في قاعة قريبة من قاعة السفراء، وعلى حين غرة. تأكد لي أن الصوت الذي سمعته في الليلة الماضية، لم يكن كله ناجماً عن مثال خيالي.

ومع مرور الأيام تغير المشهد وما يصاحبه من رؤى، فالقمر الذي كان يضيء المكان أول تواجدي فيه. اختفى تدريجياً، فزاد الظلام في الليل. ثم عاد بكامل بهائه فوق الأبراج، ليضيء كل مكان وقاعة، وحديقة تحت شرفتي. والتفت اشجار الليمون بلطف بضوئه الفضي، وتلألأت النوافير عبر شعاعه الذي يخترقها، لدرجة أنه حتى حمرة الورد صارت مرئية بشكل باهت نوعاً ما.

كذلك صارت اشعار العرب المكتوبة على الجدران بادية أتذوق جمالها، مما جعل جمال هذا المكان كالجنة السماوية، تزينها الحقائق. والورود فيها كالنجوم. ولا يملأ البركة بمائها الكرسالي الذي به تصبح أشبه بالمزهريّة، إلا ضوء القمر حين يصير بدرًا، وهو يضيء من وسط السماء الصافية، بلا غيوم.

آه ... من هذا المنظر الفردوسي الليلي الذي يجعلني أجلس الساعات في شباكي، لأنهل من أريج حديقته أعذب الهواء، وأفكر بأولئك الذين صنعوا التاريخ عبر ظلالهم المتروكة هنا، في هذا النصب التذكاري الأنيق. فحين تدق ساعة منتصف الليل من كتدراثة غرناطة. يخيم الهدوء، فأبحر في جولة أخرى كل يوم بيم عجائب هذا المكان. بشكل يختلف كلية في كل مرة عن جولتي الأولى فيه!! فلا غموض الظلام أصبح مجهولاً، ولا الظلال مربعة. كذلك لم أعد أتذكر أي مشهد عنف أو جريمة حصلت هنا. فقد فُتح كل شيء أمامي عبر جماله وبهائه، ليستدعي كل التصورات الرومانطيقية المسرة. لتتألق قاعة السباع مرة ثانية وكأن «ليندارقصا» تسير في حدائقها، وفارس غرناطة العربي يحيا في

قاعاتها. فكيف لي أن أجزي القمر فيما يقدمه هنا ويفعله بهذا الجو وهذا المكان. مع الطقس المعتدل الرائع لمنتصف ليل الأندلس. والذي يجعلنا نرتفع إلى فضاء أظهر، لنشعر بروحية الروح السماوية التي تعطي الوجود سعادته. وكأن الحمرا قد استعادت عظمة طهرها ، بتأثير ضوء القمر الأثر. وبهذا تختفي كل المضايقات وحجب تبدل الطقس، ليعود إلى الرخام بياضه الأصلي، وتنصع جذوع الصفصاف بلون أشعة القمر. وحين تشرق القاعات بهذا الضوء الخافت، يستعيد القصر المسكون حكاياه العربية.

وأي بهجة يمكن الحصول عليها في مثل هذا الوقت، أكثر من النزول إلى غرف زينة الملكات، التي تبدو كأقفاص الطيور فوق وادي «داره» تتأمل زهر الأوركيد الأبيض الذي يزينه. وعلى اليمين يشرب جبل «سييرانيفادا» ليضيف إلى نعومة ما حوله صلابة قصة خرافية، يكللها برأسه الثلجي كالفضة التي تخترق السماء الزرقاء، ثم لينحني على مرتفعات «التوكادور» — تلك الدور — ليحرق في الأسفل بغرناطة وبركها المنثورة تحته كالخريطة. وحين ينام القصر الأبيض في شعاع القمر، يختفي الوادي خلف كل هذا الغمام، مثل بلاد الأحلام البعيدة.

ومن «اللاميدا» - المدى - تسمع أحياناً دقات صنجات اليد، من مدى، حيث يرقص أندلسي مرح في ليلة صيفية، أو تسمع أحياناً أخرى نغم «غيتار» موقع على ألحان حب. يحكي قصة عاشق تحرك بشعاع القمر نحو شباك حبيبته التي غادرها من زمن.

وكل هذا الوصف غير كافٍ وضحل، لليالي القمرية التي قضيتها أتجول في الشرفات والقاعات، والأبهاء، في هذا الأثر الموحى الذي ملأ تخيلاتي وغذاها بحلاوة رائعة ومتعني بخليط من المشاعر التي سرقت وجودي بذاك الجو الجنوبي. جاعلة من المساء صباحاً قبل أن أخلد إلى النوم في كل ليلة. يهددني فيها خريف ماء بركة «ليندا رقصا» كل استغراق حالم.

منظر عام من «برج التجار»

اعتليت برج التجار، في صباح يوم جميل مشرق، قبل أن تتمكن الشمس من تدمير شذى الليل المنعش. وأخذت منه منظراً عاماً عن غرناطة وجوارها.

فتعال معي لترافق خطواتي أيها القارئ. مع كل نقلة غنية قبل أن نصل إلى قاعة السفراء. ونحن لن ندخل القاعة، بل سنتجه إلى ذاك الباب الصغير المفتوح في جدارها الجانبي. ونصعد بدرج متعرج لولبي، قليل الإضاءة، يجلب الإنتباه لخطانا فيه. هذا الدرج الذي سلكه الملوك رغم كل رفعتهم، ليصطحبوا زوجاتهم كي ترى استعراض جيوشهم العائدة من الغزو، أو ليراقبوا بكل جوارح قلوبهم المعارك التي كانت تحدث في الوادي المهمل «فيغا» أمامهم.

وإذا وصلنا إلى السطح لنلتقط أنفاسنا على «تراسه» سنجد أننا إزاء منظر «بانورامي» عام جميل للمدينة والريف حولها. وللجبال الصخرية والسهل

الخصب. والآثار المبعثرة بأخاديد تتعشقها. ثم لنقترب من ساحات المعارك حين ننظر فوراً إلى الأسفل. ألا ترى على هذا الجانب كل سهل الحمرا مفتوحاً لناظرنا بحيث نستطيع رؤية قاعاته وحدائقه. وأسفل البرج يمكن رؤية قاعة البركة بخزائنها المليء بالمسك، والمسيح بالورود. وخلفه قاعة السباع بنوافيرها الشهيرة ولونها العربي الفاتح. ووسط هذا النصب الضخم، تقبع حديقة «ليندا رقصا» الصغيرة، بمركز القلب من هذا البناء. بكل زهورها وأشجار ليمونها، ولونها الزمردى الأخضر.

هذا الموقع الحربي الذي يلف كل الهضبة بأبراجه المربعة الشكل، هو الجد الخارجي للحصن، يمكنك أن ترى فيه بعض أبراجه المخربة، وقطعاً ضخمة منها تدفنه أشجار التين.

لننظر إلى الجانب الشمالي من البرج، إذ يبدو ارتفاعه شاهقاً جداً، لأنه يقبع على منحدر أساسي فوق التل المنحدر بشدة. ألا ترى الشروخ الطويلة في الجدران الضخمة التي تدل على أن البرج قد تعرض للزلازل التي تهز غرناطة من وقت لآخر. والتي تتضافر مع الزمن على تحطيم هذا الرمز ككل. وتحتنا الوادي الذي ينفتح على سهل «داره». ألا ترى هذا النهر الصغير كيف يشق طريقه تحت السطح الذي نقف عليه، بين الزهور والأوركيد في الحديقة. لقد كان هذا النهر مشهوراً باحتوائه على الذهب في الزمن الغابر. ولا زالت رماله تغربل بين وقت وآخر بحثاً عن المعدن الثمين. أما هذه الأرضية البيضاء التي تزين الممرات وبعض الشرفات، فقد كانت أماكن استراحة يجلس عليها العرب، للتمتع بنضارة الحدائق. والتي شَبَّهها بعض شعرائهم بالؤلؤ المزين لصفحة من الزمرد⁽¹⁴⁾.

والقصر الصيفي للملك العرب، الجيد التهوية، بأبراجه الطويلة ودعائمه التي تبدو كالجبل الذي تطوقه الحدائق، بعيد عن مجال الحمرا الأكثر حراً. ومنه تستطيع أن ترى بعض الخرائب في «سيلاري مورو» الذي كان مجلساً للعرب،

(14) : عن الحلل السندسية مرجع سابق مج 1 كقول ابن سفر المريني:

أنهارها فضة، والمسك تربتها والخز روضتها والدر حصباء.

الذين انسحبوا منه أيام «ابو عبد الله» يوم الفتح الإسباني. ليتركوه وحيداً ناحياً ينظر إلى مدينته المتمردة.

وخرير الماء الذي يسمع بين حين وآخر في الوادي من ناعورة عربية قديمة تنن، يقع على أقدام الهضبة تقريبا. ويقود طريق الأشجار وراءه إلى «الميدا» - المدى - حول شط «داغرو» - داره - الذي يشكل منتجعا منفصلا في المساء لاجتماع العشاق في الليالي الصيفية، ومنه تخرج نغمات «الغيتار» من وقت لآخر. أما الآن، فليس فيه إلا بعض الرهبان وسقاة الماء، الذين يحمل أحدهم جرة ثقيلة مصنوعة من الفخار بطريقة شرقية، مثل التي كان العرب يستخدمونها. وقد ملأها من نبع بارد اسمه «لافلانوس» - نبع ابن الأنيس - الذي يتدفق من عين الدمع، من مصيف بالجبل، ذكره الرحالة «ابن بطوطة» حين ذكر قصص الحب عند الأندلسيين وتاريخهم.

ولما كان هذا البرج العالي الذي نحن فيه، أفضل مكان للعقبان، أخافنا صقر يحمي عشه وصغاره فيه، وهو يدور حوله طول النهار. أما في الليل حيث تنام الطيور، فيخرج البوم لينعيب على أطلال القصر نائحا على قتلى المعارك فيه. ويمكنك أن تنظر إلى الصقر الذي أخافنا، كيف هبط تحتنا ليستقر على قمة شجرة هنيهة، أبحر بعدها إلى السهل الأخضر المفتوح !!

أما إذا رفعت عينيك إلى الثلوج التي تكلل الجبل وتضيئه كغيمة صيفية في السماء الزرقاء، فسترى «سييرانيفادا» رمز غرناطة الشرئب، ومصدر هوائها العذب، وينابيعها المتفجرة، ونوافيرها الفوارة، وجداولها المترققة. وهذا الصرح الجبلي هو الذي يعطي غرناطة بهجة، نادرا ما توجد في المدن الجنوبية. فالخضار-الطازجة، والطقس الشمالي، مع الشمس المشرقة، واللون اللازوردي للسماء الجنوبية، والكنز الثلجي الذي يذوب ببطء مع زيادة حر الصيف فيحرك كل جدول باتجاه «البقصارا» كل هذا هو الذي يعطي لهذا الوادي خصبه، ويمتد إلى كل وادٍ يليه.

هذه الجبال هي مجد غرناطة، وتسيطر على كل ناحية الأندلس القديمة، ويمكن رؤيتها من كل البلاد الأندلسية، وقممها تطل حتى على أبعد السهول. كما يستطيع كل بحار إسباني أن يلحظ تلك القمم من أبعد نقطة في البحر المتوسط. ليذكر فوراً رقة غرناطة، ويغني لها بصوت خافت أغنية أندلسية عربية

قديمة. وعلى أعتاب هذه السلاسل الجبلية، هضاب تتحرك عليها قوافل البغال ببطء يكمل أثر مشهد التواجد الإسلامي القديم. ومن إحدى هذه الهضاب، ألقى تعميس الحظ «أبو عبد الله» نظرتة الأخيرة على غرناطة، وأطلق آخر تنهيدة عليها.

وعلى أحدها الآن توجد بقعة تسمى: آخر ما رآه العرب.

وحين تنحدر الهضاب إلى الوادي «فيغا» تظهر البراري المزهرة المفتحة بكل حديقة من حدائقها، بأوركيدها وأزهارها، التي تتسع بترابط فني، يخفي فيه جداول لاحتصر لها بناها العرب عبر أقدية تؤمن «العدادين» التي توزع الماء بشكل حصص متساوية. هذه هي الأرض التي حارب من أجلها الأندلسيون حتى اليأس، وهي الآن خاوية خربة وعشوائية التنظيم. لكنها تظل تشهد على ذوق جمالي لأناقة سكانها أيام الإسلام. فمن وسط هذه السهوب الجميلة، تظهر قصور قديمة خربة، منها ارتبط العالم القديم بالعالم الحديث بأبراج تلمع في ضوء الشمس، خاصة من مدينة «سانتا في» التي بنيت خلال حصار غرناطة من قبل الكاثوليك بعد الحريق الذي دمر معسكرهم. وضمن أسوارها استدعت الملكة: «كولومبس» واتفقت معه على كشف العالم الجديد. أما خلف هذه المدينة فجسر «بينوس» الذي شهد حرباً دامية بين المسلمين والمسيحيين. وعليه مر رسول كولومبس حاملاً مشروعه في كشف العالم الجديد، إلى البلاط الفرنسي، حين يئس من نجاحه مع السلطة الإسبانية.

أما الحدود القديمة بين غرناطة والمناطق المسيحية، فهي فوق الجسر، في السلاسل الجبلية التي تلتحم بالوادي «فيغا» إلى الغرب. وعلى هضابها لازالت مدن الثغور بجدرانها ومعقلها التي تنسجم مع الصخر الجبلي الذي بنيت منه. فهنا وهناك تجد برجاً وحيداً للمراقبة، كالراهب الذي ينظر من قمة الجبل كمن ينظر من السماء إلى الوادي. وكم مرة أعطت «الآتاليا» — مراكز القتال — هذه الإشارة بالدخان في النهار أو النار في الليل عن اقتراب العدو!

وفي شعاب هذه الجبال ممر يسمى «ممر لوبي» منه نزل الجيش المسيحي إلى الوادي الملتف على جبل «الفيرا» الذي تمتد صخوره الكبيرة إلى السهل الخصب، ومن خلفه ظهرت قوات الغزو بأعلامها وطبولها وزمورها!!

لقد مضى خمسمئة عام منذ كان «إسماعيل بن فراج» ملك غرناطة العربي في برج أراه أمامي الآن، ليصد غزواً مشابهاً مهيباً لهذا الوادي. ومن هذا البرج كان ينطلق بفرسانه المتميزين بالفروسية الإسلامية النادرة. التي ذكرها التاريخ، واشتهر بها الأمراء العرب: «حيث كانوا خليطاً من الفضل والكرم الدائم. الذي أورثوه لأعقابهم كي يبقى أبداً في ذاكرة الشعوب»

تعالوا لنجلس على هذا السطح - سطح برج التجار - لأذكر لكم الأحداث، وأربطها أمامكم.

ففي عام 1319 م تصدى «إسماعيل بن فراج» لغزو مسيحي جاء من «الفيرا» ورده. خلال الفترة التي حكم بها «الفونسو الحادي عشر» وقد جاء هذا الغزو من حاكمي «قشتالة»: «دون جوان» و«دون بدرو» اللذين راحا ينهبان ويسلبان من «القودة» إلى «قالة الرجال» فاحتلا قصر «غيلورا» واشعلا النار في ضواحيها. ثم نقلتا تمردهما الثائر هذا إلى أبواب غرناطة وراحا يتحديان ملكها كي ينزل إلى ساحة الحرب.

واعتبر إسماعيل أن هذا التحدي من أمراء مراهقين لا يستأهل قبوله، خاصة وأنه لم يكن تحت يده قوات كافية آن ذاك. فظل ينتظر وصول قواته من أماكن مجاورة. فبنس الأميران المسيحيان من دفعه إلى خارج الأسوار بالتحدي، فقوضا خيمهما وعادا إلى وطنهما. وقاد «دون بدرو» المقدمة «ودون جوان» المؤخرة للجيش العائد، والذي أفسده السبي الذي ربحه، فلم يكن جيشاً منظماً.

أثناء ذلك وصلت التعزيزات للملك «إسماعيل» تحت قيادة «أوسمين» - عثمان - أحد قادته الأشاوس. فقاطعوا للعدو في الجبال، وفاجؤوهم في الشعاب، فمزقوهم شرمزق، وطردوا من بقي منهم خارج الحدود. كما قتلوا الأميرين. وتمكن الجنود المسيحيون من حمل جثة «دون بدرو» وضاعت جثة «دون جوان» في ظلام الليل. لذلك كتب ابنه إلى الملك العربي يطلب جثة والده الضائعة، لتدفن بما يليق بالملوك. هنا نسي «إسماعيل» عداؤه له وكل إهاناته التي سبق وأظهرها على باب مدينته، ولم يفكر به إلا كفارس وأمير. فأمر بالجثة أن تحاط بما يجب من التكريم الفروسي بإحدى قاعات الحمراء. وعين الفارس «عثمان» وعددا من الفرسان كمرافقة شرف، وجعل الأسرى من جيش النصارى تطوف حولها.

ثم كتب إلى ابن الأمير «دون جوان» أن يرسل مرافقة لاسترجاع الجثة، مؤكداً له أنه سيسلمها لهم بأمانة. فجاء فرسانهم لهذه الغاية، وتلقاهم «اسماعيل» بكرم ضيافته. وحين عادوا بالجثة، رافقهم الفرسان المسلمون إلى الحدود، إكراماً للجنادة.

ألا يكفي ما قلناه هذا. لقد ارتفعت الشمس فوق الجبال وسكبت أشعتها على ما نكتب، فصار «القراس» حاراً تحت أقدامنا. لذلك سنتركه لننزل إلى ظلال الأوركيد حول نوافير قاعة السباع.

الشريد

إن جميلة الحمرا المشرقة السمات التي تحدثنا عنها «دولوريس»، تتمتع بعاطفة أمومة نسائية تجاه كل الحيوانات الأليفة. ولذلك جعلت من إحدى قاعات الحمرا المهذبة، مكاناً مفضلاً لرعاية هذه الحيوانات. ووضعت على عرض هذه القاعة ديكاً بلدياً وحوله دجاجاته، يسانده ديك حبش من أصل نبيل. ومن شرفة هذه القاعة أدخلت حمامتين تستمتع بهما بصورة أساسية. إضافة إلى هرة وصغارها.

وقد الحمام الذي يشرف على القاعات الملكية بنته دولوريس من أجل رعاية أفضل لهذه المتناقضات المتنافرة في هذه القاعة. مما عزل هذه الحيوانات عن كل شيء خارج القصر، فعاشت متألّفة دون أن تعرف شيئاً عن الخارج. ونتيجة القران المقدس بين الحمامتين وضعنا بيضتين منقطتين، أفرحتا مربيتهما، بشكل لا تعادله أي فرحة مماثلة عندها. وهما من جانبيهما تناوبتا الجلوس على البيض

حتى فقس. وتذهب كلتاها إلى الملجأ الدافئ في القاعة للرعي وإحضار التموين من هناك.

وهذا الصباح الباكر، بينما كانت دولوريس تطعم ذكر الحمام فتحت له النافذة لتعطيه نظرة على العالم الخارجي، وكان الشباك يطل على وادي «داره». الذي منه انطلق الطير لأول مرة كي يجرب أجنحته خارج سور الحمرا. ثم حط في الوادي، وبعدها ارتفع إلى ما يقارب السحاب، ليختبر متعة الطيران. وهو سعيد بما حصل عليه من هذا المنفذ إلى الحرية التي فتحت له أبوابها فجأة. وهكذا ظل يحلق متعرجاً طوال اليوم، من برج إلى برج، ومن شجرة إلى شجرة. وباءت كل محاولات إعادته برمي الحبوب له على السقف بالفشل. وبدأ وكأنه لم يعد يهتم ببنيته، أو بمساعدة رفيقته الرقيقة بحضن صغارها. ولكي يزيد قلق دولوريس اختار رفيق طيران له، من الحمام الذي يسحب الطيور إلى صاحبه «كشاشها». وتبعهما آخر من أولئك الذين يسخرون غريزتهم ولأئ لسيدهم، فشكلا خطراً حقيقياً عليه. خاصة وأن هذا الهارب قد بدا مستمتعاً بصحبتهما، فقاما بتفسيحه وإطلاعه على الحياة، وتعريفه على مجتمعهما. وهكذا راح يتسكع معهما على كل سقف ومنحدر في غرناطة. وأثناء ذلك مرت عاصفة رعدية على المدينة، ثم حل الظلام، ولم يعد الطير. وزيادة في الإشكال، بعد أن ملت رفيقته من حضن الفسراخ وحدها، ذهبت لتبحث عنه، فكاد الصغار أن يهلكوا من افتقارهم إلى دفء ملجأ الآباء، ونقص الطعام، وفي ساعة متأخرة من الليل وصلت الأخبار لدولوريس، أن الطير الفار قد شوهد على برج «جنراليف» حيث هناك كشاش حمام يلتقط الحمام الضائع بشباكه، وعنده اثنان أو ثلاثة من أمثال صاحبنا. فاستنتجت دولوريس هلاك طيرها المحتم على هذا البرج. لذلك عقد مجلس حرب في غرفة العمدة أنطونيا لأن «جنراليف» يعتبر شرعاً خارج الحمرا، وهناك نوع من الغيرة بين المسؤولين عن كل منهما. وتقرر إرسال «بي بي» الحداثقي الثأء فوراً كسفير للمسؤولين إلى هناك. ليؤكد لهم أنه في حال وجود هذا الفار في مقاطعتهم يجب إعادته وتسليمه لأنه من رعايا الحمرا. وعلى هذا الأساس انطلق «بي بي» في مهمته السياسية على ضوء القمر الذي يضيء الشوارع. ثم عاد بعد ساعة بإنكار وجود مثل هذا الطير في شباك «جنراليف». ومع ذلك أخذ منهم عهداً باعتقاله فور ظهوره، حتى ولو كان في منتصف الليل، وإعادته مخفورا إلى صاحبتة، صاحبة العينين الدعجاوين.

وهكذا عم الحزن والقلق كل القصر، لدرجة أن دولوريس لم تضع رأسها على مخدتها طوال الليل وكما يقول المثل: «مع الصباح تأتي البشائر...» لتزيل الحزن بزوال الليل». كان أول ما أصبحت أنا فيه هذا الصباح هو دولوريس وطيرها بيدها، وعيناها تتألقان فرحاً. فقد ظهر باكراً في مراكز الدفاع في القصر، «يسترغل» من سقف إلى سقف، ثم سلم نفسه كأسير، ودخل أخيراً من الشباك، فقال عفواً فوراً بسبب عودته. لذلك وضع الطعام أمامه فوراً، وكأنه ولد مشرد جائع عاد إلى منزله، فيجب أن يطعم ويتلقى كل أنواع التوبيخ مع احتضانه وزفه بالقبلات. ولاحظت أن دولوريس قد عمدت إلى قص أجنحته حتى تتلافى حادثاً آخر في المستقبل. وهو بالمناسبة اقتراح اقترحته أنا أيضاً لكل من عندها عشيق أو زوج زائغ يحب الترحال. وهذا الاقتراح هو العبرة التي يمكن استخراجها من قصة دولوريس وطيرها الفار.



A. H. WELSHLEY SC.

الشرقة

تحدثنا عن الشرقة التي تحت الشباك الذي يتوسط قاعة السفراء، والتي أعدت كمكان مراقبة، لذلك رحلت أجلس فيها أحيانا، لأتأمل السماء من فوق، والأرض من تحتي. إضافة إلى ما تتيح لي من رؤية الجبال الرائعة، وسهل «الفيغا»، وكل مشاهد الحياة اليومية في المدينة التي يمكن مراقبتها من هذه الشرقة. ففي أعتاب الهضبة مكان عام للتجمع العصري عند الممر الرائع للمكان الذي كان يدعى «أكزنييل» والذي شهد غزاة المدينة. وهو الآن مكان نزهة للذين يأتون من الضواحي، إضافة للرهبان و«الفرير»، الذين يتريضون بالمشي بعد الطعام فيه، مع الطبقات الفقيرة بلباسهم الأندلسي، وأحيانا يظهر فيه الخارجون عن القانون ببنادقهم، أو رجال الطبقات العليا يتباحثون بأمور سرية.

فاندفعت لدراسة هذه الصورة المثيرة لشخصية وحياة الإسبان، وكأنني عالم فضاء يجلب بمنظاره المكبر النجوم إلى مكانه ليفحصها. ومع أن معي منظارا مكبرا - مثله - وبحجم الجيب، استعملته في مراقبتي ومسح المقاطعة تحتي، فقتربت هذه

التجمعات لي قدر المستطاع، لدرجة أنني ومع الوقت صرت قادراً على تقدير حديثهم من علامات وجوههم. وهكذا صرت في وسط المجتمع دون أن أخرج من عزلتي . وهي فرصة نادرة يستطيع بها رجل خجول مثلي، مشاهدة دراما الحياة، دون أن يكون أحد الممثلين فيها.

والريف الذي يملأ الوادي تحت «الحمرا» يمتد إلى التل المقابل للحمرا، تل «الباسين» - الباسين. الذي بنيت معظم بيوته على الطريقة العربية. بأرض دار فيها فستقية بركة، تنطلق في السماء المفتوحة لتبرد الدار، وبها يقضي سكانها معظم وقتهم. أو على مصاطب السقف، في أيام الحر في الصيف. دون أن يلاحظوني وأنا أرقبهم من عل، وكأنني أنظر إليهم من غيم الجو.

فتماماً كما في القصة الإسبانية الشهيرة للتلميذ الذي استطاع أن يطلع على كل ما يجري في كل دور «مدريد» التي أصبحت مكشوفة لناظره، وجدت نفسي بنفس الموقع، فكل أمور هؤلاء الناس تحتني أصبحت واضحة. فكل وجه جميل أو مقطب أراه يومياً، أستطيع أن أبني من خلاله قصة درامية. رغم أن بعض شخصياتها قد يتصرف أحياناً بعكس ما رسمته له، مما يغير واقع الدراما ككل. وبينما كنت أراقب بمنظاري الكبير طرقات «الباسين»، لاحظت إجراءات لبس الحجاب التي تحدد مصير شابة صغيرة، تحصل لدفنها حية في الوجود. ومن شدة تعاطفي معها، تصورتها شابة جميلة، لما تؤكد لي وردية خدودها، وتدل على أنها ضحية وليست متطوعة، ثم غطيت بعد ذلك برداء، وكللت بطوق من الزهور بخبث روحي، كان قلبها ضده، وحتماً يهتف بحب واقعي أرضي. وبجانبيها رجل طويل حاد القسما يمشي بتؤدة، فهو حتماً والدها الطاغية، والذي يقوم بهذه الأضحية لدافع مجهول؟ رغباً عن شاب أسمر يلبس عباءة أندلسية، ويبدو أنه يحدجها بنظرات الحزن، فهو لاشك عشيقها السري الذي ستفترق عنه إلى الأبد. ومما زاد من تحفزي، تلك النظرات الشريرة التي يرمقها بها الآباء المعمدون و«الفرير» لحظة وصول الموكب إلى كنيسة الرهينة، حيث تلمع الشمس آخر مرة على هذه الضحية المسكينة قبل دخولها للكنيسة. وحين توقف عشيقها لبرهة أمام الباب، أحسست بمشاعره التي سيطر عليها، ثم دخل، وصورت نفسي الكثير من التعارضات في الداخل، حيث ستخلع هذه المسكينة، كل أردية الزينة، لتلبس لباس التحول إلى راهبة بجلابيه الواسع. ويأخذ منها القائمون على الكنيسة القسم بعد ذلك، ثم يحلقون شعرها الحريري الناعم.

فشعرت وكأنني أسمعها تؤدي هذا القسم الذي لا عودة منه، وهي ساجدة كأن الموت يحيط بها من كل جانب. وهكذا تستمر إجراءات مثل هذه الجنازة، التي تعلنها ميتة بين الأحياء، على نغمات «الآرغن» الجشة، ومتطلبات الراهبات اللفظة. ويشاهد والدها كل ذلك، دون أن يدمع له جفن. أما عشيقها فتخيلته بحال لا يمكن وصفه، فظل موقفه معتماً في خيالي.

وبعد ذلك بمدة خرج الموكب، وتوزع الناس بكل وجه للتمتع بأشعة الشمس، ومخالطة كل متع الحياة ومشاهدها، دون أن تعود معهم الضحية المكبلية بلباس العرس الكنسي، فقد أغلق باب الدير بشكل فصلها عن العالم إلى الأبد. ثم رأيت الأب والعشيق في حوار مصارحة على ما يبدو. وكانت إيماءات الأخير حادة. لذلك توقعت نهاية عنيفة لهذه المأساة التي صورتها. لكن زاوية البناء تدخلت، ومنعتني من متابعة رؤية الشهيد. فأعدت نظري بلهفة إلى الدير أرقبه حتى المساء، حيث لاحظت ضوءاً وحيداً يومض من قاعة بعيدة بأحد الأبراج، فقلت لنفسي: هناك تجلس الراهبة التعيسة. لتنتحب في زنانتها. بينما يزرع عشيقها الطرقات تحتها، جيئةً وذهاباً بغضب.

ودخل ماتيو كعادته عليّ فجأةً فقطع أحلامي وتأملاتي. ليطير كل تخيلاتني بما جمعه من حقائق عن المشهد نتيجة طبعه المتلمس. فالبنات لم تكن جميلة ولا شابة، وليس لها عاشق؟! وهي قد دخلت الدير بكل إرادتها. كمؤمنة محترمة. وهي من أسعد الناس المقيمين فيه.

فاستغرقت بعض الوقت، حتى أستطيع أن أغفر لهذا التناقض الخاطئ بكون الراهبات سعيدات في سجنهن. بكل ما فيه من تعارض مع كل قواعد الرومانسية؟!.

وعلى كل حال لابد من تحويل نظري إلى جانب آخر من الأمر والمكان. فرحت أراقب إحدى الجميلات الدعجاوات، وهي تخرج من شرفتها. متشحة بلباس حريري، وتتزين بالورود. وتحمل رسالة من فارس أسمر جميل. يأتي دوماً إلى تحت شباكها. وأراه أحياناً في الصباح الباكر، يسرق النظرات ويتبادلها معها. ثم يربض في الزاوية. ربما بانتظار إشارة منها ليدلف إلى المنزل. وفي الليل أسمع نغمات «غيتار» يصاحبها حركة في الشرفة من زاوية إلى أخرى فيها. لذلك تصورت قصة غرامية، تشبه قصة «ألفيفا». ولكن مرة ثانية تبين أن العاشق هو

زوج السيدة، وهو من الخارجين عن القانون، وكل الإشارات من أجل تمرير بضائع مهربة^{١٩}.

فلم يعد يمتعني في هذه الشرفة، إلا تغير مشهد المدينة بتغير ساعات النهار فيها:

فالشروق حين يطرد من السماء لونها الرمادي، تعقبه أصوات الديكة عند الفجر، كدلالة على أن الساعات الأولى هامة من نهار هذا الطقس الصيفي، لأنها الأكثر إنعاشاً. لذلك يحرص الكل على بدء نهارهم مع الفجر. فسواس البغال يجهزون قوافلهم للسفر، ويربط المسافرون أمتعتهم على سروجهم ويمتطونها، محملين بالفواكه والخضار الطازجة للرحلة. أما الفلاحون السمر فيعرضون منتجات حقولهم باكراً، فتهرع ربات البيوت لشراؤها.

وحين ترتفع الشمس بسماء الوادي لتمتد بأشعتها على كل زاوية فيه، وتدق أجراس الكنائس الهواء، معلنة ساعة الصلاة والطاعة، يوقف سواس البغال بغالهم أمام الكنيسة، تاركين بضاعتهم ليدخلوا وقبعاتهم بأيديهم وهم يمشطون شعرهم الأسود لسماع القداس. والدعاء لمن يهمهم أمره بعيداً عنهم في القرى الجبلية. وضمن كل هذا، لاحظت دخول سيدة بخطوات متثدة - إلى الكنيسة التي أراقبها - وهي مزينة بشكل جيد، وعلى رأسها غطاء صغير وأنيق، وبيدها مروحة تتحرك، أمام عينيْن سوداوين مضيئتين، خلف حجابها المسمى: «منتلا» - منديلاً - لقد جاءت لتطلب الآخرة بإرضاء الله بصلاة صباحية. لكن فستانها الأنيق، والحذاء اللامع تحته، والموصول بشرابات حريرية^{٢٠} والشعر المصفف بأناقة، والوردة الطازجة فيه، مجلبة للأنظار اللامعة، لقدل على ذاك الخلط بين طلب الأرض والسماء داخل مملكة عقلها. لكن الذي يكفل إبعاد الأفكار الأرضية، عمة أو خالة أو أم، تمشي وراءها.

أما عندما يتقدم النهار، فيبدأ العمل بكل مجال، لذلك تزدهم الطرقات بالرجال. والدواب بأحمالها. مما ينتج هممة تسمع كهدير البحر. ولا تخف هذه الهممة تدريجياً إلا مع ارتفاع الشمس نحو الظهيرة، ومعها تتوقف، لتتجمع المدينة وتتوقف عن العمل عدة ساعات. فتغلق الشبابيك، وتسدل الستائر، وينسحب الناس إلى الأماكن الباردة في بيوتهم. ويبدأ الراهب الذي تناول وجبة دسمة بالشخير في قيلولته. بينما يتمدد الحمال الأسمر بجانب أحماله. وينتبذ

الفلاح ظل شجرة يتفياً به. ويقيل الفلاحون كلهم على طول سهوب «لاميلا» -
المدى - على هدهدة صرير الصراصير. أما في المدن فتتهجر الطرقات، ما عدا السقاة
الذين يحملون الماء، وينادون على شرابهم الطهور بعبارات مثل: «انه أبرد من ثلج
الجبال».

ومع العصر يبدأ الناس بالحركة تدريجياً، ومع قرعات جرس الكنيسة،
تبتهج الطبيعة بانقشاع طغيان النهار، وتظهر معالم هذه البهجة مع تدفق
المواطنين لتنفس الهواء المسائي العذب، وهم يتمشون، مع خيوط الزوال في حدائق
«داره»
أو «أكزنييل».

ومع الغروب تحس بمظاهر جديدة، حين تبدأ البيوت بإضاءة مصابيحها
بالتتابع. : هنا من شرفة بيت، وهناك أمام تمثال قديس تجلى في هذا المكان أو
ذاك. وهكذا تتألق المدينة تدريجياً. وتخرج من كل قصر وحديقة وشارع، أصوات
لا تحصى من نقرات «الغيتار»، وطرقات صنجات اليد «كاستا ليتا»، لتختلط مع
بعضها بصورة عامة تظل تسمح بإمكان تمييزها. من منطلق أن شعار الأندلسيين
هو: «التمتع بالوقت». ولا يظهر هذا الشعار بشدة أوضح من ظهوره، في أضواء
الليل الصيفي. حيث يصطحب كل واحد خليلته إلى حلبات الرقص، وتظهر كل
العواطف.

وبينما كنت في إحدى الأمسيات أجلس في الشرفة هذه، لأتمتع بالنسيم
الليل، جاء «ماتيو» راکضاً من طرف الهضبة، للالتصاق بي وعدم مفارقتي،
والإصرار على مساعدتي بالتاريخ، وأشار إلى بيت محدد في شارع حقير من شوارع
«البائسين»، ونسب إليه على ما أذكر الحدث التالي:



مغامرة الوباء

كان في غرناطة في يوم من الأيام بناءً، صناعته العمارة. وكان الرجل متديناً يحافظ على حضور أيام القديسين. وكلما زاد ورعه وتدينه زاد فقره، لدرجة أنه لم يعد يستطيع أن يؤمن خبز عائلته.

وبينما هو نائم في أحد الأيام، صحا على قرع بابه، ففتحه فإذا هو أمام راهب طويل عريض، لكنه شاحب النظرات كالميت؟ فبادره قائلاً: «مرحباً أيها الأخ المستقيم».

أجاب الغريب: لقد لاحظت أنك مسيحي جيد، يمكن الوثوق به. فهل لك أن تحصل على عمل هذه الليلة؟

أجابه: على الرحب والسعة، شرط أن يدفع لي سلفاً.

قال الغريب: سأفعل هذا شرط أن تعصب عينيك؟ .

وعلى هذا الشرط الأخير لم يعترض البناء. فهو كان بطبعه سهل الانقياد. ولذلك قاده الراهب معصوب العينين عبر أزقة متعرجة، وممرات مختلفة، حتى توقفا أمام باب دار. فأخرج الراهب مفتاحاً فتح به الباب المغلق منذ زمن بعيد بصعوبة. وبعد أن دخلا، عاد إلى قفل الباب، ثم سارا عبر دهليز طويل راح يردد صدى خطواتهما، ومنه إلى القاعات «البرانية» الخارجية، التي تقود إلى قاعات «جوانية» داخلية في البناء⁽¹⁵⁾. وهنا أزال عن عيني البناء العصابة، في قاعة يضيئها مصباح واحد خافت، وتبدو في وسطها «فستقية» عربية جافة. ثم طلب الراهب منه أن يحفر تحت هذه «الفستقية»، وقدم له معولا لهذا الغرض. فراح البناء يعمل طوال الليل، دون أن يتمكن من إنهاء عمله. وقبل بزوغ الصباح، أعطاه الراهب قطعة ذهبية، ثم عصب عينه مرة ثانية، وقاده إلى خارج المنزل.

وهناك قال له: هل ترغب أن تعود مرة ثانية لإتمام عملك؟

فأجابه: بسرور أيها السنيور «الأب» طالما أنال أجري بشكل جيد.

فرد عليه: حسناً... سأمر عليك غداً في منتصف الليل.

وهكذا فعل وحفرت الحفرة. وعندها طلب الراهب منه أن يساعده بنقل ما أسماه جثثاً لتدفن فيها. توقف شعر رأس البناء من الخبر، وهو يتبع الراهب بخطا مرتجفة، إلى غرفة الاستراحة في المنزل. على أساس أنه سيرى منظر أمواتٍ مربع. لكنه استراح حين دفع إليه أربعة جرار من الفخار كانت في زاوية الغرفة، وهي مليئة بالمال حتماً. وساعده الراهب بحملها، ثم دفناها بعد جهد كبير. وأغلقت الحفرة، وأعيد رصف الأرض فوقها، ليمحي كل أثر عمل في المكان، ثم نظفت الأرض. وبعد ذلك أعاده الراهب هذه المرة من طريق يختلف عن الذي أحضره منه، بعد أن جعله يلف في طرقات، وزوايب مختلفة. وبعدها توقف ليضع بيد البناء قطعتين من الذهب، طالباً منه التوقف في هذا المكان وعدم رفع العصابة عن عينيه حتى يسمع جرس الكنيسة الصباحي، وإلا ستحل عليه لعنته، ثم غادره. فانتظر البناء بأمانة جرس الكنيسة، وهو يسلي نفسه بتحريك

(15): البراني في تصميم البيوت العربية القديمة هو: قاعة أو عدة قاعات لاستقبال الرجال، وحتى

إقامتهم فيها، بمعزل عن «الجواني» الذي هو قاعة أو قاعات الحريم ومضافاتهن - المترجم - .

الذهب في يده. ولما دق الجرس، أزال العصاة ليجد نفسه على شاطئ «أكزنييل» حيث عرف الطريق إلى بيته. فذهب فوراً ليستمتع مع أهله بأجر الليلتين المجزي، حتى أنفقه وعاد فقيراً كما كان.

وهكذا ظل يعمل قليلاً ويصلي كثيراً، ويحافظ على أيام القديسين والأعياد، من سنة إلى سنة، بينما تزداد عائلته فقراً، حتى أصبحوا وكأنهم غجرٌ مشردون. وبينما هو كذلك يجلس على باب كوخه، في أحد الأيام. لاحظ رجلاً غنياً كبيراً في السن ومعروفاً عنه أنه صاحب إقطاعات وأموال. فحدق به الرجل من تحت حواجبه الكثيفة، وقال: بلغني أنك رجل فقير جداً.

فأجابه: تلك حقيقة لا يمكن إنكارها أيها السنيور لأنها تتحدث عن نفسها. قال: مما يفترض أنك تقبل العمل بأجر رخيص، ويكفيك فرحاً أن تصير إليك فرصة عمل مهما كان.

أجاب: أقبل يا سيدي بأجر أرخص معماري في غرناطة.

قال: هذا ما أريد. ان عندي بيتاً قديماً، يتداعى، وقد كلفني الكثير من المال. وهو يستأهل أن أصلحه رغم أن أحداً لا يعيش فيه. لذلك يجب إقلال تكاليف الإصلاح بأكبر قدر ممكن.

ولأجل هذا ذهب معه البناء إلى بيت كبير متداع. ومرا عبر غرف، ودهاليز وممرات فارغة، إلى أن دخلا إلى «الجواني» من البيت، حيث رأى البناء «فستقية» عربية قديمة، جعلته يتوقف لحظة، استعاد خلالها مشهداً سابقاً مشابهاً؟

فقال: الصلاة على روح من شغل هذا البيت سابقاً.

أجاب صاحب البيت: ليرحمه الله. لقد كان راهباً كبيراً في السن دون عقب ولا عائلة تعتني به. وقيل إنه كان ثرياً ولا وريث له. لذلك ترك كل أملاكه للكنيسة. وحين مات فجأة ذهبت كل ثروته للرهبان. ولأنه لم يكن يدفع لي أجر سكناه هنا، لم أستطع أن أحصل حقي منهم. إضافة إلى كل ما قاله الناس لي: بأنهم كانوا يسمعون صوت النقود الذهبية التي كان يعدها ليلاً في الغرفة التي ينام فيها. كما قال بعضهم بأنه سمع أصوات أنين وأصواتاً أخرى في القاعات، جلبت سمعة سيئة للبيت، سواء كانت صحيحة أم لا، فلم يسكنه أحد.

فقال البناء: دعني أسكن في هذا البيت حتى يأتيك مستأجر له، مقابل إصلاحه لك. وبذلك أطرده لك منه الأرواح الشريرة أيضاً فأنا مسيحي جيد، ورجل فقير، لن يقترب منه حتى الشيطان بذاته. ولو تقمص لي على شكل حقيبة نقود.

فقبل عرض البناء بسرور. وهكذا انتقل البناء وأسرته إلى البيت، وراح يصلحه خطوة خطوة، معيداً إياه إلى ما كان عليه. ولم يعد أحدٌ يسمع صوت نقود في غرفة الراهب ليلاً، بل صار هذا الصوت يسمع في جيب البناء نهاراً. حيث زادت ثروته فجأة، مع استغراب كل الجيران ودهشتهم. وصار واحداً من أغنى الناس في غرناطة. وأرضى ضميره حتماً، بأن تصدق بمبلغ كبير للكنيسة، ولم يذع سره إلا وهو على فراش الموت لأبنائه وورثته.

قاعة السباع

إن السحر الخاص لقصر الأحلام القديم هذا هو: في القوة الغامضة فيه التي تجعلك تستعيد صور الماضي. فتلبس الحقيقة أمامك صبغة التصور والخيال. وبسبب سروري حين التجول بين هذه الظلال الموهبة، اندفعت إلى كل مكان كان مفضلاً في الحمرا بالماضي، لأستعيد ظلال أشباحه بذهني. ولعل أفضل تلك الأمكنة هي «قاعة السباع»، وما يحيط بها من قاعات. حيث لم تعبث هنا يد الزمن بقوة فيها بعد. فأثار الأناقة العربية، والروعة، توجد تقريباً كما كانت في أصلها المتألق. ورغم كل الهزات الأرضية التي هزت وحرفت أسس هذا البناء وأبراجه الراسخة، فإن أياً من أعمدة هذه القاعة لم يتأثر بها. هذه الأعمدة التي تبدو خفيفة وأنيقة، لم يزح أي واحد منها عن مكانه، وظلت تحمل القباب الرائعة فوقها، تماماً كما تحمل أشجار الغابات السامقة قبة السماء، عبر العصور. لقد ظلت هذه القاعة جديدة وكأن الفنان العربي قد انتهى من صنعها لتوه. وأنا

الآن أكتب من قلب هذا الحدث التاريخي في بكرة صباح مشرق، في القاعة القدرية «لابن سراج». وأمامي البركة وآثار الصدا عليها، تخلد لحظة المذبحة الأسطورية، وتعكس بقوة على ورقي صعوبة استعادة الماضي العنيف، من هذا المشهد الرقيق الذي أنا فيه. حيث فيه كل شيء مدروس بدقة لإثارة الشعور بالركة والسعادة بجمال رقيق أخذ.

فالضوء الذي يلف المكان من عل بلطف، عبر القباب المتشابكة كما لو أنها ربطتها يد أسطورية مع بعضها، عبر القوس الأساسي الذي يحمل سقف قاعة السباع. يسمح لشعاع الشمس أن يتألق على أعمدته، وأن يتراقص على بركه، فينداح عبر القاعة ليرتفع إلى حدود خيالية نحو السقف. والنحل الذي يطن على الزهور، والفراشات الملونة التي تنتقل من زهرة إلى أخرى، تلعب وتراقص مع بعضها في هذا الضوء الشمسي. لا تحتاج إلا لقليل من الخيال لتصور «الحريم» في الماضي بينها، وهن يتجولن في هذه الفخامة الشرقية المعزولة.

إن كل من يستطيع أن يحوي هذه التصورات بتناغمها الثري، عليه أن يأتي إلى هذا المكان، عندما تلفه ظلال الغروب اللامعة على القصر، والتي تلقي بتموجاتها الضوئية على القاعة المجاورة. ولا شيء أكثر حزناً في الذات، من معرفة قصص العظماء التي رافقت وجودهم في هذا المكان، ثم كيفية تركهم له.

ودائماً كنت آتي إلى قاعة العدل في مثل هذا الوقت الغارب، حيث ظلال «الأوركيد» تتمدد على الجزء العلوي من نهاية القاعة. هناك حيث قام «فرديناند وإيزابيلا» بصلاة شكرهم، مع حاشيتهم المنتصرة. صلاة شكر متعجرفة تهدف إلى تطويب إمتلكهما «للحمرا».

ولا زال يرى صليبهما على الجدار، الذي رفعت عليه صورة العذراء أيضاً، وطوب تحتها الكردينال الأكبر لاسبانيا، ومعه رؤساء المقاطعات الدينية. فصورت لنفسي مشهد هؤلاء الفاتحين، من الفرسان والرهبان. بكل أخلاطهم. وحرابهم ولباسهم القتالي الذي فيه تختلط الصليبان بالحراب لتعلن ولادة رئيس ديني واحد لكل اسبانيا. وهي تدق أبواق النصر على الإسلام في قاعاته كذلك صورت لنفسي «كولومبوس» الذي سيكتشف العالم الجديد، وهو يقف بزاوية متواضعة من زوايا هذا المشهد كملحد معزول. ورأيت في تصويري اندفاع الكاثوليك نحو المحراب. ليغيروا الصوت العميق للشهادة، بصلاة شكر على نصرهم بعبارة: Te Deum

اللاتينية. وأنهيت تصويري باختلاط الملوك، والرهبان، والملاحدة، والمحاربين من الذين تقلبوا جميعاً على المسلمين الساكنين ليطردوهم. وهكذا رأيت كيف تهجر القاعات، ليظهر الخفافش في أضوائها الوردية، ويحط اليوم على برج التجار المجاور.

فلم أعد منذ هذا أدخل قاعة السفراء لعدة أمسيات، ثم فوجئت بأحد الأيام بوجود عربي مراكشي معمم يجلس بهدوء جانب البركة: فخلته للحظة وكأنه أحد أساطير القصر العربي المسكون، وقد عاد ليكسر لعنة القرون عن هذا المكان، فصار مرثياً. لكنه كان انساناً حياً وعادياً، من سكان «تطوان»، وله دكان في حي الزقاقين - زاكاتين - في غرناطة حيث يبيع «الأفاويه» - البزورية - والعطور. ولأنه يتقن الاسبانية بطلاقة، تمكنت من التحاور معه. فوجدته ذكياً ومهراً، وأخبرني أنه يأتي إلى هنا - الحمرا - في الصيف لتضية جزء من النهار الحار. حيث يذكره هذا المكان بقصور العرب والبزبر عندهم. فهو مبني على نسق مشابه، لكن بصورة أعظم.

وبينما رحنا نتمشى معاً في القصر، أشار إلى الكثير من الجداريات الشعرية العربية، على أنها تحوي شعراً جميلاً جداً.

ثم قال: عندما حكم المراكشيون غرناطة أيها «السنّيور»، كانوا شعباً أبهج مما هم عليه اليوم. إذ كانوا لا يفكرون إلا بالحب، والموسيقى والشعر. لذلك عملوا من كل مناسبة فرحاً، وكرسوها بالموسيقى. فمن كان يقول أفضل الشعر، ومن كانت تغني أفضل الألحان، كانوا المفضلين عند الناس. وفي تلك الأيام كان إذا طلب الشحاذ خبزاً، طُلب الغناء منه مقابل ذلك، وحتى أفقر الشحاذين كانوا يشحذون على نغم وحُداء، ويجازون أحياناً على ذلك بقطع ذهبية..

فقلت له: هل يعني هذا أنكم قد فقدتم الاحساس الشعري العام الآن؟!

أجاب: كلا أيها السنّيور، ان سكان «بربرا» وحتى من هم من الطبقات الفقيرة، لا زالوا يؤلفون «الكوبلات» الشعرية والموسيقية الجيدة، كما في الماضي. لكن الموهبة الشعرية، لم تعد تجازي كما في الماضي، لأن الأغنياء الآن يفضلون رنين الذهب على الشعر والموسيقى.

ثم لفتت نظره بينما كان يتحدث، مخطوطة جدارية. تخبر عن عظمة وقوة الاسلام أيام امبراطورية وسيادة هذا الصرح ففرك عينيه، وهز كتفيه وهو يحاول

تفسيرها. وقال: هذا يصلح لأن يكون مثلاً. فلو لم يكن «أبو عبد الله» خائناً وجباناً، لظل المسلمون يحكمون الحمرا إلى اليوم، لأن الاسبان لم يكونوا يستطيعون احتلالها بالقوة.

وأضاف حين استعيد لك ذكرى أبي عبد الله التعيسة، كما أتصورها يمكنني أن أظهر أن الانذار الذي أدى إلى سقوط الملكية العربية سببه قسوة قلب والد أبي عبد الله. رغم أن العرب لا يقرون بذلك !!

ثم قال مولاي «أبو الحسن» ربما كان طاغية قاسياً. لكنه كان وطنياً وشجاعاً وشهماً، ولو ظل على عرش غرناطة لظلت لنا. لكن ابنه ابا عبد الله هو الذي أفشل مساعيه، وأحبط خطته. حين عم الشقاق والخيانة في القصر. فلتحل عليه لعنة الله لخيانته.

وما أن أنهى العربي كلماته هذه حتى غادر القصر.

وتتفق ملاحظات صديقي العربي المهم هذا، مع ما قاله لي صديق زار المغرب العربي، حيث أكد له باشا «تطوان» أن تقصياته عن إسبانيا، وخاصة الجزء الأندلسي المفضل منها، تؤكد أن روعتها الدائمة، تذكرهم بجذر تاريخي بحضارتهم، وقد تحدث «الباشا» إلى مجموعة من الحضور المسلمين، وهو يعي بشيئته بشكل عاطفي كمن يغط قاتلاً: لو ظل العرب على إيمانهم لما كان لهذه العظمة أن تزول. ثم تدارك قاتلاً: إنني على قناعة أن القوة الإسبانية والأمة الإسبانية بانحدار، لذلك لن يمضي وقت طويل على المغاربة، إلا ويعيدوا فتح هذا البلاد. وربما لن يكون هذا اليوم بعيداً أن ذاك سيعود دين محمد (ص) إلى هناك، وستعود الجوامع إلى قرطبة، وسيجلس الأمراء المسلمون على عرش الحمرا ثانية. تلك هي العقيدة العامة عند المغاربة الذين لازالوا يسمون إسبانيا بإسمها القديم: الأندلس، ويعتبرونها إرثاً شرعياً لهم فقدوه نتيجة الغدر والخيانة والعنف. ومثل هذه الآراء المنتشرة هناك هي التي عبر عنها هذا العربي من بقايا الأندلسيين، لدرجة أن الكثير من أمثاله في «تطوان» لازالوا يحتفظون بأسمائهم الأندلسية القديمة مثل: «بايز» و «مدني» ولم تؤثر عليهم اختلاطات الزواج العائلي، ولا على أصولهم الأندلسية، فأحسابهم مختلفة بشكل معروف، ونادراً ما يحافظ على هذا في المجتمع الإسلامي إلا الأشراف والملوك.

وهذه العائلات التي تتطلع إلى فردوسها المفقود ، لازالت تدعو في صلوات الجمع إلى الله أن يقرب يوم إعادة فتح غرناطة، وأن يؤيد المسلمين بالقدرة على ذلك، كحدث ينظرون إليه بقدر أهمية نظر المسيحيين إلى استعادة الصليب الذي صلب عليه المسيح، لدرجة أن بعضهم لازال معه سندات ملكية الأرض ومفاتيح البيوت، التي تؤيد حقه في امتلاكها، ووراثتها في غرناطة، والتي يمكن إبرازها يوم إعادة الفتح.

إن الحوار مع هذا العربي هو الذي وضعني أمام ضرورة تقصي مصير «أبي عبد الله» المنعوت بالزائغ أو التعس، والذي لم يتوقف سوء حظه حتى بعد موته. وفي حياته لم يستطع أن يترك للتاريخ اسمه كي يمدح!! فسيرته بعيدة عن لفت النظر الرومانطقي لحكم العرب الخالد في اسبانيا. فمعهم قتلت معاني الأسطورة الخالدة فيها. «أبو عبد الله» هذا الذي لم يتأثر بزواجه الرقيقة، التي عرضها لكل أنواع المحن بحياته وحين موتها، خاصة حين كان يتهمها زورا بالخيانة الزوجية، وهي التي تعرف خيانتة لأخته، وقتلها مع طفليها في ثورة غضب إتهام مشابه، كما لم تثر غضبه من جهة أخرى المجزرة الدموية «لابن سراج» حين أمر بقطع رؤوس ستة وثلاثين فارساً ليموتوا صبراً في قاعة السباع!

وقد عرف الناس كل هذه الإدانات المختلفة، وصاغوها بصيغ مختلفة، فصارت كنوع من مأساة، - دراما - في ضمير الشعب وعقله. لدرجة أنه ولاغريب مر على «الحمراء» دون أن يسأل عن البركة التي تلقت رؤوس من قتلهم «ابن سراج». ودون أن يحدد في الغرفة التي عزلت فيها الملكة. وكل فلاح «السييرا» أو «الفيغا» يغنون هذه القصص المحزنة، بكوبلات كثيفة على الغيتار. والكل يلعن «ببدول» أو «أبو عبد الله»

ومع كل هذا أقول: إن اسماً في التاريخ لم يُفترَ عليه كما افترى على هذا الاسم. فقد جمعت كل الوثائق التاريخية والمراسلات التي كتبها كتاب اسبان معاصرون له. وبعضهم من أهل الثقة عند الكاثوليك وكانوا متواجدين في المعسكر إبان الحرب، وتفحصت كل الوثائق التاريخية العربية التي استطعت الحصول عليها عبر الترجمة، ولم أجد ما يبرر هذا الجانب الإداني الأسود المظلم للرجل، وذاك الكره لأبي عبد الله.

كما قرأت كل الأعمال التي كتبت تحت عنوان «الحرب الأهلية في غرناطة، وتاريخ إقطاعات أيام «الزغارزة»، و«ابن سراج» و«زغريز» في حقبة الصراع الأخير مع الدولة العربية ضد الأسبان. وبعض هذه البحوث إسباني بالأصل، يؤكد أنه ترجم من أصول عربية على يد أمثال: «جينس بيرز دوهيتا» من سكان مرقا «موريكا» ومنه إلى كل اللغات، ومنه أخذ «فلورين» الكثير من القصص الخيالية عن شخصية «غرنازا لفو» القرطبي، والتي جعلها تبدو كقصص تاريخية حقيقية، فصدقها الناس وخاصة فلاحي غرناطة، بينما هي كلها في الواقع من نسج الخيال المخلوط ببعض الوقائع الحقيقية التي تعطيها نفحة الصحة، وصفة التزوير واضحة فيها بحد ذاتها، حين تفسر سلوك العرب وأزبائهم بشكل خاطئ سيء، لا يتوافق لا مع عاداتهم ولا تقاليدهم ولا إيمانهم، ولا مع مذكره أي مؤرخ مسلم.

فبدأ لي أن ثمة إرادة إجرامية مخططاً لها، لحفظ وترويج هذا العمل، إذ من حق القصص الرمانطيقية التجاوز، ولكن ليس إلى هذا الحد. فالأعمال العظيمة في التاريخ يجب ألا تخضع لما يلائم رغبات العداوات المعاصرة. ألا يكفي ما عاناه أبو عبد الله مثلاً من عدا «الاسبنيارد» في سرقته للملكة؟ حتى يلاحقه عداؤهم إلى اسمه، بجعله موضوع كره واحتقار في بلده، وبلد آبائه وأجداده؟

فإذا أراد القارئ الحقيقة التاريخية بارزة مفصلة، ليتبين كل هذه التساؤلات؟ فسأعطيهِ الحقائق التالية من مصادرها التاريخية الموثوقة. حيث سألحق معه «ابن سراج» الذي وازى مالمصق به، ما لمصق بأبي عبد الله من المذبحة المنسوبة له. وأثناء ذلك سننضيء جانب الاتهام الظالم لأبي عبد الله بسجن الملكة زوجته.

ابن سراج

كان هناك في اسبانيا تمييز سلافي بين المسلمين الذين هم من أصل مشرقى، وأولئك الذين هم من أصل مغربي افريقي. ويمثل النمط الأول العرب الذين يعتبرون أنفسهم من أنقى السلالات البشرية، خاصة أن النبي «ص» منهم، وفيهم وبهم كان أول ظهور الإسلام. أما النمط الثاني فهم «البربر» المحاربون الأشداء، وخاصة من جبال «الأطلس» والصحراء الكبرى. والذين يعرفون «بالمور» أي «المغاربة» أو المراكشيون⁽¹⁶⁾. الذين أوجدوا مدينة «مراكش» على المحيط، وبها تجمعت قبائلهم، وكانت تزود دائما بالعنصر المشرقي العربي الذي سيطر من هناك على مسلمي إسبانيا.

(16) : إن كلمة (مور) عند الغرب، هي : تحوير لكلمة المغربي العربية ومنها مراكشي أو موريثاني وكانت تشمل كل سكان شمال افريقيا بعد مصر . المترجم.

و«ابن السراج» هذا من أصل مشرقى، يدعى الأصل العربى النقى، و«بنو سراج» كلهم كذلك. لذلك حازوا على أعلى المناصب، خاصة وأنهم من أحد أفخاذ قبائل الأنصار التى نصرت رسول الله «ص» وقد ازدهروا أساساً فى قرطبة، ثم لأموا صدعهم بعد سقوطها بسقوط الخلافة غرب الأندلس وتماسكوا فى غرناطة، بما لديهم من عصبية تدعمها أهمية تاريخية رومانطيقية. وهكذا صاروا أرقى وأشد فرسان الحمرا فروسية.

وظهرت أهميتهم وخطورتهم أيام حكم «محمد نصر» المكنى «بالحيدري» أو «الهيذاري» والملقب «بالأعسر» أحياناً. والذي استلم عرش غرناطة عام 1423م. فأغدى على الأنصار ومنهم آل سراج، جاعلاً من «يوسف بن سراج» زعيماً على آل «نصر» ووزيراً ومستشاراً له فى القصر، مما سبب تقلب باقى القبائل عليه، وإنقلاب رؤسائها ضده. وبذلك فقد «محمد» شعبيته. فإذا أضفنا إلى كل ذلك استهتاره وحمقه وسوء خلقه وعزلته فى قصره الفخم «بالحمرا» وعدم اختلاطه بشعبه، وإقامة العدل بينهم وإقصاءه للعلماء، نجد كل أسباب الثورة التى قامت عليه، حين هجم الناس على القصر - الحمرا - فاضطر إلى الفرار من الحديقة إلى شاطيء إفريقيا، لاجئاً إلى تونس.

فاستلم الحكم الملك محمد «الزجور» - الصغير - ابن عمه، فاتبع سنة مخالفة لسابقه، فراح يشترك مع الناس فى أعيادهم، ويمارس الفروسية مع فرسانه، ويرعى حصانه بنفسه، ويخوض سباق الحلبات، جاعلاً من فرسانه كوكبة مقاتلة رائعة.

لكنه أظهر العداء للذين كانوا مستفيدين من سابقه ودالت دولتهم، لدرجة أن خمسمئة من فرسانهم الرموقين غادروا المدينة. وغادر «يوسف بن سراج» مع أربعين فارساً من «بنى سراج» كذلك المدينة ليلاً، إلى مملكة «جوان» فى «قشتالة» ١٩ فحضر «جوان» حاكم تونس برسالة على إعادة الملك المخلوع إلى عرشه حملها الوزير المخلص «ابن سراج» إلى ملكه المخلوع.

وفعلت الرسالة فعلها، فنزل محمد الحيدري إلى بر الأندلس من البحر مع خمسمائة حصان إفريقي، يدعمه فرسان «بنى سراج» ومن غادر غرناطة، مع حلفائهم النصارى ١٩

ولهذا خضع الناس له دون مقاومة، واستعاد المدينة دون أن يضرب ضربة سيف، ووالى له جيش غرناطة فوراً. فاضطر خلفه إلى الاحتماء «بالحمراء» لكن جنوده قطعوا راسه بأنفسهم عام 1424 م بعد حكم دام له عدة سنوات؟!

وهكذا استتب الحكم للحيدري ثانية، فقد ولاء وزيره، بأن أعاد بني سراج للتألق في القصر. ثم ارسل السفراء إلى الملك «جوان» ليشكر صنيعه ومساعدته، ويعرض عليه حلف صداقة. لكن هدف ملك قشتالة لم يكن هذا، فطلب منه الجزية. وحين رفضها «الأعسر» بدعوى أنه قد خاض الكثير من الحروب التي تمنعه من ذلك، وقعت مملكة غرناطة تحت ضربات الغزو، وخربت سهولها. ومع نجاحه في الكثير من المعارك، ظل الخطر على الحيدري من الداخل. «فدون بدرو ففغاس» النصراني المحتد، والمسلم بالعقيدة كان رجلاً وصولياً غير محمود السيرة، لعب دوراً وهو نبيل من عائلة «لوكي» أسر طفلاً في الثامنة من عمره على يد السيد «يحيى النيار» أمير «الميرة» الذي تبناه كابن له، وأنشأه تنشئة إسلامية، ورباه كما يربي الأمراء في الأسر. والسيد «يحيى» من عائلة نبيلة ترجع إلى «ابن هود» أحد ملوك غرناطة الأوائل. وبسبب علاقة الحب بين هذا الربيب وبين ابنة السيد الشهيرة بجمالها، والتي يتكرر اسمها في آثار غرناطة، بشكل لا زال يحمل معه ظلال الأناقة والفخامة العربية، صار سليل عائلة «لوكي» صهراً لعائلة «ابن هود»

وفي الزمن الذي نبحت فيه كان «دون بدرو» شاباً نشطاً ذا نفس طموحة، وبدأ يظهر اسمه وراء مؤامرات عصره، التي أطاحت بالأعسر عن عرشه المهتز. ليرفع بدلاً منه «يوسف بن الأحمر» الذي كان من أقدم الأمراء ذوي الأصول «السلتية» والذي يدعمه طبعاً ملك «قشتالة» عبر التراسل السري مع «دون بدرو» وامتدت مراسلات «بدرو» إلى «قرطبة» أيضاً لهذا الغرض، على أمل أن يهيء «بدرو يوسف بن الأحمر» لمساعدة «جون» بمجرد أن يظهر جيشه في «الفيغا» كي يمكنه من اعتلاء عرش غرناطة بعد الإطاحة بالأعسر. وهكذا ترك المتآمرون المدينة تحت مختلف الأعذار. وما أن اقترب الملك «جون» من الحدود حتى حضر «يوسف بن الأحمر» مع ثمانية آلاف رجل لمساعدته، وتقبيل يده ولاءً.

ونحن لن نسجل المعارك المختلفة التي نشأت من هذا الموقف، في هذه المملكة، وما أعقبها من انتفاضات بل سنذكر بأن «ابن سراج» كان دائماً يقف بجانب الحظ العاثر لسيد «محمد» طوال هذا الصراع. إلى أن سقط في «الأقصى»

بعد معركة خانمها بكل شجاعة، مع عدد كبير من النبلاء والفرسان، وبهذه الكارثة الحربية تحطمت سيادة عائلة «بني سراج» تقريباً.

ثم طرد «محمد» مرة ثانية من ملكه، ولجأ إلى سيد «السيد» «مالقا» الذي ظل على ولائه له.

وهكذا دخل «يوسف بن الأحمر» المعروف «بيوسف الثاني» غرناطة منتصراً في أول يناير عام 1432 م، ليجدها مدينة في حداد على نصف سكانها: فلا عائلة شريفة فيها لم تخسر نصف أبنائها، فمع ابن سراج ذبح في «الأقصى» أروع الفرسان.

فمرّ هذا الملك «الملحد» في أزقة فارغة، ولم يجتمع له إلا القليل من الأتباع الموالين في قاعات الحمراء، فشرع بخطورة موقفه، خاصة وإن «محمد» المخلوع لازال في «مالقا» ويؤيده حاكم تونس وبعض حكام النصارى. والأنكى من ذلك كله أن أحداً لا يحبه في غرناطة التي فجعها بأبنائها. فوقع بكآبة أدت إلى الوهن الذي ظل يلازمه ستة أشهر انتهت به إلى القبر.

وبمجرد وصول خبر موته للأعسر تحرك من مالقا وعاد مرة ثانية إلى عرشه. واختار من «بني سراج» وزيراً اسمه «عبد البر» وكان من أسوأ الإداريين في عصره. ومن خلال نصائحه اتبع سياسة العزلة عن الناس والعداء لهم، واقعاً بتناقض العفو عن كل أعدائه، بما فيهم أبناء يوسف الثلاثة: الأكبر «ابن سليم» الذي أعطاه لقب «أمير الميرة» وسيد «مارشينا» في الأقصى. والأصغر «أحمد» الذي سمي «سنيوراً»؟ على «الأوشار» و «أكويفيلا» والبنت التي نالت إقطاعاً كبيراً في «الفيفا» وعدة بيوت ومحال في الزقاقين بغرناطة. فتزوج «ابن سليم» عمّة من عمات الملك بينما نال «الأمير نصر» يد «ليندا رقصا» الجميلة ابنة الموالي «للأعسر» سيد «مالقا» وهي التي يزين اسمها جداريات إحدى حدائق الحمراء، الداخلية السابق ذكرها.

أما «دون بدرو قفغاس» زوج الأميرة فلم ينل أي شيء، لأنه اعتبر مسؤولاً عن كل الشغب الذي حصل، وحمل مسؤولية موت الفرسان الشجعان مع ابن سراج. لذلك لم يذكره الملك بأي خير. ومن جهته ترك زوجته الأميرة، خوفاً من العقاب والاعتقال، وكذلك ترك معها ولديه: «أبو القاسم» و «رضوانه» ولحق

بالمالك «جون» مع صهره، مستبدلاً غطرسه وطموحه بذل اللجوء و الأسى، ومات عام 1434 م كرجل محطم الآمال.

إلا أن قدر «الحيدري» ظل مرهوناً بمزيد من القلاقل. إذ كان له أبناء أخوين إثنيين: «ابن عثمان» الملقب «بأنف» و«ابن اسماعيل» وكان الأول طموحاً نشأ في «الميرة» بينمناشاً الثاني في غرناطة، وكان له الكثير من الأتباع والأصدقاء. وكان على وشك الزواج من فتاة جميلة، حين تدخل عمه وأعطاهما إلى أحد رجاله المفضلين، فخرج من غرناطة بسلاحه وفرسانه غاضباً باتجاه الحدود. وقد لاقى سلوكه هذا استياءً عاماً، وخاصة من عائلة بني سراج، والوزير «عبد البر» الذي كان وثيق الصلة بالأمير. لكن الأخبار حين وصلت إلى «ابن عثمان» عن أخيه حول هذا المقيم المقعد، ومابه الناس من استياء عام، أثارت طموحه، فاندفع إلى غرناطة مثيراً مزيداً من الشغب، ثم فاجأ عمه في قصره، وأجبره على التنازل عن العرش له. وأعلن نفسه ملكاً، في سبتمبر 1445 م.

في الوقت الذي كان فيه أخوه «ابن اسماعيل» لاجئاً إلى «قشتالة» ونتيجة ذلك ويسبب يأس عائلة بني سراج من «الأعسر» وحظه العاثر من جهة، ولكونه رجلاً غير أهل للحكم، كتب «عبد البر» إلى الأمير «اسماعيل» في «قشتالة» واعداء إياه بمساندته في الوصول إلى الحكم، وقاد حاشيته وعصبيته، مع عدد من الفرسان هاجرين القصر إلى «مونتي فريو» ، ودعا الأمير إلى اللحاق به، ونصحه بأن يفعل ذلك بأن يغادر «قشتالة» سرا، خوفاً من أن يكون في رحيله ما يعارض إرادة ملكها «جون الثاني» ولكن الأمير الذي كان يدين بكرم هذا الملك، أخبر الملك قصته صراحة.

ولم يكن مخطئاً بذلك، فقد أعطاه الملك الإذن بالسفر إضافة إلى وعد بالمساعدة، وزوده برسائل إلى قاداته على الحدود. وهكذا غادر «ابن اسماعيل» مع مرافقة علنية مهيبة، ووصل إلى «مونتي فريو» بسلام، وهناك أعلنه «عبد البر» فوراً ملكاً على غرناطة وملحقاتها. وبذلك بدأ حرباً أهلية بين أبناء العم، انتهزها ملك «نافارا» و «آراغون» فساعد «ابن عثمان» بينما لم يقدم الملك «جون الثاني» سوى مساعدة بسيطة لابن اسماعيل، لأنه كان يتعرض لثورة شعبية.

فملئت الحقول بالدماء بسبب هذا التدخل الأجنبي، و الخلافات الداخلية. ورغم أن «ابن عثمان» كان شجاعاً يميز نفسه بسلاحه. إلا أنه كان قاسياً عديم

الرحمة، راح يحكم بيد من حديد، مسيئاً لشعبه بطغيانه، ولنبلائه بغيرسته. لذلك التأمّت القلوب على ابن عمه لرأفته. وظل الناس يهجرون غرناطة إلى «مونت فريو» مما قوى من جماعة ابن اسماعيل. وبعد الصلح الذي تم بين ملك «قشتالة» وملك «نافارا وآراغون» تمكن ملك قشتالة من إرسال وحدات عسكرية ساعدت ابن اسماعيل، وبذلك تمكن ابن اسماعيل من ترك خنادقه في «مونتي فريو» والذهاب إلى ساحات القتال، باتجاه غرناطة، فرد ابن عثمان بتحريك مشابه للمواجهة، وحصلت معركة دموية، حارب فيها كل من أبناء العم ببطولة، وانتهت بهزيمة «ابن عثمان» وارتداده إلى حصونه. وحين طلب من السكان فيها حمل السلاح، لم يستجب له سوى القليل منهم، وخذلوه لقسوته التي أبعدت قلوبهم عنه، لذلك أغلق على نفسه الحمرا حين رأى أن نجمة قد بدأ يأفل، وقرر أن ينهي حياته بعمل إنتقامي ضد من خزله. فأدخل عدداً من الفرسان من الذين شك بولائهم. وراح يعدمهم واحداً إثر واحد، فور دخولهم القصر.

وهذه هي المذبحة الأولى التي لصقت بقاعه «ابن سراج» أما صاحبها الحقيقي المجرم، «ابن عثمان» فقد فر بعد أن ارتكب هذا العمل الانتقامي. حيث سمع بالناس تنادي على «ابن اسماعيل» ملكاً على المدينة، عن طريق ممر إلى «سيرو دل سول» فوازي «داره» ومنها إلى جبال «البقصار» مع أتباعه ليعيشوا هناك حياة قطاع الطرق. يجيبون من المسافرين والقرويين تحت سيطرتهم «الخوة» والمكوس.

أما ابن اسماعيل الذي لقب بالثاني فتسلم الملك عام 1454 م فتصادق مع الملك «جون الثاني» بعقد فروسية، ولم يكن ذا نفس نزاعة إلى الحرب، فأعطى جوائز مجزية للذين أخلصوا له، ورعى عائلات من قتلوا لأجله، وجعل أبناء سراج من المفضلين في قصره من خيرة الفرسان طوال حكمه، ولذلك تميز عهده بالعمارة وخاصة تلك التي تشاهد أطلالها في «سير دل سول» اليوم.

لكن الملك «جون» مات في نفس ذاك العام الذي تسلم به «ابن اسماعيل» وخلفه «هنري الحادي عشر» الملقب «بالعاجز» على «قشتالة» فرفض «ابن اسماعيل» تجديد عهد الصداقة والفروسية معه، كما كان مع سابقه، لأن سكان غرناطة لم يرحبوا بذلك. فما كان من الملك هنري إلا أن طالب بالجزية، وراح يعتدي على مملكة غرناطة، ويساعد «ابن عثمان» وعصاباتة، مستعيناً ببعضهم لتحصيل «الخوة» والمكوس، لكن فرسان «هنري» رفضوا بإباء التعاون مع خارجيين

عن القانون، وقرروا القبض على «ابن عثمان» الذي تمكن من الفرار أولاً إلى «اشبيلية» ثم إلى «قشتالة»

ولأجل تأمين الأمن، وافق «ابن اسماعيل» عام 1456 م بمناسبة عيد الفصح المسيحي لسكان «الفيغا» المسيحيين، على دفع جزء من الجزية إلى ملك قشتالة، إضافة إلى تحرير ستمئة مسيحي من الأسر إذا شاء مسترقوهم من العرب ذلك.

وكتب معاهدة بذلك، وظل ملتزماً بها. وبذلك حكم لسنين عديدة ملكية مزدهرة، نادرًا ما يمكن لمثيلاتها في ذاك العصر مثل ذاك الإزدهار، فتمتعت غرناطة خلال حكمه بالتقدم والإزدهار، وصارت مركز إشعاع حضاري.

أما لكي نفهم أحداث سقوط غرناطة، فعلينا أن نعرف أن زوجته أم البنين ابنة سيد مقاطعة «حيايا» إبراهيم النيار والذي كان أميراً «للميرة» أيضاً، قد أنجبت له ولدين وهما: «أبو الحسن» و «أبو عبد الله الزجال»⁽¹⁷⁾

واستلم الملك من بعد ابن اسماعيل ابنه «سيدي أبو الحسن» عام 1465 م، وبدأ عهده برفض دفع أي جزية مخزية إلى ملك قشتالة. فسبب ذلك الكارثة الحربية القادمة.

أما أنا فالتزم بالحقائق المتعلقة بعائلة «بني سراج» والتهم التي وجهت لهم، ولأبي عبد الله «ببدول»، لذلك سأكتب حول هذا الأمر فقط.

ولأجل هذا سأذكر القارىء بما حصل «لدون بدرو فنغاس» الملقب «بالزوبعة» فهو بعد أن غادر غرناطة عام 1433 م ترك فيها ولدين هما: «أبو القاسم» و «رضوان» وابنة اسمها «ستي مريم» وبسبب انتمائهم الملكي من جهة أمهم، ولأنهم متصلون بأمير «الميرة» ذي الفضل مع آخر ملك حالي، ظلوا ذوي حظوة بالبلد. كما تميز هؤلاء الأولاد بموهبة وسلوك جيد، وتزوجت «ستي مريم» من حفيد الملك يوسف وسيد «حيايا» وصهر «الزجال» وبسبب هذه الصلات العائلية القوية مع العائلة الملكية، أصبح «أبو القاسم فنغاس» وزيراً لـ «أبو الحسن» وأخوه «رضوان فنغاس» من قادته المقربين. مما أثار حسد «بني سراج» الذين فقدوا الكثير من عقبيهم، وحلت معظم المصائب بعائلتهم بسبب الحروب التي أثارها والد

(17) : هو عم «ببدول» أو أبو عبد الله آخر ملوك العرب في الأندلس.

هؤلاء «دون يدرو فنغاس» في أيام «يوسف الأحمر» والواقع أن التباغض حل منذ تلك الأيام بين بيت «بني سراج» وبيت «فنغاس» وتصاعد بشكل مذهل بين الحريم الملكي.

وزاده مولاي «أبو الحسن» الذي كان قد تزوج في شبابه من ابنة عمه ابنة السلطان الأعسر «أيقصا» - آيكسا لاهورا - ومنها أنجب ولدين أكبرهما ببدول - أبو عبد الله، ولي العهد. لكنه بعد تقدمه بالعمر تزوج لسوء الحظ مرة أخرى من امرأة مسيحية أسيرة جميلة هي : «إيزابيلا دي سوليز» وتعرف عند العرب باسم «زوريا» ومنها أنجب أيضاً ولدين، فانقسم القصر بين السلطانتين، حيث تسعى كل منها لبنيتها وراثته العرش. وقد دعم الوزير أبو القاسم فنغاس «زوريا» وكذلك أخوه «رضوان» لتعاطفهما مع أصلهما المسيحي الواحد، ولأن الملك يفضلها، بينما على العكس من ذلك التفت عائلة بني سراج حول السلطانة «أيقصا» . من خلال ولائهم التقليدي «للحيدري» صاحب الفضل السابق عليهم من جهة أهم، ومن جهة أخرى ضد ورثة فنغاس أيضاً.

فزاد الانقسام في القصر، وأخذ كل أشكال التعارض. كما يحصل في كل القصور الملكية بمثل هذه الحال. لكن أعداء «أيقصا» استطاعوا أن يزرعوا الشك في عقل مولاي «أبو الحسن» بأنها تعمل على تنحيته عن الملك لتضع ابنها «أبو عبد الله» - ببدول - بدلاً منه على العرش. فحبسها وابنها في أول ثورة غضب في برج «التجار» وهدد حياة «ببدول» بالقتل. لكنها أنزلته من شبك البرج على حبال صنعتها من ثيابها وثياب وصيفاتها ليلاً، حيث كان ينتظره موالون له بخيول سريعة، اخذوه بها إلى «البقصارا» . فكان سجن السلطانة هذا وراء أسطورة ملكة «ببدول» السجينة. فأمه وليست زوجته هي التي سجنّت واستبدلت نفسها بالسجن مقابل حياته، كما حصل في الواقع. بينما الطاغية الذي سجنها لم يكن هو، بل والده.

وفي نفس الوقت حصلت مذبحة أخرى ثانية في قاعة بني سراج، بأمر من السلطان والضحايا فيها كانوا بني سراج أنفسهم. بناء على نصيحة الوزير «أبو لقاسم فنغاس» حيث قتل خيرة فرسان بني سراج، كوسيلة لبث الرعب في قلوب الآخرين الذين اشتبه السلطان بتآمرهم. فإذا صح هذا الأمر، فإن اختزالاً وتحويراً حصل لهذه الأحداث البربرية. وعلى أية حال فقد ظل بنو سراج على ولائهم لقضية «أيقصا» وابنها أبي عبد الله، خلال الحرب التي نشأت من جراء ذلك.

بينما كان «الفنغاس» بصف «أبو الحسن» و «الزجال» فمن المفيد هنا التذكير بما حصل لهذه العائلات بعد ذلك؟ فحين حصار غرناطة من قبل الفاتحين النصاري، كان «الفنغاس» أول الخاضعين - بل المتآمرين - مع الغزاة، والمتنكرين لعقيدتهم الإسلامية. وإن عادوا فوراً إلى الإيمان الذي كان عليه أجدادهم، وكوفئوا على ذلك بالمراكز الرسمية والإقطاعات، والزواج من عائلات إسبانية. وظلوا متقدمين على كل النبلاء. بينما ظلت عائلة «بني سراج» على صدق إيمانها بدينها ومليكتها، وقضيتها الخاسرة. فانحدرت مع حطام البنية الإسلامية التي كانت مسيطرة، فلم يتركوا خلفهم أي عقب، عدا عن أسمائهم التاريخية الرومانطيقية.

هكذا استطعت أن أظهر مدى زيف هذه الأساطير التي روجت على «أبو عبد الله» وعلى عائلة «بني سراج» بهذا السياق التاريخي الذي اعتمدت به على الوقائع الحقيقية. فقصة إدانته للملكتة، وقسوته مع أخته، يمكن اعتبارها بناء على هذا من القصص الملققة أيضاً، وغير القائمة على أي أساس. فنحن نجد من سيرته التاريخية، أنه كان عاطفياً رقيقاً، كما لم يكن له سوى زوجة واحدة، هي «مريم» ابنة المجاهد الكبير في «الأقصى» وسيدها، «علي العطار» الشهير في قصص وأغنيات الدفاع الأخيرة في الحرب، والذي حارب بشكل مأساوي في أرض النصاري التي كان «أبو عبد الله» اسيراً فيها. أما زوجته فقد بقيت معه، بعد أن أطاح به القشتاليون في الإقطاع الذي حجزوه فيه، في وادي «البقصار» وحين وصل الحقد «بفردناند» إلى طرده من وطنه إلى «افريقيا» اعتلت صحتها وهم يجهزونه للسفر وانهارت معنوياتها من طول الإجهاد وسقطت فريسة المرض، نتيجة الحزن «المانغولي» القاسي. بينما ظل أبو عبد الله مخلصاً لها حتى النهاية. وحينها آخر «فردناند» سفرهما عدة أسابيع بسبب شكوكه وقلقه، حتى ماتت «مريم» ودفنت في أرضها، ضحية قلب مكسور.

وحين وصل الخبر إلى «فردناند» من عملائه بموتها، شعر بأن ذلك تتويج لأحد أهدافه، بإزالة العائق الوحيد الباقي الذي يمكنه أن يربط أبا عبد الله بأي شيء.

تَحْزِينَةُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ

تعلق في ذهني حظ أبي عبد الله العاثر، فتوجهت إلى الأحداث التاريخية التي رافقته، والتي لازال بالإمكان النظر فيها، والتي حددت مصيره وسوء طالعهِ. ففي برج التجار تحت قاعة السفراء مباشرة، غرفتان صغيرتان، يفصلهما ممر ضيق، قيل إنهما المكان الذي سجن في أمه، الفاضلة «أياكسا لاهورا». ولا يفي بفرض السجن هذا في الواقع أي مكان آخر في البرج سوى هاتين الغرفتين. فجدرانهما الخارجية سميكة وبها نوافذ صغيرة، عليها قضبان من الحديد، وتحت النوافذ مصطبة حجرية ذات انخفاض تتمدد على جوانب البرج الثلاثة. ومن هذه المصطبة يفترض أن الملكة دلت ابنها إلى الأرض، بثيابها وثياب مرافقاتها، التي جعلت منها حبلاً، خلال الليل المظلم، حيث كان ينتظره أصدقاؤه الخلس بأقدام ثابتة، لحمله إلى الجبال.

لقد مضى بين الثلاثمئة إلى الأربعمئة سنة على هذا الحدث المأساوي، ولازال مشهده ثابتاً غير متغير تقريباً. فذهب خيالي وأنا أمر بين هاتين الغرفتين، إلى صورة الملكة القلقة أن ذاك وهي تنظر من النافذة، وتسمع بأذن الأم أصداء حوافر الخيل، بينما يجتاز ولدها وادي «دائرة» الضيق.

وفي مناسبة أخرى عندما تصورت الباب الذي خرج منه أبو عبد الله لآخر مرة من «الحمراء»، شعرت بنفسه الحزينة المكسورة، وهو يسلم عاصمته وسرير ملكه، وقد أحاط به التشاؤم والتطير، لأنه طلب من الملوك الكاثوليك، أن لا يسمح لأحد بالمرور من هذا الباب من بعده، وتعاطفت «إيزابيلا» معه بأن أغلقت الباب وطينته، ووافقت على أن لى صلاته الأخيرة هناك، بناء على شاهد عيان معاصر قديم.

وقد أكد لي «ماتيو» عبث البحث عن هذا الباب الذي أغلق بالحجارة، بناء على ما سمع هذا المرافق لي المتواضع الإمكانيات، عن أبيه عن جده، وهو نفس المخرج الذي خرج منه الملك «شيكو» من الحصن. وبه سر لم يعرفه أحد من سكان القلعة القدامى؟!

وقادني إلى أثر مكان به أثر باب، في منتصف ما كان بالماضي صرحاً ضخماً للقصر. كان سكان غرناطة يعتبرونه المدخل الأساسي للقصر، ويسمى «برج الطوابق السبعة» المشهور بين الناس على أنه كان مكان ترفيه عربي، ويعتبره الرحالة «سوينبر» المدخل الأساسي الذي يوصل إلى الجناح الملكي، حيث يقف حراس الملك ومرافقوه. لذلك يمكن عده مدخلا للقصر، بينما تعد البوابة الضخمة للعدل، مدخلا للحصن ككل. وحين نزل أبو عبد الله من هذا الباب ليسلم مفاتيح المدينة للغزاة الملوك الإسبان الفاتحين، ترك وزيره «بن كوميكسا» - ابن قميقة - ليستقبل على باب العدل طلائع الجيش الفاتح، وقادته الذين سيستلمون الحصن ككل.

أما اليوم فكل «برج الطوابق السبعة» مهدم، بعد أن نسفه الافرنسيون حين غادروا الحصن، وهو كتل من الجدران الضخمة المبعثرة المدفونة في أرض الأقصى، والتي تخفيها أشجار الكرمة، أو التين، لكن القوس الرئيسي للمدخل لا زال سليماً رغم الانفجار. وهكذا تحققت آخر أمنية لأبي عبد الله المسكين بإغلاق المدخل بكتل حجرية ضخمة نتيجة الانفجار، فبقي لا يسمح بمرور أحد منه.

ثم ركب حصاني لألحق الطريق الذي اتخذته هذا الملك المسلم عبر هضبة «الشهداء المجهولين» بموازة سور الحدائق التي تحمل نفس الاسم، فنزلت في منحدر شديد معشوشب، به أشجار التين والزنجبيل، وفيه كهف يسكنه الغجر. ولأن المنحدر كان متعرجاً وشديداً، اضطررت إلى أن أنزل وأقود حصاني بيدي.

فمن هنا مر المسكين الحزين أبو عبد الله ليخرج متجنباً المرور بالمدينة، ربما لكي لا يرى الناس مهانته، أو لأنه لم يشأ أن يسبب هياجاً عاماً. ولهذا السبب أيضاً وبلا شك سلكت القوات الفاتحة نفس الطريق لأخذ مواقعها في الحصن. وما أن خرجت من هذا المنحدر الشديد، المرتبط بتلك الذكريات الحزينة، وعبرت «بوابة النواعير» حتى وجدت نفسي في مكان النزهة العامة الذي يسمى «برادو» - البارد - وبعد أن عبرت باحة «أكسنييل» وصلت إلى كنيسة صغيرة كانت في يوم من الأيام مسجداً، وهي الآن «دير سان سباستيان» وهنا حسب ما يذكره الرواة، سلم أبو عبد الله إلى «فردناند» مفاتيح غرناطة.

وتابعت سيري عبر الفيغا إلى القرية التي كانت أسرة الملك بانتظاره فيها، إذ كان قد أرسلهم لها من الحمرا في الليلة السابقة، كي لا تشارك زوجته وأمه بمهانته الشخصية، أو حتى لا تتعرضا إلى تحديق الجيش الفاتح. ومنها يسيرون إلى المنفى. وحين تبعت هذا الطريق وصلت إلى سلسلة من المرتفعات تشكل حزاماً على جبال «البقصارا» ومن أحد هذه المرتفعات ألقى «أبو عبد الله» نظراته الأخيرة البائسة على «غرناطة» وهذه هي التلة التي لازالت تحمل اسم: «تلة الدموع» وخلفها طريق رملي يتسع نحو الفضاء الواسع الذي احتجز الملك التقيس المتجه إلى المنفى.

فنهزت حصاني إلى أعلى التلة حيث الصخرة التي وقف عليها أبو عبد الله، وعلى وجهه نظرات التساؤل الحزينة. وهي تسمى الآن «آخر ما رآه العرب» لكن من ذا الذي يستطيع أن يجوب في مشاعر رجل طرد من مملكة ومجد كهذا؟ فهو قد قاد كل سلالاته، ومعها كل مجد وفرح الحياة من «الحمرا»؟

والذي زاد من مرارته ما قالته له أمه «أياس» التي غالباً ما ساعدته أيام محنه، دون أن تتمكن من أن تدفع في نفسه ما بنفسها من روح وثابة؟! قالت: إفعل خيراً، وابك على ملكك بكاء النساء لأنك لم تحفظه حفظ الرجال. متأثرة بإباء الإمارة لابعطف الأم، هذه المرة.

إن المطران «غيغارا» حين أخبر الملك «شارل الخامس» بهذه الحادثة، قال: لو كنت مكانه لجعلت من الحمرا مدفناً لي بدل العيش بدون ملك في «البقصارا»؟!

لكن كم من السهل على من هم في قمة السلطة الوعظ بالبطولة ونقد
سابقهم، وكم قليلة معرفتهم بقيمة الحياة لتعساء الحظ عندما لا يبقى لديهم
سواها؟

ونزلت من هضبة الدموع ببطء، تاركاً حصاني ليتجه إلى بوابة غرناطة
وحده. بينما أقلب قصة «ببدول» التعيس بذهني، دون أن أرى في هذه الحقبة
السوداء المتراجعة ما يدينه وحده، فهو قدر ترك ما يثبت أنه شخصية متلازمة
معتدلة، عبر كل الحقبة الكارثية المضطربة التي عاشها بوقت قصير. ففي أول
أمره حظي بقلوب شعبه لكرم سلوكه وتصرفاته. فكان دوماً يبحث عن الرخص
والتخفيف، فلم يوقع أي عقوبة قاسية ضد الذين انقلبوا وثاروا عليه أحياناً. وكان
يتمتع بشجاعة ينقصها شجاعة خلق الإقدام والثبات إزاء الأيام الصعبة المتقلبة
عليه، فروحه اللاثورية الضعيفة هذه هي التي عجلت بسقوطه، وحرمته من
عظمة البطولة، التي كان بالإمكان أن تعطيه كرامة المصير، مما أبعدته عما
تستحقه. السيادة الإسلامية على إسبانيا في خاتمة درامية رائعة.

أعياد غرناطة العامة

إن وصف مرافقي الذي يعتبر نفسه حجة في التاريخ، والإخلاص «ماتيو» أكزينس» للأعياد والعطل، تؤججه عاطفة شيطانية لهما. فلا أحد يضارعه بشرح الأعياد الدينية والمدنية لغرناطة. لذلك كان مجال تنقل دائم بين الحمرا والمدينة، خلال التحضيرات للعيد السنوي الكاثوليكي لصلب المسيح. ويزودني على الرغم مني بالأحداث اليومية لتقدم التجهيزات الرائعة التي ستحصل. وهو يحاول محالاً إنزالي من منتجمي البارد المهوى لأشدها إلى أن خضعت أخيراً يوم العيد، لإلحاحه ونزلت من قاعات الحمرا الفخمة بمرافقته، كما ينزل «هارون الرشيد» مع وزيره ومرافقه «جعفر»، بحثاً عن المغامرة خارج القصر. وكان الوقت مع مغيب الشمس، وعلى أبواب المدينة نماذج من الناس تصور كل صور الريف الجبلي، وفلاحي «الفيغا» السمر. لأن غرناطة منذ تأسيسها، كانت مركزاً للمقاطعات الجبلية المليئة بالقرى والنواحي. فكان هؤلاء يأتون منذ أيام العرب ليشهدوا الاحتفالات والأعياد، وليمارسوا الفروسية شبه الحربية في ساحات الميدان، واليوم يأتون لكي يستريحوا ويستمتعوا بالشعائر الكنسية. ومعظم هؤلاء القرويين الجبليين من «البقصارا» و«سييراروندا» ممن خضعوا الآن للكنيسة،

وصاروا من أشد الكاثوليك حماسة. رغم أنهم مازالوا على سماتهم المراكشية الوراثة القديمة. وهم بلا شك من سلالة الشعب الذي كان يحكمه أبو عبد الله.

وسرت بإرشاد «ماتيو» في الطرقات المزدحمة بالمعبددين، إلى ساحة «فيفا رامبلا» المكان الآخاذ الذي غنى له العرب أغاني الحب والفروسية. وقد أقيم على جانب الساحة سرادق من الخشب والورود، من أجل الحفل الديني الكبير في اليوم التالي وهو الآن في هذا المساء، مضاء كمكان نزهة، وعلى شرفات زوايا الساحة الأربعة تقف فرق موسيقية. أما في الساحة فتنتظر كل الأزياء الغرناطية، ويعرض كل أنيق جماله وهو يتنزه في «الفيفا رامبلا» هذه، حيث يلبس الفلاحون من كلا الجنسين ألبستهم التقليدية وتلمع عيونهم البراقة بإشراقة أندلسية مرحة. وفيهم من جاء من «روندا» المعقل الجبلي القوي، الشهير بقطاع الطرق، ومصارعي الثيران، والنساء الجميلات.

وبينما كان هؤلاء يتحلقون حول السرادق بسعادة، كان مركز الساحة مشغولاً بالفلاحين من أماكن أخرى محيطة بالمدينة، من الذين لم يأتوا ليقدموا عروضاً، بل جاؤوا لمتعة المشاهدة فقط. وملئت الساحة بجماعات عائلية وجيران منهم. على شكل جعلهم يبدون كالعجر، وخاصة حين يتحلقون لسماع نقر «الغيتارات» وبعضهم يرقص على نقرات الصنجات التي توضع بأصابع اليد، بينما آخرون ينشغلون في حديث مرح.

وكنت أمر بجماعات جالسة على الأرض، وأنا أخترق الصفوف بمساعدة «ماتيو» وهي تحتفل بهذه الطريقة. فإذا تلاقى عيناى بعيونهم التي كانت تحديق بي، كانوا يحاولون دعوتي لأشارك معهم باحتفالهم البسيط كعادة ضيافة موروثه عندهم من المسلمين، وأصلها من القيم العربية، ويمكن ملاحظتها عند أفقر «الإسبنيارد» وفي كل مكان.

وقد خف الاحتفال مع تقدم الليل، وتوقفت الفرق الموسيقية عن العزف، وبدأ الناس بالانسحاب إلى بيوتهم، لكن ظل مركز المدينة مليئاً بالناس نسيباً! وأكد لي «ماتيو» أن معظم الفلاحين نساء وأطفالاً ورجالاً سيقضون الليل هنا، وينامون على الأرض بجانب سرادق الجنة هنا؟ خاصة وأن الليالي الصيفية لا تحتاج لدثار في هذا الجو الحار. إضافة إلى أن السرير يُعدُّ فخامة وعادة لا يتمتع بها معظم طبقة الفلاحين في أسبانيا، حتى أن بعضهم يحتقرها، فالإسبنيارد

لاينام يعمق إلا إذا لفَّ نفسه بعباءته أو بغطاء البغل على الأرض فإذا أراد مزيداً من الترفيه سيضع سرج حصانه كوسادة تحت رأسه. وصحت كلمات «ماتيو» حين رأيت معظم الفلاحين يهجمون على الأرض حتى أن ساحة «فيفا رامبلا» بدت في منتصف الليل كما لو أن بها جيشاً هاجماً.

وعدت في اليوم التالي لأراقب الساحة عند طلوع الفجر، حيث لازالت بعض الجماعات نائمة، ممن أنهكهم الرقص في الليل، أو ممن ترك قريته في الليلة السابقة، وما زال بحاجة إلى مزيد من النوم والراحة من جهد السفر والعيد. أما الذين لم يأتوا من قراهم في الليلة السابقة فبدأوا يتدفقون على المدينة مع نسائهم وأطفالهم، وهم يحيون بعضهم، بروح معنوية عالية، ويتبادلون النكات والأحاديث ومع تقدم النهار زادت كثافتهم، وكثافة دخولهم من أبواب المدينة، حيث ملئت الشوارع التي يجوبونها برئاسة رهبانهم الذين يحملون صلبانهم المقدسة وشعاراتهم الدينية المحترمة، وصور العذراء والقديسين وهي مواضع تسر الفلاحين. وهكذا تضخمت الحشود. بشكل يشبه تجمع الفرسان في الأيام الخوالي، حيث كانت كل قرية ومدينة، ترسل محاربيها ورؤساءها إما للدفاع عن المدينة، أو لتشريف الاحتفالات فيها.

وأخيراً، توحدت هذه الحشود المختلفة، بحشد ضخم، بدأ العرض حول ساحة «فيفا رامبلا» وكل الشوارع الرئيسية، حيث عُلقَ على كل نافذة وشرفة علم وشعار. بينهما شارات كل نظام ديني. وكل سلطة عسكرية ومدنية وكنيسة كانت تبرز شعارها وصورها، مظهرة بفخر إمكاناتها المادية، بهذه المناسبة. أما «الأرشبيشوب» فقد سار في وسط الحشود محاطاً بأتباعه من الناس التي تبجله وتعتمد عليه، على أنغام التراتيل والفرق الموسيقية بوقار وسكون نحو «الكاتدرائية»

أما أنا فدهشت من تغير العادات بتغير الزمن، فهؤلاء الرهبان الذين أراهم يسيرون نحو «الفيفا رامبلا» مركز الإسلام وفرسانه القدامى، يهدفون إلى ترسيخ مشاهد الفتح. لكن التعارض يفرض نفسه على العقل من خلال زينة الساحة، فكل واجهة السرادق الخشبي، الذي يمتد إلى عدة مئات من الأقدام، مغطى «بالكنفا» التي يظن من لايعرف أنها مجرد عمل فني. بينما هي سجل تاريخي يرسم مشاهد الفتح المتتابة. وهذا يعني أن ثمة شيئاً لازال في الذاكرة الشعبية يريد من يريد خلطه على غرناطة الاسطورية.

و «ماتيو» أثاره كل هذا، فقال بينما كنا نشق طريقنا عائدين إلى الحمرا: لا مكان في العالم مثل غرناطة حين احتفالاتها الكبرى، فهنا يمكن للإنسان أن يجد كل المتع بروعتها أمامه، دون أن يحتاج إلى البحث عنها، فيوم استعادة المدينة أيها السنيور... يوم استعادة المدينة هو الذي يتوج الكمال، ويحتفل بهذا التتويج للكمال منذ أن سقطت المدينة، ووقعت بيد «فردناندو إيزابيلا»

في ذاك اليوم حسب ماتيو» أخليت كل المدينة لفاتحيها. وراح جرس الإنذار في برج المراقبة يقرع من الصباح إلى المساء، حتى بلغ صوته كل السهل، ورددت صداه الجبال، ليدعو الفلاحين إلى الاحتفال في كل مكان. وأضاف «ماتيو»: سعيدة المرأة التي قرعت ذاك الجرس، وكل من لها فرصة بقرعه بعدها إلى الآن ستظل مع زوجها لاتنفصم عنه أبداً؟!

ومن يوم فتحت الحمرا وصار مجلس الملك فيها، وقاعاتها الإسلامية مسرحاً لعزف «الغيتار» و «الكاستانيت» يأتي الناس كل سنة ليمرحوا بأزيائهم الأندلسية، ويرقصوا رقصات تقليدية، موروثة عن العرب.

لقد أرادوا تخليد يوم احتلال المدينة التي سار في شوارعها «فردناندو إيزابيلا» يوم أخرجت المقتنيات الملكية من مستودعاتها على يد الغزاة، وحملها «الفرز» بنشوة ونصر، ليعرضها على كل المعسكر بشكل ظاهر، ثم لتتحول هذه المحمولات بعد أن رآها الجميع إلى الكنيسة الملكية في الكاتدرائية، حيث وضعت بغرف رخامية مغلقة. وأقيم قداس دائم في ذكرى الفتح، وفي لحظة من لحظات هذا القداس لوح «آلفرز» بقبعته على قبور الفاتحين تحية لهم.

وكرست الذكرى. ففي المساء تمثل في المسرح «دراما» مشهورة بعنوان: «آفي ماريا» تظهر في أعمال وإنجازات «هرناردو دل بولغار» الملقب «بالطارد» كأفضل بطل قصة في غرناطة أيام حصارها، حيث تصارع مع فارس عربي بشكل رائع. وعندما خل الظلام، اندفع «الطارد» إلى سور غرناطة مع عدد قليل من الاتباع وحفروا اسم «آفي ماريا» بسكينة على البوابة الرئيسية للمسجد الجامع، كأيقونة كرسها للعداء، ثم تمكن من العودة بسلام. ورغم إعجاب الفرسان العرب بهذه الجرأة، أجمعوا على المقاومة، لذلك برز في اليوم التالي الفارس الشجاع «طريف» أمام الجيش المسيحي يجر هذه الأيقونة المقدسة «آفي ماريا» بذيل حصانه، فخرج

له «غارسيلاسو دي لافيغا» وقتله ثاراً للعدراء، بعد جولة معركة واحدة، ثم رفع اللوحة على قائم رمحه كعلامة نصر.

وقد مثلت هذه الدراما المشهورة بين العوام منذ زمن طويل، ولا زالت تجلب المتفرجين الذين يثيرهم ما فيها من مشاعر. فلما يقف «بولغار» بالمشهد الذي دخل فيه بين الحشود الإسلامية، داخل العاصمة العربية يحيونه بحماس عبارة «برافو» وهو عندما يحفر اللوحة على باب الجامع، يهتز المسرح بعاصفة من الحماس. أما الممثل الذي لسوء طالعهِ يمثل العربي، من جهة أخرى، فعليه أن يتحمل إهانات الجماهير، حتى أنه عندما يسحب الأيقونة بذيل حصانه، قد يقفز عليه أحد المتفرجين انتقاماً لإهانة العدراء.

وبالمناسبة، فإن أحد المنحدرين من «هرناردو دل بولغار» هو المركيز «دي سالار» الذي يعد الممثل الشرعي لذاك البطل، عبر صلة الدم بينه وبينه. ومكافأة على ذلك، ورث حق الدخول إلى «الكاتدرائية» في مناسبات معينة على حصانه، وحق الجلوس مع جوقة المعبود، وأن يضع قبعته مع قبعات مضيفيه. وهذا الامتياز محصور بالرهبان غالباً. وقد قابلته مرة بين الناس، فكان شاباً مقبول الشكل والسلوك، ذا عينيْن لامعتين سوداوين، تقدحان شرراً موروثاً. وفي العصر الحديث، وضعت سلالة عائلته على رسم «فيغا رامبلا» في عيد تجسد المسيح. وبالرسم صور السلالة المنحدرة من ذاك البطل يحمله عادة خادم العائلة ذو الشعر الرمادي وهو يحث الخطى والدموع على خديه نحو «المركيز» ليجره بحماس قائلاً له ولأخيه، عبر تلك الدالة التي يتمتع بها خدم العائلات القدامى على أسيادهم الأسبان: تعال أيها السنيور وأنظر جدك بكل مجد.

إن في كل قرية، أو مدينة جبلية صغيرة ذكرى خاصة لليوم المجيد الذي أعيد فيه فتح «غرناطة» تخلده شعائر معينة يعلنون من خلالها خلاصهم من الحكم العربي وتظهر فيها الأسلحة والدروع القديمة والسيوف الكبيرة المحمولة بكلتا اليدين، والثياب القديمة للفرسان، وغيرها من أدوات الحرب، التي توارثتها الأجيال جيلاً عن جيل. وقد أكد «ماتيو» ذلك وأضاف: سعيدة هي العائلة التي لديها بعض الغنائم الحربية من الغزاة، حيث يطاف بها في الجبال طول اليوم، مع طلقات المدافع. التي تدفع عائلات الفلاحين ثمنها.

ويُلعب ويُمثل طول اليوم ما يشبه «الدراما» بين كل الناس، حيث تخترق الطرقات قوافل الفرسان، باللباس والسلاح القديم، بعضهم يلبس شارات أبطال الإيمان، وآخرون بلباس العرب، بينما تنصب خيمة في الساحات العامة حول صور العذراء، وإليها يتقدم المحاربون لإظهار الولاء والطاعة. بينما يحاول أعداؤهم سد المداخل لمنعهم، فيحصل مشهد حرب، ينسى فيه المتحاربون أحياناً أنهم بدور تمثيلي. فتظهر الضربات القوية بينهم، إلى أن ينتهي المشهد طبعاً لصالح القضية الخيرة، فيهزم العرب ويؤخذون أسرى، ويتم إنقاذ صورة العذراء، ليرفعها المنتصرون ويمشوا بها بكل فخر بين أسراهم وهم في الحديد. مع تأييد الجماهير وسرورهم.

وتستهلك هذه الاحتفالات الكثير من مدخرات هذا المجتمع البسيط، وتشكل عبئاً مادياً عليهم. فعندما يكون المحصول جيداً، يحول قسم كبير منه لهذا الهدف، بحماس يجدد استمراها.

وأخبرني «ماتيو» أنه ساعد أحياناً في هذه الاحتفالات وكان له دور حتى في المعارك، لكنه كان دائماً بجانب المؤمنين بالدين الصحيح. وهو فخور بذلك، على أن لاتنسى أنه من سلالة الكردنال «أكزيمنس» ولهذا ضرب على صدره بكل فخر وقال: لأنها أيها السنيور المسيحية هي وحدها حق⁽¹⁸⁾.

(18) : يقول الأمير شكيب ارسلان في «الحلل السندسية»، مرجع سابق، مج3، ص 403: إن احراق كتب العرب أنى وجدت في اسبانيا، بأمر الكردنال «شيميناس» قد كان السبب في الجهالة... وقد تتبع «ديوان التفتيش» المشهور كتب المسلمين بالإحراق والإتلاف... كما يقول، ص 446 : عاش العرب في إمارة «مرسيه» من بعد سقوطها في أيدي النصارى إلى الجلاء. الأخير في ذل وهوان. ثم أمر «فيليب الثالث» بإجلاء هؤلاء... في مدة ثلاثة أيام من نشر الأمر.... وكل مسلم يوجد بعد ثلاثة أيام في غير المكان الذي عين له، فيكون لأي شخص.... أن يقتله. وفي ص 447 قال : والذي أسند الملك إليه مهمة إجلاء العرب: «دون لويس فخاردو» سنة 1610 م.... وكان هؤلاء يرفعون الصليب فوق منازلهم وأكواخهم... أو يقتلون أولادهم ثم ينتحرون.... ومنهم من ماتوا جوعاً، يقدر بمئتين وستين ألف نسمة. ورغم تكرار الأوامر.... بمعاينة كل من يتكلم العربية «بطليطة»، حيث صكوك معاملاتهم بالعربية إلى سنة 1580م. «فماتيو» هو النموذج الذي أرادت «محاكم التفتيش» THE LINGUITION أن تختزل فيه الحضارة الأندلسية؟! بينما نموذج الحضارة الأميركية في القرن التاسع عشر، تمثل في «واشنطن إيرفينغ»، وبين هذين النموذجين تظهر الكوميديا التراجيدية، في قصة الحمراء هذه، ليلمس القارئ صلة الانفتاح واللاتعصب بكل عمل ونتاج حضاري.

التقاليد المحلية

للشعب الإسباني نفس المزاج الشرقي، في حب سماع الحكايات، والغرام بالغرائب. فهم يتحلقون حول أكواخهم في الأمسيات الصيفية، أو حول الدافئ بزوايا المحال في الشتاء. ليستمتعوا بسرور إلى قصص معجزات القديسين، ومغامرات الرحالة، ومخاطرات قطاع الطرق واللصوص. فبلادهم الواسعة، ذات الشخصية المتوحدة، وكذلك اختلاط المعرفة عندهم ونقصها، هو سبب بحثهم الدائم بموضوعات متشعبة. كذلك لا زال التنقل عندهم بدائياً عبر بلادهم الواسعة. وهو يوحى بالمغامرات الرومانطيقية التي يمكن أن يتعرض لها أي شخص. وجماع كل هذا هو سبب ذاك الحب المنتشر لكل خبر شفهي مما يؤدي إلى الخلط بين الغرابة والعظمة. لكن لا يوجد موضوع أكثر شيوعاً من قصص الكنوز التي دفنها العرب عندهم، والتي تتناقلها كل البلاد. فكل من ينظر إلى جبال «السييرا» الموحشة، سيرى الأبراج والقللاع العربية منتصبة فوق القمم، أو فوق الصخور المطلة على القرى. كذلك حين تسأل سائق البغال أي سؤال، سوف يتوقف، ويؤخر شعل سيكاره ليخبرك عن بعض قصص الكنوز الإسلامية المدفونة تحت هذه المعازل. وكذلك لا تجد أي قصر مهديم في أي مدينة، إلا وله قصة تقليدية عن كنز كان فيه، يتناقلها الناس من جيل إلى جيل، وخاصة ممن يجاورون هذا القصر من الفقراء.

وأساطير الكنوز كغيرها من الأساطير، تشيع وتنبع من بعض الأسس الحقيقية. فخلال الحروب بين الإسلام والمسيحية التي مزقت هذه البلاد لقرون طويلة، كان قدر المدن والقرى، تغيير حكامها، ومواطنيها أيضاً فجأة. وخلال الهجوم على السكان أو حصارهم، كانوا حتماً يدفعون أموالهم ومجوهراتهم في الأرض، أو يخفونها في الكهوف أو آبار الماء. كما يحصل في أيامنا هذه - القرن التاسع عشر - في بلاد شبيهة في الشرق. كذلك يحصل مثل هذا الأمر حين الإحتلال المفاجيء، على أمل أن يعود النازحون إلى ديارهم ليخرجوا أموالهم وأشياءهم الثمينة، على ظن أن نزوحهم قد يكون مؤقتاً. لذلك حصل من وقت لآخر أثناء الحفر بالمصادفة ظهور الذهب والفضة فجأة، بعد مرور القرون. وخاصة بين خرائب القلاع العربية، أو أماكن سكن العرب السابقة. مثل هذه الوقائع القليلة، هي التي ولدت آلاف الأساطير حول الكنوز.

وقد بدا لي الخليط الذي يشخص كل شيء في إسبانيا، من خلال العقلية العربية والغوطية معاً، بتلك القصص الخاصة، ذات الصلة بالشرق، وخاصة في المقاطعات الإسبانية الجنوبية. حيث أن كل ثروة مخبوءة محروسة «برصد» سحري يحميها، ويكون هذا «الرصد» الحامي على شكل وحش مرعب، أو «داراغون» تنين. أو أحياناً أخرى على شكل روح عربي جالس بجانب كنزه بكامل سلاحه. شاهراً سيفه دون حراك كالتمثال، وهو يراقب من عصور دون أن يغفو.

أما الحمرا فبسبب موقعها الخاص في التاريخ، فتعد طبعاً المعقل لأساطير من هذا النوع، وتأتي الحفريات فيها بين وقت وآخر، لتؤكد هذه الأساطير. ففي إحدى المرات مثلاً، وجدت جرة بها عملة عربية مع هيكل ديك، اعتبره أحد المتحذلقين، أنه قد دفن مع الجرة حياً.

ومرة أخرى أخرجت جرة أخرى بها «جُعَلُ» أو خنفساء مغلفة بالطين، وعلى غلافها خط عربي. ففهم منها أنها تحوي على «تعزيمه» سحرية حارسة. ولذلك يجمع التحذلق الغرناطي الأجوف، على أنه لا برج ولا قاعة ولا مكان في القصر القديم بني إلا على رصد يحرسه، بناء على تقاليد معينة. ولهذا سأتي للقاريء على ذكر الأساطير الرائعة التي ربطت بالحمرا، بعد أن ألفت معي في الصفحات السابقة أحوال سكانها. تلك الأساطير التي تشكلت، من كل إشارة أو رمز، مهما كان شكله، والتي جمعتها خلال بحثي وتجوالي، تماماً كما يبحث

الباحث عن وثائق التاريخ القديم، من شذرات الرسائل، والكلمات الباقية في المخطوطات.

فإذا صدمت إحدى هذه الأساطير القارىء الشكاك، عليه أن يتذكر طبيعة المكان الذي سمح بمثلها. فهو هنا يجب أن لا يتوقع قوانين الاحتمال التي تحكم فهم الأماكن العادية، ولا التي تحكم الفهم اليومي للحياة. لذلك عليه أن يتعامل مع «قاعات مرصودة» في القصور، قائمة كلها على أرض سحرية مسكونة؟



بيت «ديك الطقس» (19)

بمواجهة قصر الحمرا مباشرة، وعلى مرتفع فوق هضبة من هضاب مرتفع «البائيسن» الذي يشكل أعلى منطقة في غرناطة، ويشرف على وادي «داره» الضيق، يقف ما تبقى مما كان قصراً من قصور «الراكشيين» وقد تداعى هذا القصر منذ زمن قديم، مما سبب لي جهداً كبيراً في محاولة إيجاده. على الرغم من مساعدي الباحث الذي يعرف ويدعي كل شيء «ماثيو أكزيمنس» وكان قد حمل هذا الصرح الضخم منذ قرون اسم : «بيت ديك الطقس» من علامة تمثال «برونزي» يتحرك كديك طقس على برجه، منذ الزمن الغابر، على شكل محارب على ظهر حصان، يدور مع كل نسمة هواء، وهذه العلامة الطقسية، كانت تعتبر

(19) : ديك الطقس هو: عبارة عن صفيحة معدنية متحركة على محور بالاتجاهات الأربعة، حسب دفع الريح لها، ويحفر عليها عادة شكل ديك، وتثبت في بعض الأبنية الغربية، فإذا ضربها الهواء حددت الاتجاه الذي يأتي منه الريح.

- المترجم -

عند مسلمي غرناطة نذير سوء، كما أخبرهم بذلك أحد العرافين. ويوجد على هذا التمثال «البرونزي» حسب ماتخير بعض الحكايات، عبارة مكتوبة باللغة العربية على الشكل التالي :

calet el Bedici Aben Haby

Quidat chahet Jinadabuy

وتعني باللغة الانكليزية :

بهذه الطريقة قال ابن «هابوز» الحكيم.
تُحَرَسُ الأندلس من كل مفاجأة⁽²⁰⁾.

(20) : وقد نقل «إبرفنع» هذا المعنى من الترجمة الإسبانية للعبارات العربية وهي :

DiceEl-Salio Aben Haby

Que asi Se Definde El Anduluy

وطبعاً هذه الترجمة خاطئة للنص العربي. ولأن المؤلف لا يعرف العربية، كما سبق وأعلمنا في قصة : «قاعة السباع» حين التقى مع «التطواني» الذي يعمل بالآفاويه كتاجر في سوق «الزقاقين»، والذي قال عنه : «لأنه يتقن الإسبانية بطلاقة تمكنت من التحوار معه». نقل النص العربي أولاً بأحرف لاتينية، ثم عمد إلى ترجمته من الترجمة الإسبانية الخاطئة له.

ونحن اذا عدنا إلى النص العربي، كما كتبه المؤلف باللاتينية، آخذين بعين الاعتبار عدم وجود حرف الحاء في اللاتينية واللغات المشتقة منها، وقرأنا الهاء حاءً والسي قافاً. يمكن كتابة النص بالأحرف العربية على الشكل التالي :

قلعة الباديس ابن حبوس

قائد ناحية - أو حامية - الأندلس.

فلا يوجد إذا لا ابن حبوس الحكيم، ولا أي إشارة إلى الحراسة من كل مفاجأة؟!

فمن أين جاءت صفة التنبؤ والحكمة لابن حبوس لتدخل في التقاليد الإسبانية وتتداخل مع الترجمة الإسبانية الضعيفة للنص العربي على ديك الطقس هذا؟

يقول خير الدين الزركلي في «الأعلام» ط3، ج2، عام؟، دار النشر؟، ص 4 - 5 : «الظفر الصنهاجي باديس بن حبوس... من ملوك الطوائف في الأندلس... وباديس هذا هو الذي مَصّر

«غرناطة» واختط قصبتها، وشاد قصورها، وشيد حصونها». ويقول لسان الدين بن الخطيب في كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة عام 1973 م، ط2، ج 1، ص 435: باديس بن حبوس بن مساكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، ولقبه الحاجب الظفر بالله... كان طاغية جباراً، شجاعاً، وداهية... جماعة للمال... يمكنى أبا مسعود... خاطب شيخ بيته ومعه أبناء أخيه ليجوز إلى الأندلس رغبة في الجهاد - ص 432 - فلما انهضت الإمامة سنة «448هـ» وانشقت عصا الجماعة، سعوا إلى الفتنة سعي غيرهم، من سائر قبائل البربر... فإنحازت صنهاجة مع شيخهم... إلى مدينة «غرناطة» ثم آثر زاوي العودة إلى وطنه إفريقية... والتف قومه على ابن أخيه حبوس - حوالي ألف ومئة ميلادية - وأقام بها ملكاً.

وابنه الباديس بن حبوس هو الذي ترجم له «الزركلي»، وقال عنه «ابن الخطيب»: أنه استوزر يهودياً قتل ابنه غيلة بالسم، ليتمكن اليهود من غرناطة، وقال ص 440 من المرجع السابق:

«باديس في هذا الحال منغمس في بطالته، عاكف على شرابه. ونمى هذا الأمر إلى رهط من صنهاجة، فراحوا إلى دار اليهودي مع العامة، فدخلوا عليه، فاختموا في بيت فحم وسود وجهه، يروم التنكر. فقتلوه لما عرفوه، وصلبوه على باب غرناطة، وقتل من اليهود من يومه مقتل عظمى» 459هـ.

أما كيف تحول باديس البربري هذا إلى حكيم وعراققة؟! فيخبرنا لسان الدين بن الخطيب، في المرجع السابق ص 433 عن ذلك بقوله: «أدال قدم العهد بتعرف أخبار جبروته وعتوه على الله سبحانه - العامة - لما جيلهم من الإنقياد للأوهام، والانصياع للأضاليل. فعلى حفرته اليوم من الإزدحام بطلاب الحوائج والمستشفين من الأسقام، حتى أولو الدواب الوجيعة، ما ليس على قبر معروف الكرخي، وأبي يزيد البسطامي».

وفي ص 443 قال الخطيب: «وداره اليوم طول قد تغيرت أشكالها... وقد ألعت من قصيدة أثبتها فكاهة:

عسى خطرة بالركب يا حادي العيس
على الهضبة الشعاء من قصر باديس.

وابن «هبوز» أي «حبوس» هذا، بناء على مؤرخ إسلامي قديم - ؟ - كان مقدماً «كابتن» في جيش طارق بن زياد الغازي، الذي فتح إسبانيا وتركه كسيد «السيد» على غرناطة⁽²¹⁾ كطريق متقدم لإنذار المسلمين في الأندلس، المحاطين بمناهيهم، وبذلك تتوقف سلامتهم على كونهم دوماً على استعداد للمعركة.

وبناء على مؤرخين آخرين من النصاري، أكد «مارمول» أن الباديس بن «هبوز» أي «حبوس» كان سلطاناً مغريباً على غرناطة، وأن ديك الطقس هو دلالة على عدم استقرار القوة الإسلامية، مدعياً أن العبارة العربية عليه تترجم على النحو التالي:

«هكذا تنبأ ابن حبوس الباديس أن الأندلس سوف تزول وتختفي في يوم من الأيام»⁽²²⁾.

ونسخة أخرى من تفسير هذا المخطوط - على ديك الطقس أعطاه مؤرخ مسلم. بناء على «سيدي حسان» الفقير الذي عرف في أيام «فردناند وإيزابيلا» والذي كان

(21) : وهذا طبعاً خطأ تاريخي واضح. لمن اطلع على ما أورده بالهوامش السابقة

- المترجم -

(22) : إن تنبؤ ابن حبوس لم يكتب على «ديك الطقس» كما بينا، ولا على سقوط الأندلس، وكل ما هنالك ما ذكره لسان الدين بن الخطيب في «الإحاطة» المرجع السابق ص 414 قوله: «خاض باديس مع أصحابه... من دار الشراب بقصره، واصطفت الصقاليب... فورد عليه نبأ قام لتعرفه... وخبتت نفسه، فحذر ندماءه على أنفسهم وتخللوا وقوع الشر بهم، ثم قال: دخل المرباط الدمثة - مشيراً إلى يوسف بن تاشفين... ثم وجعوا لوجومه... قال:.... اليوم خمر وغداً أمر، بيننا وبينه أمداد الفجو.... ولكن لا بد له أن يمتلك بلدي ويقعد منه مقعدي. وهذا أمر لا يلحقه واحد منا، وإنما يشقى أحفادنا». وقد تحققت هذه النبوءة أو هذا الإستقراء على الأصح زمن ابن الخطيب حين أخبر أمير المسلمين بذلك في نفس المكان. قال: «وقصصت عليه قول باديس فتعجب وقام إلى المسجد بمن معه، فصلى فيه ركعات، وأقبل يترحم على قبره» المرجع السابق ص 443.

حاضراً سقوط بيت «ديك الطقس» عندما خضعت هذه القسبة الجديدة إلى الهدم والإصلاح. قال:

لقد رايتها بعيني كانت على دعائم سبعة وعليها مكتوب الشعر التالي:
القصر في غرناطة المشرقة يخبر القصة.

فالفارس الذي من جماد، يدور مع كل ريح.
وهذا سر يعرفه العاقل. فقريباً سيدمر القصر وملاكه.

ثم حدثت الأحداث بعد ذلك بقليل. فبعد أن كان مولاي الحسن «أبو الحسن» ملك غرناطة جالساً يستعرض عسكره من شرفته، بسلاحهم اللماع، وأثوابهم الحريرية الفاخرة، يمتطون جيادهم كاللجة الثابتة، ومعهم سيوفهم ودروعهم ورماحهم المطعمة بالذهب والفضة، رؤيت زوبعة عاصفة تتقدم من الجنوب الغربي. وبعد قليل غطت السماء السحب الداكنة التي انفجرت بالأمطار الغزيرة ثم جاء الإعصار مزجراً من الجبال يقتلع معه الصخور والشجر، فملأ «دارو» حتى جانبي واديها، وقلع النواعير، وسبب دمار كل الحدائق. واندفعت العاصفة حتى داخل المدينة لتغرق المنازل بساكنها، حتى ساحة المسجد الجامع، فاندفع الناس إلى الجوامع طلباً لرحمة الله، وهم يرون في هذا التغيير في الجو مجلبة لكل دمار. وحسب المؤرخ العربي «المقري»⁽²³⁾، كانت هذه صورة من صور الحرب المتعددة التي أدت إلى سقوط المملكة الإسلامية في غرناطة.

(23) : صاحب (نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب).

الحمراء

AL - HAMBRA

قصة

«أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي على الأندلس وأشبانيا»

تأليف

واشنطن إيرفينغ

« القسم الثاني »

ترجمة

عبد الكريم ناصيف



حكاية المنجى العربي

في غابر الزمان ، كان هناك ملك عربي يحكم غرناطة يدعى ابن حبوس تقدمت به السن بعد أن كان فاتحاً كبيراً ، عاش شبابه كله معارك وصراعات دائمة... ولكنه وقد شاخ ، بات ضعيفاً «ينشد الراحة» ولا يرغب بأكثر من أن يعيش بهدوء وسلام مع العالم كله ، ناعماً بانتصاراته السابقة ، مستمتعاً بما وضع يده عليه من ممتلكات جيرائه. لكن حدث أن كان يحيط بهذا الحاكم الراغب بالسلام والهدوء منافسون شبان ، أمراء مفعمون بما كان يملأ صدره في شبابه من طموح للشهرة وحب للقتال وكان أكثر ما يسعدهم أن يطلبوه لتقديم الحساب عن كل ما فعله بآبائهم. عدة مناطق بعيدة من بلاده تلك التي كانت أيام عزه يديرها بقوة مسيطراً مهيمناً ، غدت ميالة لشق عصا الطاعة عليه ، حين رآته يميل للراحة والدعة ، بل وتهدهده بأن تغزوه في عقر داره. من كل جانب ، كان الاعداء يحيقون به ، ولما كانت غرناطة محاطة بالجبال الوعرة الجرداء التي تخفي اقتراب

الاعداء، فقد اضطر ابن حبوس التاعس الحظ لأن يظل في حالة دائمة من التنبه واليقظة. دون أن يعلم من أي اتجاه يمكن أن يهاجمه الاعداء. عبثاً أقام ابن حبوس أبراج مراقبة في الجبال. وضع حراساً على الممرات ومعهم الأوامر باشعال النار في الليل واطلاق الدخان في النهار إذا ما اقترب أي عدو. فاعداءه اليقظون كانوا يخترقون احتياطاته كلها وينفذون من ثغرة من دفاعاته لم تخطر له ببال ليهاجموا أراضيه تحت سمعه وبصره ناهبين سالبين، مدمرين مخربين، عائدين بأسراهم وغنائمهم إلى الجبال. فهل كان هناك فاتح ينشد السلام والراحة اسوأ حالا...؟

في تلك الحال من الازعاجات والقلاقل، وصل إلى بلاط ابن حبوس حكيم عربي عجوز، لحيته البيضاء تنزل الى حزامه، سيماه تحمل كل علائم الشيخوخة والكبر، مع ذلك كان قد قطع الطريق كله من مصر إلى غرناطة مشياً على القدمين، دون مساعدة إلا من عصا عليها كتابات هيروغليفية. شهرته كانت قد سبقته. اسمه ابراهيم ابن أيوب يعيش كما يقال منذ أيام محمد وهو ابن أيوب آخر صحابي الرسول عليه السلام. التحق، وهو غلام صغير، بعمر بن العاص، حين دخل بجيشه الفاتح مصر، وهناك بقي سنين كثيرة يدرس العلوم السوداء، وخاصة السحر والتنجيم على أيدي الكهنة المصريين.

زيادة على ذلك، يقال انه توصل إلى السر الخطير: سر إطالة الحياة، الأمر الذي جعله يطيل عمره حتى ناف على القرنين، لكنه لم يكتشف ذلك السر إلا وقد تقدمت به السن فلم يستطع إلا أن يستمر بشعره الاشيب وتجاعيد وجهه.

هذا الرجل العجيب لقي كل ترحاب وتكريم من الملك الذي بدأ ككل الحكام المسنين يولي الحكماء والأطباء عظيم رعايته ووافر عطفه. بل لقد خصص له جناحاً في قصره، غير أن الحكيم المنجم فضل أن يعيش في كهف من كهوف الرابية التي تطل على مدينة غرناطة، ظل على حاله مذ بنيت الحمراء هناك. كل ما طلبه هو توسيع ذلك الكهف ليغدو قاعة رحبة فخمة، في أعلاها ثقب دائري يمكن من خلاله تأمل النجوم حتى في عز النهار، جدرانها نقشست بالكتابات الهيروغليفية ذات الرموز والاشارات وبينها رسمت اشكال النجوم والصور. كذلك، جهزت تلك القاعة بالكثير من الأدوات التي صنعها، بتوجيهاته، صناعيو غرناطة المهرة، لكن دون أن يعرف خصائصها الغامضة سواه.

خلال فترة وجيزة، أصبح الحكيم ابراهيم المستشار الأكثر حظوة لدى الملك، يقدم له النصيحة والمشورة في كل أمر وطارىء. ذات يوم اشتكى ابن حبوس، من جور جيرانه كما تذر من القلق والسهر وشدة اليقظة التي كان عليه ان يتسلح بها لرد غاراتهم وغزواتهم. حين انتهى من شكواه ظلّ المنجم صامتاً هنيهة من الزمن، بعدئذ أجاب:

- اعلم ايها الملك انني حين كنت في مصر شاهدت اعجوبة عظيمة صنعتها كاهنة وثنية من كاهنات ايام زمان، فقد اقيم على قمة جبل، يطل على مدينة برصة وعلى وادي النيل العظيم تمثال كبش فوقه تمثال ديك كلاهما من النحاس المصهور، يدور على محور. في أي وقت يهدد البلاد خطر الغزو، يدور الكبش على محوره باتجاه الخطر الداهم، فيما يبدأ الديك بالصياح، عند ذاك يعرف سكان المدينة بالخطر وبالجهة التي يقترب منها، وفي الحال يتخذون استعداداتهم للوقوف في وجهه. «الله أكبر»، هتف ابن حبوس الميال للسلام والهدوء «أي كبش ثمين سيكون ذلك الكبش وهو يحرس هذه الجبال من حولي فلا تفوته شاردة ولا واردة !! أي ديك رائع سيكون ذلك الديك وهو يصيح حين يدهمنا أي خطر !! الله اكبر !! كم سأنعم في قصري بالطمأنينة والسلام، إذا ما وجد حرس كأولاء على الذرى هناك». تريت الحكيم قليلاً، ريثما خفت نشوة الملك، ثم تابع: «وبعد أن أكمل عمرو المظفر فتوحه لمصر. مكثت بين الكهان هناك، ادرس شعائر عباداتهم وطقوسها وأسعى لأن أجعل من نفسي سيد المعرفة السرية التي اشتهروا بها منذ قديم الزمان. ذات يوم، كنت جالساً على ضفة النيل أحاور كاهناً قديماً عندما اشار بيده إلى الاهرامات العظيمة التي كانت تنتصب كالجبال في الصحراء القريبة ثم قال: «ما يمكننا ان نعلمك إياه كله ليس بشيء مقارنة بالمعرفة الحبيسة في تلك الصروح الهائلة. ففي القلب من الهرم الرئيسي ذاك، ثمة حجرة منحوتة في قلب الصخر - وفي لب تلك الحجرة، ثمة مومياء للكاهن الاعلى الذي ساعد في رفع ذلك الصرح العظيم، وقد دفن معه كتاب عجيب فيه المعارف واسرار السحر وفنونه كلها. ذلك الكتاب هو الذي أعطي لآدم عند هبوطه من الجنة ثم تناقلته الايدي جيلاً بعد جيل حتى سليمان الحكيم، وبمساعده تم بناء هيكل سليمان في القدس. أما كيف وصل الى ايدي باني الاهرام ذاك فأمر لا يعرفه إلا هو وحده العالم بكل شيء».

عندما سمعت تلك الكلمات عن الكاهن المصري، خفق قلبي شوقاً لامتلاك ذلك الكتاب، ولحسن الحظ كان باستطاعتي أن أطلب خدمات الكثير من جند جيشنا الفاتح وكذلك عدد من أبناء البلد المصريين. وهكذا انطلقت إلى العمل، تغلغلت في تلك الكتلة الصلدة للهرم إلى أن توصلت، بعد الكثير من الجهد والعناء، إلى أحد معمراته الداخلية الخفية. تبعت ذلك الممر، منسللاً صاعداً متاهة مخيفة إلى أن نفذت إلى قلب ذلك الهرم، بل بلغت الحجرة المنحوتة في الصخر ذاتها، حيث كانت مومياء الكاهن الأعظم ترقد منذ قرون. كسرت الاطر الخارجية التي تضم تلك المومياء، ثم فككت اللفائف والعصائب الكثيرة التي تلفها إلى أن وصلت أخيراً إلى المجلد الثمين الذي يرقد على صدره. أمسكته بيد راعشة، ثم انسللت عبر الممر الذي يقودني خارج الهرم، مخلفاً ورائي المومياء في ضريحها الصامت المعتم تنتظر هناك يوم البعث والقيامة.

«يا بن أيوب الحكيم» هتف ابن حبوس: «أنت رحالة عظيم، شاهدت العجائب، لكن ما تراه يفيدني سر الهرم وكتاب المعرفة ذاك، كتاب سليمان الحكيم» «هو الذي يفيدك أيها الملك!! إني بدراستي لذلك الكتاب، برعت في فنون السحر كلها وصار باستطاعتي أن أستمد العون من الجن وأتخذ كل ما أبتغيه من خطط. سر تعويذة برصة أعرفه أيها الملك، ومثل تلك التعويذة يمكن أن أصنع وهو امر ذو فضائل عظيمة».

«يا بن أيوب الحكيم» صرخ ابن حبوس هاتفاً «تعويذة كهذه خير من أبراج المراقبة المنتشرة على الجبال كلها وخير من كل ما هنالك من حراس منتشرين على الحدود. اعطني مثل ذلك الحارس الأمين، وكل ما أملك من كنوز سيكون رهن امرك»، وهكذا، تلبية لرغبة الملك انطلق المنجم إلى العمل في الحال آمراً بنصب برج عظيم في أعلى القصر الملكي الذي كان ينتصب بدوره على حافة رابية «البائسين». لقد شيدوا البرج من حجارة جاؤوا بها من مصر بل يقال انهم أتوا بها من أحد الاهرامات. في الجزء العلوي من البرج، كانت هناك قاعة دائرية ذات نوافذ مفتوحة على جميع الجهات. امام كل نافذة كان هناك طاولة اشبه برقعة شطرنج، رُتب عليها جيش من تماثيل على رأسه تمثال للملك الحاكم، وقد صنع الكل من خشب. على كل طاولة من تلك الطاولات كان هناك رمح صغير لا يزيد حجمه عن دبوس شعر، وقد نقشت عليه عدة كتابات كلدانية، وكانت تلك

القاعة مغلقة باستمرار بباب من النحاس ذي قفل كبير من فولاذ، مفتاحه لدى الملك وحده.

في أعلى البرج كان ثمة تمثال برونزي لفارس عربي مثبت على محور، في يده ترس، وفي اليد الأخرى رمح مسدد إلى الأعلى، وجه الفارس متجه إلى المدينة، كما لو أنه يقف حارساً عليها، لكن إذا ما اقترب أي عدو استدار الفارس في ذلك الاتجاه ووجه رمحه وكأنه يأمر بالانطلاق إلى الدفاع.

حين اكتملت تلك التعويذة كان ابن حبوس متشوقاً كل التشوق لاختبار فعاليتها، تائفاً كل التوق لأن يأتي غزو من تلك الغزوات التي كان يشكو منها، وسرعان ما لبيت رغبته، فذات صباح جاء الحارس المكلف بمراقبة البرج قائلاً: ان وجه الفارس البرونزي قد استدار باتجاه جبال الفيرا وان رمحه مسدد مباشرة نحو ممر «لوب». «مر بقرع الطبول ونفخ ابواق وإعلان النفير في غرناطة» قال ابن حبوس لكن المنجم قال:

«أيها الملك، لا تدع مدينتك تضطرب ولا محاربك يقلقون وينفرون للسلح. فما نحن بحاجة للمساعدة من أية قوة عسكرية لتخليصك من أعدائك. اصرف اتباعك ولنذهب بمفردنا إلى قاعة البرج السرية».

في الحال، أسرع ابن حبوس الشيخ يصعد درج البرج، مستنداً على ذراع ابراهيم بن ايوب الأكبر سناً والأكثر شيخوخة. فتحسا الباب النحاسي ثم دخلا فوجدا النافذة المظلمة على ممر «لوب» مفتوحة، «في هذا الاتجاه يكمن الخطر»، قال المنجم «تقدم أيها الملك وانظر سر الطاولة».

اقترب ابن حبوس من الطاولة الاشبه برقعة الشطرنج، والتي صفت فوقها التماثيل الخشبية الصغيرة، ولشدة دهشته لاحظ انها كلها في حالة حراك. الخيول تتواثب وتتقاذز، المقاتلون يشهرون اسلحتهم، فيما ينطلق صوت خافت كأنه قرع طبول ونفخ ابواق وصليل سلاح وصهيل خيول. لكن دون أن تكون كلها أعلى صوتاً وأكثر تميزاً من طنين نحلة أو فراشة صيف في أذن رجل غاف وقت القيلولة في ظل خميلة.

«انظر أيها الملك» قال المنجم «هوذا البرهان على ان أعداءك في الميدان الآن. انهم يتقدمون في جبالك، عبر ممر «لوب» فهل ترغب في أن تثير الرعب والهلع في صفوفهم وتدفعهم للتراجع دون ان تزهق روحاً؟ إذن، اضرب هذه التماثيل بعقب

هذا الرمح المسحور، اما إن اردت ازهاق ارواح وإراقة دماء فاضرب برأسه». دهشة تامة طغت على محيا ابن حبوس، بعدئذ أمسك الرمح بيد متشوقة راعشة، ثم مضى باتجاه الطاولة ولحيته البيضاء تهتز انتشاء وطرباً، بعدئذ هتف بنبرة ضاحكة «يا بن ابي ايوب، اظن انه لا بد من قليل من الدماء».

قال ذلك ثم طعن برمحه المسحور بعض التماثيل الخشبية وضرب بعقب الرمح بعضها الآخر، وللتو سقطت التماثيل الأولى جثثاً هامة على الرقعة فيما استدار البقية بعضهم الى البعض الآخر وبنوع من الفوضى العجيبة شرعوا يقتتلون. بصعوبة شديدة، تمكن المنجم اخيراً من تثبيت يد الحاكم الذي كان أكثر الحكام ميلاً للسلام والهدوء حائلاً بينه وبين إبادة خصومه إبادة تامة. بعد جهد جهيد، استطاع ان يقنعه بالخروج من البرج وارسال عناصر استطاع الى الجبال عبر ممر «لوب».

حين عادوا كانت الأخبار سارة، فالجيش المسيحي الذي كان قد تقدم الى قلب السلسلة الجبلية، حيث يمكن تقريباً رؤيته من غرناطة، نشب خلاف في صفوفه فوجه افراده اسلحتهم إلى نحور بعضهم بعضاً. وبعد أن ذبح الكثير منهم عادوا وانسحبوا إلى ما وراء الحدود.

جن ابن حبوس فرحاً بذلك البرهان على فعالية التعويذة وقدراتها، فهتف «أخيراً، سأنعم بحياة هادئة وسيكون اعدائي كلهم في قبضة يدي. يا بن أبي أيوب الحكيم، ما عساي اقدم لك جزاء معروف كهذا؟» «ما يحتاجه فيلسوف عجوز ايها الملك، وحاجته ضئيلة بسيطة. هبني فقط ما اجهز به كهفي ليكون صومعة مناسبة لناسك. وأنا ارضى».

في قرارة نفسه، سر ابن حبوس كثيراً لذلك الطلب البسيط، داعياً للتوامين خزانته آمراً اياه بان يقدم لابراهيم كل ما يطلب لتجهيز صومعته واستكمالها.

حينذاك اصدر المنجم أوامره بتجهيز حجرات عدة تحفر في قلب الصخر بحيث تشكل امتداداً للجناح المتصل بقاعة التنجيم، كما أصدر أوامره بأن تؤثث بفاخر المفارش والأرائك وان تغطي الجدران بأعلى الحرائر الدمشقية قائلًا «أنا رجل عجوز، لن تجد عظامي الراحة بعد الآن على الحجارة بل على الطنافس والمفارش. كما ينبغي ان تستر هذه الجدران الرطبة أنفاس الستائر».

كذلك أمر بإقامة حمامات مزودة بكل انواع الطيوب والعطور قائلاً: لا بد من الحمام للوقوف في وجه الزمان وقسوة الشيخوخة، به يستعيد المرء طراوة الشباب وليونة الصبا التي ذهب بها العمر والكبر».

بعدئذ أمر بنصب قناديل لا تحصى من الفضة والبللور في الاجنحة كلها، كما أمر بإملائها بزيت عاطر يستحضره وفق وصفة اكتشفها في مدافن الفراعنة. ذلك الزيت دائم الاشتعال بطبيعته ينشر اشعاعاً لطيفاً كنور النهار اللطيف، «فضوء الشمس شديد وباهر لعيني عجزو مثلي، اما ضوء الصباح فأكثر راحة وملاءمة لدراسات فيلسوف. تدمر خازن بيت المال من المبالغ التي راح ابن أبي أيوب يطلبها يوماً بعد يوم لتجهيز صومعته، ثم نقل شكواه إلى الملك. لكن الملك كان قد قال كلمته فهز كتفيه قائلاً «علينا بالصبر... فهذا العجز استمد افكاره عن اعتزال الفلاسفة من داخل الهرم وآثار مصر العظيمة، لكن لكل شيء نهاية، ولسوف ينتهي من تأثيث كهفه ذات يوم».

والحقيقة، كان الملك على حق فالصومعة اكتملت اخيراً بعد أن غدت اشبه بقصر فخم تحت الأرض.

حينذاك ابدى المنجم رضاه تماماً ثم اغلق على نفسه الابواب ليملك ثلاثة ايام بطولها مستغرقاً في الدرس..

في نهاية الايام الثلاثة ظهر مرة أخرى أمام خازن بيت المال «ثمة شيء آخر أنا بحاجة اليه» قال ابن أبي أيوب.. «شيء سخيف تافه، لكنه قد يكون عزاء وراحة لي في فترات استراحتي من عملي الذهني».

«اي ابراهيم الحكيم، أنا ملزم بأن أقدم لك كل ما تراه ضرورياً لمعتزلك فماذا تطلب؟»

«بضع نساء راقصات»

«نساء راقصات ! !» ردد الخازن باندهاش

«أجل نساء راقصات» أجاب الشيخ بكل حكمته وصرانته « وليكن صبايا غضات الإهاب، حسناوات الوجوه، فرؤية الوجه الحسن تنعش القلوب . قلة منهن تكفي، لأنني فيلسوف عاداته بسيطة ورضاه يسير».

وهكذا ، راح الفيلسوف ابراهيم بن ابي أيوب يقضي وقته في صومعته على ذلك النحو من الحصافة والحكمة فيما راح ابن حبوس الميال للهدوء والسلام يقوم بحملات ساخطة على تماثيله الخشبية في برجه. وانه لأمر رائع بالنسبة إلى عجوز مثله اعتاد الهدوء والسلام ان تغدو الحرب سهلة يسيرة وان يصبح بإمكانه ان يتسلى في حجرته باكتساح الجيوش كلها وإبادتها وكأنها اسراب من ذباب.

حيناً من الزمن استغرق الملك في لعبته تلك فرحاً مغتبطاً، بل انه كان يتفاخر على جيرانه ويوجه إليهم الاهانات عله يدفعهم لغزوه، لكنهم، شيئاً فشيئاً تعبوا وشيئاً فشيئاً يئسوا مما لحق بهم من كوارث حتى غدوا وما من احد منهم يغامر في أن يغزو أراضيه. وهكذا، طوال اشهر عديدة، ظل الفارس البرونزي ساكناً بلا حراك ورمحه مسدداً نحو الأعلى فيما شرع الحاكم الشيخ يتذمر لافتقاده رياضته التي اعتاد ممارستها ويبدي الضجر والملل من حياته الساكنة الرتيبة.

في النهاية ، دار الفارس - التعويذة - ذات يوم، وبشكل مفاجيء، على نفسه مسدداً رمحه نحو الاسفل، موجهاً إياه نحو جبال الوادي الكبير. أسرع ابن حبوس إلى برجه ، لكن الطاولة المسحورة في ذلك الاتجاه كانت ما تزال ساكنة لا حراك فيها لجندي أو فارس. ضرب من الحيرة أصابه، وللتو ارسل كوكبة من الفرسان لاستكشاف تلك الجبال، عادوا بعد ثلاثة أيام.

« بحثنا في كل ممر من ممرات الجبل » قال له الفرسان « لكننا لم نر أثراً لخوذة او رمح يتحرك. كل ما رأيناه خلال استطلاعنا إنما هو فتاة مسيحية فائقة الجمال نائمة وقت الظهيرة بجانب نبع، فأتيناك بها أسيرة ».

« فتاة فائقة الجمال !! » هتف ابن حبوس وعيناه تشعان نشاطاً وحيوية « اتقوني بها ».

بناء على الأمر، جيء بالفتاة الجميلة اليه فإذا بها ترفل بأفخر الحلل تلك التي كان يلبسها الاسبان في ذلك العصر الذي فتح فيه العرب تلك البلاد. لآلء باهرة الألق كانت تزين شعرها لتشكّل نوعاً من الطباق مع جدائلها السوداء وجواهر تتدلى على جبينها، لا يضاهاها بريقاً إلا بريق عينيها، وحول عنقها كانت ثمة سلسلة من ذهب علق فيها غيتار يتدلى إلى جانبها.

لمعان عينيها السوداء كان يشع كشرر النار المتطاير من قلب ابن حبوس الذي جففته الأيام واذبلته لكنه ظل قابلاً للاشتعال. احياء المتعة التي كانت

تنداح من هيئتها جعلت حواسه كلها تصاب بالدوار. «يا أحسن النساء» هتف الملك منتشياً «من أنت وماذا أنت؟» «انا ابنة امير من امراء القوط كان قبل حين من الزمن فقط يحكم هذه البلاد. جيوش ابي أبيدت بين هذه الجبال وكان ذلك بفعل سحر، وقد أرسل إلى المنفى لتبقى ابنته بعده اسيرة».

«حذار، أيها الملك!!» همس ابراهيم بن ابي ايوب. «قد تكون هذه الفتاة واحدة من ساحرات الشمال اللواتي سمعنا عنهن واللواتي يتخذن اكثر الهيئات اغواء ليوقعن في شباكهن الغافلين. صدقني انا أرى السحر في عينيها، والشعوذة في كل حركة من حركاتها. لا شك ان هذه هي العدو الذي اشارت اليه التعويذة».

«يا بن ابي ايوب» اجاب الملك «انت رجل حكيم، وأعتقد انك تعرف ما لست اعرف لكنك في شؤون النساء لا تعرف إلا القليل. وفي ذلك الميدان لا أسلم قيادي لأحد، حتى لو كان سليمان الحكيم نفسه، رغم كل ما كان لديه من نساء ومحظيات. إنتي لا أرى ضيراً من هذه الفتاة، فهي حسناء تبهج الناظر وتسر خاطر وقد ارتاحت لها نفسي».

«اسمع ايها الملك» أجاب المنجم «قد حققت لك الكثير من الانتصارات بفضل تعويذتي، لكنني لم اشارك بأي من الغنائم التي غنمتها قط، فاعطني هذه الاسيرة الشريرة، علها تريحني في وحدتي وتخفف من وحشتي بغيتارها الفضي ذاك، وان كانت ساحرة فعلاً، كان لدي طلاس مضاءة أواجهها بها وأرد سحرها».

«ماذا؟ مزيد من النساء!!!» صاح ابن حبوس «ألم تأخذ من قبل ما يكفيك من النساء الراقصات كي يرحنك؟» «نساء راقصات أخذت، هذا صحيح، لكنني لم آخذ مغنية واحدة. وبودي ان يكون لدي مغنية رخيمة الصوت تنعش قلبي وتريح ذهني بعد عناء الدرس وكده».

«لتنقذ طلباتك أيها المتنسك» قال الملك نافذ الصبر «هذه الفتاة لي، إنني اجد فيها راحتتي، كما وجد داود، والد سليمان الحكيم ذاته، راحته في بتشابع امرأة أوريا، قائده».

حاول المنجم العجوز ان يدافع عن وجهة نظره لكن الملك لم يزد إلا تمسكاً بالفتاة، فافترقا على ضيق وانزعاج. ذهب الحكيم إلى معتزله ليحبس نفسه هناك وكله شعور بالمرارة والخيبة. مع ذلك، كان قبل ان يفارق الملك، قد حذره لآخر

مرة من اسيرته الخطيرة. لكن انى للمعجوز الذي وقع في الغرام ان يصغي للنصيحة؟ لقد اسلم ابن حبوس نفسه لغرامه وهواه.

همه الوحيد: كيف يعد نفسه للمحبة وكيف يجعلها تقبل به وتحبه هي التي تجسد الجمال القوطي. صحيح انه لم يكن يملك الشباب الذي يقربه منها، لكنه كان يملك الثروة، وحين يكون المحب كبيراً في السن يكون بالغ السخاء عادة. اسواق غرناطة فتشوها بحثاً عن أنفس بضائع الشرق: الحرير، الجواهر، الدرر، العطور النادرة وكل ما تنتجه افريقيا وآسيا من ثمين ونادر جيء به إلى الأميرة. المهرجانات بأنواعها، الاحتفالات كلها اقيمت لتسلية الأميرة: غناء، رقص، مبارزات، مباريات - فقد تحولت غرناطة حيناً من الزمن إلى حلبة للمرح واللهو الدائمين. كانت الأميرة تنظر إلى تلك الروائع كلها بعين المعتادة الأليفة، بل كانت تتقبل ذلك كله وكأنه بعض فروض الولاء والاعجاب التي يفرضها مركزها أو بالأحرى جمالها، فالجمال إذا ما اكتمل أكثر رفعة من كل مركز أو مرتبة. اجل.. كانت الأميرة تبدو وكأنها تستمتع سراً بدفع الحاكم لأن ينفق ويجعل خزانته تنضب. ومن ثم تتعامل مع سخائه المفرط وكأنه امر مفروغ منه.

لقد حاول الرجل بكل ما لديه من حذق وبراعة ان يتقرب منها لكن عبثاً، فقد أخفق في ترك اي اثر في قلبها. لم تكن تعبس في وجهه، هذا صحيح، لكنها لم تبتسم له قط، وحينما كان يبثها لواعج نفسه كانت تشرع في الحال بالعزف على غيتارها القضي، وكأنما هناك سحر غامض في ذلك الصوت. كان الحاكم، وخلال لحظة واحدة، يبدأ بالنوسان نعاساً، ثم يغلب عليه النوم وشيئاً فشيئاً يغرق في سبات عميق يفيق منه نشيطاً مفعماً حيوية، على نحو يثير العجب والحيرة، لكن هادئاً بارد العواطف حيناً من الزمن. وغالباً ما كان نومه يترافق بأحلام سارة تملأ صدر العاشق المتيم غبطة وراحة. وهكذا راح ابن حبوس يعيش على احلامه، فيما بدأت غرناطة كلها تتذمر من حالته تلك وتشكو من تبديده الاموال على المغنية والغناء.

أخيراً، داهم الخطر ابن حبوس، ذلك الخطر الذي لم تستطع تعويذته تحذيره منه، فقد قامت ثورة في عاصمته نفسها: إذ أحاط بقصره جمع من الغوغاء المسلحين الذين هددوه بالموت هو ومعشوقته المسيحية. استيقظت في نفس الحاكم البقية الباقية من روح الحرب، وعلى رأس حفنة من رجاله اندفع خارج القصر جاعلاً الغوغاء يولون الادبار، قاضياً على الثورة في المهد. حين عاد الهدوء

إلى المدينة، بحث الملك عن المنجم الذي كان ما يزال حابساً نفسه في صومعته
يجتر مرارة الندامة.

دنا منه ابن حبوس بسيما المصالحة قائلاً «يا بن أبي ايوب الحكيم لقد
تنبأت فأحسننت التنبؤ بالآخطار التي ستجرها علي تلك الحسناء الاسيرة. اخبرني
الآن، انت ايها البارح في التكهن بالآخطار، ما ينبغي أن أفعل كي أرد تلك
الآخطار».

«اترك تلك الفتاة الكافرة وابتعد عنها، فهي سبب كل خطر» «إذن قل لي
اترك مملكتك وابتعد عنها» صرخ ابن حبوس. «انك ستفقدنهما: الملكة والفتاة
كلاهما» اجاب المنجم «لا تكن قاسياً ولا تغضب، يا اشد الحكماء حكمة. انظر
إلى الكارثة المزدوجة التي تنتظرني كحاكم وعاشق، وهي الوسائل لحمايتي من
الشرور التي تهددني. أنا لا أبالي بالمجد، لا أبالي بالسلطان، كل ما انشده هو
الراحة. فهل يتسنى لي ذلك في معتزل هادئ ابتعد فيه عن الدنيا وهمومها،
مشاكلها ومنغصاتهما، مكرسا بقية حياتي للهناء والحب؟».

هنيهة من الزمن تفحصه المنجم بنظرات ثاقبة من عينيّن اشتد حاجباهما
كثافة وابيضاضاً.

«وماذا تعطيني ان وفرت لك ملاذاً كهذا؟».

«قل انت ما تريد من أعطية. وائاً كانت، طالما هي في حدود طاقتي وانا
حي، ستكون لك».

«هل سمعت أيها الملك بحديقة إرم احدى عجائب البلاد العربية السعيدة؟».

«اجل ، سمعت بها، فقد ذكرت في القرآن، بل ذكرت في سورة «الفجر»
وأكثر من ذلك فقد سمعت عجائب عنها يرويها الحجاج الذين يزورون مكة،
لكنني كنت احسبها نوعاً من الخرافات يحكيها الحجاج شأن كل الرحالة الذين
يزورون بلداناً نائية».

« لا تستهن ، ايها الملك، بحكايات الرحالة » عقب المنجم بنبرته الرصينة.

«ففيها نواذر ومعارف لا تقدر بثمن يأتون بها من اطراف الأرض، اما
بالنسبة إلى قصر إرم وحديقتهما فإن كل ما سمعته صحيح. لقد رأيتهما بأم
عيني... اسمع مغامرتي فهي ذات علاقة بصميم طلبك».

في صباي، عندما كنت مجرد اعرابي في الصحراء، كنت أرعى ابل والدي. ذات يوم، ولدي عبوري صحراء عدن، ضل واحد من تلك الابل وضاع. أياماً عدة بحثت عنه، لكن عبثاً، بحثت حتى كللت، فأسلمت نفسي لقيلولة نمت فيها نوما عميقاً، ناعماً بأنسام عليلة في فيء شجرة نخيل تنتصب قرب بئر من تلك الآبار النادرة. حين افقت وجدت نفسي على بوابة مدينة. دخلت فرأيت شوارع جميلة، ساحات واسواقاً، لكنها كلها صامتة ساكنة ما فيها صافر نار. هناك تجولت إلى ان وصلت إلى قصر بازخ تحيط به حديقة مزينة بالنوافير واحواض الاسماك، الورود والأزهار، أيك الشجر والبساتين التي تتدلى منها أشهى الثمار، مع ذلك لم يكن هناك صافر نار. ذلك الخواء افزعني والوحشة بعثت الرعب في قلبي، فأسرعت اغادر، لا ألتفت إلى شيء إلى ان بلغت البوابة، عند ذاك التفت ورائي فلم أر شيئاً من كل ما كان، لا شيء، سوى الصحراء الساكنة الممتدة امام عيني.

في مكان قريب التقيت بدرويش عجوز خبير بأسرار ذلك المكان وتراثه. رويت له ما حدث لي فأجاب: «هذه هي حديقة إرم الذائعة الصيت، احدى اعاجيب الصحراء. إنها لا تظهر إلا بعض الاحايين لتجول مثلك، تسره وتبهجه بمنظر الابراج والقصور واسوار الحديقة التي تتدلى من فوقها ثمار الاشجار الوافرة، ثم تختفي دون ان تترك وراءها شيئاً غير قفر الصحراء، وهذه قصتها: «في غابر الزمان، حين كان قوم عاد يسكنون تلك البلاد، قام الملك شداد بن عاد، حفيد حفيد نوح، ببناء مدينة رائعة. حين انتهت ورأى شداد ما صارت عليه من روعة وعظمة، ملأ صدره الغرور والزهو، فقرر ان يبني قصراً ملكياً وينشئ حدائق تضاهي كل ما ذكره القرآن عن جنات السماء. لكن لعنة السماء نزلت عليه بسبب ذلك الغرور والزهو فمسح هو ورعيته عن وجه الأرض، اما مدينته الرائعة وقصره وحدائقه فقد بقيت مسحورة بطلسم ابدى يخفيها عن عيون البشر إلا من يراها من حين إلى حين ولغاية واحدة هي التذكير الدائم بإثم ذلك المغرور الصلف.

تلك القصة، ايها الملك، والاعاجيب التي رأيتها ظلت كامنة في ذهني... بعد سنين، وعندما كنت في مصر، وقد تملكني هاجس كتاب المعرفة، كتاب سليمان الحكيم، قررت ان أعود مرة ثانية فأزور حديقة إرم، ولقد فعلت ذلك، فوجدتها وقد تكشفت لعيني المقعمتين معرفة وخبرة. وضعت يدي على قصر شداد وقضيت أياماً عدة في كنف جنته. الجن الذين يقيمون على حراسة المكان كانوا طوع

بناني، فكشفوا لي الطلاس التي تقع الحديقة كلها تحت سحرها ، وكيف يمكن، إن جاز القول، اظهارها إلى الوجود او إخفاؤها فلا تراها عين. مثل تلك الحديقة والقصر، أيها الملك، يمكنني أن اصنعهما، ان اعدهما لك على الجبل المطل على المدينة. ألسنت العارف بكل الطلاس والأسرار؟ ثم ألسنت أنا من يملك كتاب المعرفة، كتاب سليمان الحكيم؟».

« يا ابن ابي ايوب الحكيم »، هتف ابن حبوس وهو يرتعش انفعالا وشوقاً «أنت رحالة بالحقيقة وقد رأيت وعرفت عجائب وغرائب، اصنع لي مثل ذلك الفردوس واطلب اية مكافأة تريد حتى لو كانت نصف مملكتي». «وأسفاه» أجاب الآخر «أنت تعلم انني مجرد رجل عجوز، مجرد فيلسوف يرضى بالقليل. كل ما اطلبه من مكافأة هو أن يكون لي، أول دابة يحملها تدخل البوابة المسحورة لذلك القصر».

بسرور بالغ وافق الحاكم على ذلك الطلب البسيط، وفي الحال بدأ المنجم عمله. وهكذا على ذروة الرابية، مباشرة فوق صومعته الواقعة تحت الأرض، أمر بنصب بوابة عظيمة تنفتح وسط برج متين.

هناك شيد بهو خارجي ذو قنطرة عالية تحتها بوابة ضخمة. على حجر العقد لتلك البوابة ، نقش المنجم بيده ، صورة لمفتاح ضخم، وعلى حجر العقد لقنطرة البهو الخارجي، الأعلى من حجر البوابة، نقش يدا ضخمة أيضاً. على تلك الطلاس القوية قرأ الكثير من العبارات بلغة لا يعرفها احد. وحين اكتملت تلك البوابة، حبس نفسه في قاعته الخاصة بالتنجيم طوال يومين كاملين، مستغرقا في تلاوة التعاويذ والرقى. في اليوم الثالث صعد الرابية، امضى النهار كله على ذورتها وفي ساعة متأخرة من الليل نزل السفح ماثلاً امام ابن حبوس قائلاً له : «أخيراً، أيها الملك، أكملت عملي. على ذروة الرابية، ينتصب قصر من اروع القصور التي صممها رأس انسان، او رغب فيها قلب انسان. انه يحتوي على صالات فاخرة وأبهاء باهرة، حدائق مائعة ونوافير مياه باردة وحمامات معطرة. بعبارة موجزة ، لقد تحول الجبل كله إلى فردوس، وهو ، مثل جنة ارم، يحميه طلسم قوي يخفيه عن أبصار الناس الفانين، إلا من كان منهم يملك سر طلاسمة».

«حسبك» هتف ابن حبوس فرحاً، «غداً ، مع أول اشعة الفجر، نصعد إليه ونستولي عليه». تلك الليلة لم ينم الحاكم السعيد إلا لماماً. وما ان بدأت اشعة الفجر الأولى بالثسلل إلى ذرى سلسلة السيرا المغطاة بالثلوج، حتى امتطى حصانه،

لا يرافقه إلا عدد مختار من حاشيته، صاعداً الطريق الضيق شديد الميل، نحو قمة الرابية . إلى جانبه، وعلى جواد صغير ابيض، كانت الاميرة القوطية يتلألاً ثوبها كله بالجواهر، بينما تتدلى من عنقها قيثارتهما الفضية. إلى الجانب الآخر كان النجم يمشي، تسند خطاه عكازه المزينة بالاحرف الهيروغليفية ، فهو لم يركب ظهر دابة من أي نوع كان.

حدق ابن حبوس بناظريه عله يرى ابراج القصر المتألثة فوقه، ومصاطب حدائقه المخضرة الممتدة على طول الذروة لكنه لم ير شيئاً أياً كان . «ذلك هو سر القصر وضمانته» قال النجم « إذ لا يمكنك رؤية شيء حتى تعبر البوابة المسحورة وتصبح داخل المكان ».

حين اقتربوا من البوابة، توقف النجم، مشيراً إلى الملك دالاً على اليد والمفتاح الغامضين المنقوشين على قوس البوابة، قائلاً ، هذه هي التعويذة التي تحرس مدخل هذا الفردوس، وإلى ان تصل تلك اليد هناك وتمسك بذلك المفتاح، ما من قوة بشرية ولا فن من فنون السحر يمكنه ان يغلب سيد هذا الجبل».

شرع ابن حبوس يحدق فاغر الفم جاحظ العينين إلى تلك التعويذة السحرية. في الوقت نفسه تابع جواد الاميرة الصغيرة سيره، داخلأ بها البوابة إلى قلب الحصن الامامي.

«انظر» صاح النجم ملء صوته «هي ذي مكافأتي الموعودة. اول دابة بحملها تدخل البوابة المسحورة». لكن ابن حبوس ابتسم معتبراً الامر كله مجرد دعابة من الشيخ العجوز، ثم ما ان رأى انه جاد تماماً حتى راحت لحيته المبيضة ترتعش غيظاً وحنقاً.

«يا بن ابي ايوب» قال أخيراً عابساً « أية خدعة هذه؟ انك تعلم المغزى الحقيقي لما وعدتك به : أول دابة ذات حمل تدخل هذه البوابة مع حملها. خذ أقوى بغل من بغالي، حمّله أغلى ما لدي من كنوز نفيسة، وهو لك، لكن لا تتجرأ على التفكير بها ولا تتطاول على من هي ارفع منك، اميرتي وبهجة قلبي».

«وما حاجتي للمال!» رد النجم باحتقار «اليس لدي كتاب سليمان الحكيم بكل ما فيه من معرفة؟ الست اتحكم من خلاله بكل ما في الأرض من كنوز خفية؟ الاميرة من حقي لا من حقك انت يا من قلت كلمتك الملكية. إنها لي أنا».

بترفع شديد نظرت الاميرة إلى الاسفل من فوق جوادها الصغير، وعلى شفتيها الورديتين ابتسامة ازدياء خفيفة لذلك النزاع بين الرجلين الاشيبين على امتلاك الشباب والجمال. حنق الحاكم وغيظه تفوقا على حكمته وحنكته فصرخ ملء صوته «يا بن الصحراء الوضيع، ربما تكون السيد المسيطر على كثير من الفنون، لكن اعلم انني أنا سيدك ومليكك وعليك ان لا تتطاول على سيدك ومليكك».

«سيدي !! ؟ مليكي ؟!!» ردد المنجم كالبيغاء «حاكم تلة كتلة - الخلد يزعم انه سيد من يملك طلاس سليمان ومليكه ؟!! وداعاً، ابن حبوس !! احكم مملكتك الصغيرة واستمتع بفردوسك، فردوس الحمقى والأغبياء، اما انا فأسأخر منك وانا في معتزلي الفلسفي».

قال ذلك وهو يمسك بلجام الجواد الصغير، ثم ضرب الأرض بعكازه فغاص مع الاميرة في قلب الحصن الامامي. لقد انشقت الأرض وابتلعتهما ثم عادت فانغلقت عليهما دون ان يبقى لهما أثر.

حيناً من الزمن وقف ابن حبوس وقد عقد الذهول لسانه. لكن ما إن افاق من ذهوله حتى جاء بألف عامل آمراً إياهم ان يحفروا الأرض بالمعاول والرفوش، عليهم يجدون المنجم الذي اختفى. حفر العمال وحفروا لكن عبثاً، فالطبقات الصوانية لأرض الرابية كانت تقاوم معاولهم، وإذا ما استطاعوا مرة ان يتغلغلوا قليلاً كانت الحفر تمتلئ بالتراب من جديد كلما ألقوه خارجاً. بحث ابن حبوس عن فوهة المغارة اسفل الجبل، تلك التي تؤدي إلى قصر المنجم الذي اقامه تحت الأرض، غير انه لم يجد شيئاً قط. فحيث كان المدخل ذات يوم، كانت صخرة هائلة ذات سطح املس تقوم هناك. مع اختفاء ابراهيم ابن ابي ايوب، توقف الانتفاع بتعويذته، إذ غدا الفارس البرونزي ساكناً لا حراك فيه، وجهه يتجه نحو الرابية ورمحه يشير إلى النقطة التي غاب فيها المنجم، كما لو أن هناك اشد اعداء ابن حبوس عداوة وفتكاً.

من حين إلى حين بات بإمكان الناس ان يسمعوا لحناً موسيقياً ونغمة صوت انثوي وهما يأتيان خافتين من قلب الرابية، بل إن احد الفلاحين جاء ذات يوم ليقول للملك انه في الليلة الفاتئة رأى شقاً في الصخرة فانسل عبره إلى ان تمكن من رؤية القاعة المبنية تحت الأرض حيث كان المنجم يغفو على أريكة وثيرة ورأسه

ينوس على انغام القيثارة الفضية للأميرة التي بدت وكأنها قد سيطرت كل السيطرة على عقله وحواسه.

اسرع ابن حبوس يبحث عن شق الصخرة ذاك ، لكنه كان قد انغلق من جديد، ومن جديد أمر بحفر الأرض والبحث عن غريمه لكن عبثاً. فتعويذة اليد والمفتاح كانت اقوى بكثير من ان تلغيها قوة بشرية. أما بالنسبة إلى ذروة الجبل، حيث يقع القصر والحديقة الموعودان ، فقد بقيت جرداء مقفرة، إما لأن الفردوس الموعود كان خفياً يحجبه السحر عن النظر او انه كان مجرد وهم من اوهام المنجم. لحسن الحظ كان الناس يعتقدون بالاحتمال الاخير، وقد اعتاد بعضهم ان يدعوا المكان باسم « وحماقة الملك » فيما دعاه آخرون «فردوس الأحق» ، ولكي يزيّدوا من هم ابن حبوس وغمه ، فإن الجيران الذين كان قد تحداهم وتبجح عليهم وفعل بهم الاعاجيب حين كانت تحميه الطلاسم والسحر، راحوا يغيرون عليه ويغزون بلاده من كل جانب، لتغدو البقية الباقية من حياة اكثر الحكام ميلاً للسلام والهدوء، ملأى بالحروب والاضطرابات.

أخيراً، مات ابن حبوس ثم مرت عصور وشيد قصر الحمراء على ذلك الجبل المليء بالاحداث، وبشكل تتحقق معه المباحج الخرافية التي تعد بها جنة إرم، لكن البوابة التي نقش عليها الطلسم ما تزال قائمة بكاملها، تحميها ولا شك اليد والمفتاح السحريان، وتسمى الآن بوابة العدالة وهي المدخل الرئيسي للقلعة. تحت تلك البوابة ، كما يقال، ما يزال المنجم العجوز في قاعة تحت الأرض ينوس برأسه غافياً على انغام القيثارة الفضية وصوت الأميرة الرخيم.

وعلى ذمة الحراس المسنين غير الصالحين للخدمة العسكرية الذين يقومون بحراسة تلك البوابة، فإنهم يسمعون أحياناً تلك الانغام خاصة في ليالي الصيف، فيستسلمون لقوتها الساحرة ويغفون هادئين هانئين في مراكز حراستهم.

ليس هذا فحسب بل إن ذلك النعاس والاستسلام لسلطان النوم يطغى على المكان كله، إذ حتى أولئك الذين يحرسون في النهار يمكن ان تراههم وهم ينوسون برؤوسهم غافين على المقاعد الخشبية في الحصن الأمامي، أو نائمين تحت الاشجار المجاورة. انه بالحقيقة اكثر امكنة الحراسة في المملكة المسيحية كلها إغراء بالنوم. وهذا كله سيستمر، كما تقول الحكايات القديمة، من عصر إلى عصر. فالأميرة ستبقى أسيرة النجم حتى يوم القيامة، ما لم تقبض اليد المسحورة على المفتاح المصيري وتفك السحر عن ذلك الجبل المسحور.

ملاحظة حول المنجم العربي

يذكر المقرئ في كتابه: «تاريخ السلالات الإسلامية في إسبانيا» نقلاً عن كاتب عربي آخر، رواية عن تماثيل خشبية طلسمية مشابهة بشكل من الأشكال للرواية المذكورة هنا.

إذ يقول: « في الأيام السابقة كان ينتصب في قادش برج مربع ارتفاعه مائة ذراع وقد بني من كتل ضخمة من الصخر تشدها إلى بعضها ملازم من النحاس. في أعلاه تمثال رجل يمسك عصا بيده اليمنى ويتجه نحو المحيط الأطلسي مشيراً بسبابة يسراه إلى مضيق جبل طارق. ويقال أنه أقيم في الأيام الغابرة من قبل ملوك القوط الاندلسيين كفنار أو مرشد للملاحين. أما مسلمو البربر والاندلس فقد اعتبروه تعويذة لها فعل السحر على البحار. بهدايتها، كانت حشود القراصنة من أمة

المجوس تظهر على الشاطئ بمراكب ضخمة ذات أشعة مربعة عند قوس المركب
واخرى عند الدفة ، وكانوا يأتون كل ست سنوات او سبع ، ينهبون كل ما تقع
ايديهم عليه ، ثم بهدايتها يعبرون المضائق إلى البحر الأبيض المتوسط، ينزلون على
شواطئ الاندلس، ويعملون السيف والنار في كل شيء هناك وفي بعض الأحيان
يحملون نهبهم وسلبهم إلى الشواطئ المقابلة ، بعيدا حتى سوريا.

أخيراً، يقال انه في احدى الحروب الاهلية وضع قائد مسلم يده على قادش
وحين سمع ان التمثال الموجود في أعلى البرج هو من الذهب الخالص، قام بإنزاله
إلى الأرض وتحطيمه قطعة قطعة، وحينذاك فقط تأكد انه من النحاس المطلي
بالذهب لا غير.

لكن مع تحطم التمثال، انتهى فعل السحر على البحر، ومنذئذ، لم يرَ احد
اثراً لتلك الشعوب القرصانية الآتية من المحيط ما عدا مركبين تحطما على
الشاطئ، الأول عند مرسى المجوس والآخر قرب قنة جبل الأغن».

وعلى الاغلب، فإن هؤلاء الغزاة البحريين الذين يذكروهم المقري هم من
الشمال.

زوار يأتون إلى الحمراء

حوالي ثلاثة اشهر ظللت استمتع دون إزعاج بحلم سيادتي على الحمراء وهي فترة من الهدوء اطول مما نعم به الكثير ممن سبقني من سادة وحكام. خلالها كان الزمن قد مر والفصل قد تغير.. فحين وصلت كان كل شيء عذبا طازجا كما هي حال الطبيعة في الربيع، فأوراق الاشجار غضة طرية والرمال لم يكن قد طرح ازهار جلناره بعد وبساتين زينيل ودارة كانت في اوج ازهارها، كما كانت الصخور نفسها تتزين هنا وهناك بالأزهار البرية وكانت غرناطة تبدو محاطة تماما بقرع مترامية الاطراف من الورود تنتقل فيما بينها عنادل لا عد لها ولا حصر وهي تشدو ، ليس الليل وحسب بل النهار بطوله ايضا.

الآن ، كان الصيف قد جاء حاملا الذبول إلى الورود، والصمت إلى العنادل، لتبدو الأمداء امام عينيك مسفوعة وقد حرقها الشمس رغم الاشجار الدائمة

الخضرة التي كانت تنتشر حول المدينة وفي عمق الوديان الضيقة عند اسفل الجبال المكلفة بالثلج.

ثمة سمة تتميز بها الحمراء هي تلك المعتزلات التي تتدرج طبقاً لحرارة الجو. والاكثر خصوصية بينها هو ذلك القسم الخاص بالحمامات الذي يقع تحت الأرض تقريبا. هذا القسم ما يزال يحتفظ حتى اليوم بسيماه الشرقية القديمة، رغم ما لحق به من آثار انهيار.

عند المدخل الذي ينفتح على فسحة صغيرة كانت تزدان في السابق بالزهور، ثمة قاعة متوسطة الحجم لكنها رفيعة الطراز. ساحرة المعمار، يطل عليها رواق صغير تدعمه اعمدة من رخام واقواس من زخرف. في وسط الأرض المرصوفة ما يزال هناك نافورة من مرمر تقذف مياهها عالياً فتبرد الجو. على كلا الجانبين، هناك اكهف عميقة الغور فيها مصاطب مرتفعة حيث كان المستحمون الذين ينتهون من استحمامهم، يتكئون على الأرائك مستريحين مسترخين اشد ماتكون الراحة والاسترخاء، يزيد في هذا وتلك رائحة العطر التي يعبق بها الجو باستمرار وانغام الموسيقى المنبعثة من الأروقة. وراء تلك القاعة، ثمة غرف داخلية اكثر انعزالا، وهي الملاذ الصحي المنعزل لخاصة النساء، فهنا كانت تنعم بحماقاتهن اجمل نساء الحريم. ضوء سحري خافت يتخلل المكان داخلا من فتحات صغيرة في قبة السقف، حيث لا يزال بإمكانك ان تشاهد آثار الروعة القديمة واحواض الاستحمام المرمرية التي كانت السلطانات ايام زمان تسترخي فيها وتستحم. الغموض والسكون المهيمنان يجعلان هذه الاماكن المقببة ملاذا مفضلا للخفافيش التي تعشش خلال النهار في الثنايا والزوايا المظلمة، لكن اذا ما ازعجها احد، طارت على نحو غامض في الحجرات الخافتة الضوء، زائدة إلى درجة لا توصف، من حالة البلى والهجران. في هذا المعتزل البارد الرائع المهجور الذي كان ما يزال فيه شيء من طزاجة الكهف وعزلته رحت اقضي اكثر ساعات النهار حرا مع تقدم الصيف ولا اخرج إلا مع الغروب، ثم استحم أو بالأحرى اسبح ليلا في خزان الساحة الرئيسية الكبير. بهذه الطريقة، كان باستطاعتي ان اواجه إلى حد ما تأثير المناخ الذي يرخي الجسم ويثير الاعصاب.

لكن حلمي بالسيادة المطلقة بلغ أخيراً نهايته. فقد افقت ذات يوم على صوت اطلاق نار راح يتردد بين الابراج كما لو ان القلعة أخذت على حين غرة.

انطلقت خارجاً فوجدت خيلاً عجوزاً مع عدد من السكان المحليين يملؤون قاعة السفراء. إنه «كونت» قديم جاء من قصره في غرناطة ليقضي بعض الوقت في الحمراء. إنه ينتفع بهوائها الطلق العليل. ولأنه كان جندياً سابقاً ورياضياً مدرباً فقد كان يسعى لتحسين شهيته للافطار بإطلاق النار على السنونو فوق الشرفات. إنها تسلية غير ضارة، إذ على الرغم من أنه كان قادراً على متابعة إطلاق النار، بفضل يقظة اتباعه وسرعتهم في حشو مسدساته، فإنني لم استطع اتهامه بقتل سنونوة واحدة. ليس هذا فحسب، بل إن الطيور نفسها كانت على ما يبدو، تستمتع باللعبة وتسخر من فقدانه للبراعة فتطير في دوائر قريبة من الشرفات تزقزق وهي تمرق كالسهم هنا وهناك.

مجيء هذا النبيل العجوز قلب الأشياء كلها رأساً على عقب لكن دون أن يسبب عداوة أو صداماً.

ضمناً، رحناً نتقاسم تلك الامبراطورية بيننا تماماً كما كان يفعل آخر ملوك غرناطة، ما عدا أنه كانت تربطنا علاقات أكثر وداً وحميمية. فقد غدا ذلك الكونت الحاكم المطلق لقاعة الاسود وما يجاورها من صالات، في حين بقيت لي السيادة الكاملة، وبلا منازع، على مناطق الحمامات وحديقة لينداراكس الصغيرة. كنا نتناول وجباتنا معاً تحت اقواس القاعة حيث كانت نوافير المياه تبرد الجو، وخرير الماء ملء السمع وهو يجري في الاقنية المكسوة بالمرمر.

في الامسيات، كان يجتمع حشد من السكان المحليين ليتحلقوا حول الفارس العجوز كحلقة الدائرة. اما الكونتيسة، زوجته الثانية بعد زواج أول، فقد كانت تأتي من المدينة برفقة ابنته كارمن طفلة الوحيدة، وهي كائن صغير ساحر كانت ما تزال في سن المراهقة.

عند ذاك كان يتواجد دائماً بعض من اتباعه الرسميين:

قسيسه، محاميه، امين سره، وصيفه، وعدة موظفين آخرين ووكلاء على املاكه الواسعة، ممن يأتون له بأخبار المدينة واشاعاتها ويشكلون في المساء زمراً تلعب بالورق لعبة «التريسيلو» او «الأومبر».

بذلك، كان الكونت يقيم حوله نوعاً من البلاط المحلي، حيث كان كل منهم يقدم له فروض الولاء ويسعى للحصول على نصيبه من اللهو والمتعة، لكن دون أي شكل من أشكال الخدمة والتبعية، أو أي تنازل عن احترام الذات. والحقيقة، لا شيء من ذلك كان مطلوباً من حاشية الكونت إذ مهما يقال عن

الكبرياء لدى الاسباني، فإنها نادراً ما تمس بالأذى سياق الحياة الاجتماعية أو الوطنية. أو تحد منها وليس هناك شعب، العلاقات بين الأقرباء فيه أكثر حميمية وإلفة، وبين السيد وتابعه أكثر تحملاً من الترفع من جهة وأقل خنوعاً من الجهة الأخرى. ففي هذا المجال ما يزال في الحياة الاسبانية، خاصة في الأرياف، الكثير من بساطة الايام القديمة الرائعة. بنظري، كان أكثر افراد هذه العائلة إثارة للاهتمام، انما هي ابنة الكونت، كارمن الصغيرة الجميلة، التي لم يكن عمرها يتجاوز السادسة عشرة والتي كانت تعامل وكأنها ما تزال طفلة صغيرة رغم انها معبودة العائلة ولقبها «لانيينا». لم يكن جسمها قد بلغ مرحلة النضج واكتمال النمو لكنه كان قد اكتسب التناسق الرائع والسحر الفاتن الذي تتميز به الفتيات في تلك البلاد. عيناها الزرقاوان، بشرتها البيضاء، شعرها الاشقر الناعم، كل ذلك كان من النوع غير المألوف في الأندلس، وكان يضيف عليها نوعاً من الرقة والنبيل بالمقارنة مع الجمال الاسباني الملتهب عادة، كما كان ينسجم كل الانسجام مع البراءة والبساطة اللتين تسمان سلوكها بكل ما فيهما من احياء بالثقة والطمأنينة. في الوقت نفسه، كانت لديها تلك القوة الفطرية وذلك القلب الشديد اللذان تتميز بهما نساء بلادها الساحرات أي شيء تهم بصنعه تصنعه على نحو حسن ودونما جهد على ما يبدو. كانت تغني، تعزف الغيتار، الآلات الموسيقية الأخرى، كما كانت ترقص أجمل رقصات بلادها وعلى نحو يثير الإعجاب لكن دون ان تبدو وكأنها تبحث عن إثارة الإعجاب، فكل شيء عفوي تلقائي يبدو وكأنه نابع من روحها المرحية ومزاجها الرائق السعيد.

وجود ذلك الكائن الصغير الساحر أشاع ضرباً من السحر الجديد في الحمراء كلها كما بدا منسجماً كل الانسجام معها. وهكذا، بينما كان الكونت والكونتيسة، اضافة إلى القسيس وأمين السر يلعبون لعبة التريسيلو المفضلة لديهم في بهو قاعة الاسود، كانت هي ودلوريس التي تعمل كوصيفة شرف لها، تجلسان بجانب احدي النوافذ وعلى انغام غيتارها، تغنيان بعضاً من تلك الأغاني الرومانسية التي تعج بها اسبانيا، او واحدة من تلك الاناشيد التقليدية التي كانت ما تزال أقرب إلى ذوقي والتي تدور حول العرب وأيامهم.

أبدأ، لن اتذكر الحمراء دون ان اتذكر ذلك الكائن الصغير الجميل وهو يلعب ببراءته الطفولية في قاعات الحمراء وأبهائها الرخامية، راقصاً على انغام الموسيقى العربية أو مازجاً انغام صوته الفضي بموسيقى النوافير وخرير المياه.

آثار

بأقية وسلالاته

لئن سرنى الكونت وأفراد عائلته وأثاروا اهتمامي كثيراً ، باعتبارهم الصورة الحقيقية للحياة الاسبانية الاصيلية ، إلا انني كنت اكثر سروراً واهتماماً بأداء غرناطة البطولي وامجادها. والحقيقة انني اكتشفت في ذلك الفارس النبيل العجوز الذي لم يكن له شأن بالحرب بتاتاً أو أن شأنه هذا لم يكن يتعدى محاربة السنونو والخطاف. أقول اكتشفت حفيداً حقيقياً وممثلاً فعلياً لسلالة غونزالفو القرطبي ، ذلك القائد العظيم الذي فاز ببعض اكاليل غاره الأكثر تألقاً امام اسوار غرناطة وكان احد الفرسان الذين ارسلهم فرديناند وايزابيلا للتفاوض على شروط الاستسلام؛ ليس هذا وحسب بل ان هذا الكونت كان من حقه ، لو اراد ذلك ، ان يدعي نوعاً من القرابة لبعض امراء العرب القدماء من خلال احد اسلافه ، الدون بيروفينغاس الذي كان يلقب بالتورناديزو، كما كان بإمكان ابنته ، كارمن الساحرة الصغيرة، وعبر السلالة نفسها ان تزعم أنها السليلة الحقيقية للأميرة «الست

مريم» وبالتالي سليله ليندا راكسا الجميلة^(*). بعد أن فهمت من الكونت ان لديه بعض آثار الفتح المثيرة التي ما تزال محفوظة لدى عائلته، رافقته في وقت مبكر من صباح ذات يوم إلى قصره في غرناطة لرؤيتها. اهم تلك الآثار إنما كان سيف «القائد الكبير» وهو سلاح خال من اية زينة او زخرف. مثلما هي أسلحة القادة العظام، لكنه سيف قاطع ذو مقبض بسيط من العاج ونصل عريض دقيق الحد. ولعلها نوع من السخرية من الامجاد الموروثة ان ترى سيف قائد كبير يؤول بالوراثة إلى يد ضعيفة واهنة كيد هذا الكونت.

كذلك كانت هناك آثار أخرى للفتح هي عدد من البواريد ذات الحجم غير المعقول والوزن الثقيل التي تستحق ان تصنف مع تلك السيوف الضخمة ذات الحدين المحفوظة في دور الاسلحة القديمة والتي تبدو وكأنها تعود لعصر العمالقة.

بين الامجاد المتوارثة الأخرى. وجدت ان الكونت العجوز هو رئيس بلدية الغريز، او حامل - العلم العظيم. وهو المنصب الذي كان يخوله ان يحمل علم فرديناند وايزابيلا القديم في بعض المناسبات الرفيعة الرصينة لكي يلوحوا به فوق ضريحيهما، كذلك اراني الكونت أغطية سروج من القطيفة المزخرفة بالفضة والذهب وعلى نحو باذخ لستة من الخيول التي خرج بها الكونت حين عين حاكم جديد لغرناطة واشبيلية فامتطى الكونت احد الخيول بينما قاد الخمسة الأخرى خدم ببزات انيقة فاخرة. لقد ذهبت مع الكونت والأمل يحدوني في ان أجد بين الآثار والمخلفات في قصر الكونت عينات من دروع عرب غرناطة واسلحتهم اذ سمعت انها كانت محفوظة كعلامات للنصر من قبل احفاد الفاتحين لكن خاب املي في هذا المجال، رغم أنه كان الامر الاكثر اثارة بالنسبة إلي. ذلك أن فكرة خاطئة كان تهيمن على الكثيرين بالنسبة لملايس العرب في اسبانيا وازيائهم، مفترضين انهم كانوا يلبسون ملايس من النمط الشرقي المألوف.

(*) : بالعودة إلى المخطوطات العربية والكتب التراثية القديمة لديهم يمكننا أن نرى أن زيجات كثيرة

كانت تحصل بين العرب والاسبان نتيجة العلاقات التي كانت تقوم بينهم في السلم أو في الحرب فثمة الكثير من مصاهرات الجوار وعلاقات الحب وحالات الأسر التي نتج عنها تزواج بين هذين الشعبين ومن هذا التزاوج هناك زواج الأمير نصر الموحي من لينداراكسا ثم الأميرة الست مريم من الدون بيدرو فينغاس.

على العكس، فقد وجدنا، طبقاً لما كتبه كتابهم ، انهم تكييفوا في مجالات كثيرة مع البيئة الجديدة وتبنوا ازياء المنطقة نفسها.

فالعمامة ، بصورة خاصة، تلك التي لا تفارق صورة المسلم في اذهاننا، كانوا قد تخلوا عنها عموماً ما عدا المقاطعات العربية حيث استمر استخدامها بين أناس الطبقات العليا والموسرة وأصحاب المناصب الحكومية. البديل الذي كانوا يستخدمونه عوضاً عن العمامة انما هو قبعة صوفية خضراء أو حمراء ولعلها من ذلك النوع نفسه الذي كان يستخدمه البربر بالأصل ويعرف باسم القبعة - التونسية او القاسية وما يزال الناس يلبسونها في الشرق حتى الوقت الحاضر، رغم انها قد تلبس بصورة عامة تحت العمامة، وكان قد فرض على اليهود أن يلبسوا قبعات ذات لون أصفر. في مرسيا، بلنسية، والمقاطعات الشرقية الأخرى ، كان بإمكانك ان تشاهد رجال الطبقات العليا وهم حاسرو الرؤوس، ومن المعروف ان الملك المحارب ابن هود لم يلبس عمامة قط، كذلك كان منافسه وعدوه ابن الأحمر، مؤسس الحمراء.

كذلك كان الناس من كافة الطبقات يلبسون عباءة قصيرة تدعى الطيلسان وتشبه ما كان شائعاً ارتداؤه في اسبانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وللطيلسان غطاء رأس او قبعة كان خاصة الناس يسحبونها احياناً فوق رؤوسهم اما العامة فلم يكونوا يفعلون ذلك قط. في القرن الثالث عشر، وطبقاً لما كتب ابن سعيد، كان الفارس المسلم يتجهز للحرب بأسلوب قريب جداً من اسلوب الفارس المسيحي اذ كان يرتدي بذلة سفر كاملة فوقها سترة قرمزية قصيرة وعلى الرأس خوذة من الفولاذ المصقول ، ترسه معلق على ظهره، ورمحه الضخم ذو رأس عريض واحياناً ذو رأسين. اما سرجه فثقل يبرز كثيراً في المقدمة والمؤخرة يركب عليه الفارس ورايته تخفق وراءه. في عصر لسان الدين بن الخطيب الذي عاش في القرن الرابع عشر وكتب عن تلك الايام ، استعاد مسلحو غرناطة الزي الشرقي ورجعوا مرة ثانية يلبسون ويتسلحون وفق النمط العربي : خوذة خفيفة ، درع رقيقة لكنها مقواة جيداً، رمح رفيع طويل، غالباً من القصص، سرج عربي وركاب جلدي مصنوع من طية مزدوجة من جلد الوعل. في ذلك العصر، كان البذخ العجيب هو المهيم. على أسلحة وملابس فرسان غرناطة. اذ كانت دروعهم تطعم بالفضة والذهب وسيوفهم من اكثر النصال الدمشقية حدة. أعمادها مزخرفة مفضضة ومقابضها مغطاة بصفائح الذهب ومرصعة بالجواهر. حتى خناجرهم

الفاسية كانت ذات مقابض مرصعة بالجواهر ورماحهم تعصب بشرائط زاهية مزينة بالكتابات كذلك كانت سروج خيولهم تغطي بأغطية من الطراز نفسه، اغطية من القطيفة المزخرفة. هذا الوصف الدقيق الذي تركه لنا ذلك الكاتب المتميز، يؤكد صحة تلك الصور الرائعة التي نراها في الأناشيد الاسبانية المغربية التي يحكم عليها احياناً بأنها مشكوك في صحتها، كما يقدم فكرة حية عن الهيئة المتألقة لفرسان غرناطة، حين كانوا ينطلقون قدماً بأنساقهم الحربية او حين كانوا يحتفلون بأعياد فيفارامبلا ومهرجاناتها الفروسية.

جنة الريف

عالياً فوق قصر الحمراء، وفي مقدمة الجبل، بين الحدائق الظليلة والمصاطب المهيمنة، تنتصب أبراج «جنة الريف» العالية واسوارها البيضاء. إنه قصر كقصور الجن مليء بالقصص والحكايات. هنا ما يزال بإمكانك أن ترى أشجار السرو ذات الحجوم الهائلة التي ازدهرت في عصر العرب والتي يرتبط تراثها بالقصة الخرافية لأبي عبد الله وسلطانته.

هنا أيضاً ما تزال محفوظة صور الكثيرين ممن شاركوا في الدراما الرومانسية للفتح: فرديناند وايزابيلا، بونس دي ليون، مركيز قادش وغارسيلازودي لافيغا الذي ذبح بعد قتال يائس «طرفة المغربي» ذلك البطل ذا القوى الهائلة. هنا أيضاً، علقت الصورة التي ظلوا فترة طويلة من الزمن يظنون أنها صورة أبي عبد الله العاثر الحظ، لكن يقال الآن أنها صورة ابن هود الملك العربي الذي انحدر من سلالة أمراء المرية

من هؤلاء الامراء، امير انضوى تحت لسواء فرديناند وإيزابيلا، قبل نهاية
الفتح بقليل، ثم تنصرون باسم الدون بيررودي فينغاس، الذي ينحدر من سلالة
المالك الحالي للقصر، المركز كامبوتيجار. غير ان هذا المالك يقيم في الخارج والقصر
خاو من كل نبيل أو أمير.

مع ذلك، هنا كل شيء ممتع لجنوبي شهواني: الأزهار، الورود، اريج
العطور، العرائش الخضراء، أسيجة الرياح، الهواء العليل والمياه المتدفقة. هنا
ايضاً، اتاحت لي الفرصة لرؤية تلك المناظر التي اولع الرسامون بتصويرها حول
قصور الجنوب وحدائقه. لقد كان يوم القديس الخاص بابنة الكونت. وقد دعت
عدداً من رفاقها وأترابها من غرناطة لقضاء يوم صيفي طويل في القاعات ذات
الانسام العلية وعرائش القصور العربية. الزيارة إلى قصر «جنة الريف» هو التسلية
الصباحية. هنا، كان بعض الشبان المرحين يتوزعون جماعات جماعات حول
الماشى الخضراء، النوافير اللآلاء، المدارج ذات الرخام الايطالي، المصاطب
الرفيعة والحواجز الرخامية فيما كان آخرون، وانا منهم، قد اتخذوا مقاعد لهم في
رواق مفتوح أو ممر من الاعمدة ينفتح على المدى الواسع امامه حيث مدينة الحمراء
والفيغا بعيداً في الاسفل والافق النائي ذاك الذي تشكله سلسلة الجبال. انه عالم
أحلام، كل ما فيه يتلألأ تحت اشعة شمس الصيف. هكذا كنا نجلس حين
جاءتنا رنة غيتار طاغية السحر وانغام صنوج تدق وقد انسابت إلينا صاعدة من
وادي دارة... هناك وفي منتصف الطريق النازل على سفح الجبل رأينا جماعة
تحتفل تحت الاشجار. لاهية مستمتعة وفق الطراز الاندلسي الحقيقي:

بعضهم يستلقي على العشب والبعض الآخر يرقص على انغام الموسيقى.
هذه المناظر والانغام، اضافة إلى العزلة المهيبة للقصر والهدوء الساحر الذي يهيمن
على كل شيء، وسكينة الجو اللذيذة، كل ذلك كان له فعل السحر، فروي لنا
العديد من القصص والحكايات الشعبية المتوارثة والمرتبطة بهذا القصر العربي
القديم وكانت كلها مصنوعة من المادة التي تصنع منها الاحلام. ومنها صنعت
الحكاية التالية التي أرجو ان يكون لها حسن الحظ فتلقى القبول لدى
القارئ.

حكاية الامير احمد الكامل او «سائح الحب»

كان يا ماكان في قديم الزمان، كان لملك غرناطة ولد وحيد سماه احمد ثم اضاف له اتباعه لقب الكامل، لما كان يتصف به من سمات الكمال. والتميز التي رأوها فيه منذ طفولته ذاتها. المنجمون انفسهم تنبؤوا بها، متكهنين سلفاً بأن كل شيء سيكون لصالحه بحيث يجعل منه اميراً تام الصفات وحاكماً مزدهر الحكم وافر السعادة. سحابة واحدة فقط بدت تشوب مصيره، لكن حتى تلك السحابة كانت ذات لون وردي فقال المنجمون انه سيكون ميالاً للعشق والغرام ويلقى مخاطر كثيرة بسبب عواطفه المشبوبة. لكن اذا ما ظل بعيداً عن غوايات الحب إلى ان يبلغ سن الرشد، زالت تلك المخاطر وكانت حياته كلها مملوءة بالسعادة والهناء. ولكي يمنع الملك اي خطر من اي نوع عنه، قرر بحكمته وحنكته أن يرهب الامير في مكان منعزل حيث لا يرى فيه وجه انثى ولا يسمع حتى اسم الحب.

ولهذا الغرض ، أمر ببناء قصر جميل على سفح رابية تطل على الحمراء وسط الرياض الغناء والحدائق البهيجة لكن تحيط به اسوار، لأنه هو نفسه ، بالحقيقة، القصر الذي يعرف اليوم باسم «جنة الريف». في هذا القصر، عاش الأمير لا يخرج ولا يدخل يراعه ويعتني به ويعلمه ابن أبي نابين احد اكثر الحكماء العرب حكمة ورصانة فقد قضى الشطر الأكبر من حياته في مصر، يدرس الهيروغليفية ويجري ابحاثه بين المدافن والاهرامات إلى درجة أنه كان يرى في المومياءات سحراً أشد مما تملكه اجمل الحسان على وجه الأرض.

الأوامر التي أعطيت للحكيم هي أن يعلم الأمير صنوف المعرفة كلها ما عدا واحداً - الحب، اذ ينبغي ان يظل جاهلاً بكل ما يتعلق به. « خذ كل الاحتياطات التي تراها مناسبة لهذا الهدف». قال الملك « ولكن تذكر يا بن أبي نابين، إذا عرف ابني ، وهو تحت رعايتك، اي شيء عن ذلك المجال الحرام كان رأسك الثمن ». ابتسامة صفراء ارتسمت على محيا الحكيم المتجلد لدى سماعه التهديد. « ليطمئن قلبك علي ابنك اطمئنان قلبي على رأسي: ام تراني انا الرجل الذي يمكن ان يعطي دروساً في الهوى والغرام؟ ».

تحت عين الفيلسوف الساحرة ورعايته الشديدة، نما الأمير وترعرع وحيداً منعزلاً في القصر وحدائقه. عبيد سود كانوا يوفرون له الخدمة وكلهم صامت كتوم لا يعرف شيئاً عن الحب وان عرفه لا يعرف الكلام الذي يعبر عنه. الملكات الذهنية للأمير مجال الرعاية الخاصة لابن أبي نابين، فسعى لتعليمه علوم مصر الغامضة وفنونها، غير أن الأمير لم يبد تجاوباً في هذا المضمار، بل بدا جلياً تاماً انه لا يملك اي ميل للفلسفة.

مع ذلك كان مطوعاً لين العريكة إلى حد مدهش بالنسبة إلى أمير شاب . على استعداد دائماً لأن يتبع اي نصيحة أو رأي يقدمه له آخر ناصح او مشير.

كان الفتى يكتسب ثأؤباته ويصغي بصبر شديد لأحاديث ابن أبي نابين الطويلة الملأى بالعلم والمعارف فيلتقط منها نثرات من مختلف صنوف المعرفة.

على هذا النحو، ترعرع الأمير إلى أن بلغ عامه العشرين فعدا معجزة من معجزات الحكمة بين الامراء - لكنه مطلق الجهل بالحب.

في تلك المرحلة ، على أية حال، طرأ تغير على سلوك الأمير، فقد هجر دراساته كلية، وشرع يهيم في الحدائق لاهياً بجانب البرك والنوافير. قدراً ضئيلاً

من الموسيقى كان قد تعلم فيما تعلم، لكن الموسيقى باتت تشغل حيزاً كبيراً من وقته كما بدا لديه نزوع نحو الشعر، فكان ذلك بداية انذار لابن ابي نابين الذي شرع في الحال يعمل بكل جد ودأب للقضاء على ذلك النزوع بتكثيف دروس الجبر والهندسة، لكن الأمير عزف عنها مشمئز النفس. «ليس باستطاعتي ان اتحمل الجبر» قال الأمير «انه لشيء بغيض . أنا بحاجة لشيء أكثر قرباً للقلب... شيء يخاطب القلب».

لدى سماعه تلك الكلمات . هز الحكيم ابن ابي نابين رأسه متفكراً « تلك هي نهاية الفلسفة فقد اكتشف الأمير أن له قلباً » منذئذ شدد الحكيم المعلم رقابته على الأمير وقد رأى بأم عينه ان الرقة التي طغت على طبيعته مؤخراً كانت في حالة عالية من النشاط ولم يكن ينقصها إلا شخص يستقطبها . كان الأمير يتجول في حدائق القصر منتشي المشاعر دون ان يعرف السبب. في بعض الأحيان، كان يجلس مستغرقًا في ما يشبه الحلم المائع اللذيذ . بعدئذ يمسك بقيثارته منطلقاً اياها اعذب الانغام واشدها تأثيراً ، ثم يلقي بها جانباً مصعداً الزفرات والآهات.

شيئاً فشيئاً راحت نزعة الحب تمتد لتشمل اشياء جامدة لا حياة فيها فغدا لديه ازهاره المفضلة يسكب عليها اسمى آيات الرعاية . بعدئذ بات متعلقاً بالاشجار على مختلف انواعها. ثم بشجرة واحدة منها على الأخص، رائحة الشكل . جميلة الهيئة باغصانها المتدلّية وأوراقها الكثيفة . فغدا يسكب عليها كل ما في نفسه من مشاعر واحاسيس، ناقشاً اسمه على لحائها؛ معلقاً الاكاليل على اغصانها ، منشدًا الاشعار في التغزل بها، تصحبه في ذلك قيثارته. أحس ابن ابي نابين بالخطر الشديد وهو يرى تلميذه يزداد قلقاً وانفعالاً. انه على الحافة نفسها لتلك المعرفة المحرمة - فأدنى تلميح او اشارة يمكن ان تكشف له السر القاتل . أسرع الحكيم، وهو يرتعش خوفاً على سلامة الأمير وسلامة رأسه هو ، لابعاده عن اغراءات الحديقة، مغلقاً عليه الابواب في برج من ابراج القصر، برج يضم اجمل الاجنحة ويطل على امداء واسعة تمتد بلا حدود لكنه يرتفع عالياً فوق ذلك الجو العابق بالأريج، والسحر الذي بات يشكل خطراً على مشاعر أحمد السريعة التأثير.

لكن ما الذي كان ينبغي فعله لجعله يتلاءم مع قيوده الجديدة ويقضي ساعاته المملة الطويلة ؟ كان الأمير قد استنفد كافة اصناف المعرفة المقبولة تقريباً، ولم يكن احد ليذكر له الجبر بالتأكيد. لحسن الحظ كان ابن ابي نابين قد تعلم،

وهو في مصر، لغة الطيور على يد كاهن يهودي انتقلت اليه أباً عن جد عبر سلسلة تصل إلى سليمان الحكيم الذي علمته اياها بلقيس ملكة سبأ. ما ان ورد ذكر تلك الدراسة حتى برقت عينا الأمير وامتألت اشعاعاً وحيوية. وفي الحال انكب على دراستها بكل نشاط ودأب حتى غدا خبيراً عظيماً فيها شأنه شأن استاذة.

حينذاك لم يعد برج «جنة الريف» معتزلاً قط، ان أصبح لدى الامير صاحب يحدثهم ويحدثونه. اول ذلك الصحب انما هو البازي الذي كان قد بنى له عشاء في تجويف من تجاويف الاسوار العالية. ومن هناك كان يحلق بعيداً بحثاً له عن فرائس. لكن الامير لم يجد سوى القليل مما يستهويه في البازي. إذ كان مجرد قرصان من قراصنة الجو. متبجح متغطرس. حديثه كله عن السلب والنهب. المذابح والمجازر. المعارك والبطولات. ثاني معارفه كان البوم، ذلك الطائر القوي الحكيم برأسه الضخم وعينه الثاقبتين وهو يجثم طارقاً بهما محملاً طوال النهار من وكره في الجدار وفي الليل يخرج ليتجول هنا وهناك. لكن الامير وجده دعيماً كبيراً من ادعياء الحكمة. يتحدث قليلاً. عن التنجيم والقمر ويلمح من حين إلى آخر إلى فنون السحر والشعوذة. واهباً نفسه كلية للميتافيزياء والغيبيات كما وجد الأمير احاديثه اكثر جفافاً وثقلًا على النفس من احاديث ابن أبي نابين ذاتها.

ثالث معارفه كان الوطواط الذي كان يتدلى طوال النهار من عقبيه في زاوية من زوايا قبة البرج. لكن ما ان يحل الظلام حتى ينطلق مارقاً كالسهم. مع ذلك. لم يكن لديه سوى أفكار باهتة عن كل شيء. يسخر من الاشياء التي لا يعرفها إلا معرفة ناقصة ويبدو وكأنه لا يستمتع بشيء.

إضافة إلى معارفه هؤلاء، تعرف الامير إلى سنونوة خلبت لبه في البداية. فقد كانت محدثة بارعة إلا أنها شديدة القلق دائمة الاستعجال في حركة دائبة لا تستقر، ونادراً ما كانت تمكث بما يكفي لأي حديث يشفي الغل. أخيراً تكشفت عن انها مجرد ثرثرة تتناول السطحي من الاشياء وتزعم انها تعرف كل شيء لكن دون ان تعرف شيئاً على الاطلاق. أولئك هم الاصحاب الأول من ذوات الريش التي اتاحت للأمير الفرصة لأن يمارس معها لغته التي اكتسبها حديثاً. فالبرج كان أعلى من ان تستطيع الطيور الأخرى الوصول إليه. لكن سرعان ما مل الأمير صحبة معارفه الجدد، أولئك الذين كانوا يخاطبون العقل قليلاً. ولا يخاطبون القلب ابداً ومن جديد راح الامير يغرق في عزله. انقضى الشتاء ثم جاء الربيع

بكل ريعانه وجماله ، عبقه واريجه ، فبدا وكأنه زمن الطيور السعيد ، جاءها كي تتزوج وتبني أعشاشها . وفجأة ، ان جاز القول ، امتلأ الكون كله بالاغاريد والانغام منطلقه من الخمائل والرياض في قصر جنة الريف . فبلغت مسامع الأمير وهو في معتزله العالي . من كل حذب وصوب كان الأمير يسمع اللازمة الكونية نفسها تتردد - حب - حب - حب والطيور تشدو بها في كل نغمة ولحن . بصمت راح الأمير يصغي وبحيرة واندھاش يستمع ثم يفكر « ماتراه ذلك الحب الذي يبدو وكأنه ملء العالم ، ذلك الحب الذي لا أعرف عنه شيئاً ؟ » طلباً للمعرفة . مضى إلى صديقه البازي الذي أجاب بنبرة الازدراء « عليك ان تسأل طيور الأرض الضعيفة المسألة ، التي خلقت فرائس لنا ، نحن امراء الجو . صنعتي هي الحرب . ومتعتي هي القتال .. انني محارب يجهل كل شيء عن ذلك الذي يدعي الحب باسمئزاز ، استدار الأمير مبتعداً عنه ، ثم مضى إلى البوم في مأواه . قائلاً : « ذلك هو الطائر ذو العادات المسألة ولعله يستطيع حل مشكلتي » . وهكذا . طلب الأمير من البوم ان يحدثه عن ذلك الحب الذي تشدو الطيور به وتغرد في الرياض والخمائل .

عند ذلك . اتخذ البوم هيئة من لحقت به الإهانة ثم قال « انني اقضي ليالي في الدرس والبحث ونهاراتي في التفكير بكل ما بلغته من معرفة وعلم . اما ما تغرد به تلك الطيور وتشدو فلا اصغي اليه البتة - انني ازديها هي وما تغرد به . والحمد لله . انا لا استطيع التغريد . انني فيلسوف وليس لي علم بذاك الذي يدعي الحب » .

حينذاك . مضى الأمير إلى القبو . حيث كان صديقه الوطواط معلقاً من عقبه ثم طرح عليه السؤال نفسه . وسرعان ما غضن الوطواط انفه وعلى محياه اشد التعابير استخفافاً ثم قال « لماذا تقلق راحتي الصباحية بسؤال فارغ كهذا ؟ انا لا أظير إلا مع حلول الظلام . حين تهجع الطيور كلها ولا ازعج نفسي بكل ما يعنيه . بل إنني لست طيراً ولا دابة وانني لأشكر السماء على ذلك . لقد اكتشفت سخف تلك الكائنات كلها وانني اكرهها فرادى ومجتمعات . بالمختصر أنا كائن يبغض البشر . يبغض الكائنات جمعاء - ولا اعلم شيئاً عن ذلك الذي يدعي الحب » .

عند ذاك . مضى الأمير . كمالاً أخيراً إلى السنونوة التي اوقفها وهي تحوم في دوائر دوائر . كما هي عاداتها . حول ذروة البرج . وكالعادة . كانت السنونوة في

عجلة من امرها ولم يكن لديها الوقت لكي تجيب. «بشرقي» قالت السنونوة «ثمة الكثير مما ينبغي ان اهتم به ، والكثير مما ينبغي ان اتابعه إلى درجة لا املك معها الوقت للتفكير بأمر كهذا . في كل يوم لدي ألف زيارة اقوم بها والى قضية هامة اتفحصها فلا يبقى لدي لحظة واحدة من فراغ أفكر فيها بقضايا صغيرة كالتغريد والغناء.

باختصار، انا مواطنة عالمية. وطني العالم كله — ولا اعرف شيئا عن ذلك الذي يدعى الحب . قالت السنونوة ذلك ثم غاصت في بطن الوادي لتغيب بلحظة واحدة عن النظر. ظل الامير خائب الامل محتاراً لكن فضوله ازداد عن حده وهو يواجه صعوبة ارضائه. دخل حارسه القديم البرج، وهو في حالته تلك، فمضى اليه الامير بلهفة وشوق صائحا «يا بن ابي نابين لقد كشفت لي الحجب عن كثير من صنوف المعرفة في الدنيا، لكن ، ثمة شيء واحد ما زلت جاهلا به كل الجهد وارغب في معرفته» .

«ما على اميري إلا أن يسأل ولسوف يجد أن كل ما يعرفه خادمه رهن اشارته».

«قل لي اذن، يا احكم الحكماء، ما هو ذلك الشيء الذي يدعى الحب؟».

للتو تسمر ابن ابي نابين وكأنما نزلت على رأسه صاعقة، مرتعش الاطراف، شاحب الوجه، يملؤه احساس بأن رأسه يترجرج على كتفيه «ما الذي اوحى لأميري بسؤال كهذا؟ من اين تراه التقط كلمة جوفاء كهذه؟».

في الحال قاده الامير إلى نافذة البرج «اسمع يا ابن ابي نابين» قال الأمير فأصاخ الحكيم سمعه. عنادل الخميعة اسفل البرج كانت تغرد لمعشوقاتها ، لينطلق من كل ايكمة اشجار وحوض ورود نغمة - حب - حب حب... نغمة واحدة لا تتغير.

«الله اكبر، سبحان الله العظيم!!» هتف ابن ابي نابين الحكيم «من تراه يزعم انه قادر على اخفاء هذا السر عن الانسان، في الوقت الذي تجتمع فيه الطيور نفسها لإفشائه؟».

عند ذاك، التفت إلى احمد صائحاً «يا أميري، صم اذنك عن هذه الالحن المغوية، أغلق ذهنك في وجه هذه المعرفة الخطرة، واعلم ان هذا الحب هو السبب في ما يلحق بنصف البشرية من أذى واضرار.

إنه هو نفسه الذي يثير الأحقاد والنزاعات بين الأخوة والاصدقاء، هو نفسه الذي يؤدي إلى جرائم القتل والخيانة وحروب الخراب والدمار. الهم والغم، عناء النهارات وسهر الليالي هذا هو ما يرافق الحب.

إنه يذبل ما كان زاهراً ويقضي على مسرات الشباب ويجر وراءه السقم والمرضى، الحزن والأسى والشيخوخة المبكرة، ليحكم الله منه يا أميري وليبثك جاهلاً كل الجهل بذلك الشيء الذي يدعى الحب».

بعد ذلك اسرع الحكيم ابن ابي نابين مبتعداً تاركاً الامير وهو اكثر حيرة وذهولاً. لقد حاول عبثاً أن ينسى الأمر، او يبعده عن ذهنه لكنه ظل المسيطر المهيمن على افكاره كلها، معذباً اياه، مستنقماً قواه في التخمينات والظنون. بالتأكيد، قال الأمير لنفسه وهو يصغي لأنغام الطيور واغاريدها، ما من هم أو غم في هذه الانغام. بل إن كل شيء يبدو مفعماً رقة وعذوبة، فرحاً وبهجة وإذا كان الحب هو السبب في كل ذلك الشقاء والعناء، النزاع والصراع، اذن، لماذا لا تمضي هذه الطيور إلى المعتزلات فتعيش وحيدة او يمزق بعضها بعضاً إرباً إرباً، بدلاً من رفرفتها فرحة فرحة في الرياض والخمائل او لاهية معاً بين الورود والأزاهير؟

ذات صباح، كان الأمير يضطجع على أريكته مفكراً بالقضية التي لم يجد لها تفسيراً بعد. نافذة غرفته مفتوحة تدخل منها انسام الصباح العليل. محملة بعبق ازهار البرتقال يرسله وادي دارة. صوت العندليب كان ما يزال يأتي خافتاً لكنه ما يزال يردد اللازمة نفسها. وبينما كان الامير يصغي ويتنهد. سمع فجأة صوت شيء مندفع في الجو. نظر فرأى حمامة جميلة يلحق بها باشق. مرقت كالسهم عبر النافذة ثم حطت لاهثة على الأرض. اما الباشق فقد رجع القهقرى. وقد يئس من طريدته محلقاً نحو الجبال.

امسك الأمير بين يديه بالطائر اللاهث، مسد ريشه مدخلاً اياه في عبه. هناك داعبه ملامساً اياه مهدئاً، وحين هدأ، وضعه في قفص مقدماً له بيديه

أنصع القمح بياضاً وأجوده نوعاً، ساقياً إياه أنقى المياه وأعذبها. لكن الطائر رفض الطعام بل جثم مطرقاً كثيباً هادلاً هديله البائس الحزين.

«ما الذي يزعجك؟» سأله أحمد ألا أوفر لك كل ما يشتهي قلبك؟». «كلا، وأأسفاه !!» أجاب طائر الحمام «أم تراني لم افارق مهجة روعي؟ ومتى؟ في فصل الربيع السعيد، فصل الحب ذاته».

«الحب ! ؟» ردّد احمد تردد الصدى « ارجوك يا طائري الجميل ، هل باستطاعتك ان تقول لي ما هو الحب؟» .

«أجل باستطاعتي ، أيها الأمير. انه ضني الفرد وهناء الاثنين وعداء الثلاثة وصراعهم، إنه السحر الذي يجمع كائنين معاً لتوحدهما المشاعر اللذيذة والعواطف الماتعة، فيبلغان السعادة إذا ما اجتمعا، ويلقيان البؤس إذا ما افترقا. ترى أليس هنالك كائن تربطك به مثل هذه الروابط من العاطفة والتعاطف ؟

«إنني احب معلمي العجوز ابن ابي نابين اكثر من اي كائن آخر ، لكنه غالباً ما يكون مملاً باعثاً على الضجر إلى درجة اشعر احياناً انني اكثر سعادة بدونه». «ما هذا بالتعاطف الذي عنيت. انني اتكلم عن الحب، سر الحياة العظيم وأس الأسس فيها. نشوة الشباب المسكرة وبهجة الشيخوخة الرفيعة . انظر أمامك، ايها الأمير، وتأمل كم الطبيعة كلها في هذا الفصل المبارك مفعمة بالحب. كل مخلوق فيها له إلفه وعشيرته، أضال الطيور تغرد لمعشوقاتها، ذكر الخنفساء نفسه يتغزل بأنثاه على التراب وتلك الفراشات التي تشاهدها مرفرفة محلقة فوق البرج، لاهية لاعبة في الجو، انما هي سعيدة بحب بعضها بعضاً.

وأسفاه يا أميري !! أقضيت ايام شبابك الثمينة هذه دون ان تعرف شيئاً عن الحب؟ اليس هناك كائن لطيف من الجنس الآخر، أميرة جميلة أو فتاة جميلة قد شبكت قلبك وملأت صدرك بذلك الفيض الدافق من الرغبات والأشواق؟» .

«الآن بدأت أفهم» قال الأمير متأوهاً «ذلك الفيض الدافق عرفته اكثر من مرة دون ان اعرف ما وراءه، فأين تراني اجد ذلك الكائن الذي تصف وأنا في معتزلي المخيف هذا؟ إثر ذلك جرى المزيد من الحديث، وكان الدرس الأول في الحب الذي تلقاه الأمير.

«أواه» قال الأمير « ان كان الحب بمثل هذه المتعة فعلاً والحرمان منه يشكل مثل هذا البؤس، فلا سمح الله ان احرم محباً من متعته».

بعدئذ فتح القفص ، أخرج طائر الحمام ، قبله بولع شديد وحمله إلى النافذة قائلاً «اذهب أيها الطائر السعيد. استمتع مع شريك حياتك وانعم بايام الشباب والربيع . ترى لماذا أجعل منك زميل سجن في هذا البرج المخيف حيث لا يمكن أن يدخل الحب؟»

رفرف الطائر بجناحيه منتشياً، صانعاً نوعاً من القوس في الهواء، ثم اندفع يصفق نزولاً نحو خمائل دارة المزهرة.

لاحقه الأمير بناظريه إلى ان غاب. بعدئذ تراجع مبتعداً حزيناً، فغناء الطيور الذي كان يسره من قبل بات يزيد من احزانه الآن: حب ! حب ! حب ! حسرتي عليك ايها الشاب المسكين، الآن بت تفهم النعم!« وحين رأى الحكيم ابن نابين، قدحت عيناه شرراً كشرر النار ثم صرخ به مؤنباً لماذا تركتني في هذا الجهل المطبق؟ لماذا منعت عني ذلك السر العظيم للحياة والمبدأ الاساسي من مبادئها ذاك الذي تعرفه حتى الحشرات الصغيرة؟ انظر، الطبيعة كلها في فرح وانتشاء، الكائنات والمخلوقات كلها تنعم بالحب وكل منها ينعم مع إلفه وعشيرته! وهذا - هذا هو الحب الذي كنت اسعى لمعرفة شيء عنه. لماذا انا وحدي محروم مشوه المتعة؟ لماذا قضيت جل شبابي دون ان اعرف لذائذه ومتعه؟».

رأى الحكيم ابن أبي نابين ان كل تحفظ بعد ذاك نوع من العبث، فقد وصل الأمير إلى كل ما هو خطر ومحظر من المعرفة. لهذا كشف له تنبؤات النجمين كلها والاحتياطات التي اتخذت في سياق تربيته كلها لتجنيبه الأخطار والشورور التي تهدده. «والآن يا أميري». اضاف اخيراً «حياتي رهن يديك، ان اكتشف الملك والدك انك عرفت عاطفة الحب وانت في عهديتي ، طار رأسي» كان الأمير منطقياً عقلاً عقالانياً كمعظم الشبان في سنه، وبسهولة تامة اصغى لاعتراضات معلمه، إذ لم يكن هناك ما يقف في وجهها. اضافة إلى ذلك، فقد كان متعلقاً فعلاً بأبن أبي نابين ولم يكن قد تعرف إلى عاطفة الحب إلا نظرياً. لهذا كله، وافق على ان يكتف معرفته في قلبه بدلاً من تعريض رأس الفيلسوف للقطع.

لكن حكمته هذه كان مقدراً لها ان تخضع للمزيد من الاثباتات والبرهين.

فبعد بضعة ايام، وبينما كان يفكر متأملاً اسوار البرج وتحصيناته، رأى الحمامة التي أطلقها ذات يوم تحوم في الجو ثم تحط دون وجل او خوف على كتفه.

سر الأمير كثيراً وراح يداعب الحمامة ضاماً اياها إلى قلبه قائلاً «ايها الطائر السعيد الذي يمكنه ان يطير بأجنحة الصباح إلى معظم الانحاء والجهات في الأرض. اين كنت منذ ان افترقنا؟».

«في بلاد بعيدة ايها الأمير. حيث جئت لك بأخبار سارة جزاء لك على اعطائي حريتي. في اثناء طيراني البعيد الذي يمتد فوق السهول والجبال. وبينما كنت أحلق عالياً في الجو. رأيت تحتي حديقة بهيجة فيها اصناف الثمار والأزهار كلها. تقع في وسط مرج اخضر على ضفة جدول ماء. في وسط الحديقة كان ثمة قصر مهيب. ولكي استريح من عناء طيراني حطت الرحال على احدى الاشجار هناك. على ضفة الجدول الخضراء. كانت اميرة في ريعان صباها وزهوة شبابها يحيط بها وصيفات في مثل عمرها. يزينها بأكاليل وباقات الأزهار. لكن ما من زهرة في الحقل او الحديقة كلها كانت تضاهي الأميرة في جمالها غير أنها. هناك كانت تتزعرع بالسر. فالحديقة يحيط بها اسوار عالية وما من كائن بشري يسمح له بالدخول. حين رأيت ذلك الجمال الساحر البريء. الغض الإهاب الذي لا يعرفه احد في العالم. فكرت: ها هنا الكائن الذي أبدعته السماء لكي يلهم اميري الحب».

كما تفعل الشرارة بالهشيم. كذلك فعل وصف الأميرة بقلب احمد السريع الاشتعال وفي الحال وجد لما كان في قلبه من عواطف مشجبا يعلقه عليه. إنها تلك الأميرة في الحديقة التي بات يكن لها كل الحب.

للتو كتب رسالة بانمي وأرق لعة. كلها عواطف مشبوبة ومشاعر لاهية. اسى وحسرة على حظه التعيس لأنه لا يستطيع السعي اليها والقاء نفسه عند قدميها. مضيفاً بعد ذلك بيتين راثعين من ارق الشعر وأبلغه. ان كان شاعراً بالفطرة وكان ملهمه الحب. ثم عنون كتابه : « إلى الحسناء المجهولة من الأمير السجين احمد». بعدئذ ضمخ الكتاب بالمسك والعنبر واعطاه لطائر الحمام قائلاً: «بعيدا. يا أكثر الرسل ثقة... طر فوق الجبال والوديان. الأنهار والسهول لا

تغرنك أيكة بالراحة، ولا تجثمن على ارض قبل ان تعطي هذا الكتاب لأميرة قلبي».

خلق الطائر عالياً في الجو، محددًا وجهته، منطلقاً كالسهم في ذلك الاتجاه...بناظره لاحقه الأمير إلى ان غدا مجرد ذرة صغيرة ثم غيبها احد الجبال.

عبتاً راح الأمير ينتظر عودة رسول الحب، يوماً بعد يوم راح ينتظره إلى ان بدأ يتهمه بالنسيان والنكران. لكن ذات يوم، ومع غروب الشمس، ظهر الطائر المخلص مرفقاً بحناحيه، هاوياً عند قدميه جثة هامة، وقد مزق صدره سهم فاجر لرام لنيم . مع ذلك كان قد كافح كفاح المستميت باذلا كل ما لديه من طاقة كي يوصل رسالته. انحنى الأمير حزينا على شهيد الاخلاص والنبل ذاك، فرأى عقداً من اللؤلؤ حول عنقه وقد ربطت به تحت الجناح تماماً صورة مؤطرة صغيرة لأميرة جميلة في ريعان شبابها. انها هي ولا شك، حسناء الحديقة المجهولة، لكن من هي يا ترى واين هي؟ كيف تلقت رسالته وهل تلك الصورة رد عليها، دلالة على مباركة عاطفته! لسوء الحظ، مات الطائر الوفي وبموته ظل كل شيء طي الغموض والشك.

قلب الأمير الصورة، محدقاً محملاً، ملء عينيه الدموع . قربها من شفتيه، ضمها إلى فؤاده ثم جلس ساعات وساعات يفكر بها وهو في أشد حالات الجوى والعناء .

« أيتها الصورة الجميلة » راح الأمير يخاطبها. «أواه !! شفتاك الورديتان تبدوان وكأنهما تخاطبانني حثاً وتشجيعاً: تخيلات حمقاء ! ألم تنظر النظرة نفسها إلى غريم اكثر سعادة مني ؟ لكن في اي مكان من الأرض ، آمل ان اجد الأصل ايتها الصورة ؟ من يعلم اية جبال، اية ممالك ودول تفصل بيننا؟ اية حواجز وعقبات تقوم بيننا؟ ربما الآن، وفي هذه اللحظة، يحتشد العشاق حولها وأنا اجلس هنا سجيناً في برج، اهدر وقتي في تعبد خيال مرسوم».

«سافر من هذا القصر» قال الأمير وقد اتخذ قراره ، «القصر الذي اصبح سجنًا بغيضاً، وكسائح من سياح الحب، سأبحث عن هذه الأميرة المجهولة في انحاء الدنيا كلها».

أن يفر من البرج في النهار والجميع مستيقظون، مسألة فيها صعوبة . لكن في الليل القصر خفيف الحراسة، إذ ما من أحد كان يخشى أية محاولة من أي نوع من قبل الأمير الذي كان دائماً مستسلماً لقدره داخل أسواره.

لكن كيف سيهتدي إلى طريقه في قلب الظلمة هو الذي يجهل البلاد ؟ في الحال خطر بباله اليوم ذاك الذي ألف التجوال في الظلمة ولا بد من ان يعرف كل ممر سري وطريق جانبي. بحث عنه الأمير في معتزله، ثم سأله عن معرفته بالبلاد. عند ذاك، اتخذ اليوم هيئة الجبار المعتد بذاته ثم قال «ينبغي ان تعلم ايها الأمير اننا، نحن معشر اليوم، من سلالة بالغة القدم عظيمة الانتشار، لها قصور خربة وقلاع متداعية في انحاء اسبانيا كلها، إذ نادراً ما ترى برجاً في جبل او حصناً في سهل او قلعة في مدينة إلا ولي فيها أخ او عم، ابن خال او ابن عم، وحين اذهب في جولاتي لزيارة هؤلاء الاقرباء، اختلس النظر إلى كل عش ووكر، كل منعطف وزاوية، كي اعرف كل سر من أسرار البلاد» .

سرور عظيم ملأ قلب الأمير وهو يرى ان اليوم واسع المعرفة في طبوغرافيا البلاد، وللتوهمس في اذنه بما يعتلج في صدره من هوى مشبوب بائحاً له بنيته في الهرب، طالبا اليه أن يرافقه صاحباً ومشيراً «تباً لك !!» قال اليوم بهيئة المنزعج «أنا الطائر الذي يكرس وقته كله للتأمل والتفكير يورط نفسه في قصة حب؟».

«لا عليك ، أيها اليوم يا أعظم الحكماء » أجاب الأمير «أرح نفسك قليلاً من التأمل والتفكير. ساعدني في هروبي ولسوف أعطيك ما يشتهي قلبك».

«لدي كل ما يشتهي قلبي» قال اليوم « بضعة فئران تكفيني طعاماً، وذلك الوكر في الجدار واسع يكفي لدراساتي ، وما عساه يرغب الفيلسوف بأكثر من ذلك ؟

«فكر قليلاً أيها اليوم الأعظم حكمة . فكر انك وانت في وكرك تستغرق في التفكير وتحقق إلى القمر، يخسر العالم مواهبك كلها. ذات يوم سأكون الأمير الحاكم ولسوف أسند اليك منصبا يعود عليك بالمجد والسؤدد . « وعلى الرغم من أن اليوم كان فيلسوفاً يسمو فوق الحاجات العادية للحياة، إلا أنه لم يكن يسمو فوق المطامح، لهذا استطاع الأمير ان يتغلب عليه ويقنعه بالهروب معه دليلاً ومرشداً، في سياحته بحثاً عن الحب.

في الحال، وضعت مخططات العاشق قيد التنفيذ. إذ جمع الأمير جواهره كلها مخفياً أياها في طيات ثيابه مثلما يفعل الرحالة بأموالهم، وفي تلك الليلة بالذات تدلى من شرفة البرج رابطاً نفسه بحبل نازلاً على حجارة السور الخارجي لجنة الريف، وبهدي اليوم وارشاده كان قبل أن تشرق الشمس قد شق طريقه إلى الجبال. حينذاك، عقد جلسة استشارية مع دليله حول خط سيره المقبل.

«إن كان لي أن أنصحك» قال اليوم «فإنني أوصيك بالتوجه إلى اشبيلية. إذ عليك أن تعلم أنني قبل سنوات عديدة قمت بزيارة إلى أحد اعمامي هناك وهو يوم ذو مركز ونفوذ عظيمين يعيش في جناح خرب من «القصر» في تلك الانحاء. وغالباً ما كنت الحظ وأنا اتجول ليلاً فوق المدينة، ضوءاً يشتعل في برج منفرد. في نهاية الامر، هبطت على السور هناك، فرأيت ينبعث من مصباح ساحر عربي : وقد أحاطت به كتب السحر من كل جانب ، فيما جثم على كتفه غراب قديم جاء معه من مصر. انني اعرف ذلك الغراب وانا مدين له بقدر كبير من المعرفة التي بحوزتي. لقد مات الساحر منذ زمن، لكن الغراب ما يزال يقيم في البرج ، فالغريان تعمّر طويلاً. انني انصحك ايها الأمير ان تبحث عن ذلك الغراب، فهو قادر على التكهّن، عالم بفنون التنبؤ والسحر، تلك الفنون التي تعرفها الغريان كلها، خاصة تلك الآتية من مصر».

أعجب الأمير كل الاعجاب بما في تلك النصيحة من حكمة، وطبقاً لها حرف مساره باتجاه اشبيلية، يسافر في الليل ويرتاح في النهار طبقاً لما يناسب رفيقه، مختاراً للراحة كهفاً مظلماً أو برج مراقبة مهجوراً، فاليوم يعرف كل مخبأ من هذا النوع، واكثر ما يستهويه الآثار والخرائب.

أخيراً، مع طلوع الشمس، وصلاً إلى مدينة اشبيلية. هناك توقف اليوم الذي يكره الضوء الساطع وزحام الشوارع، خارج البوابة ، متخذاً من إحدى الاشجار المجوفة مقراً له ومستراحاً.

دخل الأمير البوابة، وسرعان ما وجد البرج المسحور الذي كان ينتصب عالياً فوق بيوت المدينة، مثلما تنتصب شجرة النخيل فوق نباتات الصحراء، انه بالحقيقة البرج نفسه الذي ما يزال ينتصب إلى اليوم ويعرف باسم «الجيرالدا» البرج العربي الشهير في اشبيلية. على درج عظيم ملتف، صعد الأمير إلى ذروة

البرج، حيث وجد هناك الغراب القبلاني^(*)، طائراً عجوزاً أشيب الرأس، غامضاً، اشعث الريش، على إحدى عينيهِ غشاء رجراج اشبه بالنظارة. كان الغراب يجثم على إحدى قائمتيهِ، مائلاً برسه إلى أحد جانبيهِ، متفحصاً بعينه الثانية مخططاً موضوعاً على الحجارة امامه.

بخوف وتهيب أملاهما مظهر الغراب بالطبع، بكل ما فيه من هيبة وحكمة فائقة، دنا الأمير منه هاتفاً: «عفوك، يا اعتق الغربان واعظمهم حكمة. لحظة واحدة فقط سأقطع عليك تأملاتك ودراساتك، انت يا اعجوبة الدنيا ومعجزتها. انك ترى امامك صريعاً للحب يبحث عن مشورتك ويطلب رأيك، ترى كيف يمكنه الوصول إلى محبوبته؟».

«بعبارة أخرى» قال الغراب بنظرة الجدو الرصانة «هدفك ان تختبر براعتي في قراءة الكف، تعال - ارني كفك ودعني أفك ما فيها من رموز غامضة للحظ».

«المعذرة»، قال الأمير: «أنا لم اجثك بحثاً عن التكهّنات او قراءة الكف بل ولا عن معرفة الغيب، ذاك الذي يحجبه الله عن أعين البشر، بل أنا سائح من سياح الحب أبحث علني أجد مفتاحاً للغاية من حبي».

« وهل يمكن أن تضيع غاية حبك في أندلس الحب؟ ». قال الغراب العجوز رامقاً اياه شزراً بعين وحيدة بل كيف يمكن ان تفتقر لمن تحب في اشبيلية المأجنة الخليعة، حيث الفتيات سوداوات العيون يرقصن رقصة الزامبرا في كل بيارة برتقال؟

أحمر وجه الأمير خجلاً وهو يشعر بالصدمة لدى سماعه الطائر العجوز الجاثم على قائمة واحدة، صاحب الهيئة الرزينة الرصينة يتحدث بذلك الانفلاش والراحة «صدقني» قال الأمير بكل رزانة وجد «أنا لا أسعى لعلاقة سريعة عابرة كما خطر ببالك. فتيات الاندلس نوات العيون السوداء اللواتي يرقصن تحت اشجار البرتقال في الوادي الكبير لسن شيئاً بالنسبة إلي . انني ابحت عن حسناء مجهولة لا يمكن الوصول اليها، هي صاحبة هذه الصورة . واني لأرجوك، أيها الغراب العظيم القدرات، ان كانت ضمن إطار معرفتك او ضمن مدى سحرك، ان تقول لي اين عساي أجدها؟» جد الأمير ورسانته صدماً الغراب الاشيب الرأس

(*) القبلانية: مذهب سري عند بعض أحيار اليهود ونصارى العصر الوسيط تميل إلى الصوفية والسرية.

فأجاب بنبرة رزانة جافة ، «وما تراني اعرف عن الشباب والجمال؟ زياراتي كلها للقديم البالي وليس للجميل النضر: نذير الشر أنا ، نعيبي ينذر بالموت اذا ما نعبت من أعلى مدخنة، ورفرف جانحاي قرب نافذة مريض. لا، يا بني عليك ان تبحث في مكان آخر عن اخبار حسنائك المجهولة».

« أين يمكنني ذلك ان لم يكن لدى ابناء الحكمة المستغرقين في قراءة كتاب الأقدار؟ اعلم انني امير ابن ملك، مصيره مرتبط بالنجوم ومرسل في مهمة غامضة ترتبط بها مصائر ممالك وامبراطوريات» .

حين سمع الغراب ذلك أيقن انها مسألة بالغة الخطورة، النجوم نفسها ذات علاقة بها، وللتو غير من نبرة صوته وسلوكه مصغياً باهتمام شديد لقصة الأمير. الذي ما إن انتهى حتى أجاب الغراب: «من أجل الاتصال بهذه الأميرة، ليس باستطاعتي ان اقدم لك اية معلومات بنفسى، فأنا لا أطير بين الحداثق والجنائن. أو رياض السيدات... لكن امض بنفسك إلى قرطبة، ابحث هناك عن نخلة عبد الرحمن الكبير التي تنتصب في فناء الجامع الرئيسي: عند أسفلها ستجد رحالة عظيماً زار كل بلد وكل بلاط ملكي وكانت له حظوة لدى الملكات والاميرات. هو سيعطيك ما تشاء من أخبار عن غايترك ومبتغاك» .

« كل الشكر لك على هذه المعلومات الثمينة قال الامير » وداعاً أيها الساحر المحترم المبجل..»

« وداعاً يا سائح الحب » رد الغراب بنبرة جافة ومن جديد عاد إلى تأمله للمخطط أمامه.

انطلق الأمير مبتعداً عن اشبيلية باحثاً عن زميل رحلته اليوم. الذي كان ما يزال غافياً في الشجرة المجوفة، ثم اتجها إلى قرطبة.

حين اقتربا منها، كان الطريق تحفه الحداثق المعلقة وبيارات الليمون والبرتقال التي تملأ الوادي الكبير الجميل. وصلاً إلى البوابة فطار اليوم صاعداً إلى ركن معتم في الجدار. فيما مضى الأمير قلماً بحثاً عن شجرة النخيل التي زرعها في الماضي السحيق عبد الرحمن الكبير .

في فناء الجامع الواسع، وفي الوسط تماماً، كانت تنتصب الشجرة كالبرج العالي باسقة منيفة على أشجار البرتقال والسرو دراويش وفقراء كانوا

يتجمعون هنا وهناك في اروقة الفناء وكثير من المؤمنين كانوا يتوضؤون بماء النوافير قبل أن يدخلوا الجامع.

عند أسفل النخلة كان ثمة جمع من الرجال يصغون إلى ما يقوله خطيب تبدو على كلامه طلاقة عجيبة. «هذا هو» قال الأمير لنفسه «لا بد انه هو نفسه الرحالة العظيم الذي ينبغي ان يعطيني اخبار الاميرة المجهولة» ، وفي الحال زج نفسه بين الجمع لكن لشد ما اصيب بالدهشة حيث رأى انهم جميعاً كانوا يصغون لبغاء ، بمعطفه الاخضر الزاهي وعينه الثاقبة وريش رأسه العالي. وهيئته ، هيئة الطائر الراضي كثيراً عن نفسه.

«كيف هذا» ؟ قال الأمير لأحد المتفرجين «أيعقل أن يصيخ السمع أناس على هذا القدر من الجد والرزانة بل ويستمتعوا بثرثرة طائر كهذا البغاء» ؟

«انت لا تعلم عمن تتكلم» رد المتفرج « هذا البغاء هو سليل ببغاء فارس الشهير الذي تعرفه الأرض كلها بموهبته الفائقة في رواية القصص والحكايات. معارف الشرق كلها على اطراف لسانه وبإمكانه ان يروي الشعر بأسرع مما يتكلم . لقد زار بلاط الكثير من الملوك الاجانب ، حيث كانوا ينظرون اليه على انه كاهن من كهان المعرفة ومهبط الوحي. هو ايضاً صاحب الحظوة في أرجاء الأرض كلها لدى الجنس اللطيف ، فالنساء يعجبين كل الاعجاب بببغاوات المعرفة التي يمكنها ان تروي الشعر» .

«حسبك» قال الأمير «لي حديث خاص معه ، هذا الرحالة المتميز ، لا بد من ان أحدثه».

في الحال سعى الأمير لإجراء لقاء خاص به ، شارحاً طبيعة مهنته ، لكن ما ان بدأ بالشرح حتى انفجر البغاء مقهقهاً ضاحكاً إلى درجة انهمرت الدموع من عينيه . بعدئذ قال «اعذرنني على ضحكي ومرحي ، لكن مجرد ذكر الحب يجعلني دائماً أضحك».

صدم الأمير أيما صدمة لهذا المرح سيء التوقيت ، ثم قال « أليس الحب هو سر الطبيعة العظيم ، مبدأ المبادئ في الحياة ، رباط التعاطف في الكون كله » ؟

«كلام أحرق ١١» قاطعه الببغاء صائحاً ، «بريك، من اين تعلمت هذا الهراء العاطفي؟ صدقني، الحب شيء قديم منسي، لا يسمع المرء بذكره بين ذوي العقول وأبناء الطبقة الراقية» .

صعد الأمير زفرة وهو يتذكر اللغة المختلفة لصديقه طائر الحمام، ثم فكر: لكن هذا الببغاء عاش في البلاط، انه يؤثر أصحاب العقول وابناء الطبقة الراقية وهو لا يعرف شيئاً عن ذلك الذي يدعى الحب.

وفي الحال وجه أسئلته، عازفاً عن كل رغبة في إثارة المزيد من السخرية تجاه العاطفة التي كانت تملأ قلبه، نحو الهدف المباشر من زيارته.

«قل لي» ، بدأ الأمير «يا أكثر الببغاوات معرفة وكَمالاً انت يا من دخلت كل مكان وعرفت أكثر جنائن السيدات سرية واحتجاباً ، هل صدف وقابلت في احدى جولاتك صاحبة هذه الصورة ؟ »

أمسك الببغاء الصورة بمخالبه، مقلباً النظر فيها. متفحصاً إياها بكل فضول وامعان ، بعدئذ قال:

«بشرني انه لوجه في غاية الجمال، اجل في غاية الجمال لكن بالمحصلة ، المرء يرى الكثير من النساء الجميلات في رحلاته حتى انه بالكاد يستطيع — لكن لحظة..أجل ليباركني الله - دعني الق نظرة اخرى — بالتأكيد كفى.. إنها الأميرة أديغوندا... وكيف تراني أنسى من هي غالية على قلبي اثيرة كثيراً لدي ؟! »

« الاميرة الديغوندا» ! ردد الأمير «واين أجدها يا ترى؟» «هوناً، هوناً» قال الببغاء «من السهل ان تجدها لكن ما أصعب ان تصل اليها !! إنها الابنة الوحيدة للملك طليطلة وقد أمر بعزلها عن العالم كله حتى تبلغ ربيعها السابع عشر وذلك بسبب نبوءة احد المنجمين. عينك لن تبصرها وما من كائن بشري يمكنه ان يراها لقد سمح لي بالدخول إلى حضرتها كي اسليها وأؤكد لك، بكل ما للببغاء الذي رأى العالم كله من شرف، ما رأيت في حياتي أميرة أكثر رصانة منها » .

« كلمة ثقة يا ببغائي العزيز» ، قال الأمير «انا ولي عهد مملكة ولسوف أجلس ذات يوم على العرش. إنني أرى انك طائر ذو خبرة يفهم الدنيا جيداً ساعدني للفوز بتلك الأميرة ولسوف أسند اليك منصباً هاماً في بلاطي». «بكل

سرور» قال الببغاء «لكن ليكن ذلك المنصب فكراً ان أمكن، فنحن ، معشر أصحاب المواهب أكره ما نكره العمل اليدوي» .

في الحال اتخذت الترتيبات اللازمة ، وانطلق الأمير من قرطبة عبر البوابة نفسها التي دخل منها . دعا البوم فنزل من ذلك الوكر في الجدار ، قدم نفسه لزميل الرحلة الجديد كأخ عالم، بعدئذ انطلقوا معاً راحلين . ببطء رحلوا ، بل أكثر بطئاً مما كان يتوافق مع نفاذ صبر الأمير ، لكن الببغاء كان قد اعتاد الحياة الراقية ولم يكن يحب ان يزعجه أحد في الصباح الباكر.

من جهة أخرى، كان البوم يحب النوم وقت الظهيرة وكان يقضي الكثير من الوقت في قيلولاته الطويلة تلك.

كذلك كان حبه لكل ما هو قديم يعيقه في الطريق اذ كان يصر على التوقف عند كل اثر دارس وطلل خرب يتفحصه ويدقق فيه ، كما كانت لديه حكايات خرافية طويلة يرويها عن كل برج قديم وقلعة أثرية في البلاد، كان الأمير يفترض أن البوم والببغاء ، لكونهما طائري علم ومعرفة ، سيبتهجان واحدهما بصحبة الآخر لكنه كان مخطئاً كثيراً. فقد كانا يتشاحنان باستمرار أحدهما ذو موهبة أدبية والآخر فيلسوف. الببغاء يروي الشعر، فينتقد القصائد الحديثة ويبرع في نقاط معينة من المعرفة، أما البوم فكان ينظر إلى أصناف المعرفة كافة على أنها سخيفة تافهة، وحدها الميتافيزياء كان يستمتع بها، كذلك كان بإمكان الببغاء أن يغني اغاني ويردد كلمات جميلة ويمزج منكثاً على جاره الرصعين، ساخراً من ذكائه وموهبته، الأمر الذي كان البوم يعتبره إساءة محزنة لكرامته، فيتجهم وجهه أكثر وأكثر ويغرق في صمته بقية اليوم.

لم يكن الأمير يعطي بالألشاحنات زميليه، فقد كان يستغرق في احلامه وخيالاته، وهو يتأمل صورة الأميرة الجميلة. على هذا النحو، اجتاز الركب ممرات «سيرامورينا» الوعرة ثم عبر سهول السانشا وقشتالة التي حرقها الشمس وسار على طول ضفاف «التاغوس الذهبي» الذي يلتف ويتعرج عبر نصف اسبانيا والبرتغال.

أخيراً ، وصلوا ثلاثتهم إلى نقطة رأوا منها مدينة حصينة ذات اسوار وأبراج بنيت على نتوء جبلي شديد الوعورة كان نهر التاغوس يلتف حول الجزء الأسفل منه ويدور هادراً عنيفاً.

«انظر» هتف اليوم «تلك هي مدينة طليطلة القديمة الشهيرة بآثارها. انظر تلك القباب الرائعة والأبراج العالية وقد كساها الزمن حلل الروعة والعظمة تلك التي اطال التفكير فيها الكثير من اسلافي.

«أف» صاح الببغاء مقاطعاً زميله الذي ينتشي بحب كل قديم «ما لنا وللآثار القديمة؟ ما لنا وللحكايات؟ لأساطيرك وأ سلافك؟ انظر إلى ما يقربنا أكثر من هدفنا - انظر إلى مواطن الشباب والجمال - أخيراً ، أيها الأمير، انظر إلى موطن اميرتك التي طال بحثك عنها .» نظر الأمير في الاتجاه الذي أشار إليه الببغاء فرأى وسط مرج أخضر بهيج، تماماً على ضفاف التاغوس، قصراً مهيباً تحيط به الرياض الغناء . إنه المكان نفسه الذي وصفه له صديقه، طائر الحمام، مقراً لصاحبة تلك الصورة. بقلب خافق نظر الأمير إلى القصر مفكراً «ربما وفي هذه اللحظة بالذات تمارس الأميرة الحسناء رياضتها تحت تلك الاشجار الوارفة والرياض الظليلة او تسير بخطا لطيفة - على تلك المصاطب الفاخرة أو تستريح تحت تلك السقوف العالية. لكن ما إن دقق النظر أكثر حتى رأى اسوار الحديقة بالغة الارتفاع إلى درجة يتعذر تسلقها. وقد انتشر فوقها عدد من الحراس المسلحين يمنعون كل وصول اليها.

التفت الامير إلى الببغاء ثم قال « يا أكثر الطيور حكمة وكمالاً. أنت يا من تملك موهبة النطق البشري، امض هناك إلى تلك الحديقة، ابحث عن معبودة روحي وقل لها: الأمير احمد، سائح الحب، الذي تتحكم بمصيره النجوم قد وصل بحثاً عنك إلى الضفاف المزهرة لنهر التاغوس».

بعيداً طار الببغاء المحور بما كلف به من مهمة. متجهاً إلى الحديقة التي كانت اشجارها الباسقة تسمو على اسوارها العالية. هنيهة من الزمن حلق الببغاء هناك محوماً فوق المروج الخضراء ورياض الاشجار. بعدئذ حط على شرفة الرواق الذي كان يطل على النهر. هناك ، حذق إلى الداخل فرأى الأميرة مستلقية على أريكة وثيرة، عيناها مسمرتان على ورقة امامها وهما تهميان الدموع التي راحت تنساب على وجنتيها الشاحبتين . لحظة من الزمن، ظل الببغاء يرتب ريش جناحيه، مسوياً حلقه الخضراء الزاهية، رافعاً من قنزعتة، بعدئذ طار إلى ان جثم إلى جانبها، بهيئته البهية، ثم قال متصنعاً أرق النبرات: «جففي دموعك ، يا أجمل الأميرات، فقد جئت حاملاً لقلبك السلوان» .

أجفلت الأميرة ، وهي تسمع ذلك الصوت ، أيما إجفال. التفتت هنا وهناك لكن دون ان ترى سوى طائر صغير أخضر الريش يهز رأسه وينحني احتراماً لها، «وأسفاه !!» قالت الأميرة «أي سلوان يمكنك ان تحمل لي، وما أنت سوى ببغاء ؟! ذلك السؤال أثار حنق الببغاء فأسرع إلى القول «حسناوات كثيرات حملت لهن في حياتي السلوان، لكن دعي ذلك جانباً فأنا الآن سفير إليك من أمير ابن أمير. ألا فاعلمي ان احمد أمير غرناطة، قد وصل بحثاً عنك وهو الآن مخيم قريباً في مكان ما من ضفاف التاغوس المزهرة».

لدى سماعها تلك الكلمات، برقت عينا الاميرة الحسناء، بريقاً اشد من ماسات إكليل رأسها ثم هتفت «يا أحلى الببغاوات، سارة أخبارك فعلاً، أنا التي نال منها الضعف والضعف ما نال، أنا السقيمة حتى الموت بعد ان شككت ببقاء أحمد على قيد الحياة. هيا ايها الببغاء عد أدراجك وقل له « إن كلمات رسالته منقوشة في قلبي وإن شعره غذاء روحي. لكن قل له إن عليه ان يستعد للبرهان على حبه بقوة السلاح، فغداً هو ميلادي السابع عشر ولسوف يقيم والذي الملك مبارزة عظيمة، يشترك فيها عدة أمراء، ويدي هي جائزة من ينتصر؟»

من جديد طار الببغاء، خافقاً بجانحيه ماراً فوق الأجسام والرياض عائداً إلى حيث كان الأمير ينتظر. فرحة احمد بإيجاد الأميرة ، معبودته، صاحبة الصورة، واكتشاف انها فتاة حقيقية من لحم ودم، امر لا يمكن ان يدركه إلا أولئك المحظوظون من البشر الذين يسعفهم حسن الحظ في ان يعيشوا احلام اليقظة وينتقلوا من الخيال إلى الحقيقة : لكن كان ما يزال هناك شيء واحد يقف حائلاً دون انتقاله ذاك - انه تلك المبارزة الملأى بالأخطار. والواقع ، ان ضفاف التاغوس كانت تعكس بريق الاسلحة وتردد اصوات الابواق للعديد من الفرسان الذين كانوا بحواشيه المزدخية المتفاخرة يغذون الخطا باتجاه طليطلة لحضور الاحتفال. كان النجم الذي يتحكم بمصير الامير هو نفسه يتحكم بمصير الاميرة، اذ حتى ربيعها السابع عشر كان عليها ان تعيش منعزلة عن العالم تحرسها العيون لإبعادها عن عواطف الحب والغرام.

مع ذلك ، كان ، اشتهرت به من سحر وفتون قد عززته عزلتها وأكدته بدلاً من إخفائه وتعظيمه، وكان عدد من الامراء الأقوياء قد بدؤوا التنافس طلباً ليدها. ولكي يتجنب ابوها، الملك البالغ البراعة العظيم الدهاء، خلق الاعداء

لنفسه إذا ما تحيز لأحد منهم، فقد قرر الاحتكام إلى السلاح. وكان بين المرشحين المتنافسين عدة أمراء اشتهروا بالبسالة والقوة.

فأي خبر تلقاه الماثر الحظ الأمير أحمد الذي لم يكن يحمل حتى سلاحاً ولم يكن ذلك البارع في فنون القتال والفروسية؟ ... «كم أنا أمير سيء الحظ!!» قال أحمد «أن انشأ في جو من العزلة على يد فيلسوف! أي جدوى من الجبر والهندسة الآن؟ ما نفع الفلسفة في شؤون الحب؟ أواه!! يا بن أبي نايين! لماذا لم تعلمني فنون الحرب والقتال؟» عند ذاك، مرق اليوم الصمت، مقدماً لخطبته بديباجة ملأى بالورع والتقوى، فقد كان مسلماً مؤمناً تقياً. «الله أكبر!! تعالى ربك ذو الجلال والإكرام!» بدأ اليوم هاتفاً «بيده وحده سر الأشياء كلها - وبيده وحده مصير الأمراء! اعلم أيها الأمير أن هذه الأرض ملأى بالأسرار التي لا يعرفها إلا أولئك الذين يمكنهم، مثلي، أن ينقبوا عن المعرفة في ثنايا الظلام، واعلم أيها الأمير، أن في الجبال المجاورة يوجد كهف - في داخله طاولة من حديد، وعلى طاولة الحديد تلك عدة فارس مسحورة وإلى جانب تلك الطاولة يقف حصان مسحور وقد حبس هناك منذ العديد من الأجيال.»

بدهشة وعجب راح الأمير يحدق إليه فيما تابع اليوم. وهو يطرف بعينيه المستديرتين الضخمتين وينصب عالياً قرنيه: «منذ سنوات كثيرة - رافقت والذي إلى تلك الانحاء في رحلة كشفية لأراضيه ولقد أقمنا في ذلك الكهف، وبذلك عرفت السر. إنه تقليد من تقاليد عائلتنا سمعت عنه من جدي. عندما كنت مجرد بويم صغير أن عدة الفارس تلك تعود بالأصل لساحر عربي مغربي التجأ إلى هذا الكهف عندما وضع المسيحيون أيديهم على طليطلة ثم مات هناك تاركاً حصانه وسلاحه وعليهما طلسم من سحر لا يمكن أن يفكه. وبالتالي أن يستخدم الحصان والسلاح، إلا رجل مسلم على أن يتم ذلك بين مطلع الشمس والظهيرة. في هذه الفترة من النهار كل من يستخدمهما سوف يغلب من يواجهه أياً كان عددهم.»

«كفى... كفى... ولنبحث عن هذا الكهف في الحال». هتف أحمد على عجل.

وهكذا، بإرشاد معلمه الاسطوري، وجد الأمير الكهف الذي كان يقع في أكثر تجاويف تلك الجروف الصخرية وعورة تلك التي ترتفع عالياً حول طليطلة. لكن ما من عين كان بإمكانها أن تكشف مدخله إلا عين اليوم المدققة الفاحصة.

هناك كان مصباح من الحجر المنحوت دائم الزيت دائم الاشتعال يلقي ضوءاً خافتاً على المكان. وعلى طاولة من حديد وسط الكهف كان يتكوم الدرع المسحور، قد استند الرمح عليه وإلى جانبه يقف حصان عربي عليه عدة الحرب والقتال لكنه جامد ساكن كتمثال.

كان الدرع يبرق ويلمع دون أن يناله الصدا ، مثلما كان أيام زمان وكان الحصان في حال جيدة كما لو أنه آت لثوّه من المرعى؛ ما إن وضع أحمد يده على عنقه، حتى دق الأرض بقائمتيه مطلقاً صهيقاً فرحاً عالياً هز جدران الكهف. وهكذا، مزوداً بالحصان والدرع والسلاح قرر الأمير أن يدخل التحدي في ميدان المبارزة والخطر.

مع حلول الصباح الموعود، كانت قوائم المتبارزين قد أعدت، وكانت جموعهم قد احتشدت في السهل، تماماً تحت أسوار طليطلة القائمة كالجروف، حيث اقيمت منصات وأروقة للمشاهدين تغطي أرضها القطيفة الغالية والسجاد الثمين، ويحمي سقفها من اشعة الشمس الحرير والديباج. حسناوات البلاد كن قد تجتمعن في تلك الأروقة. فيما كان الفرسان الذين يزين رؤوسهم الريش يتقافزون على ظهور خيولهم ويتواثبون يحيط بهم أتباعهم.

بينهم، بالطبع، الأمراء في أبهى حللهم أولئك الذين كانوا سيتركون في المبارزات. مع ذلك، كسفت جمال أولئك الحسناوات كلهن، الأميرة الديغوندا، حين ظهرت في السرايق الملكي، تحط عليها للمرة الأولى نظرات العالم المقعم بالاعجاب. همهمات الاعجاب انتقلت في الحشد من صف إلى صف لجمالها السماوي الرائع، أما الأمراء المرشحون لطلب يدها، بدافع مما سمعوه فقط عن سحرها وفتونها، فقد شعروا في تلك اللحظة أنهم أكثر حماسة بعشر مرات للصراع من أجلها.

لكن الأميرة كانت مضطربة السيماء، لون وجنتيها يذهب ويجيء وعيناها تطوفان باحثتين بين جموع الفرسان ذوي الريش بكل تعابير القلق والاضطراب. حين أوشكت الأبواق أن تنفخ إيذاناً ببدء المبارزات، أعلن المنادي عن وصول فارس غريب. إثر ذلك ظهر أحمد على ظهر حصانه وهو يدخل الميدان - خوذة من حديد مرصعة بالجواهر ثبتت فوق عمامته ودرعه مكسو بصفائح الذهب، بينما كان سيفه وخنجره من صنع فاس يشعان بالاحجار الكريمة. من كتفه كان يتدلى

ترس دائري وفي يده كان يحمل الرمح المسحور، أما عدة حصانه فقد كانت مزخرفة باذخة، شراشيبيها تصل حتى الأرض، فيما كان الحصان الشديد الكبرياء يتواثب شاخراً ناخراً، مطلقاً صهيله العالي المفعم فرحاً وهو ينزل من جديد إلى ميدان القتال. سلوك الأمير الرفيع الرائع بهر كل عين وحين أعلن النادي اسمه «سائح الحب» ساد هرج ومرج بين الحضور ولا سيما السيدات الجميلات في الأروقة. مع ذلك حين طلب احمد إدراج اسمه في قائمة المتبارزين وجد أنها مقفلة في وجهه فلا أحد سوى الامراء مسموح له ان يدخل المباراة. حينذاك صرح باسمه ومرتبته فازداد الطين بلة - إنه مسلم ولا يمكن لمسلم الاشتراك في مباراة جائزة المنتصر فيها يد أميرة مسيحية.

في الحال أحاط الامراء المتنافسون به ناظرين اليه نظرات التعالي والتهديد، بل إن احد الامراء من ذوي السلوك المهين والاجسام الهرقلية راح يسخر من شبابه الغض وجسمه الناحل ويهزأ من لقبه ، لقب الحب .

تلك السخرية والهزاء أثارا حنق الأمير وفي الحال تحدى غريمه ان يبارزه، ابتعدا واحدهما عن الآخر المسافة الكافية، ثم انطلقا في الهجوم. لكن من اللمسة الأولى للرمح المسحور، تجندل الفارس المتكبر الساخر من فوق سرجه. هنا، كان بود الأمير ان يتوقف لكن وأسفاه ، فقد كان عليه ان يتعامل مع حصان شيطاني وسلاح مسحور، ما إن يبدأ الحركة والعمل حتى يصعب التحكم به ، لقد اندفع الحصان العربي في قلب الحشد، وبدأ الرمح يقلب كل من يلقاه في طريقه. وهكذا اختلط الحابل بالنابل في الميدان: الرعاع بالامراء، الفقراء بالاغنياء، والأمير يصول ويجول ملء قلبه الحزن على ما يجري بغير ارادته. رأى الملك ما حل برعاياه وضيوفه فثار في صدره الحنق والغيط وللتو أمر حراسه جميعاً بأن يخرجوا للميدان - لكنهم كانوا بغير خيول وقد جاؤوا بأسرع ما يستطيعون.

خلع الملك رداءه الملكي وأمسك بترس ورمح ثم امتطى حصاناً وانطلق الى الميدان عله يخيف الغريب بحضور جلالته نفسه لكن وأسفاه!! فالجلالة لا تفعل بافضل مما يفعل الرعاع، والحصان والرمح ما كانا ليهابا أحداً. فقد اندفع الحصان بأحمد، يملأ قلبه الخوف، باتجاه الملك مباشرة، وبلحظة واحدة كان الكعبان الملكيان ينقلبان في الهواء والتاج يتدحرج على التراب .

في تلك اللحظة، كانت الشمس قد بلغت سمت الظهيرة وكان الطلسم السحري قد استعاد قوته فانطلق الحصان العربي مندفعاً عبر السهل، قافزاً الحواجز، غائصاً في التاغوس، سابحاً في تياره الهادر، حاملاً الأمير وقد انقطعت انفاسه عجباً ودهشة الى الكهف. هناك استعاد وقفته بجانب الطاولة الحديدية، جامداً دون حراك. بسرور بالغ ترجل الأمير عن ظهره، معيداً العدة إلى مكانها، ملتزماً بالمقدور بانتظار ما يأتي. بعدئذ جلس في الكهف، وهو يفكر بالحالة البائسة التي اوصله إليها ذلك الحصان الشيطاني والعدة المسحورة. أبداً لا ينبغي عليه ان يريهم وجهه في طليطلة بعد ما أنزله بفرسانها من إهانة واثار في ملكها من حنق وغيط، والأكثر من ذلك ما تراها ستفكر الاميرة بما ارتكب من إساءة وصفاقة؟ جياشاً بالقلق والاضطراب، ارسل الأمير رسوليهِ الطائرين عليهما يأتيان له بالأخبار. في البداية مضى البيغاء الى الاماكن العامة وساحات المدينة المزدحمة بالناس وعاد إلى الأمير في الحال محملاً أحمالاً من الاشاعات والاقاويل. طليطلة كلها كانت في حيرة واندھاش. فالأميرة نقلت إلى القصر وقد غابت عن الوعي والاحتفال انتهى في حال من الفوضى والاضطراب، وكل من في المدينة يتحدث عن ذلك الظهور المفاجيء للفراس المسلم، أعماله الباهرة واختفائه الغريب. بعضهم كان يجزم انه ساحر عربي مغربي، آخرون كانوا يحسبونه شيطانا اتخذ هيئة بشر، في حين كان بعض ثالث يتحدث عن حكايات تحكى عن فرسان مسحورين يختبئون في كهوف الجبال ويظنون أن ذلك الفراس الذي ظهر فجأة وفعل ما فعل قد يكون واحداً منهم خرج لتوه من مخبئه، لكن الكل كانوا متفقين على أنه ما من كائن بشري عادي يمكن أن يفعل ما فعل ذلك الفراس من أعاجيب أو يلقي عن ظهور خيولهم ما ألقى من أمراء المسيحية وفرسانها الشجعان المحاربين.

لكن في الليل فقط مضى اليوم إلى المدينة محلقة فوق شوارعها وساحاتها الممتدة، متنقلاً من مدخنة إلى سطح، بعدئذ رفرف بجانبه متوجهاً إلى قصر الملك ذاك الذي كان ينتصب على ذروة طليطلة الصخرية. ثم تابع تجواله بين مصاطبه وأسواره، مختلساً السمع لكل نأمة وصوت مسترقاً النظر بعينيهِ الجاحظتين الكبيرتين عبر كل كوة فيها ضوء، دافعاً وصيفتي شرف أو ثلاثاً إلى نوبات جنون. مع الفجر فقط وقد بدأت الغزالة تذر قرنهما فوق الجبال، عاد اليوم من جولته ليروي للأمير ماسمع وشاهد.

«بينما كنت أتجول فوق واحد من أعلى أبراج القصر» قال البوم «رأيت عبر الشباك الأميرة الحسناء وهي تستلقي على أريكة وثيرة تحيط بها الحاشية والاطباء لكن دون ان تنتفع بشيء من رعايتهم وطبهم، وحين انسحبوا رأيتهما تخرج رسالة من عيها، تقرأها وتلثمها، ثم تبدأ النحيب والبكاء على نحو أثار فيّ، أنا الفيلسوف، كل التأثير والانفعال». تلك الاخبار جعلت قلب أحمد الرقيق ينفطر حزناً «صحيح كل الصحة كلامك يا بن ابي نابين الحكيم» صاح الأمير وكأنه يخاطب مربيه أمامه «الهم والغم. الأرق وسهر الليالي من نصيب المحبين والعشاق، فليحم الله الأميرة من بلاء ذاك الذي يدعى الحب».

مزيد من الأخبار جاء من طليطلة وكلها تؤكد تقرير البوم، فالمدينة كلها فريسة الاضطراب والقلق وقد نقلت الأميرة إلى أعلى برج في القصر، تقوم على حراسة الممرات المؤدية إليه أقوى المفازر العسكرية. بعدئذ بدأت نوبة من الاكتئاب تمسك بخناق الأميرة دون أن يستطيع أحد معرفة سببها. فقد رفضت أن تأكل أو تشرب كما أدارت الأذن الصماء لكل سلوى أو عزاء. أمهر الاطباء وأبرعهم مارسوا فنهم معها لكن عبثاً حتى بدأ الكل يعتقدون ان سحراً وقع على الأميرة، الأمر الذي جعل الملك يبعث بالمناادي معلناً ان من يشفي الأميرة له أغلى جوهرة في خزانة الملك. حين سمع البوم - وهو شبه غاف في زاوية من الزوايا، ذلك الإعلان قلب عينيه الكبيرتين المرة تلو المرة وبدأ أكثر غموضاً من أية مرة سابقة «الله أكبر» هتف البوم صائحاً «سعيد من يشفي الأميرة» «ماذا تعني. أيها البوم المحترم؟» قال أحمد.

«اسمع ما سأقول لك أيها الأمير. نحن معشر البوم - كما ينبغي ان تعلم. كائنات معرفة تعطي الكثير من نفسها للدرس والبحث. ولا أخفيك أنني أثناء تجوالي الأخير ليلاً فوق قباب طليطلة وأبراجها الصغيرة. اكتشفت مجموعة من طيور البوم العتيقة تعقد اجتماعها في برج مقبب عظيم وضعت فيه خزانة الملك. هناك كانت تناقش أشكال الجواهر وتصاميم الدرر القديمة وكذلك الأواني الذهبية والفضية المكدسة في الخزانة والنماذج المأخوذة من كل بلد وعصر.

لكن أشد اهتمامها كان منصباً على بعض الآثار واللقي التي بقيت في خزانة الملك منذ عهد رودريك القوطي. ومنها بالتحديد صندوق من خشب الصندل موثق بشرائط فولاذية من صنع شرقي وقد نقش عليه أحرف ورسوم غامضة لا يفك رموزها إلا القلة من العارفين.

هذا الصندوق، بما عليه من كتابات، شغل المجتمعين لجلسات عدة، وأثار الكثير من النزاع والجدال . في وقت زيارتي تلك، كان يوم طاعن في السن، وصل لتوه من مصر، يجثم على غطاء الصندوق متفحصاً النقوش عليه مبرهنًا من تلك الكتابات على أن الصندوق يحوي سجادة الحرير التي كانت تفرش على عرش سليمان الحكيم والتي جاء بها إلى طليطلة ولا شك اليهود الذين لجؤوا إلى هناك بعد سقوط القدس».

حين اختتم اليوم خطابه الأثري، ظل الأمير هنيهة من الزمن مستغرقاً في التفكير. بعدئذ قال « قد سمعت من الحكيم ابن ابي نابين عن الخصائص العجيبة لتلك السجادة السحرية التي اختفت بسقوط القدس وكان يظن أن البشرية قد أضاعتها. إنها ولا شك ما تزال لغزاً غامضاً بالنسبة إلى مسيحيي طليطلة وإذا ما استطعت الحصول على تلك السجادة، ضمنت حظي إلى الأبد».

في اليوم التالي، خلع الأمير ملابسه الفاخرة مرتدياً بدلاً من ذلك ثوباً بسيطاً من ذاك الذي يلبسه عرب الصحراء. كما صبغ بشرته حتى صارت سمراء داكنة ولم يعد باستطاعة أحد أن يتعرف فيه إلى ذلك المحارب الرائع الذي أثار كل ذلك الإعجاب والهلل في ساحة البراز . بعدئذ حمل عصا بيده وجعبة إلى جانبه وقصبة راع صغيرة ثم مضى إلى طليطلة فبوابة قصر الملك مقدماً نفسه كمرشح لنيل المكافأة التي عرضها الملك على من يشفي الأميرة. لكن الحراس هموا بطرده بعيداً ساخرين منه قائلين: «وماذا باستطاعة عربي شريد مثلك ان يفعل في الوقت الذي عجز فيه أكثر الناس علماً ومعرفة في هذه البلاد عن فعل شيء؟» غير أن الملك سمع الجليلة والأصوات فأمر بإحضار العربي إليه - «أيها الملك البالغ القوة» قال أحمد «انك ترى أمامك أعرابياً من البادية قضى الشطر الأعظم من حياته في قفار الصحراء. تلك القفار التي هي، كما هو معروف، مساكن للشياطين والأبالسة التي تحاصرنا نحن الرعاة البسطاء حتى في وحدتنا وعزلتنا، فتدخل في قطعاننا ومواشينا، وفي بعض الأحيان تجعل حتى الجمل الصبور الكثير التحمل يهيج ويثور. الموسيقى، أيها الملك، هي علاجنا لهذه الحالات وهي السحر المضاد الذي نستخدمه، كما أن لدينا ألحاناً خرافية تناقلناها جيلاً بعد جيل - نعرزها فنسحر بها تلك الأبالسة والشياطين. إنني من سلالة موهوبة، باستطاعتها استخدام ذلك السحر بأشد قواه. وإذا كانت ابنتك واقعة تحت أي نوع من أنواع ذلك السحر، فإنني أعاهدك، مقابل رأسي، أن أحررها منه».

نبرة الأمير الواثق من نفسه دغدغت بالأمل قلب الملك، هو الذي كان يفهم جيداً ويعرف تماماً ما يملكه العرب من اسرار عجيبة، فأخذه للتو إلى البرج العالي الذي تفصله عن كل ما حوله أبواب عدة، وفي اعلاه تقع حجرة الأميرة. كانت النوافذ تنفتح على مصطبة مزودة بدرابزين تشرف على طليطلة وعلى كل ما يحيط بها من بلاد لكنها كلها كانت محجوبة بالستائر، لأن الأميرة التي كانت مستلقية في الداخل، كانت فريسة لاكتئاب شديد وكانت ترفض كل شيء عدا الصمت والظلام، جلس الأمير على المصطبة وراح يعزف على قصبته الرعوية ألحانه العربية الغريبة، التي تعلمها من أتباعه في قصر «جنة الريف» في غرناطة. غير أن الأميرة ظلت ساهمة كئيبة لا تحس به ولا بألحانه، فهز الأطباء الذين جيء بهم إليها رؤوسهم ثم ابتسموا بسخرية واستهزاء. أخيراً ألقى الأمير بالقصبة جانبا، وبنغمة هادئة بسيطة، راح ينشد أبيات الحب نفسها تلك التي كانت تتضمنها رسالته وتصرح عن حبه لها. في الحال ميزت الأميرة النغمة — وفي الحال تسرب فرح غامر إلى قلبها فرفعت رأسها مصيخة السمع، فيما اغرورقت عيناها بالدموع ثم راحت تنهمر على خديها، صدرها راح يعلو ويهبط بدفق من العواطف ثم همت بالسؤال عن ذلك الشاعر المغني وإحضاره إليها لولا حياء العذارى الذي حال بينها وبين الكلام.

من عينيها عرف الملك ما ترغب فيه، وبناء على أوامره جيء بأحمد إلى حجرة الأميرة، لكن العاشقين كانا حذرين، فلم يتبادلا إلا نظرات سريعة. لكنها كانت تنطق بما لا تنطق به كتب مجلدة. أجل، لم تحقق الموسيقى نصراً أكثر كمالاً من ذلك النصر قط، فقد عاد لون الورد إلى وجنتي الأميرة الغضتين، كما عادت الطراوة إلى شفتيها الذابلتين، ولمعان البريق إلى عينيها الداويتين.

تبادل الأطباء الحاضرون النظرات وكلهم حيرة ودهشة فيما راح الملك يقلب نظر الإعجاب والإكبار في ذلك الشاعر العربي وقد خالط إعجابه شيء من خوف. بعدئذ هتف: «شاب عجيب!! لسوف تكون منذ اليوم طبيب البلاط الأول ولن آخذ بعد اليوم وصفة أخرى غير ألحانك، أما الآن فهاك مكافأتك: أغلى جوهرة في خزينتي».

لكن أحمد اجاب «أيها الملك، أنا لست معنياً بالفضة أو الذهب، بالآلىء أو الاحجار الكريمة. فقط، ثمة أثر قديم في خزينتك انتقل اليكم من المسلمين الذين

كانوا يملكون طليطلة ذات يوم. إنه صندوق من خشب الصندل فيه سجادة حريرية. هبني ذلك الصندوق أكن راضياً».

دهش الحضور كلهم وقد فاجأهم تواضع طلب العربي، ثم دهشوا، أكثر حين جيء بالصندوق المصنوع من خشب الصندل وأخرجت السجادة منه، فقد كانت مصنوعة من الحرير الناعم الأخضر وعليها كتابات بأحرف عربية وكلدانية. نظر اطباء البلاد بعضهم إلى البعض الآخر، هازين أكتافهم ضاحكين من بساطة ذلك الطبيب الجديد الذي يمكن أن ترضيه مكافأة تافهة كهذه.

«هذه السجادة» قال الأمير «كانت ذات يوم تفرش على عرش سليمان الحكيم، وحري بها الآن أن تفرش تحت قدمي آية الجمال».

قال الأمير ذلك ثم مدها على المصطبة تحت الديوان الذي جيء به للأميرة. بعدئذ جلس هو نفسه عند قدميها قائلاً:

«من تراه يعارض ما هو مدون في كتاب القدر؟ انظروا، ها هي نبوءة المنجمين تتحقق. اعلم، أيها الملك، أنني أنا وابنتك عاشقان متمان، احب واحدنا الآخر سراً... انظر إلي، انا سائح الحب».

وما ان نطق بتلك الكلمات حتى بدأت السجادة بالارتفاع في الجو، حاملة فوقها الأمير والأميرة، فيما راح الملك والأطباء يلاحقونهما بأنظارهم فاغري الأفواه جاحظي العيون إلى أن أصبحت مجرد نقطة على صدر سحابة بيضاء ثم غابت في قبة السماء الزرقاء.

ساخطاً ثائراً، دعا الملك خازنه إليه صارخاً به «كيف يحدث وتجعل كافراً يستحوذ على تعويذة كهذه؟».

«وأسفاه يا سيدي. ! ! فما من احد كان يعلم شيئاً عنها او كان باستطاعته فك الرموز والطلاسم المنقوشة على الصندوق. ان كانت حقاً هي سجادة عرش سليمان الحكيم، فإنها واقعة تحت قوة السحر، وبقوة السحر تلك يمكنها ان تنقل صاحبها إلى كل مكان في العالم، بساط ريح».

في الحال جمع الملك جيشاً كبيراً وانطلق إلى غرناطة في إثر الهاربين، لكن مسيرته كانت طويلة مضية، وحين نصب مخيمه في سهل الفيغا أرسل رسولا يطالب بإعادة ابنته، فجاء ملك غرناطة مع حاشيته كلها للقاءه، وكان الملك هو

ذلك الشاعر المغني، إذ كان احمد قد خلف أباه على العرش بعد أن مات وكانت أديغوندا الحسناء قد أصبحت السلطانة. بيسر وسهولة هدأت ثائرة الملك المسيحي حين وجد أن ابنته ما زالت قائمة على دينها لا لأنه كان متعصباً لدينه بل لأن الدين كان رمزاً للكبرياء وشعاراً للأمراء. وهكذا، بدلاً من المعارك الدامية، أقيمت سلسلة من المآدب والأفراح، عاد الملك اثرها سيداً مبتهجاً إلى طليطلة، فيما ظل الشبان يحكمان غرناطة مظللين بالسعادة والحكمة.

هنا، من المناسب أن نضيف أن اليوم والبيغاء، تبعاً الأمير على مراحل إلى غرناطة، الأول يطير ليلاً ويستريح نهاراً ليتوقف في ممتلكات عائلته الموروثة والثاني يطير نهاراً ويبيت ليلاً محلقةً فوق كل مدينة وبلدة صانعاً دوائر للفرح ودوائر.

بكل امتنان وعرفان بالجميل رد احمد الخدمات التي كانا قد قدمناها له في سياحته فعين اليوم رئيساً لوزرائه وعين البيغاء رئيساً لمراسمه، وغني عن القول انه لم تكن هناك دولة، إدارتها أكثر حكمة ولا بلاط، مراسمه أكثر دقة من تلك الدولة والبلاط.



تجوال بين التلال

كنت قد اعتدت أن أسلي نفسي مع غروب كل شمس، حينما تكون الحرارة قد خفت، بالقيام بتجوال طويل بين التلال المجاورة والوديان الظليلة العميقة يصحبني مرافقي المؤرخ العظيم ماتيو الذي كنت أعطي حبه للثرثرة في مناسبات كهذه إذناً بلا حدود. لهذا، نادراً . ما كانت صخرة أو أثر أو بركة مهدمة أو واد صغير منعزل إلا ولديه عنه أو عنها قصة عجيبة يرويها ، بل والأكثر من ذلك أنها غالباً ما تكون قصة خرافية فيها ذهب وكنوز ، ذلك أنه ما من شيطان مسكين كان بسخاء شياطينه وتبديدهم للكنوز الخفية.

في إحدى تلك النزعات، كان ماتيو أكثر ثرثرة وهذراً مما هو عادة. وكانت الشمس تغيب خلف الأفق حين انطلقنا من بوابة العدل الكبيرة صاعدين ممراً تحفه الأشجار من كلا جانبيه إلى ان وصلنا الى اجمة من أشجار تين ورمان عند اسفل البرج المدعو «برج الطوابق السبعة» . إنه البرج نفسه الذي يقال إن أبا عبد الله الصغير انطلق منه حين سلم عاصمته». هنا أشار ماتيو الى ممر ذي قناطر منخفض القاعدة، ثم شرع يحدثني عن روح أوجني شرير يقال إنه يسكن هذا

البرج منذ أيام العرب، حارساً كنوز ملك المسلمين. كما يقال إنه يخرج أحياناً في عز الليل متجولاً في شوارع الحمراء طائفاً شوارع غرناطة بهيئة حصان بلا رأس تلحق به ستة كلاب بنباح وعواء مرعبين .

«لكن هل صدف وقابلته بنفسك ، ماتيو، في أية جولة من جولاتك؟» «لا يا سيدي، والحمد لله، لكن جدي الخياط كان يعرف عدة أشخاص شاهدوه. إذ كان ذلك يحدث أكثر بكثير مما يحدث هذه الأيام ، مرة بهذه الهيئة ومرة بهيئة أخرى، الناس جميعاً في غرناطة سمعوا ببيلودو، فالعجائز ومربيات الأطفال يخفن به أطفالهن عندما يبكون .البعض يقول انه روح ملك عربي قاس قتل ستة من أبنائه ودفنهم في هذه الأقبية وإنهم يطاردونه في الليل انتقاماً منه. إنني أمتنع عن الوقوف على التفاصيل العجيبة التي ذكرها ماتيو الساذج البسيط عن ذلك الشبح المريب الذي كانت ، بالحقيقة، ولفترة من الزمن الموضوع المفضل الذي تدور حوله حكايات العجائز، والقصص المتوارثة في غرناطة، والذي ذكره كثيراً وعلى نحو محترم، مؤرخ قديم واسع الاطلاع ودارس لطبوغرافية ذلك المكان.

بعد أن غادرنا ذلك الصرح المليء بالأحداث ، تابعنا سيرنا بحذاء البساتين المثمرة لقصر جنة الريف حيث كان عندليبان أو ثلاثة عنادل تطلق أغاريدها بأعذب الألحان. خلف تلك البساتين، مررنا بعدد من خزانات المياه التي تعود لأيام العرب وقد فتحت أبوابها في قلب التل الصخري لكنها الآن مغلقة. تلك الخزانات كما أخبرني ماتيو ، كانت الأماكن المفضلة للاستحمام لديه هو ورفاق صباه ، إلى أن اخافتهم قصة العربي المسحور الذي ينطلق عادة من الباب الصخري ليشبك في شراكه المستحمين الغافلين.

بعد تلك الخزانات المسكونة، تابعنا تجوالنا صاعدين ممراً منعزلاً لا تطرقه الا البغال يلتف ويتعرج حول التلال وسرعان ما وجدنا أنفسنا وسط جبال مقفرة تبعث على الاكتئاب . جرداء بلا أشجار وان كانت تتناثر فيها هنا وهناك بقع ملونة بالخضرة.

كل شيء ضمن مدى البصر كان يتسم بالقسوة والقحط. ونادراً ما كان بإمكان المرء أن يفكر أنه، وعلى مسافة قصيرة خلفنا، كان قصر جنة الريف ينتصب شامخاً ببساتينه الزاهرة وحدائقه المنظمة مصاطب مصاطب. أو يمكنه ان يفكر انه ما يزال بجوار غرناطة البهيجة، مدينة الرياض والينابيع. لكن هكذا

هي الطبيعة في اسبانيا، برية وموحشة ، ما إن تبتعد عنها يد الانسان، صحارى وجنان جنباً إلى جنب.

الممر الذي كنا نصعده يدعى ، طبقاً لما قاله ماتيو، برانكودي لا تيناجا أو وادي الجرة ، ذلك أن جرة ملأى بالذهب العربي وجدت هنا في العصور القديمة، فذهن ماتيو المسكين لم يكن يشغله سوى حكايات الذهب تلك.

«لكن ما معنى الصليب الذي أراه هناك على كومة الحجارة تلك في ذلك الجزء الضيق من الوادي؟».

«اوه، لا شيء . احد المكاريين قتل هناك قبل بضع سنوات».

«إذن ، ماتيو، لديكم قطاع طرق ولصوص يصلون حتى بوابات الحمراء؟».

«ليس الآن يا سيدي، بل في السابق، حين كان يوجد عادة، الكثير من الخارجيين على القانون حول القلعة، لكنهم جميعاً أخرجوا. أما الآن فليس هناك سوى الغجر الذين يعيشون في الكهوف المنتشرة في سفوح التلال، تماماً خارج القلعة وكثيرون منهم قادرون ان يفعلوا أي شيء ، لكن حادث قتل واحد لم يحدث هنا منذ زمن طويل، والرجل الذي قتل المكاري اعدم شنقاً في القلعة نفسها» .

كان ممرنا يسير مع الوادي الضيق صعوداً، إلى اليسار ترتفع كتلة صخرية هائلة غير ملساء تدعى «سلاديل مورو» أو «كرسي المغربي» مأخوذة من القصة المتوارثة التي اشرنا اليها سابقاً والقائلة إن أبا عبد الله البائس الحظ قد فر إلى هنا أثناء تمرد قام به الشعب وظل طوال نهاره جالساً على القنة الصخرية ينظر بحزن وانكسار إلى مدينته وهي تضج شغباً.

أخيراً : بلغنا أعلى النتوء الصخري المطل على غرناطة والذي يدعى جبل الشمس. كان المساء يقترب، وكانت الشمس الغاربة تكسو أعلى الذرى بأشعتها الذهبية، كما كان باستطاعتك ان ترى هنا وهناك راعياً وحيداً يسوق قطيعه وهو ينحدر السفح كي يقضي الليل في الاسفل أو مكاريأ يسوق بغاله المحملة وهي تسير رتلاً احادياً على هذا الممر او ذاك عليها تصل بوابات المدينة قبل حلول الظلام.

في تلك اللحظة وصلت مسامعنا الأنغام العميقة لجرس الكاتدرائية وهي تعبر الوهاد والوديان معلنة ساعة «الصلاة» لتردد تلك الانغام أجراس الكنائس كلها بل واجراس الأديرة المنتشرة بين الجبال. عند ثنية التلة توقف الراعي والمكاري وسط الطريق، رافعاً كل منهما قبعته، ساكناً بلا حراك حيناً من الزمن متمتماً صلاته المسائية. فهناك دائماً شيء رصين وسار في هذه العادة التي يتحد فيها الناس جميعاً ، حيثما يكونون وفي اللحظة نفسها، لتقديم صلواتهم للرب ورفع شكرهم وامتنانهم على ما قدم لهم من نعم في ذلك النهار.

إنها تنشر نوعاً من البركة والقدسية فوق تلك الأرض كما أن منظر الشمس وهي تغوص خلف الأفق بكل مهابتها وجلالها، يزيد كثيراً من رصانة المشهد وتأثيره كما زاد من تأثير ذلك المشهد، ونحن نتأمله، وحشة المكان والوحدة والصمت . لقد كنا على الذروة الجرداء المهشمة لجبل الشمس المسكون، حيث بقايا الصهاريج والخزانات وحيث القواعد الصخرية الهائلة التي كانت تقوم عليها ابنية كبيرة تتحدث كلها عن ازدهارها بالسكان في الماضي إنما غدت اليوم كلها صامئة مهجورة. وصلنا ، ونحن نتجول بين آثار الماضي القديمة تلك، الى فتحة دائرية تتغلغل عميقاً في قلب الجبل فقال ماتيو إنها واحدة من اعاجيب ذلك المكان واسراره، حسبتها في البدء بثراً حفرها العرب الذين لم يكونوا يعرفون الكلل كي يحصلوا على عنصرهم المفضل، الماء، بأعذب اشكاله. لكن كان لدى ماتيو قصة مغامرة، قصة ثلاثم مزاجه اكثر بكثير، إذ طبقاً لقصاص التراث الذي كان جده وأبوه يؤمنان به كل الإيمان، كانت هذه الفتحة الدائرية مدخلاً إلى مغارة الجبل الواقعة تحت الأرض، حيث مايزال أبو عبد الله ورجال بلاطه هناك مسحورين جامدين، لكن من حين إلى آخر يقف عنهم السحر فينطلقون ليلاً وفي أوقات معينة ليزوروا مساكنهم القديمة من جديد.

«آه يا سيدي، هذا الجبل مليء بالاعاجيب من كل صنف ولون، ففي مكان آخر، ثمة فتحة تشبه هذه ايضاً ، لكن عند مدخلها تماماً يتدلى إناء حديدي السلسلة، ولا أحد يعلم ماذا في ذلك الإناء فقد ظل دائماً وغطاؤه عليه، لكن الكل كانوا يظنون أنه ملآن بذهب المغاربة العرب ، وكثير من الناس حاولوا ان يسحبوه خارجاً ، إذ أنه كان يبدو وكأنه في متناول اليد ، لكن ما إن يلمس حتى يغوص بعيداً بعيداً في الاسفل ولا يظهر مرة ثانية إلا بعد حين من الزمان.

أخيراً ، مد احدىهم ممن كان يعتقد أنه مسحور ، ولا شك ، الصليب إليه ملامساً إياه على يـفك عنه السحر ، فغاب الإناء عن النظر ولم يره أحد بعد ذلك قط.

تلك هي حقيقة يا سيدي ، فقد كان جدي شاهد عيان . «ماذا يا ماتيو ؟ هل شاهد جدك الإناء؟» «لا يا سيدي ، بل شاهد الفتحة التي كان الإناء معلقاً فيها» . «إنه الشيء ذاته . ماتيو» .

حينذاك كانت عتمة الغسق تشتد شيئاً فشيئاً ، والغسق في تلك الاقاليم يكون قصيراً عادة.. دافعاً بنا لمغادرة تلك الأرض المسكونة ، لكن ، ونحن نهبط سفح الجبل ، لم يكن قد ظل هناك راع نراه ولا مكارى يسوق بغاله او شيء يُسمع صوته سوى وقع خطانا وأصوات أجنادب الوحيدة . كانت ظلال الوادي تغدو أكثف وأقتم ، إلى أن سيطر الظلام على كل ما حولنا ، وحدها ذروة سيرانيفادا العالية كانت ما تزال تحتفظ بالأثر الباقي لضوء النهار . فقمتهـا المغطاة بالثلج كانت تشع ألقاً على ما وراءها من سماء زرقاء مكمدة فتبدو لشدة نقاء الجو وكأنها في تناول أيدينا .

«كم تبدو ألسيرا قريبة هذا المساء » ! قال ماتيو « لكأن باستطاعتك ان تلمسها بيدك ، مع أنها تبعد فـراسخ كثيرة عنك » .

وهو يتكلم ، كانت نجمة قد بدأت بالظهور فوق قمة الجبل المغطاة بالثلج ، وكانت النجمة الوحيدة التي يمكن رؤيتها في السماء ، جميلة ، كبيرة ، نقية ، وضاءة إلى درجة جعلت ماتيو البسيط يعبر عن بهجته وغبطته .

« أية نجمة ساحرة !! كم هي واضحة لألاءة !! - ما من نجمة يمكنها أن تكون أكثر تألقاً !! » .

والحقيقة غالباً ما كنت ألحظ هذه الحساسية المفرطة لدى عامة الاسبان تجاه سحر الطبيعة واشيائها ، فتألق نجمة ، جمال زهرة ، عبير وردة ، صفاء نبع وعذوبته الرقراقة ، كل ذلك يوحى لهم بنوع من المتعة الشاعرية ، بعدئذ أي دفع من الكلمات السعيدة يمكن أن توفر لهم لغتهم كي يعبروا عما في نفوسهم من غبطة !

«لكن، ماتيو، ما تلك الاضواء التي أراها مشعشة على طول السيرانيفاذا تماماً تحت منطقة الثلوج، والتي تبدو وكأنها نجوم لولا انها أميل للاحمرار وفي السفح المظلم من الجبل؟»

«تلك نيران يا سيدي يشعلها الرجال الذين يجمعون الثلج والجليد لتمويل غرناطة بحاجتها منهما. إنهم يصعدون عصر كل يوم ببغالهم وحميرهم وبالتناوب، بعضهم يستريح ويتدفأ بجانب النار والبعض الآخر يعملون مائتين سلالهم بالجليد. بعدئذ يهبطون الجبل الى ان يصلوا الى بوابات غرناطة قبل ان تشرق الشمس. تلك هي السيرانيفاذا، يا سيدي، كتلة من الجليد وسط الاندلس كي تحافظ على برودتها في الصيف.»

في تلك اللحظة، كان الظلام قد خيم، وكنا نجتاز البرانكو تماماً حيث ينتصب صليب المكاري القليل، حينذاك، رأيت عدداً من الأضواء تتحرك على مسافة منا، بادية وكأنها تصعد الوادي باتجاهنا ثم ما إن اقتربت قليلاً حتى تأكدنا أنها مشاعل يحملها رتل من الاشخاص المسرلين بالسواد: انه موكب ربما كان يحمل الرعب في كل حين، لكنه كان مرعباً على نحو خاص في تلك اللحظة من الزمان وذلك المكان. الموحش المنعزل في البرية.

دنا ماتيو مني ثم أخبرني بصوت منخفض ان ذلك الموكب هو جنازة حيث يحملونه إلى المقبرة الواقعة بين التلال. حين مر بنا الموكب، كانت أضواء المشاعل المتراقصة، وهي تسقط على الوجوه المقلوبة، وملابس الجنازة السوداء التي يلبسها حاملو المشاعل، ذات تأثير خيالي عجيب مخيف تماماً، وهي تكشف ملامح الجثة المحمولة طبقاً لعادة الاسبان، على لوح مكشوف لا يغطيها شيء. هنيئة من الزمن ظللت أحملق بالركب المخيف وهو يلتف صاعداً سفح الجبل المعتم، معيدا إلى ذهني القصة القديمة لموكب الشياطين وهو يحمل جثمان الخاطيء صاعداً به الى قوهة بركان «سترمبولي». «آه يا سيدي !!» صاح ماتيو: «يمكنني ان أحكي لك قصة موكب شاهده الناس ذات مرة بين هذه الجبال، لكن لعلك حينذاك ستضحك مني وتقول إنها واحدة من مخلفات جدي الخياط».

«لا، أبداً، ماتيو، فما من شيء، يسرني أكثر من قصص العجائب».

«حسنًا يا سيدي إنها تدور حول واحد من اولئك الرجال الذين كنا نتحدث عنهم ممن يجمعون الثلج من قمة السيرانيفاذا إذ عليك ان تعلم انه قبل سنوات كثيرة، أي في عهد جدي، كان هنالك رجل عجوز يدعى «العم نيقولا» ملأ سلال بغله

بالثلج والجليد وعاد يهبط الجبل، ولأنه كان شديد النعاس ، فقد ركب متن البغل وسرعان ما غفا هناك ، يتمايل رأسه ذات اليمين وذات الشمال، للأعلى وللأسفل، تبعاً لوقع حوافر بغله الهرم الواثق الخطأ على طول الممر المنحدر بمحاذاة الجروف والمهاوي والوديان، لكن دون ان يشعر بما يهدد أمنه وسلامته وكأنه يسير في أحد السهول. أخيراً، أفاق العم نيقولا، ثم فرك عينيه وهو ينظر حوله - وللحقيقة، فقد كان رجلاً ذا عقل ومنطق.

كان البدر ساطعاً وكان كل شيء حوله كأنه نهار، فرأى المدينة تحته تماماً، منبسطة كراحة اليد، متألقة بمبانيها البيضاء كصفحة من فضة تحت ضوء القمر لكن يا لله! فهي لا تشبه في شيء ، يا سيدي ، المدينة التي كان قد غادرها قبل بضع ساعات اذ بدلاً من الكائدرائية بقبعتها الكبيرة وأبراجها الصغيرة، وبدلاً من الكنائس بمسلاتها والأديرة بصواعدها المثلثية، تعلوها جميعاً الصلبان المباركة. شاهد العم نيقولا مساجد عربية بمآذنها وقبابها وقد علاها جميعاً الهلال، تماماً كذاك الذي تراه على أعلام المغرب، حسن! يا سيدي، لقد أصيب العم نيقولا كما يمكنك أن تفترض بدهشة شديدة من هذا كله ، لكنه راح يحملق بالمدينة. في الوقت ذاته كان ثمة جيش عرمرم يسير صاعداً الجبل ملتفاً مع الوديان ، يظهر أحياناً في ضوء القمر ويختفي أحياناً في الظلال. مع دنوه . رأى العم نيقولا أن هناك خيالة ومشاة وكلهم بملابس حرب عربية. حاول الرجل ان يخلي الطريق لهم، إلا أن بغله الهرم وقف جامداً كالتمثال رافضاً الحراك، مرتعشاً في الوقت نفسه كورقة في مهب ريح - فالبيهاثم العجماء، يا سيدي ، يصيبها الهلع ايضاً مثلها مثل الكائنات البشرية. حسن يا سيدي، مرّ به جيش الاشباح ذاك وهو واقف دون حراك، وكان في الجيش رجال بدوا وكأنهم ينفخون ابواقاً وآخرون يقرعون طبولاً أو يدقون صنوجاً . مع ذلك، لم يكن باستطاعة العم نيقولا أن يسمع صوتاً واحداً، فالكل يسير دون أدنى صوت، تماماً كما نشاهد تلك الجيوش المرسومة وهي تتحرك على خشبة المسرح في مسرح غرناطة وعلى وجوه الجميع شحوب الموتى. أخيراً وفي مؤخرة الجيش، بين فارسين عربيين اسمرين، كان يركب مفتش غرناطة الأكبر، على بغل أبيض كالثلج. عجب العم نيقولا من رؤية ذلك المفتش بصحبة أولئك الفرسان العرب، فالمفتش مشهور بكراهيته للعرب، أو بالأحرى لكل من ليس مسيحياً، يهودياً كان أم هرطوقياً. وكان عادة يتصيدهم تصيداً ليرسلهم للسيات والنار. مع ذلك ، احس العم نيقولا بالأمان وهو يرى بقربه كاهناً على تلك الدرجة من الإيمان والقدسية، وللتو سأله ان يمنحه البركة! هم

المفتش برسم علامة الصليب. حين ذاك، ويا للهول ! جاءت العم نيقولا ضربة قلبته عن ظهر بغله الهرم الى حافة المنحدر راح إثرها ينقلب رأساً على عقب وبطناً الى ظهر الى ان وصل إلى القاع ثم لم يستعد وعيه إلا بعد وقت طويل من شروق الشمس. حينذاك وجد نفسه في أسفل واد عميق، بغله يرعى بجانبه والثلج في سلاله قد ذاب تماماً. بعدئذ زحف العم نيقولا إلى أن وصل إلى بغله، امتطى ظهره وعاد الى غرناطة، وكله كدمات زرقاء، خموش وجروح، لكن كان في غاية السرور إذ وجد مدينته نفسها بكنائسها المسيحية وصلبانها. حين روى قصة مغامرته تلك الليلة، ضحك الكل منه. بعضهم قال إنها كلها مجرد حلم حلم به وهو يغفو على ظهر بغله، آخرون ظنوا أنها قصة مخترعة من ألفها إلى يائها - لكن ما كان غريباً يا سيدي وما جعل الناس بعدئذ يفكرون بالمسألة على نحو أكثر جدية هو ان المفتش الأكبر مات خلال تلك السنة، وغالباً ما كنت اسمع جدي الخياط يقول إن المقصود اكثر من أي شيء آخر هو ان جيش الاشباح ذاك كان يحمل معه شبيه الكاهن اكثر مما كان اناس يجروون ان يظنوا».

«إذن، انت تلمح، يا صديقي ماتيو، إلى أن هناك نوعاً من المطهر للعرب في أحشاء تلك الجبال، مطهر حملت إليه الاشباح المفتش. «لا سمح الله يا سيدي، انا لا أعرف شيئاً عن القضية، بل أروي فقط ما سمعت من جدي».

بانتها ماتيو من حكايته التي رويتها بأكبر قدر من الإيجاز والتي تخللها كثير من التعليقات وتسرب منها الكثير من التفاصيل الدقيقة، وصلنا إلى بوابة الحمراء.

غير أن القصص العجيبة الغريبة التي لمح اليها ماتيو، في الشطر الأول من تجوالنا والتي تدور حول برج الطوابق السبعة، جعلتني، كالعادة أباشر ابحاثي حول الجن والعفاريت، فاكتشفت أن الشبح المريب، شبح بيللودو، كان طوال فترة من الزمن، الموضوع المفضل في قصص الأطفال وحكايا العجائز في غرناطة وانه ذكره، بكثير من الاحترام، مؤرخ وطبوغرافي قديم عاش هنا. بعدئذ قمت بجمع وتركيب فتات تلك القصص وبقاياها المتناثرة بكثير من الجهد ثم حبكتها معاً فاتخذت شكل القصة التالية التي ربما لا تحتاج إلا لعدد من الحواشي و الاشارات المرجعية في الاسفل كي تصنف بين تلك النتاجات المحسوسة التي قدمت للعالم، وبكل رصانة، على أنها حقائق تاريخية.

قصة ميراث عربي

داخل قلعة الحمراء وأمام القصر الملكي تماماً ، ثمة فناء واسع مفتوح يدعى فناء الصهاريج أو ساحة الجباب وقد دعي كذلك لأنه مليء بخزانات مياه لا تراها العين، موجودة من عهد العرب. في ركن من اركان تلك الساحة هناك بئر عربية حفرت في قلب الصحراء إلى عمق كبير مأوها صاف كالبللور وبارد كالثلج، ومن الجدير بالذكر أن الآبار التي حفرها العرب هي دائماً ذات شهرة، فمن المعروف جيداً كم من الآلام عانى أولئك الناس كي يصلوا إلى أعذب الينابيع وأنقى المياه، اما البئر التي نتكلم عنها الآن فإنها مشهورة في غرناطة كلها إلى درجة ان السقائين كلهم يردونها، بعضهم يحمل جرار ماء كبيرة على اكتفاهم وآخرون يسوقون حميرهم أمامهم وقد حملوها بالجرار الفخارية، صاعدين هابطين شوارع الحمراء الشديدة الميل والمحفوفة بالأشجار بدءاً من طلوع الفجر وحتى ساعة متأخرة من الليل.

منذ العصور القديمة لاحظ المراقبون أن منابع المياه وآبارها هي أماكن لتناقل الاشاعات والقييل والقال في الأقاليم الحارة، وعند البئر المذكورة هذه ثمّة نوع من النادي الدائم الذي تنعقد اجتماعاته طوال النهار ضامة فيمن تضم العاجزين من الرجال، عجائز النساء وكل من هب ودب من سكان القلعة ممن لا عمل لهم ومن فضوليين يجلسون هناك على مقاعد الحجارة تحت المظلة الممتدة فوق البئر كي تقي المجتمعين أشعة الشمس وهم يضيعون وقتهم في القيل والقال وتناقل شائعات القلعة وأخبارها، سائلين كل سقاء يرد الماء عن أخبار المدينة، معلقين على كل ما يسمعون ويرون. وهكذا، في كل ساعة من ساعات النهار يمكنك أن ترى هناك ربّات البيوت المتسكعات والخادّات المتعطّلات عن العمل، يمشين متمهلات، في يد واحدتهن أو على رأسها إبريق، تستمع لآخر ما هناك من اشاعات وأقاويل. بين السقائين الذين لجؤوا ذات يوم لتلك البئر، كان هناك سقاء صلب قوي الظهر قصير الساقين يدعى بيدرو جيل، واختصاراً يدعى بيرجيل. ولكونه سقاء، فقد كان «غاليغو» أو من أهل غاليسيا بالطبع، فالطبيعة وعلى ما يبدو تصوغ أعراق الناس مثلما تصوغ أعراق الحيوان، لأنواع مختلفة من الكد والجهد. ففي فرنسا، ماسحو الاحذية كلهم من سافوا والحمالون في الفنادق كلهم سويسريون، وفي انكلترا أيام الاطواق الموسعة للتنانير ومسحوق الشعر، ما من رجل، كان باستطاعته ان يوفر التّأرجح النظامي لمحفة غير الإيرلنديين خواصي - المستنقعات. وهكذا، في إسبانيا، السقاؤون والعتالون كلهم من أبناء غاليسيا الصليبين - صغار الحجم. فلا أحد يقول «هات لي حمالاً بل ناد لي غاليغو»! ولكي لا نستطرد كثيراً نقول أن بيرجيل الغاليسي بدأ شغله بجرة فخار كبيرة واحدة كان يحملها على كتفه، ثم ارتفع شأنه شيئاً فشيئاً حتى أصبح بإمكانه أن يستأجر مساعداً له من صنف البهائم، فكان حماراً قوياً أشعث الشعر. على كلا جانبي ذلك المساعد ذي الأذنين الطويلتين وفي نوع من السلال، كانت تتدلى جرتان للماء مغطتان بأوراق التين كي تحميها من الشمس، ولم يكن في غرناطة كلها سقاء أكثر نشاطاً ودأباً ولا أكثر مرحاً أيضاً من ذلك السقاء إذ كانت الشوارع تردد صدى صوته المبتهج وهو يكد خلف حماره، مطلقاً نغمة الصيف المألوفة التي ترددها المدن الأسبانية كلها: «كوايان كيرأغوا أغوا مازفرياكولانيغ؟» من يريد ماء؟ - ماء أبرد من الثلج - من يريد ماء من بئر الحمراء، ماء بارد كالجليد، صاف كالبللور؟ ... وحين يقدم كأساً مشعشة لأحد زبائنه، فإنه يقدمها دائماً مع

كلمة سارة تجعله يبتسم، وإذا كان ذلك الزبون سيدة جميلة أو فتاة حلوة فإنها تكون دائماً مداعبة ضاحكة وإطراء ذكياً لجمالها الذي لا يقاوم. وهكذا، اشتهر بيرجيل الغاليسي في طول غرناطة وعرضها بأنه أكثر الناس تهذيباً وإمتاعاً وسعادة، مع ذلك لم يكن بيرجيل، الذي يغني بأعلى صوت ويلقي أكثر النكات إضحاكاً، بالرجل الخلي القلب. فتحت ذلك القناع من المرح والفرح، كان بيرجيل المسكين يعاني كل هم وغم، إذ كان لديه عائلة كبيرة. أطفاله ثيابهم رثة لا يستطيع شراء ثياب جديدة لهم، جائعون لا يستطيع إطعامهم، صخابون دائماً كفراخ سنونو في عش، يحاصرونه دائماً بصراخهم طلباً للطعام كلما أوى إلى البيت في المساء كذلك، كان لديه شريكة مساعدة تفعل كل شيء إلا مشاركته ومساعدته. إنها امرأته، وقد كانت أجمل فتيات القرية قبل الزواج. اشتهرت ببراعتها في رقص «البوليرو» وخشخشة الصنج. وقد ظلت تحتفظ بمزاياها الأولى تلك، فتقضي أماسي بيرجيل الشريف القاسية في البهجة الزائفة وكذلك في استخدام الحمار نفسه للترحال هنا وهناك، بحثاً عن الحفلات والولائم في الريف أيام الآحاد وأعياد القديسين، وفي كل يوم من أيام العطل التي لا تعد ولا تحصى في إسبانيا والتي تزيد أحياناً عن أيام الأسبوع نفسها. فوق ذلك، كانت امرأة شبه مومس، كسولاً لا تكاد تتحرك من فراشها، كثيرة القيل والقال. مهملة لبيتها وأولادها، ولكل شيء آخر، من أجل شيء واحد هو أن تتسكع في الحي من بيت إلى بيت تنقل الشائعات والقصص... وهكذا كان بيرجيل الذي يخفف الريح عن الحمل المجزوز الصوف ويكيف نير الامومة بما يلائم العنق المستسلم. بيرجيل نفسه هو الذي يحمل أعباء الزوجة والأولاد بروح الصبر والتحمل مثلما كان حماره يحمل جرار الماء. وعلى الرغم من أنه كان يهز أذنيه أحياناً بينه وبين نفسه. إلا أنه لم يغامر قط بسؤال امرأته شبه المومس عن فضائلها المنزلية.

كان بيرجيل يحب أطفاله أكثر مما يحب البوم فراخه، وكان يرى فيهم صورته الخالدة وهي تتجدد مرات ومرات فقد كانوا هم أيضاً صغار الأجسام. قصار الأرجل لكن ذوي ظهور طويلة صلبة. متعة بيرجيل الشريف الكبرى هي أن يأخذ، كلما كان بإمكانه أن يعطل أو يوفر بضعة قروش، أولاده جميعاً معاً، بعضهم يحمله بين يديه والبعض الآخر يتعلق بأطراف ثوبه والبعض الثالث يمسك بكعبيه، كي ينزهمهم بين بساتين الفيغا، في حين تكون زوجته مع أصدقائها ترقص وتمرح في خمائل وادي الدارة.

كان الوقت متأخراً من أمسية صيفية، وكان معظم السقائين قد ركنوا إلى الراحة بعد عناء نهارهم، إذ كان النهار حاراً وجافاً على نحو غير عادي وكانت الأمسية واحدة من تلك الأماسي القمرء الممتعة التي تغري الناس في أقاليم الجنوب، كي يعوضوا حر النهار وخموله، بالتمشي في الهواء الطلق والتمتع بعذوبته ولطافته حتى ما بعد منتصف الليل. لهذا السبب كان الزبائن الذين يطلبون الماء ما زالوا خارج بيوتهم. فكر بيرجيل، ككل أب حنون رؤوف، بأطفاله الجياع، ثم قال لنفسه: «رحلة أخرى إلى البئر علني أوفر مصروف الأحد للأطفال الصغار». قال ذلك رافعاً صوته ضارباً حماره من حين إلى آخر ضربة خفيفة على هذه الخاصرة أو تلك، إما كنوع من الإيقاع لغنائه، أو إنعاشاً لبهيمته.

حين وصل بيرجيل إلى البئر، وجدها خالية لا أنس ولا أنيس سوى غريب وحيد بزي عربي يجلس على مقعد حجري تحت ضوء القمر. توقف بيرجيل في البداية محدقاً إليه باندھاش لا يخلو من خوف، لكن العربي أشار إليه إشارة واهنة أن يدنو منه ثم قال «أنا ضعيف مريض. ساعدني كي أعود إلى المدينة، ولسوف أدفع لك ضعف ما تكسبه من جرار الماء». بأنامل الشفقة والرحمة لامس نداء الغريب ذاك شغاف السقاء الشريف فقال: لا سمح الله أن أطلب أجراً أو جزاء لقاء فعل الخير والمعروف». في الحال ساعد العربي فأركبه حماره، وعلى مهل انطلق عائداً به إلى غرناطة، ولأن ذلك المسلم المسكين كان ضعيفاً واهن القوى، فقد اضطر للإمساك به على ظهر الحمار كي لا يسقط على الأرض.

حين دخلا المدينة، سأل السقاء العربي إن كان عليه أن يوصله إلى مكان بعينه «وأسفاه» أجاب العربي بصوت واهن، «فليس لي مسكن ولا بيت، إنني غريب في هذه البلاد. تحملني وآوني هذه الليلة فقط تحت سقفك ولسوف أجزيك أحسن جزاء». وهكذا، وجد بيرجيل الشريف نفسه، وعلى غير توقع، ملزماً بإيواء ضيف من غير دينه، لكنه كان أكثر إنسانية من أن يرفض أن يؤوي لليلة واحدة كائناً بشرياً غريباً وحيداً في البلاد كلها، فأخذ العربي معه إلى البيت.

كان الأطفال قد تجمعوا فاغري الأفواه، كعادتهم، كلما سمعوا وقع حوافر الحمار، لكن ما إن رأوا الغريب وعلى رأسه العمامة حتى ارتدوا إلى الوراء راكضين مذعورين، مختبئين خلف أمهم التي سرعان ما اندفعت إلى الأمام مستنفرة متحفزة مثل دجاجة نفشت ريشها دفاعاً عن فراخها في مواجهة كلب ضال. «أي كافر جئتني به؟» صاحبت المرأة غاضبة «أبمثل هذا تأتيني في هذه

الساعة المتأخرة من الليل لتجعلنا موضع شك وريبة؟» «الهدوء الهدوء يا زوجة» أجاب الغاليسي «فما هذا إلا غريب مريض مسكين لا صديق له ولا مأوى ، أتتركينه يهلك في الطرقات؟». وكانت الزوجة ستستمر في التوبيخ والاحتجاج ، إذ رغم أنها كانت تعيش فيما يشبه الكوخ إلا أنها كانت تثور دفاعاً عن شرف بيتها وكرامته ، إلا أن السقاء الصغير الحجم كان ، ولرة واحدة ، عنيداً متصلباً فرفض أن يخضع رقبته للنير ، مصراً على استضافة المسلم المسكين.

وهكذا ، ترجل الغريب عن ظهر الحمار ، ليقعد على جلد خروف مده له السقاء فوق الحصير في أبرد ناحية من البيت ، وذلك أقصى ما كان باستطاعة السقاء الفقير أن يفرشه للضيف. بعد فترة وجيزة من الزمن ، أمسكت بالعربي تشنجات شديدة ، تحدث كل ما لدى السقاء المسكين من براعة في العلاج ، لكنها جعلت المريض المسكين يعرف لطفه ورعايته وفي أخذ الفواصل التي كانت تفصل بين نوبات تشنجه دعاه العربي لأن يقترب منه ثم خاطبه بصوت واطىء قائلاً: «أخشى أن تكون نهايتي قد دنت ، فإن مت أعطيك هذه العلبة جزاء معروفك» قال ذلك ثم فتح عباءته ، فبان علبة من خشب الصندل ، وقد لفت بأشرطة حول جسمه . أجاب الغاليسي الصغير الشريف «أرجو من الله يا صديقي . أن يمد في عمرك كي تستمتع بكنزك ، أياً كانت محتوياته ، لكن العربي هز رأسه واضعاً يده على العلبة ولعله كان يريد أن يقول شيئاً أكثر عنها لكن تشنجاته عاودته بعنف أشد وأشد ثم لم تمض لحظات حتى أسلم الروح.

في تلك اللحظة غدت زوجة السقاء كالمجنونة ، «هذا ما ينوبنا من طيبتك وحمافتك » قالت المرأة «دائماً تقع في المصاعب كي تريح الآخرين ، ترى ماذا سيحل بنا حين تكتشف هذه الجثة في بيتنا؟.

سيسوقوننا إلى السجن حتماً كما يساق القتلة المجرمون ، وإن نجونا من حبل المشنقة فليسوف تقضي علينا سوء السمعة والأقاويل».

والحقيقة ، كان بيرجيل نفسه في حال مماثلة من الخوف والاضطراب . نادماً تقريباً على قيامه بفعل الخير ذاك . أخيراً خطرت له فكرة ، فقال لامرأته «الفجر لم يطلع بعد وبإمكانني أن أنقل الميت خارج المدينة ثم أدفنه في الرمال على ضفة نهر زينل . ولا أحد دري أو سمع». ثم ما إن قال ذلك حتى بدأ بالتنفيذ تساعده

امراته في ذلك، دارجين حول الميت الحاصرة التي مات عليها، محمليها على ظهر الحمار. بعدئذ مضى بيرجيل بها إلى ضفة النهر.

لكن لسوء الحظ، كان يسكن قبالة بيت السقاء حلاق يدعى بدريللو بدريغو، هو أشد أبناء مهنته ثرثرة وحباً للتجسس والشر والأذى. وجهه أشبه بوجه ابن عرس، وغد زنيم كعنكبوت كثير الأرجل، فدساس متسلل، حلاق اشبيلية نفسه لا يفوقه معرفة بشؤون الآخرين وتدخلاً فيها، والغربال يقل عنه قدرة على تمرير الأشياء وإفشاء الأسرار بل يقال إنه كان ينام بعين واحدة ليترك الأخرى مفتوحة، يغطي أذنًا ويكشف الأخرى، كي يستطيع حتى في نومه أن يري ويسمع كل ما يجري. الأكيد، على كل حال، أنه كان أكثر سكان غرناطة حباً بالفضائح وميلاً لإثارتها، وكان لديه زبائن أكثر من أبناء مهنته جميعاً. هذا الحلاق العجيب سمع بيرجيل وهو يصل إلى بيته في ساعة غير مألوفة من الليل كما سمع صيحات زوجته وزعيق أطفاله. وللتو نبق رأسه من إحدى النوافذ التي كانت تخدمه ككوة للتجسس فرأى جاره يساعد رجلاً بزي عربي في دخول البيت.

ذلك بحد ذاته كان أمراً غريباً وحدثاً عجيباً إلى حد يكفي لجعل بدريللو بدريغو لا يرقد له جفن طوال الليل. وهكذا، بات كل خمس دقائق يمضي إلى كوته يختلس النظر مراقباً الأضواء الآتية من خصاص باب جاره، ثم قبل أن يعزغ الفجر، رأى بيرجيل ينطلق بحماره وعلى ظهره حمل غير عادي.

قلق شديد أمسك بخناق الحلاق الفضولي، فأسرع يلبس ما يستره من ثياب وينسل بصمت وهدوء خلف السقاء إلى أن رآه يحفر حفرة في رمال ضفة النهر ثم يدفن شيئاً ما له هيئة رجل ميت.

بعدئذ تبعه إلى البيت، وبقلق شديد راح يذرع دكانه جيئة وذهاباً قابلاً كل شيء رأساً على عقب إلى أن أشرقت الشمس. حينذاك، أخذ جامه تحت ذراعه وانطلق إلى بيت زبونه: القاضي.

كان القاضي قد أفاق لتوه فأجلسه الحلاق في كرسيه واضعاً حول رقبته منديل الحلاقة وجام الماء الساخن تحت ذقنه ثم شرع يملس لحيته بأصابعه.

«أفعال غريبة» بدأ بدريغو الذي كان يقوم بدور الحلاق وناقل الأخبار معاً «أعمال عجيبة: سرقة، قتل، دفن وذلك كله في ليلة واحدة.» «هـ.... ي.... هـ.... ما هذا الذي تقوله؟» صاح القاضي.

«أقول» أجاب الحلاق وهو يفرك بيده قطعة الصابون على أنف القاضي المبجل وفمه ، ذلك أن الحلاق الاسباني يأبى استخدام الفرشاة «أقول إن برجيل الغاليسي سرق عربياً مسلماً وقتله ثم دفنه في هذه الليلة المباركة- (مالديتاسي لافوش) - هذه الليلة التي يمكن أن تكون ملعونة في الوقت نفسه» .

«لكن كيف عرفت هذا كله؟» سأله القاضي . «صبراً يا سيدي . صبراً . ولسوف تسمع كل شيء» أجاب بدريللو وهو يمسكه من أنفه . زالقاً موس الحلاقة فوق خده . بعدئذ روى له كل ما شاهده . قائماً بكلتا العمليتين معاً : حلاقة اللحية مع ما يرافقها من غسل ذقن وتنشيف وجهه بمنديل قذر فيما هو يسرق المسلم ويقتله ويدفنه .

وللمصادفة . فقد كان ذلك القاضي واحداً من أشد المتحاملين المتزمتين وفي الآن نفسه أبخل أهل غرناطة وأكثرهم شحاً وفساداً . إذ لم يكن أحد ينكر أنه لم يكن يرضى بالقليل مقابل أحكامه . بل كان يبيع كل حكم بقدر معين من الذهب .

في الحال . افترض أن القضية قيد البحث هي قضية سرقة وقتل . ولا شك أن هناك غنيمة نفيسة . فكيف يمكن ليد القانون الشرعية ان تستعيدها؟ إن كان ينبغي إيقاع الدجرم في الشرك فقط - فذلك معناه تقديمه طعاماً للمشنقة . أما وضع اليد على الغنيمة - فمعنى ذلك حصول القاضي على الثروة وذلك ، طبقاً لمعتقده . هو الغاية العظمى للعدالة .

انطلاقاً من تفكيره ذاك دعا الى حضرته أكثر من يثق به من حراس القضاء - وهو رجل وغد زنيم بارز عظام الوجه يلبس . مثل أبناء مهنته ، حلة اسبانية قديمة وقبعة سوداء واسعة تنقلب من جوانبها إلى الأعلى . حول رقبتة طوق مكشكش من الريش وعباءة سوداء قصيرة معلقة بكتفيه ، بينما يمسك بيده هراوة بيضاء غليظة . هي رمز مهنته المخيفة . هكذا كان الحراس القضائيون للشعب الاسباني القديم . وذلك هو كلب الصيد الذي بعث به القاضي لتعقب آثار ذلك السقاء التعييس . وعلى ذلك النحو كانت سرعته ويقينه من أنه سيتعقب بيرجيل المسكين ويكتشف ما فعل قبل أن يعود إلى مسكنه . ولقد فعل ذلك إذ سرعان ما ساقه هو وحمارة ليمثل أمام العدالة . بتقطيبة هائلة من حاجبيه ، انحنى القاضي على بيرجيل المسكين زائراً به زارة جعلت ركبتَي الغاليسي الضئيل الحجم

تصطكان «اسمع أنت مجرم! اسمع أنت مجرم - ولا حاجة لأن تنكر جريمتك فأنا أعرف كل شيء. المشنقة هي العقاب المناسب للجريمة التي ارتكبت. لكنني رحيم ومستعد للاحتكام للمنطق. الرجل الذي قتل في بيتك هو عربي من غير ديننا، بل عدو ديننا. ولا شك أنك فعلت ما فعلت بدافع من حماسك الدينية لذلك سأكون متساهلاً. أعد لي ما سرقت منه. أطو ملف القضية كلها». في الحال. راح السقاء المسكين يحلف بالقديسين كلهم داعياً إياهم كي يشهدوا أنه بريء. لكن وأسفاه ما من أحد منهم ظهر. لكن حتى لو ظهر ما كان القاضي ليصدقهم. روى السقاء القصة الكاملة لموت العربي بكل صراحة وبساطة ومثلما وقعت تماماً. لكن عبثاً.

«هل تصر على أقوالك؟» سأله القاضي. «بأن ذلك المسلم لم يكن لديه ذهب ولا ماس وأنهما لم يكونا غاية جريمتك كلها؟»

«كما آمل بالخلاص. يا سيادة القاضي». أجاب السقاء «لم يكن مع ذلك العربي سوى علبة صغيرة من خشب الصندل ورثني إياها جزاء خدمتي له». «علبة من خشب الصندل!! علبة من خشب الصندل!! هتف القاضي وعيناه تبرقان طمعا بالجواهر الثمينة» وأين تلك العلبة؟ أين خبأتها؟ «أسعد الله سيادتك» أجاب السقاء «إنها في واحدة من سلال حماري. وهي تحت تصرفك يا سيدي».

ما إن نطق السقاء بذلك حتى أسرع الحارس القضائي البارح إلى الخارج. وفي الحال عاد بالعلبة الغامضة المصنوعة من خشب الصندل. فتح القاضي العلبة بتلief ويداه ترتعشان شوقاً لرؤية الكنز الذي يتوقع أن يراه. لكن. لخيبة أمله. لم يكن ثمة شيء سوى لفيفة من رق الغزال كتبت بأحرف عربية ومعها عقب شمعة. حين لا يكون هناك ما يمكن الحصول عليه من اتهام سجين. فإن العدالة، حتى في إسبانيا، تميل لأن تكون موضوعية غير متحيزة. وهكذا. استعاد القاضي توازنه إثر الصدمة وخيبة الأمل بعد أن اكتشف أنه لم يكن هناك اسلاب أو غنائم فعلاً. ثم أصغى بغير تحيز للشروح التي قدمها السقاء والتي دعمتها كل الدعم شهادة زوجته.

عند ذاك اقتنع ببراءته فأطلق سراحه ، بل أكثر من ذلك ، سمح له أن يأخذ ميراث العربي معه ، علبة خشب الصندوق ومحتوياتها ، باعتبارها المكافأة العظيمة القدر لإنسانيته ، لكنه احتفظ بحماره تعويضاً عن نفقات المحكمة ورسومها .

فانظر ما حل بذلك الغاليسي العاثر الحظ وقيد عاد من جديد مضطراً لأن يحمل جراره على كتفه كادحاً طوال النهار صاعداً الطريق إلى بئر الحمراء نازلاً عليها . مع كده وكدحه ذاك ، ظهيرة يوم من أيام الصيف الحارة ، كان مزاجه الرائق المألوف قد تخلّى عنه فصاح ملء صوته «يا له من قاض كلب !! أن يحرم رجلاً فقيراً من وسيلة عيشه . من خير صديق له في الدنيا» بعدئذ ، وعلى ذكر رفيق عمله المحبوب ، تدفق كل ما في نفسه من رقة ولطف . «آه ، أيها الحمار ، يا حبة قلبي» راح يهتف ، سائداً حمله على أقرب حجر ، ماسحاً العرق عن جبينه «آه أيها الحمار يا مهجة روحي !! أترك تفكر بصاحبك القديم؟ أترك تحن لجرار الماء - أيها الحيوان المسكين؟» .

ولكي يزداد طينه بلة . كانت امرأته تستقبله ، كلما عاد إلى البيت ، بالصراخ والزعيق . هي التي كانت مسيطرة عليه متحكمة به من قبل وهي التي كانت قد حذرت من عواقب الكرم وحسن الضيافة تلك التي جلبت على رأسه تلك المصائب كلها . وشأن كل امرأة تعرف شؤون الحياة ، باتت لا تترك مناسبة إلا وتلقي عليه الدروس والمواعظ ، هي الحكيمة الفصيحة . فإن كان أطفالها بحاجة للطعام أو ينقصهم ثوب جديد ، كانت ترد ناخرة «اذهبوا إلى أبيكم - إنه وارث الملك تشيكو ، ملك الحمراء . قولوا له أن يجعل علبة العربي تساعدكم» . ترى هل حل بكائن بشري مسكين ما حل ببيرجيل من عقاب . جزاءً على ما فعل من خير؟ حزن شديد أصاب بيرجيل العاثر الحظ . حزن تغلغل حتى أعماق روحه لكنه مع ذلك ظل يتحمل سخرية زوجته واستهزاءها لكن ذات مساء . وبعد عناء النهار وتعبه . وبخته امرأته بالطريقة المعهودة فنقد كل ما لديه من صبر . لا . هو لم يغامر بالرد عليها ، بل ذهب بناظره إلى العلبة المصنوعة من خشب الصندوق . الموضوع على الرف وقد انفتح غطاؤها نصف انفتاحة كأنما هي تضحك ساخرة من انزعاجه . أمسك بها ببيرجيل عالياً . وبكل حنق ألقى بها أرضاً صائحاً «تعييس ذلك اليوم الذي أبصرتك فيه عيناى أو آويت به صاحبك في بيتي» .

حين اصطدمت العلبة بالأرض انفتح غطاؤها على اتساعه فتدحرجت لفيفة رق الغزال .

وهلة من الزمن، جلس بيرجيل محدقاً إلى الليفة صامتاً - أخيراً خطرت بذهنه فكرة «من يعلم؟ لعل هذه الكتابة مهمة للغاية. فقد كان العربي يوليها كل عناية واهتمام؟» وهكذا التقطها بيرجيل عن الأرض، ثم خبأها في عبه. في الصباح التالي، وحين كان ينقل الماء في الطرقات منادياً عليه، توقف عند دكان مغربي من طنجة يبيع العطور والحلى الصغيرة في السوق، طالباً إليه أن يشرح له محتويات الليفة.

قرأها المغربي بتمعن ثم داعب لحيته مبتسماً قائلاً «هذه المخطوطة هي نوع من التعويذة لاكتشاف كنز خبيء، هو رهن طلسم سحري. إنها تعويذة شديدة الفعالية إلى درجة أن أقوى القضاة والأطربل صخر الصوان نفسه ينشق عند النطق بها». «آه» صاح الغاليسي الصغير وما يعني ذلك بالنسبة إلي؟ أنا لست ساحراً ولا علم لي بالكنوز الخبيئة». قال ذلك، حاملاً علي كتفه جرة مائه. تاركاً الليفة بين يدي المغربي، شاقاً طريقه بجهد وعناء متابعاً جولاته اليومية.

لكن، في ذلك المساء، حين أسلم نفسه للراحة مع الغسق قرب بئر الحمراء، وجد عدداً من العجائز يتجمعن في ذلك المكان، وكما هي العادة في تلك الساعة من حلول الظلام، كان حديثهن يتحول إلى الحكايات والقصص القديمة المتوارثة عن الجن والعفاريت ولكونهن جميعاً فقيرات فقر الجرذان، كن كلهن مولعات بالموضوع الشائع نفسه بين كل الناس. الكنوز المسحورة التي خلفها العرب وراءهم في مختلف أنحاء الحمراء - فقبل كل شيء، كان الجميع متفقين في اعتقادهم على أن هناك كنوزاً عظيمة مدفونة في أعماق الأرض تحت برج الطوابق السبعة. تلك القصص تركت انطباعات غير عادية في ذهن بيرجيل الشريف، ثم غاصت أعمق وأعمق في تفكيره وهو يعود وحيداً هابطاً الشوارع المعتمة: ماذا إن كان ثمة كنز خفي تحت ذلك البرج فعلاً؟ ماذا إن كانت تلك الليفة التي تركتها لدى المغربي تجعلني قادراً على الحصول عليه؟

فجأة خطرت بباله الفكرة، ومع المفاجأة نسي معها الجرة على كتفه فسقطت أرضاً. تلك الليلة أمضاها بيرجيل متقلباً مضطرباً لم يغمض له جفن، لكثرة ما توارد على ذهنه من أفكار محيرة. وهكذا، مع أول أشعة الشمس، مضى إلى حانوت المغربي، مفصلاً له عن كل ما ورد في ذهنه من أفكار «أنت عربي ويمكنك أن تقرأ العربية» قال بيرجيل «لنفترض أننا يمكننا أن نذهب معاً إلى البرج ونحاول فك السحر. إن أخفقتنا فإننا لن نكون أسوأ مما نحن عليه الآن،

لكن إن أفلحنا اقتسمنا مناصفة الكنز الذي سنكتشفه». «مهلاً» أجاب المغربي المسلم « هذه الكتابة ليست كافية بحد ذاتها. فلا بد من أن تقرأ عند منتصف الليل وعلى ضوء شمع مستدقة الطرف، تصنع بذاتها من عناصر ليست في متناول يدي. بغير شمع كهذه لا يمكن للقيفة أن تكون ذات نفع». «لا تقل المزيد» صاح الغاليسي الصغير «مثل تلك الشمعة موجودة لدي، وسوف آتيك بها في لحظة من الزمن» قال ذلك ثم أسرع الى المنزل، وفي الحال عاد بعقب الشمعة المستدقة الصفراء التي كانت في العلبة المصنوعة من خشب الصندل.

هنيهة من الزمن راح المغربي يتلمسها متشمماً رائحتها ثم قال «ها هنا عطور غالية ونادرة مزجت بهذا الشمع الأصفر. ذلك هو الشمع الذي ذكرت صفاته في هذه اللقيفة. وإذا ما احترق، فإن أقسى الجدران وأشد المغاور سحرية تنفتح. لكن الويل له من يبقى لحظة واحدة بعد أن تنطفئ الشمعة، إذ سيضمه سحر الكنز».

اتفق الرجلان على أن يحاولا فك السحر تلك الليلة ذاتها. لهذا، وفي ساعة متأخرة، حين سكنت المدينة وتوقفت الحركة فيها ما عدا حركة الخفافيش واليوم، صعد الرجلان رابية الحمراء المليئة بأشجار الغابات، ثم اقتربا من ذلك البرج المخيف الذي تحيط به الأشجار من كل جانب ويزيد من رهبته كل ما توارثته الأجيال من قصص وحكايات عنه. على ضوء مصباح، شقا طريقهما عبر الشجيرات وفوق الحجارة المتساقطة على الطريق إلى أن وصلا إلى باب القبو تحت البرج، ثم، بكثير من الخوف والرجفة، هبطا الدرجات المحفورة في الصخر، فقادتهما إلى حجرة فارغة رطبة مخيفة انتهت بدورها إلى مجموعة أخرى من الدرجات تؤدي إلى قبو أعمق.

بهذه الطريقة هبط الرجلان أربع مجموعات من الدرج مجتازين أربعة أقبية واحدها تحت الآخر، لكن أرض الرابع كانت صلبة مصمتة، وعلى الرغم من أنه كان لابد، طبقاً لما تحكيه القصص المتوارثة، من وجود ثلاثة أقبية أخرى في الأسفل، إلا أنه كان يقال إن من المستحيل النفاذ إلى ما هو أبعد من ذلك، فالبقية مغلقة بفعل طلسم سحري شديد. كان هواء ذلك القبو رطباً وبارداً يحمل رائحة التراب ولم يكن ضوء المصباح يطلق أيّاً من الأشعة. توقف الرجلان هنيهة من الزمن، لاهئين منقطعي الأنفاس، إلى أن سمعا الصوت الخافت لساعة البرج وهي تدق منتصف الليل. عند ذاك أشعلا الشمعة المستدقة الطرف وفي الحال انتشر عبق اللبّان والمر والبخور. شرع المغربي يقرأ بصوت متعجل، وما إن انتهى حتى سمعا

صوتاً في الأسفل كهدير الرعد، اهتزت له الأرض ، ثم انفتحت عن سلم من الدرج كما ينفتح الفم المتثائب. بارتجاف وخوف هبطا درجات السلم وعلى ضوء المصباح وجدا نفسيهما في قبو آخر مغطى بنقوش وكتابات عربية. وسط القبو، كان ثمة صندوق كبير مؤطر بسبع شرائط من الفولاذ ، وعند كل جانب من جانبيه يجلس فارس عربي مسحور وهو بكامل سلاحه لكنه كالتمثال بلا حراك، وقد جمده سحر ساحر. أمام الصندوق كانت هناك عدة جرار ملأى بالذهب والفضة والحجارة الكريمة. داخل أكبر جرة منها مدا يديهما حتى المرافق وراحا يغرفان حفنات من قطع صفراء كبيرة من الذهب العربي والأساور والحلي المصنوعة من الذهب الأصفر نفسه ليخرج معهما من حين إلى حين عقد من اللؤلؤ الشرقي وقد علق بين أصابعهما. وهكذا ، راحا، وهما مرتعشان مقطوعا الأنفاس، يحشوان جيوبهما بالغنيمة، ملقين الكثير من النظرات الخائفة على الفارسين العربيين المسحورين اللذين كانا يجلسان صامتين بلا حراك محملقين فيهما بأعين لا يطرف لها جفن.

أخيراً، اندفعا كلاهما صاعدين الدرج، وقد ملأ قلبيهما على حين غرة. رعب مفاجيء إذ طرق مسامعهما صوت لا يعرفان مصدره. في اندفاعهما ذاك تعثر أحدهما بالآخر في القبو الأعلى منقلبين أرضاً، قالبين معهما الشمعة التي انطفأت للتو، ومع انطفائها عادت الأرض التي انشقت فاقفلت من جديد بهدير كهدير الرعد. وهكذا، ملء قلبيهما الرعب، لم يتوقفا حتى شقا طريقهما خارج البرج وأبصرا النجوم وهي تتلألأ في السماء. هناك جلسا على العشب. قسما الغنيمة، مصممين أن يقنعا في لحظتهما الراهنة بمجرد إيجادهما الجرار لكن على نية أن يعودا ذات ليلة في المستقبل ويغرفا ما في تلك الجرار تماماً. ولكي يتأكد كل منهما من اخلاص الآخر، قسما التعويذة بينهما فاحتفظ أحدهما باللفيفة والآخر بالشمعة، ثم انطلقا وقد ملأ قلبيهما الفرح وجيوبهما الذهب إلى غرناطة. لكن بينما كانا يلتفان مع الطريق نازلين الرابية ، همس المغربي الداهية بكلمة نصح في إذن السقاء الضئيل الحجم ، الطيب النية، قائلاً: «صديقي برجيل، هذه القضية برمتها يجب أن تبقى سرا عميقاً إلى أن نحصل على الكنز بكامله وننقله إلى مكان أمين. إذا ما بلغت كلمة واحدة عنه مسامع القاضي، انتهينا». «بالتأكيد» أجاب الغالييسي «كلامك صحيح بل ليس هناك أصح منه».

فتابع المغربي «صديقي بيرجيل، أنت رجل حصيف، وأنا لأشك بأنك تستطيع حفظ السر: لكن لديك زوجة». «لن تعرف زوجتي شيئاً عنه» أجاب السقاء الضئيل الحجم، الطيب النية بنبرة الوعد والعهد. «كفى» قال المغربي «إنني أعتمد على حصافتك ووعدك». والحقيقة، لم يسمع الليل وعداً أكثر حرارة وإخلاصاً قط، لكن وأسفاه!! أي رجل يستطيع ان يخفي سره عن امرأته؟ بالتأكيد، ليس رجلاً كبيرجيل السقاء، وهو أكثر الأزواج حباً ورقة قلب. إذ ما إن عاد إلى البيت حتى وجد زوجته متكومة على نفسها في إحدى الزوايا. «حسنًا. حسنًا» صرخت المرأة بوجهه، ما إن دخل «تأتي متأخراً!! تتجول حتى هذه الساعة من الليل!! إني لأتساءل: ألم تعد معك بمغربي آخر ينام في بيتك» ثم بدأت، وقد انهمرت دموعها، تعصر يديها وتدق صدرها هاتفة «إمرأة تعيسة أنا، ماذا سيحل بي؟ بيتي نهبه المحامون، سلب حراس القضاء كل ما فيه، زوجي لا يحسن فعل شيء، لم يعد يأتي إلى بيته حتى بالخبز. بل يتجول الليل والنهار مع المغاربة أعداء ديننا! آه يا لأطفالي المساكين!! يا لأطفالي!! ماذا سيحل بكم؟ هل سنتسول كلنا في الشوارع؟ هل سنتحول كلنا إلى شحاذين؟». هذا الندب أثار بيرجيل الشريف، إلى درجة لم يستطع منع نفسه من البكاء هو الآخر فقد كان قلبه ممتلئاً كجيبه ولم يكن ينبغي كتمهما كليهما. وهكذا، مد يده إلى جيبه مخرجاً ثلاثاً أو أربعاً من القطع الذهبية الكبيرة حاشراً إياها في عيها. بدهشة وعجب، حدقت المرأة المسكينة دون أن تفهم معنى تلك الزخة من الذهب. ثم قبل أن تسترد أنفاسها من وقع المفاجأة، أخرج الغاليسي الضئيل الحجم سلسلة من الذهب ولوح بها أمام عينيها. واثباً بجذذ شديد وقد انفتح فمه من الأذن إلى الأذن. «أيتها العذراء المقدسة، احمينا» هتفت الزوجة ماذا كنت تفعل يا بيرجيل؟ بالتأكيد، أنت لم تقتل ولم تسرق!!؟» ثم ما إن خطرت تلك الفكرة في ذهن المرأة المسكينة حتى أصبحت لديها نوعاً من اليقين. وعلى مقربة رأت السجن والمشنقة، والغاليسي الضئيل الحجم معلق من عنقه. رعب شديد سيطر عليها ومخاوف هائلة طغت نتيجة تصوراتها تلك، وللتو أصابتها نوبة شديدة من الهستيريا. فما عساه يفعل الرجل المسكين؟ لم يكن لديه وسيلة أخرى لتهدئة زوجته وإزاحة أشباح الخوف والتصورات غير أن يروي لها قصة الحظ الذي ابتسم له أخيراً بكاملها لكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن أخذ منها أشد الوعود والعهود بأن تحفظ

سره فلا تبوح به لابن أنثى. أن نصف فرحها هنا أمر مستحيل. فقد ألفت بذراعيها حول عنق زوجها لاثمة مقبلة حتى كادت تخنقه.

«والآن أيتها الزوجة» هتف الرجل الضئيل بجذل خالص «ما عساك تقولين بميراث العربي؟ من الآن فصاعداً ، لا تزدريني إن ساعدت ابن آدم في مصاب. بعدئذ، استلقى الغاليسي الشريف على جلد الخروف ثم استغرق في سبات عميق وكأنه نائم على فراش من ريش. لكن امرأته لم تنم قط. بل أسرعت تفرغ جيوبه كلها مما فيها على الحصر وراحت تعد القطع الذهبية والنقود العربية، مجربة العقود والأقراط، متخيلة الهيئة التي يمكن أن تظهر بها حين يسمح لها بالاستمتاع بثروتها تلك. في الصباح التالي، أخذ الغاليسي الشريف قطعة كبيرة من النقود الذهبية ومضى بها إلى صائغ في السوق كي يبيعها هناك، مدعياً أنه لقيها بين آثار الحمراء. قلبها الصائغ بين يديه فوجد أن كتابتها عربية وأنها من الذهب الخالص. مع ذلك لم يعرض عليه سوى ثلث قيمتها ومع ذلك كان السقاء الصغير في غاية الرضى والسرور. عندئذ ابتاع بيرجيل ملابس جديدة لقطيعه الصغير كما اشترى كل أنواع اللعب. إضافة إلى مواد غذائية تكفي لتقديم وجبة رائعة، ثم عاد إلى بيته فاندفع أطفاله كلهم يتواثبون حوله فرحين راقصين وهو نفسه يتواثب راقصاً فرحاً، كأسعد الآباء.

حافظت زوجة السقاء على وعدها بصرامة مدهشة فلم تبج بالسر وطوال يوم ونصف اليوم، راحت تذهب هنا وهناك بسيما الغموض وبقلب مترع حتى الحافيتين. مع ذلك ظلت صامدة لا تتكلم رغم كل من يحيط بها من الثرثارين والثرثارات.. صحيح أنها لم تستطع منع نفسها من تسريب بعض التلميحات، والاعتذار عن ملابسها الرثة والإشارة إلى أنها طلبت ثوباً جديداً ستكون حواشيه كلها من مخرمات الذهب والخرز وكذلك طرحة الدانتيل والمخرمات، وصحيح أيضاً أنها راحت تلمح بين الحين والحين إلى نية زوجها في ترك عمله كسقاء باعتبار أنه لم يعد يلائم صحته، بل الواقع أنها تفكر أنهم قد يرجعون إلى الريف لقضاء الصيف هناك، عل الأطفال ينعمون بهواء الجبال، فالحياة في المدينة الحارة الجافة باتت مستحيلة، لكن الصحيح أيضاً أنها لم تفش السر قط. مع ذلك، وعند سماعهم ذلك الكلام، راح الجيران يحملون بعضهم البعض الآخر، وكل ظنهم أن المسكينة فقدت عقلها، ثم غدت تلميحاتها وإشاراتها وادعاءاتها موضع تندر الجيران كلهم وسخريتهم ما إن أدارت ظهرها مبتعدة.

مع ذلك، لو أنها أبقى نفسها ضمن حدود بيتها، واضعة عقد اللؤلؤ الشرقي في عنقها، الأساور العربية في ساعديها وطوق الماس على رأسها ذارعة الغرفة جيئةً وزهاياً وهي بملابسها الرثة، واقفة من حين إلى آخر أمام المرأة المكسرة تنظر إلى نفسها بكل دهشة وإعجاب، أقول لو فعلت ذلك وحسب لهان الأمر - لكنها، وبدافع شديد من غرورها وسخفها، لم تستطع أن تقاوم، فوقفت ذات مرة أمام النافذة تعرض نفسها كي تستمتع بما تترك حليها على المارة من تأثير.

ولأن الأقدار تشاء ذلك، فقد صدف أن بدريللو بدروغو، الحلاق الثرثار، كان في تلك اللحظة يجلس عاطلاً عن العمل في دكانه في الجهة المقابلة من الشارع، حين لفت ناظره بريق ماسة. في لحظة واحدة، صار وراء كوته وراح يرقب منها زوجة السقاء شبه المومس وقد تزينت وتبرجت فغدت أروع من عروس شرقية. ثم ما إن أخذ فكرة دقيقة عن حليها وزينتها، حتى انطلق كالطير إلى القاضي. وبللمحة عين أيضاً، كان الحارس الجائع يتشمم الأثر من جديد ثم لم تغب شمس ذلك النهار، حتى كان بيرجيل المسكين يساق مرة ثانية إلى حضرة القاضي.

« كيف هذا أيها الأحمق؟ » بصوت غاضب صرخ القاضي به. « لقد قلت لي إن المغربي الذي مات في بيتك لم يترك سوى علبة فارغة والآن أسمع أن امرأتك تزين بالؤلؤ والماس فوق ملابسها الرثة. يا لك من وغد سافل!! هيا، أعد الأسلاب التي أخذتها من ضحيتك العربي البائس واستعد للمشنقة التي تعبت من انتظارك. » في الحال - خر السقاء المذعور على ركبتيه، راوياً بدقة وأمانة الطريقة - العجيبة التي حصل بها على ثروته، فيما كان القاضي، الحارس، الحلاق الفضولي يصغون، وكلهم آذان لتلك الحكاية العربية عن الكنز المسحور.

للتو، أرسل القاضي حارسه القضائي كي يأتي بالمغربي الذي ساعد في فك السحر. دخل المسلم يكاد قلبه يسقط بين جنبيه وقد وجد نفسه بين أيدي حراس القانون. لكن ما إن رأى السقاء يقف وعلى وجهه سيماء الذعر والانهيار حتى أدرك المسألة كلها. « حيوان بائس » قال وهو يعبر بقربه « ألم أحذرك من إفشاء السر لزوجتك؟ » تطابقت قصة المغربي كل التطابق مع قصة صاحبه، لكن القاضي كان حريصاً على أن يظهر بمظهر غير المصدق قاذفاً إياهما بالتهديدات متوعداً إياهما بشر العقوبات. « هونا هونا، يا سيدي القاضي الطيب، » قال المسلم الذي كان في تلك اللحظة قد استرد أنفاسه واسترد معها حنكته ودهاءه « لا تدعونا نشوه أفضال الحظ بالتزاحم عليها. لا أحد يعلم شيئاً عن هذا الأمر سوانا نحن. فدعونا نحفظ

السر، وتأكدوا أن في المغارة ثروة تكفينا كلنا كي نصبح أغنياء. عدوا أن نقتسمها
قسمة عادلة وكل شيء يهون. لكن ارفضوا ذلك تبقى المغارة منغلقة إلى الأبد.

تشارور القاضي هنيهة من الزمن مع حارسه ذاك الذي كان أشبه بالثعلب
العجوز في مهنته «عده بأي شيء». قال الحارس القضائي «إلى أن تضع يدك
على الكنز. عندئذ يمكنك أن تستحوذ على كل شيء. وإذا ما تجرأ هو أو
صاحبه على أن يتلفظا بكلمة واحدة هدهما بالجلد والخازوق ككافرين وساحرين
مشعوذين». سر القاضي بالمشورة أيما سرور، بعدئذ مسد حاجبيه ثم التفت إلى
المغربي قائلاً «هذه قصة غريبة ولعلها صحيحة، لكن لا بد لي من برهان عياني
عليها. هذه الليلة بالذات يجب أن تكرر عملية فك السحر أمامي. إن كان فعلاً ما
يزال هناك بقية الكنز. اقتسمناها بيننا بالعدل ولففنا المسألة برمتها، أما إن كنتما
تخدعانني، فلا ترجوا رحمة مني. لكن في غضون ذلك لا بد من أن تبقى رهن
الاعتقال». بفرح واغتباط، وافق المغربي والسقاء على تلك الشروط، موقنين ان الواقع
سوف يثبت صحة كلامهما.

قرب منتصف الليل، انطلق القاضي سراً، يصحبه حارسه القضائي والحلاق
الثرثار، وكلهم شاكي السلاح، آخذين معهم المغربي والسقاء كسجينين وكذلك
حمار السقاء المتين كي يحمل الكنز المرجو. دون ان يلحظهم أحد، ساروا إلى أن
وصلوا إلى البرج. ربطوا الحمار إلى شجرة تين ثم نزلوا الدرج حتى القبو الرابع
للبرج. هناك فتحو لفيفة رق الغزال وأشعلوا الشمعة المستدقة الصفراء ثم شرع
المغربي يقرأ التعويذة. فجأة بدأت الأرض بالاهتزاز كما كان شأنها من قبل. ثم
انفتحت الأرض المرصوفة بصوت كدوي الرعد كاشفة عن سلم الدرج الضيق.
القاضي، الحارس، الحلاق كلهم وقفوا مذهولين مذعورين. لا يستطيعون نزول
الدرج وقد خذلتهم شجاعتهم فيما دخل المغربي والسقاء نازلين حتى القبو الأسفل
ليجدا الفارسيين العربيين جالسين كما كانا من قبل، صامتين بلا حراك. زحزحا
من مكانهما الجرتين الكبيرتين المليئتين بالنقود الذهبية والحجارة الكريمة ثم
حملهما السقاء الواحدة تلو الأخرى على كتفه. ورغم أنه كان متين الظهر معتاداً
على حمل الأثقال، إلا أنه راح يترنح تحت ذلك الحمل ثم وجد حين ربطهما إلى
جانبي الحمار أنهما أثقل من أن يستطيع ذلك الحيوان حملهما. «دعونا نقنع بذلك
الآن» قال المغربي لأصحابه. «فهنا من الكنوز أكثر مما نستطيع أن ننقله دون أن
يلحظنا أحد. وما يكفي لأن يجعلنا كلنا أغنياء قدر ما تشتهي قلوبنا». أما يزال

هناك قسم من الكنز ؟ » سأل القاضي فقال المغربي « بل ما يزال القسم الأكبر منه . صندوق ضخّم محزّم بشرائط من فولاذ ، ملآن باللؤلؤ والحجر الكريم » .

« لنخرج ذلك الصندوق بأي شكل من الأشكال » صرخ القاضي شاهقاً دهشة . فرد المغربي بكثير من الخوف ، أنا لن أنزل مرة أخرى . يكفي يعني يكفي بالنسبة إلى رجل عاقل - أما أكثر من ذلك فهو زيادة وتجاوز . » أنا مثله أيضاً » قال السقاء « لن أجلب المزيد فيكسر ثقل الحمل ظهر حماري المسكين » .

بعد أن وجد القاضي كل تهديد ووعيد ورجاء غير ذي جدوى ، التفت إلى صاحبيه الحميمين قائلاً . « ساعداني كي أجلب الصندوق . ولسوف نقسم محتوياته بيننا » . قال ذلك ثم نزل الدرج يتبعه صاحبه وهما يرتجفان خوفاً من تلك المهمة . حالاً رآهم المغربي يغيبون في الأسفل أطفأ الشمعة الصفراء وللتواطعت الأرض بدويها المعهود عليهم دافنة إياهم في جوفها . عندئذ أسرع صاعداً الدرج الآخر دون أن يتوقف إلى أن وصل إلى الهواء الطلق . في إثره السقاء الضئيل وهو يقفز الدرج ، بأقصى ما تسمح له رجلاه من سرعة .

« ماذا فعلت ؟ » صاح بيرجيل به لحظة استطاع أن يسترد أنفاسه « هل حبست القاضي والرجلين الآخرين في القبوا ؟ » سأل الغاليسي . فأجاب المغربي وهو يمسد لحيته « قد كتب في كتاب القدر أن يبقوا مسحورين إلى أن يأتي مغامر آخر في المستقبل يفك عنهم السحر . ولقد تمت إرادة الله » ؟؟ قال ذلك ثم قذف بعقب الشمعة المستدقة بين أشجار الوادي الكثيفة الظليلة فلم يعد ثمة علاج . بعد ذاك ، مضى المغربي والسقاء بحمارهما المحمل زهاباً إلى المدينة ، دون أن يستطيع السقاء الشريف منع نفسه من احتضان مساعده في العمل ذي الأذنين الطويلتين وتقبيله من حين إلى حين وقد استعاده من قبضة القانون . دون أن يستطيع أحد بالواقع أن يبت فيما إذا كان فرح السقاء الشديد في تلك اللحظة لحصوله على الكنز أم لاستعادته الحمار .

بأطيب نية وأحسن تفاهم ، إقتسم الشريكان غنيمتهما قسمة العدل والإنصاف ما عدا أن المغربي الذي كان مولعاً قليلاً بالحلي الصغيرة عمل علي أن يضع في كومتها أكبر قدر من اللؤلؤ والحجارة الكريمة والحلي الرخيصة معطياً السقاء بدلاً منها الجواهر الرائعة والحلي الذهبية الضخمة التي تزيد قيمتها عن تلك بأربع أو خمس مرات والتي كانت ترضي السقاء كل الرضى . غير أنهما كليهما أوليا

اهتمامهما كله إلى أن لا يقعا في المزيد من الورطات أو يعرضا نفسيهما للمزيد من الأخطار فقررا أن يستمتعا بثروتهما دون انزعاج في بلدان أخرى. وهكذا. عاد المغربي إلى مدينته طنجة مسقط رأسه. فيما مضى الغاليسي مع زوجته وأطفاله وحماره إلى البرتغال. هناك وبإشراف زوجته وتعاليمها، أصبح بيرجيل شخصية مرموقة، فقد جعلت ذلك الرجل الضئيل الكفوء يكسو جذعه الطويل وساقيه القصيرتين بالصدرية الضيقة والبنطال الضيق، كما جعلته يضع في قبعته ريشة وإلى جانبه السيف، طارحاً اسمه المؤلف جانباً ليغدو بدلاً من بيرجيل صاحب اللقب الرنان: «الدون بدروجيل». الذي تنامت ذريته وعاشت حياة مزدهرة الحال سعيدة القلوب رغم أنها قصيرة السيقان متقوسة. في حين غدت السيدة جيل. بملابسها الدانتيل المكشكشة المزينة بالحلي من رأسها حتى قدميها. وبخواتمها اللامعة في كل اصبع من أصابعها نموذجاً للتبرج والبهرجة.

أما القاضي وصاحبه فإنهم ما يزالون حتى اليوم مسحورين محتجزين تحت برج الطوابق السبعة العظيم.

وإذا احتاج الناس في اسبانيا ذات يوم إلى الحلاقين الثرثارين أو الحراس القضائيين الشرسين أو القضاة الفاسدين، حينذاك قد يبحثون عنهم. لكن إذا ما كان على هؤلاء أن ينتظروا خلاصهم حتى ذلك الحين. فثمة خطر في أن يدوم سحرهم حتى يوم القيامة.

برج الطفلة

- ذات مساء كنت أتمشى صاعداً الوادي الصغير الضيق المظلل بأشجار التين والرمان والريحان الذي يفصل أرض القلعة عن أرض «جنة الريف»، فأدهشني ظهور رومانسي لبرج عربي في سور الحمراء الخارجي وهو ينتصب عالياً فوق قمم الأشجار ملتقطاً الأشعة الحمراء لشمس الغروب . كانت ثمة نافذة عالية تطل من ارتفاعها ذاك على منظر الوادي . فرحت أنظر إليها . في تلك اللحظة أطلت صبية جميلة ، رأسها مزين بالأزهار ، بدا جلياً أنها أرفع مرتبة من طبقة الناس المألوفة التي تسكن أبراج القلعة القديمة . نظراتها المفاجئة والمثيرة تلك ذكرتني بأوصاف الحسناوات الأميرات في الحكايات القديمة . ثم زاد من ذلك ما أخبرني به صاحبي ماتيو وهو أن ذلك البرج هو برج الأميرات وطبقاً لما تناقلته الأجيال فقد دعي كذلك ، لأنه المسكن الذي كانت تقيم فيه بنات الملوك العرب . بعد أيام زرت البرج فاكتشفت أنه لا يسمح للغرباء عادة بزيارته رغم أنه برج مثير للاهتمام .

فالداخل يوازي، بجمال عمارته، ودقة زخرفته أي جزء آخر من أجزاء القصر. بيد أن روعة القاعة المركزية، بنافورتها الرخامية وأقواسها العالية وقبتها الوافرة الزخرفة ثم الحجرات ذات المنمنمات العربية والزجاج المعشق، رغم ما ترك عليه مرور الزمان والإهمال من آثار، كل ذلك يؤكد أنه كان قديماً قصر الأميرات الحسنات. والحقيقة أن ملكة الجن الضئيلة العجوز التي تقطن تحت سلم درج الحمراء وغالباً ما تتردد في المساء على أبهاء «قبة انطونيا» كان لديها بعض الحكايات الخيالية التي تروى عن ثلاث أميرات عربيات كن ذات يوم حبيسات هذا البرج، وقد أمر بذلك والدهن، ملك غرناطة المستبد، ولم يكن يسمح لهن بالخروج إلا في الليل إذ كن يركبن ظهور خيولهن ويتجولن بين التلال، حيث لا يسمح لأحد بالسير على طريقهن تحت طائلة الموت. وطبقاً لقصتها، فإنه ما يزال بالإمكان رؤيتهن، أحياناً في الليالي القمرية وهن راكبات ظهور خيولهن الصغيرة المزينة السروج وقد رصعت بالجواهر المتلألئة، يجبن الأماكن الخالية في سفوح الجبال، بيد أنهن سرعان ما يختفين إذا ما كلمهن أحد.

لكن قبل أن أقص الزيد عن هؤلاء الأميرات ربما يكون القارئ متلهفاً لمعرفة شيء عن ساكنة البرج الحسناء برأسها المزين بالأزهار، تلك التي أطلت من النافذة العالية. فقد تبين لي أنها المرأة الحديثة الزواج من قيم العاجزين عن الخدمة الرائع، ذاك الذي ظلت لديه الشجاعة، رغم ما أصابته السنون لأن يضم إلى صدره إحدى الفتيات الأندلسيات وهي في ميعة الصبا والجمال. لعل ذلك الفارس العجوز الطيب سعيد في اختياره ولعله أيضاً يجد برج الأميرات هذا المقر الأكثر أماناً لحسناته الجميلة مما كان على ما يبدو أيام العرب المسلمين، إذا ما صدقنا الحكاية التالية:

حكاية الأميرات الحسنات الثلاث:

في قديم الزمان، كان يحكم غرناطة ملك عربي يدعى محمد وقد أضاف رعاياه إلى اسمه لقب الأعسر. البعض يقول إنه دعي كذلك لبراعته في استخدام يده اليسرى أكثر من اليمنى، آخرون يعزون السبب إلى أنه كان ميالاً لتناول كل شيء من الجهة الخطأ، أو بعبارة أخرى تشويه كل ما تمتد يده إليه. لكن سواء كان ذلك بسبب سوء الحظ أو سوء التدبير، فالأكيد أنه كان يواجه المصاعب

والمشاكل باستمرار: لقد عزل عن عرشه ثلاث مرات، وفي إحداها لم ينج بحياته إلا بشق النفس بعد أن تنكر بزي صياد. مع ذلك كان الرجل شجاعاً مقداماً بقدر ما كان أحمق متخبطاً، وعلى الرغم من أنه كان أعسر إلا أن ضربة سيفه لم تكن تخطيء الهدف، وإلى درجة كان يفلح معها كل مرة في استعادة عرشه بشجاعته وشدة مراسه في ميادين الحروب. لكن، بدلاً من أن يتعظ ويستفيد من التجربة، كان يشتد عناداً وتصلباً في رغباته، والشُرور الكثيرة التي جرّها على شعبه تذكرها كتب التاريخ العربية التي تسجل أحداث غرناطة. أما هذه الحكاية فلا تتحدث إلا عن سياسته في بيته ومع أهله أنفسهم. ذات يوم، وكان محمد هذا يتقدم ركباً من حاشيته عند أسفل جبال إلفيرا، التقى بعصبة من الفرسان العائدين من القتال من أرض المسيحيين. في إثرهم رتل طويل من البغال المحملة بالغنائم والكثير من الأسرى، رجالاً ونساء. من بينهم فتاة حسناء ما إن رآها الحاكم حتى أصيب بالدهشة، فقد كانت في أبهى الحلل تركب حصاناً صغيراً وهي تنشج وتبكي غير آبهة بكلمات المواساة التي كانت تواسيها بها وصيفتها الراكبة إلى جانبها.

بهر الحاكم بجمالها الأخاذ ولدى سؤاله قائد الجند، عرف أنها ابنة قائد القلعة الأمامية التي هوجمت على حين غرة ثم سلب ونهب كل ما فيها. في الحال طلب محمد أن تكون الفتاة حصته من الغنيمة وفي الحال أيضاً تم نقلها إلى جناح حريمه في قصر الحمراء. هناك، كان كل شيء معداً للتخفيف عنها وتهئية أحزانها، خاصة أن الحاكم، وقد ازداد شغفاً بها أكثر وأكثر، أراد أن يتخذها زوجة له ويجعل منها ملكة. في البداية، رفضت الفتاة الأسبانية كل محاولاته للتقرب، فهو من غير دينها وهو العدو الصريح لبلادها - لكن أسوأ ما في الأمر أنه كان طاعناً في السن.

قرر الملك، وقد وجد أن محاولاته كلها ضاعت سدى، أن يجند لصالحه الوصيصة التي أسرت مع السيدة. والوصيفة أندلسية المولد لكن لم يذكر أحد اسمها المسيحي فالحكايات العربية لم تذكر لها اسماً آخر غير خديجة الحصيصة - وقد كانت حصيصة بالحقيقة كما يبين ذلك تاريخها كله، إذ ما إن أجرى الملك العربي بعض الحديث الخاص معها، حتى رأت للتوق قوة الحجة والاقناع في ما قاله ووقفت إلى جانبه في قضيته مع الآنسة الشابة.

«هيا ، الآن» صاحت الوصيصة ، ما الذي يستحق منك أن تبكي وتولولي عليه ؟ أليس خيراً لك أن تكوني سيدة هذا القصر الجميل بكل ما فيه من حداثق ونوافير من أن تكوني حبيسة برج والدك الأمامي العتيق؟ أما كون محمد هذا من غير دينك فما الذي يضيره وما علاقتك بهذا؟ إنك تتزوجينه ولا تتزوجين دينه. وإذا ما كان متقدماً في السن بعض الشيء فإنه سرعان ما يتركك أرملة، سيدة نفسك، وعلى أي حال أنت في قبضته وعليك ان تختاري : إما ملكة أو عبدة. لكن حين يكون المرء بين يدي قاطع طريق فإن الأفضل له ان يبيع بضاعته بسعر حسن من أن يأخذها قاطع الطريق بالقوة».

حجج خديجة الحصيصة أجدت أخيراً. فقد جففت السيدة الاسبانية دموعها وأصبحت زوجة محمد الأعسر بل إنها اعتنقت ظاهرياً دين زوجها، الملك. كما أصبحت وصيقتها الحكيمة مباشرة مؤمنة بعقيدة الاسلام متحمسة لها. وحينذاك أخذت اسمها العربي خديجة وسمح لها أن تظل أمينة سر سيدتها. خلال فترة من الزمن أصبح الملك العربي أبا فخوراً وسعيداً لثلاث بنات جميلات وضعتن له الأم في بطن واحد.

صحيح أنه كان يتمنى لو جاؤوا صبياناً لكنه كان يعزّي نفسه بأن ثلاث بنات توائم هو قال حسن لرجل أعسر طاعن في السن!

دعا الحاكم، مثلما هي عادة الحكام المسلمين كافة، عدداً من المنجمين للنظر في هذا الحدث السعيد. ألقى المنجمون بطالع الأميرات الثلاث ثم هزوا رؤوسهم قائلين «البنات، أيها الملك ، ملكية محفوفة بالمخاطر دائماً، لكن هؤلاء بالتحديد سيكون بحاجة أكثر لعينك الساهرة عندما يبلغن سن الزواج، في ذلك الوقت ضمهن تحت جناحك ولا تعهد بهن لأحد يحرسهن أو يرعاهن». كان أفراد الحاشية ينظرون إلى محمد الأعسر باعتباره ملكاً حكيماً، وهكذا بالتأكيد كان ينظر إلى نفسه. تلك النبوءة جعلته يقلق قليلاً، ولا يثق إلا بعبقريته وحدها كي تحرس بناته وتتحدى الأقدار.

كان بطن التوائم الثلاث ذاك آخر الانتصارات التي سجلها الحاكم على الأم - إذ لم تحمل له أولاداً بعد ذلك، ثم قضت نحبها بعد بضع سنوات، تاركة بناتها الصغيرات لحب أبيهم وإخلاص خديجة الحصيصة.

ورغم أنه كان لا بد من مزور سنوات عدة قبل أن تبلغ الأميرات مرحلة الخطر - سن الزواج، إلا أن الحاكم الفهيم قال: مع ذلك، من الحكمة أن يكون المرء حريصاً مسبقاً، ثم اتخذ قراراً بأن تتم تربيتهم في حصن سالبرينا الملكي. وهو قصر فاخر تحتضنه، إن جاز القول، قلعة عربية حصينة تقع على ذروة إحدى الروابي المطلّة على البحر الأبيض المتوسط. لقد كانت ملاذاً ملكياً يرسل الحكام المسلمون إليه من يريدون احتجازه من أقاربهم الذين يرون فيهم خطراً على سلامتهم وأمنهم، حيث يسمح لهم بكل أنواع البذخ والترف والتسلية، ليقضوا حياتهم غارقين في اللذائذ والشهوات. هناك، عاشت الأميرات معزولات عن العالم لكن محاطات بكل ما يمتع ويبهج، تشرف على خدمتهن إماء يلبيّن كل رغبة من رغباتهن قبل أن يعبرن عنها. هناك أيضاً كان لديهن حدائق غناء لإراحتهن وإنعاشهن، فيها كل ما لذ وطاب من الثمار والأزهار. والأشجار الطيبة الرائحة والحمامات المعطرة. من الجهات الثلاث كان الحصن يطل على واد خصيب فيه أصناف المزروعات كلها وتحدّه من الجانب الآخر جبال ألبوكسارا العالية، أما من الجهة الرابعة فيطل على البحر المشمس العريض.

في هذا المسكن الرائع، وفي ذلك المناخ الملائم، حيث السماء الزرقاء الصافية ترعرعت الأميرات الثلاث ليصبحن أجمل النساء، لكن، وعلى الرغم من أنهن جميعاً نشأن النشأة ذاتها فقد أبدین منذ وقت مبكر علائم التباين في الشخصية. أسماؤهن هي زائدة، زريدة، زرهيدة وذلك حسب تسلسل ولادتهن. فحين ولدن، لم يكن يفصل واحدهن عن الأخرى سوى ثلاث دقائق بالضبط.

كانت زائدة، كبراهن، جريئة مقدامة، لها القيادة على أختيها في أمور الدنيا كلها. فضولية كانت أيضاً، محبة للاستطلاع والمعرفة، مولعة بالوصول إلى قاع الأشياء فلا تفوتها شاردة ولا واردة.

أما زريدة فكانت شديدة الاحساس تجاه الجمال، الأمر الذي جعلها، ولا شك، تستمتع كل الاستمتاع بتأمل صورتها في المرآة أو ماء البركة. كما جعلها تولع بالأزهار، بالجواهر والحلي وأشياء الزينة الأخرى، فيما كانت زرهيدة، صغراهن، ناعمة رقيقة، مفرطة الحساسية ذات قدر كبير من الرهافة والشفافية. يدل على ذلك كثرة ما لديها من أزهار وحيوانات وطيور مدللة ترعاها جميعاً بكل ما في الكون من عناية واهتمام. تساليها أيضاً كانت ذات طبيعة راقية تتصل كلها بالتأمل وأحلام اليقظة فهي قد تجلس ساعات في شرفة من الشرفات تحديق إلى

النجوم اللامعة في ليلة صيف أو البحر المتلألئ تحت ضوء القمر وفي أوقات كهذه كانت أغنية صياد تصل خافتة إلى مسامعها من شاطئ البحر أو أنغام ناي عربي آتية من مركب صيد ينزلق على سطح الماء، تكفي لتأجيج مشاعرهما حتى درجة النشوة. مع ذلك، كان أدنى هبوب للرياح يملأ قلبها رعباً وقصف الرعد يكفي لأن يلقي بها أرضاً وقد أغمي عليها.

بهدهوء ورتابة راحت السنون تمر، وخديجة الحصيصة التي عهدت إليها تربية الأميرات مخلصاً لما عهد إليها ترعاهن بكل عناية واهتمام.

كان حصن سالبرينا قد بني، كما قلنا، على رابية مطلة على شاطئ البحر وكان أحد أسواره الخارجية ينحدر مع سفح الرابية إلى أن يصل إلى صخرة بارزة معلقة فوق البحر تماماً، في أسفلها شاطئ رملي ضيق تغسله باستمرار أمواج البحر المزبدة البيضاء - على تلك الصخرة، كان قد أقيم برج مراقبة صغير أشبه بسرادق مجهز بنوافذ مشبكة تسمح فتحاتها بدخول النسيم البحري العليل. هنا، كانت الأميرات قد اعتدن أن يقضين ساعات الظهيرة الحارة.

ذات يوم، كانت زائدة المحبة للاستطلاع تجلس بجوار النافذة، شأنها شأن أخواتها المستلقيات على الأرائك في قيلولة الظهيرة. شيء ما لفت انتباهها. إنه قارب يسير بمحاذاة الشاطئ، ضربات مجذافه محسوبة بدقة. مع اقترابه، لاحظت زائدة أنه مليء بالرجال المسلحين. عند أسفل البرج، توقف القارب: عدد من الجنود العرب نزلوا على الشاطئ الضيق يسوقون أمامهم عدداً من الأسرى المسيحيين. أيقظت زائدة الفضولية أختيها ورحن ثلاثتهن يسترقن النظر خلصة عبر مشبكات النوافذ التي كانت تحجبهن عن النظر. بين الأسرى كان هناك ثلاثة فرسان أسبان فاخري الملابس، في ريعان الشباب عليهم سيماء النبل وتوحي تصرفاتهم كلها برفعة محتدهم وسمو مكانتهم رغم كل ما كانوا يحملونه من أصفاد وكل ما يحيط بهم من أعداء. باهتمام شديد وانكتم أنفاس تام، لاحقتهم الأميرات بأنظارهن، هن اللواتي كن قد احتجزن في ذلك الحصن، بين خدم من الإماء دون أن يرين من الجنس الآخر إلا العبيد السود أو صيادي البحر الغلاظ، فلا عجب إن أثار ظهور ثلاثة فرسان في ميعة الصبا وعز الشباب وروعة الرجولة مثل ذلك الجيشان في صدورهن.

«هل عرفت الأرض فارساً أكثر نبلاً من ذلك الفارس ذي الثوب القرمزي؟»
صاحت زائدة كبرى الأخوات. « انظروا ، كم هو عظيم الكبرياء لكأن كل من حوله
عبيد وأتباع». «لكن لاحظا ذلك الفارس أخضر الملابس » هتفت زريدة «أي
سحرا!! أية روعة!! أية همة ونشاط؟»

غير أن زرهيدة الرقيقة لم تقل شيئاً بل كتمت في نفسها تفضيلها للفارس
ذي الحلة الزرقاء.

ظلت الأميرات يتابعن النظر إلى الأسرى إلى أن غابوا عن البصر، بعدئذ
صعدن الآهات الطويلة ملتفات الواحدة إلى الأخرى لحظة من الزمن ثم جلسن
على أرائكهن ساهمات متفكرات. على تلك الحالة وجدتهن خديجة الحصيفة.
روين لها ما شاهدن حين سألتهن عن السبب، فامتلاً حتى قلب خديجة المتيبس
بدفء المشاعر.. « يا للصبايا المسكينات » !! هتفت خديجة «إنني لأراهن أن
أسرهم يجعل كثيراً من قلوب الحسان تنفطر عليهم في بلادهم! آه ، يا بناتي!!
إنكن لا تعرفن إلا القليل عن الحياة التي كان يعيشها هؤلاء الفرسان في أوطانهم.
كم هم متألقون في مبارزاتهم!! كم تراهم يعبدون النساء!! كم يغازلونهن ويعزفون
لهن الموسيقى!!».

وللتو، أثير فضول زائدة، هي التي لم يكن يشبع فضولها شيء ولا يروي
حب استطلاعها شيء، فراحت تستجر وصيفتها لتأخذ منها أقصى ما تستطيع
من معلومات وأخبار، صور ومشاهد عن أيام شبابها ووطنها الأم. زريدة الجميلة
شمخت بأنفها عالياً وبكثير من المكر نظرت إلى نفسها في المرآة حين تحول
الحديث إلى ذكر مفاتن السيدات الاسبانيات وسحرهن، في حين كتمت زرهيدة
آهة حرى لدى ذكر أغاني العشاق وعزفهم الأنغام تحت ضوء القمر. يوماً بعد
يوم، راحت زائدة الشديدة الفضول تجدد أسئلتها واستفساراتها ويوماً بعد يوم
راحت الوصيفة الحكيمة تعيد قصصها لتصفى الأميرات بكل عناية واهتمام
تقطعها الزفرات والآهات. أخيراً تنبهت العجوز الحصيفة للأذى الذي قد تسببه
لهن. لقد اعتادت أن تفكر بالبنات وكأنهن ما يزلن طفلات صغيرات ، لكنهن،
ودون أن تلحظ ذلك، كن قد كبرن ونضجن، وها هن أمام عينيها ثلاث فتيات
جميلات في سن الزواج. لقد حان الوقت، فكرت الوصيفة، لأن تلفت نظر الملك.

ذات صباح، كان محمد الأعسر يجلس على مقعد من مقاعد صالة الحمراء الباردة، حين دخل عبد من عبيد حصن سالبرينا حاملاً رسالة من خديجة الحصيفة، تهنئه فيها بذكرى ميلاد بناته الثلاث، في الوقت نفسه قدم له العبد سلة صغيرة دقيقة الصنع مزخرفة بالأزهار في داخلها، وعلى مفرش من أوراق التين والعنب، ثلاث ثمرات:

خوخة، مشمشة، دراقة ما يزال الزغب وقطر الندى عليها وهي جميعاً في المرحلة الأولى من النضج المغربي. كان الحاكم بارعاً في لغة الثمار والأزهار الشرقية وسرعان ما أدرك المغزى من ذلك العرض المفعم رموزاً ودلالات.

«هكذا إذن» قال الحاكم «قد بلغن المرحلة الحرجة التي أشار إليها المنجمون: بناتي بلغن سن الزواج ما الذي ينبغي فعله؟ لقد أبعدتهن عن أعين الرجال لينشأن تحت سمع خديجة الحصيفة وبصرها، لكن الآن، وكما حدد لنا المنجمون: يجب أن أضمنهن تحت جناحي ولا أعهد برعايتهن لأحد سواي».

قال ذلك ثم أمر بإعداد برج الحمراء لاستقبالهن، متوجهاً على رأس حراسه إلى حصن سالبرينا كي يعود بهن بنفسه. كانت قد مضت ثلاث سنوات على آخر مرة رأى فيها محمد الأعسر بناته ولم يكن يصدق عينيه للتغير العجيب الذي تركته تلك الفترة الوجيزة من الزمن على هيئتهن وشكلهن. فخلالها، كن قد عبرن ذلك الخط الفاصل في حياة الأنثى بين الفتاة الفجة غير المتبلورة عديمة التفكير وبين المرأة المفكرة المتفتحة المزدهرة أنوثة ونضجاً. إنه أشبه بالانتقال من سهول لامانش المنبسطة الخاوية غير المثيرة للاهتمام إلى وديان الاندلس وروابيها الخصبة الزاهرة.

كانت زائدة طويلة القامة حسنة البنية، بصرها ثاقب وسلوكها رفيع راق: بخطوة واثقة ومهابة وتجلة دخلت إلى محمد تقدم فروض الولاء والطاعة معاملة إياه كملك حاكم أكثر منه أباً.

أما زريدة فكانت متوسطة الطول ذات نظرة إغراء وهيئة ساهمة وجمال متألق زادت منه الزينة والتبرج. دنت من أبيها متبسمة قبلت يده ثم رحبت به بعدد من أبيات الشعر العربي الشهيرة التي سر لها الحاكم وابتهج. فيما كانت زرهيدة حيية خجولاً أصغر من أختيها حجماً، جمالها من ذلك النوع الرقيق المتضرع الذي يبحث عن الودع والحماية. هيئتها لم تكن تناسب أن تكون أمرة.

كأختها الكبرى، أو أن تبهر العين كأختها الثانية، بل هي تكونت بحيث تتسلل إلى قلب الرجل، تعشش فيه وتمتلك عواطفه وترضى . وهكذا ، دنت من أبيها ، بخطوة مرتعشة مترددة تقريبا. ثم أخذت يده كي تقبلها ، لكن ما إن نظرت إلى وجهه ورأته يشع بابتسامة أبوية حتى انبجس للتو كل ما في قلبها من رقة ولطف ، فألقت بنفسها على صدره وذراعاها حول عنقه .

راح محمد الأعسر يتأمل بناته البالغات أوج النضج بمزيج من الكبرياء والحيرة، وعلى الرغم من أنه كان مغتبطاً لما هن عليه من سحر وفطنة، إلا أنه كان ما يزال يفكر بنبوذة النجمين. «ثلاث بنات! ثلاث بنات!» راح الملك يكرر مهمهما لنفسه «وكلهن في سن الزواج . ها هنا تفاحة الجنة المغربية ولا بد لها من تنين يحرسها».

بعدئذ بدأ استعداداته للعودة إلى غرناطة فأرسل الرسل أمامه آمراً أن تخلي الطرقات التي سيمر بها وأن تقفل النوافذ والأبواب كلها لدى اقتراب الأميرات. ثم ما إن تم هذا حتى انطلق ترافقه ثلة من الفرسان السود بدورهم اللامعة وهيئتهم المخيفة.

بجانب الملك، سارت الأميرات محجبات الوجوه على خيول صغيرة جميلة بيضاء، غطيت ظهورها بالقطيف والمخمل وزينت بالذهب. شراشيبها تصل حتى الأرض. الشكاثم والركابات من الذهب واللجم حريرية مزينة باللؤلؤ والحجارة الكريمة. كذلك كانت الخيول الصغيرة مزينة بأجراس فضية صغيرة تطلق أعذب الرنين وأحلى الأنغام وهي تهتز مع حركة الخيول. لكن الويل الويل للغافل التعيس الذي يظل على الطريق حين يسمع رنين تلك الأجراس — فقد صدرت الأوامر إلى الحراس بأن يقطعوا رأسه دونما رحمة.

راح الموكب يقترب من غرناطة. وحين بلغ ضفة نهر زنيل التقى بثلة صغيرة من الجنود العرب وهم يسوقون أمامهم رتلاً من الأسرى. كان الأوان قد فات لأن يخلي الجنود الطريق ، لذلك انكبوا بوجوههم على الأرض آمرين أسراهم أن يفعلوا مثلهم. بين الأسرى كان الفرسان المتشابهون الثلاثة الذين شاهدتهم الأميرات من سرادقهن في الحصن. ولأنهم لم يفهموا الأمر أو كانوا أكثر ترفعاً وإباء من أن يطيعوه فقد ظلوا واقفين يحدقون إلى الموكب وهو يعبر بهم.

اشتعل الحاكم غضباً لذلك التحدي الوقح لأوامره، فشهر سيفه واندفع قدماً بل كاد يسدد ضربة منه بيسراه لأحد أولئك الثلاثة، ضربة ربما تكون قاتلة، حين أسرع الأميرات وتجمعن حوله، طالبات الرحمة للأسرى. بل حتى زرهيدة الحبيبة الخجول نسيت خجلها وغدت في غاية الفصاحة دفاعاً عنهم. توقف محمد وسيفه مشهور عالياً، فيما أسرع قائد الجند لإلقاء نفسه عند قدميه قائلاً: «يا جلالة الملك، أتوسل إليك لا تقم بعمل ربما يثير فضيحة كبرى في أرجاء المملكة كلها. هؤلاء هم الفرسان الاسبان الثلاثة النبلاء الشجعان الذين أسرناهم في المعركة، بعد أن قاتلوا كالأسود. إنهم من محتد كريم وربما يعودون علينا بفدية عظيمة». «حسبك» قال الملك «سأعفو عنهم فلا أقتلهم، لكن عاقبهم على وقاحتهم - خذهم إلى الأبراج القرمزية وافرض عليهم الاشغال الشاقة». بذلك، كان محمد قد ارتكب واحدة من حماقاته الفظيعة المعهودة. ففي قلب الجلبة والاضطراب الذي أحدثه ذلك المشهد كانت حجب الأميرات الثلاث قد سقطت عن وجوههن كاشفة ألق جمالهن، ولكي يزداد الطين بلة، فقد أتاح الحديث الذي جرى بين الملك والقائد، الفرصة لذلك الجمال لأن يترك تأثيره الكامل عليهم. ومن الجدير بالذكر أن الناس في تلك الأيام كانوا يقعون في الغرام على نحو متأجج وأسرع بكثير من الأيام الراهنة .

كما تبين ذلك القصص القديمة كلها: لهذا لا عجب أن قلوب الفرسان الثلاثة قد وقعت أسيرة الحب والغرام، خاصة وأنه خالط الاعجاب لديهم العرفان والامتنان: لكن الغريب الفريد قليلاً، رغم أنه أكيد إلى حد كبير، أن كلاً منهم وقع أسير حب واحدة من الأميرات. أما هؤلاء فقد كن أكثر اندهاشاً أيضاً بسلوك الأسرى النبيل فحملن في قلوبهن كل ما سمعنه عن شجاعة ونبل أولئك الفرسان.

استأنف الموكب سيره، الأميرات الثلاث على ظهور خيولهن الصغيرة يسرن مطرقات متفكرات ومن حين إلى آخر يختلسن نظرة إلى الوراء بحثاً عن الأسرى الاسبان فيما كان هؤلاء يساقون الى سجنهم في الأبراج القرمزية.

وصلت الأميرات إلى المقر المخصص لهن وهو واحد من أروع القصور التي يمكن للخيال أن يتصورها . إنه في برج منفصل نوعاً ما عن قصر الحمراء الرئيسي. على الرغم من أنه يتصل به من خلال السور الذي يحيط بذروة الرابية كلها. من إحدى الجهات كان يطل على داخل القلعة، وفي الأسفل منه، كانت ثمة حديقة صغيرة ملأى بأندر الزهور. من الجانب الآخر، كان يطل على واد عميق كثيف

الأشجار يفصل أرض الحمراء عن أرض «جنة الريف». أما داخل البرج فكان مقسماً إلى أجنحة صغيرة خرافية الجمال والزينة وقد زخرفت وفق الطراز العربي، تحيط بقاعة عالية ذات سقف مقبب يكاد يصل إلى قمة البرج. جدران القاعة وسقفها كلها مزينة بالأرابيسك والنقوش الشبكية، مزخرفة بخيوط الذهب والفضة. في منتصف الأرض المبلطة بالرخام كانت هناك بركة من مرمر محاطة بشجيرات الأريج والأزهار، تندفع منها نافورة ماء تبرد الصرح كله ويحمل صوتها السكينة والهدوء للنفوس. حول القاعة نصبت أقفاص من أسلاك الذهب والفضة، في داخلها طيور غريدة تزهو بأجمل الريش وتشدو أعذب الألحان.

هنا أيضاً، وكما كان الأمر في حصن سالبرينا، أعد للأميرات كل ما يسرهن ويبهجهن. توقع الملك أن يراهن وقد أخذ قصر الحمراء بآلبابهن. لكن، لدهشته، بدأت الأميرات بالشكوى والتذمر كما أصبحن أميل للاكتئاب لا يرضيهن شيء مما حولهن، فالزهور لم تعد تحمل لهن العبق وتخريد العنادل بات يقض مضاجعهن، كما برمن بنوافير الرخام والمرمر وهي ترسل ماءها ورذاذها الرتيب المل من الصباح حتى المساء ومن المساء حتى الصباح.

في البداية أثار هذا حنق الملك، هو الغزق السريع الغضب الأميل للبطش والطغيان، لكن بعدئذ فكر أن بناته بلغن السن التي يتسع فيها عقل الأنثى وتزداد رغباتها. «لم يعدن صغيرات» قال لنفسه «إنهن فتيات ناضجات ولا بد لهن من أشياء مناسبة تثير اهتمامهن».

لهذا أرسل في طلب أمهر الخياطين وأبرع الجواهريين والصاغة في أسواق غرناطة لتبهر الأميرات بعد ذلك باثواب الحرير والخز والديباج، بشالات الكشمير وعقود اللؤلؤ والماس، الخواتم والأساور والخلاخل وكل ما هناك من حلي وأشياء ثمينة. لكن ذلك كله ذهب سدى، فقد ظلت الأميرات شاحبات الوجوه، خاملات وسط حليهن وزينتتهن أشبه بثلاثة براعم ورد ذابلات، متدليات من ساق نبتة واحدة. كاد الملك يفقد صوابه، هو الذي كان يثق ثقة عمياء بأحكامه ولم يكن يأخذ نصيحة أحد فقال مخاطباً نفسه «نزوات ثلاث فتيات في سن الزواج ورغباتهن تكفي لأن تحير أدهى الرجال». وهكذا، وللمرة الأولى في حياته، طلب العون والنصح من أحد، ولم يكن ذلك الأحد سوى الوصيقة الخبيرة المجربة.

«خديجة» قال الملك «أنا أعلم أنك واحدة من أحصف النساء في الدنيا وأكثرهن حكمة وجدارة. لهذه الأسباب أبقيتك دائماً موضع ثقتي واميئة سر بناتي فالآباء لا يمكن أن يكونوا موضع سر بناتهم، والآن أرغب كثيراً أن تعرفي لي ذلك المرض الخفي الذي ينهش جوف الأميرات وأن تجدي لي وسيلة، لاستعادة صحتهن وعافيتهن».. وعدته خديجة بالطاعة. والحقيقة كانت خديجة ضمناً تعرف مرض الأميرات أكثر مما يعرفه هن أنفسهن. مع ذلك. أغلقت على نفسها الأبواب معهن، باذلة جهدها لأن تتغلغل داخل نفوسهن. فيبحن لها بالسر. «ياطفلاتي العزيزات، ما سر شحوبكن وذبولكن في مكان جميل كهذا. فيه كل ما تشتهي النفس؟؟؟»

بنظرات خاوية تطلعت الأميرات حولهن ثم صعدن الآهات «ماذا تردن بعد؟ هل آتي لكن باللبغاء العجيب الذي يتكلم كل اللغات، متعة غرناطة وبهجتها كلها».

«طائر كرية!!» هتفت الأميرة زائدة «فظيع!! مرعب!! يهذر بالكلام دون أفكار: ولا بد ان يكون المرء بلا دماغ البتة كي يتحمل لغة كهذه!!».

«هل آتي لكن بسعدان من جبل طارق يسليكن بألاعيبه» «سعدان!! تباً!!» صاحت زريدة «ذاك المقلد البشع للإنسان!! أنا أكره ذلك الحيوان الذي يدعو للغثيان!!» «ما رأيكن بقاسم، المغني الأسود الشهير في جناح الحريم في مراکش؟ يقولون إن صوته أرق من صوت المرأة».

- «لا، منظر أولئك الخصيان السود يرعبني» قالت زرهيدة الرقيقة «علاوة على ذلك فقدت كل لذة واستمتاع بالموسيقى» «آه، يا طفلتي!! ما كنت لتقولي ذلك» أجابت المرأة العجوز بكثير من المكر والدهاء «لو سمعت الموسيقى التي سمعتها ليلة البارحة من الفرسان الاسبان الثلاثة الذين التقينا بهم في طريقنا إلى هنا، لكن بالله عليكم يا طفلاتي. ما الأمر الذي يشغلكن هكذا ويجعلكن في مثل هذا الحال من الهم والغم؟».

«لا شيء، لا شيء، أيتها الأم الطيبة، الرجاء تابعي». «حسناً، بينما كنت مارة بقرب الأبراج القرمزية ليلة البارحة رأيت الفرسان الثلاثة يرتاحون بعد عناء نهارهم كله. أحدهم كان يعزف على الغيتار عزفاً رائعاً والآخرون كانوا يغنيان بالتناوب وكانا يفعلان ذلك على نحو جعل حتى الحراس يجمدون كالتمائيل و

الرجال المسحورين. ليسامحني الله. فأنا نفسي لم أستطع إلا أن أتأثر وأنا أسمع أغاني وطني، وأرى ثلاثة شبان بذلك الجمال والنبيل وهم يرسفون بالقيود والأغلال». هنا، لم تستطع العجوز الرقيقة القلب أن تحبس دموعها فانهمرت، «لعلك يا أم، تستطيعين أن تتدبري الأمر فنرى أولئك الفرسان» قالت زائدة فعقبت زريدة «أظن أن بعض الموسيقى قد يكون علاجاً ناجعاً»؟

أما زريدة الخجول فلم تنبس ببنت شفة لكنها القت بذراعيها حول عنق خديجة.

«رحمتك يارب! هتفت العجوز الحصيصة «عم تتكلمن يا طفلاتي؟ سيميتنا كلنا أبوكن إذا ما سمع بشيء كهذا. صحيح أن هؤلاء الفرسان كريمو المحتد، حسنو التربية، رفيعو التفكير، لكن ماشأننا وذلك! إنهم أعداء الدين وعليكن ألا تفكرن بهم إلا بالكراهية والبغضاء». لكن من المعروف أن الأنثى حين ترغب بشيء، تغدو جريئة مقدامة إلى حد يثير الإعجاب، خاصة حين تكون في سن الزواج، فلا تعود تخشى الأخطار والأهوال. وهكذا، تعلقت الأميرات بوصيفتهن العجوز، داعبنها، توسلن إليها ثم أعلن أن رفضها لطلبهن سيحطم قلوبهن، فما عساها تفعل؟ هي بالتأكيد كانت أحكم النساء في الدنيا كلها وأكثر الخدم اخلاصاً وطاعة للملك، لكن هل بوسعها أن ترى الأميرات الجميلات الثلاث وقلوبهن تتحطم من أجل أنه غيتار لا غير؟

علاوة على ذلك، وعلى الرغم من أنها كانت قد قضت سنين طويلة بين العرب، وغيرت دينها حاذية حذو أميرتها، ككل تابعة مخلص، إلا أنها كانت اسبانية المولد وكانت آثار المسيحية ما تزال راسخة في قلبها، وهكذا، انطلقت تفكر كيف يمكنها أن تتدبر الأمر فتحقق رغبة الأميرات.

كان الأسرى الاسبان، المحتجزون في الأبراج القرمزية بعهدة آمر عريض المنكبين طويل الشاربين يدعى حسين. بابا يشتهر بأنه صاحب أكثر الأيدي حكماً، فذهبت إليه سراً زالقة قطعة كبيرة من الذهب في يده قائلة «حسين بابا، سيداتي الأميرات الثلاث اللواتي يعشن منعزلات في البرج، وبأمر الحاجة للتسلية، سمعن عن المواهب الموسيقية لفرسانك الاسبان الثلاثة ويرغبن كل الرغبة بسماع عينة من مهارتهن، إنني واثقة أنك طيب القلب ولا يمكنك أن ترفض تلبية رغبة بريئة كهذه».

«ماذا؟ أعرض رأسي لأن يعلق فوق بوابة برجى!! إن ذلك وحده ما ينتظرني إذا ما اكتشف الملك الأمر».

«لا تخف، فليس هنالك خطر من أي نوع. بإمكاننا أن نتدبر الأمر بحيث نلبي رغبة الأميرات دون أن يدري والدهن بشيء. أنت تعرف الوادي العميق بجانب السور الذي يمر مباشرة تحت البرج. دع الأسبان الثلاثة يعملون هناك وفي الاستراحات الفاصلة بين فترات عملهم، دعهم يعزفون ويغنون، كما لو أن الأمر كله من أجل راحتهم. بهذه الطريقة، تكون الأميرات قادرات على سماعهم من نوافذ البرج وتكون أنت على ثقة من أنهن سيدفعن لك جيداً لقاء طاعتك».

حين انتهت العجوز الطيبة خطابها، كبست بكل لطف يد الأمر الخشنة بقطعة أخرى من الذهب. حينذاك تبين أن فصاحتها لا تقاوم ففي اليوم التالي بالذات، سيق الفرسان الثلاثة إلى العمل في الوادي. عند الظهيرة، والحر على أشده، أوى زملاؤهم السجناء للراحة في الظل وغدا الحارس ينوس برأسه غافياً. حينذاك جلسوا ثلاثتهم بين الشجيرات عند أسفل البرج وراحوا يغنون أغنية إسبانية تصحبها أنغام الغيتار. كان الوادي ضيقاً عميقاً والبرج عالياً، مع ذلك كانت أصواتهم تعلو فريدة متميزة في سكونية الظهيرة الصيفية وهدايتها. من شرفتهن، راحت الأميرات اللواتي علمتهن وصيفتهن اللغة الإسبانية، يصخن السمع ولشد ما أثارتهم رقة الكلمات وروعة الغناء. لكن على العكس، فقد صدمت خديجة الحضيضة شر صدمة. «ليحمننا الله!!» هتفت خديجة «إنهم يغنون أغنية حب موجهة لكن انتن. فهل سمع أحد من البشر بمثل هذه الوقاحة! سأمضي إلى أمرهم فأجعله يرفعهم قلقة».

«ماذا؟ قلقة لفرسان نبلاء كهؤلاء يغنون مثل هذا الغناء!!» هتفت الأميرات الجميلات الثلاث وقد ملأ الهلع قلوبهن. ورغم كل ما أثارتة فضيلتها من سخط، إلا أن العجوز الطيبة كانت ذات طبيعة متسامحة، فهدأتها الأميرات بسهولة، إضافة إلى ذلك فقد بدا وكأن للموسيقى أثراً سحرياً على سيداتها الشابات إذ تسلسل شيء من لون الورد ونضارته إلى وجناتهن كما بدأت أعينهن باللمعان، لذلك، لم تبد المزيد من الاعتراض على أغاني الحب التي راح يغنيها الفرسان. حين انتهت تلك الأغاني لبثت الأميرات صامتات حيناً من الزمن. أخيراً، أمسكت زريدة العود، وبصوت عذب رخيم، رغم أنه خافت مرتعش، راحت

تدندن مقطوعة صغيرة من الشعر العربي مغزاها «الوردة تحجبها الأوراق ، لكنها تصغي بابتهاج لتغريد العندليب».

منذئذ فصاعداً، راح الفرسان يعملون كل يوم تقريباً في الوادي. كما غدا حسين بابا الرؤوف أكثر وأكثر رافة ويوماً بعد يوم أكثر ميلاً للنوم أثناء حراسته. وهكذا استمر فترة من الزمن، ذلك التواصل الغامض عبر الأغاني الشعبية والقصص التي تغنى، وكأن كلاً منها رد على الأخرى، حاملة مشاعر الطرفين. شيئاً فشيئاً بدأت الأميرات يظهرن على الشرفة، حين يكون باستطاعتهن ذلك ودون أن يراهن الحراس. كذلك، رحن يتحادثن مع الفرسان بواسطة الأزهار، تلك اللغة الرمزية التي تعرفن إليها بصورة مشتركة لكن صعوبات التواصل ذاك زادت من سحره وألهبت المشاعر التي أحس بها كل من الأميرات والفرسان، فأعظم لذائذ الحب هي أن يصارع المحب العقبات ويتغلب على الصعاب. ولشد ما ادهش الملك الأعسر وسره ذلك التغير الذي ظهر على هيئة الأميرات وأرواحهن نتيجة ذلك التواصل السري، لكن لا أحد كان أكثر بهجة من خديجة الحصيفة التي اعتبرت الأمر كله نتيجة حنكتها وحسن تدبيرها.

بعد حين من الزمن، حدث انقطاع في ذلك التواصل التلغرافي: إذ كف الفرسان الثلاثة أياماً عدة عن الظهور في الوادي. وأياماً عدة ظلت الأميرات يطللن من برجهن ناظرات إلى الوادي عبثاً.

وعبثاً كن يمددن أعناقهن الشبيهة باعناق البجع من الشرفة، كذلك عبثاً كن يغنين كالعنادل في أقفاصها فلا أثر لفرسانهن العشاق ولا نغمة تسمع من أجمات الأشجار. في الحال، انطلقت خديجة الحصيفة بحثاً عن الخبر اليقين، ثم عادت سريعاً وعلى محياها سيماء الانزعاج.

«آه ، يا طفلاتي ! !» هتفت خديجة «كنت أرى ما يمكن ان ينتهي إليه هذا كله، لكن أنتن سرتن على هذا الطريق، والآن يمكن ان تعلقن عيدانكن على أشجار الصفصاف.

فقد أرسل الاسبان لأبيكن الملك فدية فرسانهم، وهم الآن في غرناطة يستعدون للعودة إلى وطنهم».

تلك الأخبار دفعت بالأميرات الحسنات الثلاث إلى هاوية اليأس. زائدة أحست بالحنق للاستهتار الذي عاملهن به فرسانهن وقد هجروهن دون كلمة

وداع، أما زريدة فراححت تعصر كفيها ناشجة باكية، ثم تنظر إلى المرأة لتمسح دموعها وتبكي من جديد. في حين اتكأت زرهيدة الرقيقة على حاجز الشرفة تبكي بصمت فتتنزل دموعها قطرة قطرة على أزهار الضفة حيث كان الفرسان الغادرون غالباً ما يجلسون.

عملت خديجة كل ما في وسعها للتخفيف من أحزانهن «أرحن أنفسكن يا طفلاتي!!» قالت خديجة «فهذا لا شيء حين تعتدن عليه. هكذا الحياة وهكذا سنة الكون.

آه!! حين تصبحن في سني ستعرفن كيف تقدرن هؤلاء الرجال. إنني أعتقد أن هؤلاء الفرسان محبوباتهم بين حسان قرطبة واشبيلية الاسبانيات وسرعان ما يذهبون غداً فيعزفون لهن ويغنون تحت شرفاتهم ودون ان يفكروا لحظة واحدة بالحسنات العربيات في الحمراء. لذلك، اهدأن، يا طفلاتي واطردنهم من قلوبكن».

غير أن كلمات التهدة التي نطقت بها خديجة الحصيفة لم تفعل سوى أنها زادت من حزن الأميرات الثلاث واكتئابهن وطوال يومين كاملين ظللن صامتات حزينات لا يجدن سلواناً أو عزاء. صباح اليوم الثالث، دخلت العجوز الطيبة جناحهن، تتميز حنقاً وغيظاً.

«من تراه يثق برجل من الرجال متغطرس مهيمن إلى هذا الحد!!» هتفت خديجة حالما وجدت الكلمات التي تعبر عما في نفسها «لكنني أستحق ذلك، أنا التي ساهمت في خداع والدكن الكريم. لا تكلمنني بعد الآن كلمة واحدة عن فرسانكن الاسبان».

«لماذا؟ ما الذي حدث يا خديجة الطيبة؟» هتفت الأميرات قلقات مقطوعات الأنفاس.

«ما الذي حدث؟ خيانة عظمى حدثت بل ما هو أسوأ من الخيانة العظمى بالنسبة إلي، أنا أكثر الرعية اخلاصاً!! أكثر الوصيفات ولاء!! أجل يا طفلاتي!! لقد تجرأ الفرسان الاسبان على التآمر معي كي أقنعكن بالهروب معهم إلى قرطبة وتصبحن زوجاتهم!».

هنا، غطت العجوز الحصيفة وجهها بيديها، مسلمة نفسها لنوبة شديدة من الحزن والحنق في حين شحبت وجوه الأميرات الحسنات الثلاث ثم راح لونهن يتغير، من شاحب إلى أحمر ومن أحمر إلى شاحب كما بدأن يرتعشن مطرقات إلى الأرض مسترقات نظرات خجلى واحدتهم إلى الأخرى لكن دون ان ينبسن بحرف واحد. في غضون ذلك، كانت العجوز الطيبة جالسة تتأرجح إلى الأمام والخلف باضطراب شديد لتنفجر من حين إلى آخر هاتفة متعجبة «ساكنت اتصور أبداً أن أعيش إلى أن توجه لي مثل تلك الإساءة - أنا أكثر الاتباع إخلاصاً ووفاء!!»

أخيراً، اقتربت منها زائدة، كبرى الأميرات، التي كانت دائماً أعلاهن همة وأجدرهن بالقيادة، وضعت يدها على كتفها مربتة قائلة: «حسناً يا أم، لنفترض أننا نرغب بالهروب مع هؤلاء الفرسان الاسبان - أهو أمر ممكن؟».

فجأة توقفت العجوز الطيبة عن النشيج والبكاء متطلعة إلى الأعلى «ممكن!!» رددت المرأة كالصدى «تأكدي أنه ممكن. ألم يسبق للفرسان أن رشوا حسين بابا، آمر الحرس، ورتبوا الخطة كلها؟ لكن قبل ذلك. لنفكر كيف لي أن أخدع والدكن!! هو الذي وضع بي مثل هذه الثقة!!» هنا، أسلمت المرأة الرائعة نفسها مرة ثانية لنوبة من النشيج والبكاء، ومرة ثانية بدأت تهتز إلى الأمام والخلف، فاركة كفيها عاصرة إياهما عصراً. «لكن والدنا لم يمنحنا أية ثقة» قالت الأميرة الكبرى «بل منح ثقته للقضبان والأقفال، معاملاً إيانا كأننا أسيرات».

«بالحقيقة، هذا صحيح تماماً» أجابت العجوز وقد كفت من جديد عن النحيب والبكاء «لقد عاملكن أسوأ معاملة حابساً إياكن هنا لتبددن زهرة عمركن في برج عتيق بال، كما تترك الوردات للذبول في مزهريسة. لكن... أن تهربن من وطنكن!!».

«أليست البلاد التي سنهرب إليها هي موطن امنا حيث يمكننا ان نعيش في حرية؟ ألن يكون لكل منا زوج شاب بدلاً من أب عجوز قاس؟».

«أجل... ذلك صحيح كل الصحة أيضاً.. إذ لا بد من الاعتراف ان أباكن طاغ مستبد: وماذا إذن» استأنفت وهي تعود من جديد الى نحيبها «يجعلني أبقي بعدكن كي أتحمّل هول انتقامه؟».

«أبداً يا خديجة الطيبة، لا حاجة بك لذلك.. ترى ألا يمكنك الهروب معنا».

«صحيح.. تماماً صحيح يا طفلي، ولكي أقول لك الصدق، فقد وعدني حسين بابا حين حدثته بالأمر، أن يوليني كل رعاية، إذا ما رافقتك في هربك. لكن ، مع ذلك، فكرن يا طفلاتي، أترغبن حقاً في الارتداد عن دين أبيكن؟»

«المسيحية هي دين أمنا الأصلي» قالت الأميرة الكبرى «واني على استعداد لاعتناقها من جديد، كذلك أختاي، أنا واثقة كل الثقة».

«حسن أيضاً» هتفت العجوز وقد تألق وجهها «إنه دين أمكما الأصلي ولشد ما بكت، وهي على فراش الموت، أنها تخلت عن دينها، ولقد وعدتها حينذاك أن أهتم برعاية ارواحكن، وإنه ليسرني كثيراً أن أرى الآن أننا في الطريق الصحيح للنجاة، أجل يا طفلاتي، أنا أيضاً نشأت على الدين المسيحي وظللت كذلك في قلبي، واني الآن مصممة على العودة إليه، لقد كلمت في ذلك الأمر حسين بابا، هو الاسباني المنشأ الذي ينحدر من عائلة لا تسكن بعيداً عن مسقط رأسي. إنه تواق أيضاً لأن يري موطنه وأن يعود إلى دينه، ولقد وعد الفرسان ، إن كنا نرغب في أن نكون زوجاً وزوجة، ان يوفروا لنا كل إمكانيات الزواج حين نعود الى الوطن».

بوجيز العبارة، تبين ان تلك العجوز البالغة الحصافة ، العظيمة الحكمة كانت قد عقدت مشاورات مع الفرسان الاسبان وأمر الحرس، ورتبت خطة الهروب بكاملها. في الحال وافقت الأميرة الكبرى على الخطة ثم جذت حذوها، كما هي العادة، أختاها الاثنتان. صحيح ان الصغرى ترددت قليلاً، لأنها ضعيفة القلب جبانة وكان ثمة صراع في داخلها بين مشاعرها البنوية وعواطفها الشابة: لكن في النهاية كان النصر للعواطف والشباب. وهكذا، بدموع صامتة وآهات مكتومة، شرعت تعد نفسها للهروب.

في تلك الأيام، كان تخترق الرابية الوعرة التي بنيت عليها الحمراء ، ممرات تحت الأرض ، حفرت في قلب الصخر، تفضي من القلعة إلى مختلف أنحاء المدينة وكذلك إلى مرافئ بعيدة على ضفاف الدارة والزنيل، فالملوك العرب المغاربة كانوا قد أقاموها في أزمنة مختلفة كوسيلة للفرار إن قامت ثورة مفاجئة أو عصيان مباغت أو كان لدى أحدهم مشروع خاص يريد الانطلاق إليه سرا. كثير من تلك الممرات ضاع الآن تماماً، في حين ما يزال بعضها باقياً حتى اليوم يملؤه الركام هنا وهناك أو تسده الجدران هنا وهناك، بقايا الاحتياطات النابعة من

الحسد والغيرة والخطط الحربية التي خلفتها الحكومات آنذاك. عبر واحد من تلك الممرات، قرر حسين بابا ان ينقل الأميرات إلى المرفأ النهري خلف أسوار المدينة، حيث كان على الفرسان ان يأتوا بخيول تسابق الريح كي يعبروا بها الحدود. جاءت الليلة المحددة: برج الأميرات كان قد أقفل بالقفل والمفتاح كالعادة، وقصر الحمراء كان مستغرقا في سبات عميق. قرب منتصف الليل، خرجت خديجة الحصيفة إلى شرفة النافذة المطلة على الحديقة لتصيخ السمع. في الأسفل، كان حسين بابا، آمر الحرس، قد وصل من قبل، فأعطاهم الإشارة المحددة.

حينذاك ثبتت الوصيفة طرف السلم المصنوع من الحبال إلى الشرفة ثم أنزلته إلى الحديقة ونزلت عليه. وللتو، تبعها الأميرتان الكبيرتان بقلبين يخفقان، لكن حين جاء دور الأميرة الصغرى، زهيدة، ترددت وارتعشت. عدة مرات غامرت في وضع قدمها الصغيرة الرقيقة على السلم وفي كل مرة كانت تسحبها من جديد، في حين كان قلبها الصغير المسكين يرتعش أكثر ويخفق أكثر كلما تأخرت أكثر. حينذاك ألقت نظرة إلى الوراء، حيث حجرتها المكسوة بالحبر، تلك التي عاشت فيها، بالتأكيد، مثل طائر في قفص، لكن في أمان. ترى من يستطيع القول أية أخطار ستحيط بها إن ألقت بنفسها إلى خضم الحياة؟ في تلك اللحظة عادت تفكر بحبيبها الرائع، وفي الحال أصبحت قدمها الصغيرة على السلم، لكن ما إن فكرت بأبيها من جديد حتى انكمشت راجعة إلى الوراء. صراع شديد شب في داخلها، من المحال ان نصفه هنا، صراع بين الحب والشباب من جهة والخوف والجهل بأمور الدنيا من جهة ثانية.

عبثاً راحت أختها تتوسلان والوصيفة توبخ والامر يجذف تحت الشرفة، فالعذراء العربية الصغيرة الرقيقة كانت تقف هناك، متشككة متأرجحة على حافة الهروب تغريها حلاوة الإثم وتخيفها مخاطره.

كل لحظة كانت تزيد من خطر الانفضاح، إذ جاء من بعيد صوت بوق ينفخ فهتف الأمر «الدوريات تبدأ جولاتها وإذا ما تأخرنا هلكنا. أيتها الأميرة انزلي فوراً أو تركناك».

لحظة من الزمن عاشت زهيدة في حال شديدة من الاضطراب ، بعدئذ حلت سلم الحبال وبتصميم اليأس ألقت به من الشرفة صائحة: قد اتخذت

القرار: ليس باستطاعتي الهروب الآن !! ليهدكما الله وليبارككما يا أختي العزيزتين! « صدمة شديدة أصابت الأميرتين الكبيرتين، لمجرد التفكير بتركها وراءهما ولعلمهما كانتا ستتريثان أكثر لولا أن دورية الجند كانت تقترب، وأمر الحرس يشتد غضباً، دافعا بهما إلى الممر تحت الأرض . هناك راحوا يتلمسون طريقهم عبر متاهة محفورة في قلب الجبل، لكنهم أفلحوا في الوصول دون أن يكتشفهم احد، إلى بوابة حديدية خارج الأسوار. هناك، كان الفرسان الاسبان بالانتظار، وقد تنكروا بزي جند عرب من جنود الحرس، بإمرة حسين بابا.

حين علم حبيب زرهيدة برفضها ترك البرج، أصيب بما يشبه الجنون، لكن لم يكن ثمة وقت يمكن تبديده في النحيب والعويل. وهكذا، أردف كل من الفارسين أميرته وراءه، كما فعل حسين بابا، الأمر ذاته ، بخديجة الحصيصة وانطلق الجميع بسرعة هائلة في اتجاه ممر «لوب» ذاك الذي يخترق الجبال مؤدياً إلى قرطبة. لكنهم لم يمضوا بعيداً حتى سمعوا قرع الطبول ونفخ الأبواق منطلقة من أسوار الحمراء، فقال الأمر «قد انكشف أمرنا». «خيولنا سريعة والظلام شديد، وبإمكاننا أن نبتعد عن كل مطارد» أجاب الفرسان.

وللتو، أعملوا المهاميز في خيولهم مندفعين عبر الفيغا ، ثم بالغين أسفل جبل إلفيرا ذاك الذي يمتد كنتوء في السهل. حينذاك توقف الأمر مصيخاً السمع ثم قال «بما أنه لا أحد في إثرنا بعد، من الأحسن أن نفر باتجاه الجبال». لكن خلال كلامه، بدأ لهب نار يرتفع مرسلأ ضياءه من قمة برج المراقبة في الحمراء «يا للجنة!!» صاح الأمر «تلك النار اللعينة ستضع حراس الممرات كلهم على أهبة الاستعداد. ابتعدوا!! ابتعدوا!! اهمزوا خيولكم كالمجانين – فليس ثمة وقت نضيعه». وهكذا ، بعيداً ، انطلقوا - وقع حوافر خيولهم يتردد كالصدى من صخرة إلى صخرة، فيما هم يسرعون على الطريق الملتف مع جبل الفيرا الصخري. خيولهم تعدو مسرعة، لكن خلال ذلك راحت الأجوبة تأتي من كل اتجاه على النار التي أشعلتها الحمراء. ضوء بعد آخر راح ينبعث من الحصون والقلاع وأبراج المراقبة في الجبال.

«إلى الأمام!! إلى الأمام!!» صاح الأمر مع كثير من التجديفات واللعنات «إلى الجسرا!! إلى الجسرا!! قبل أن يصل الإنذار إلى هناك!».

عندما اجتازوا الفتوة الجبلي بات ضمن مدى البصر جسر بينوس الشهير الذي يصل بين ضفتي نهر هادر، غالباً ما كان يصطبغ بدماء المسيحيين والمسلمين، ولكي يزداد ارتباكهم أكثر، فقد كان برج الجسر مشعشعاً بالأضواء، مزروعاً بالرجال المسلحين. شد الأمر لجام حصانه ثم انتصب في ركابه متطلعاً حوله لحظة من الزمن. بعدئذ أوماً بيده إلى الفرسان، مبتعداً بهم عن الطريق، سائراً بمحاذاة النهر مسافة من الطريق، ثم خاض في مياهه. طلب الفرسان من الأميرتين أن تتمسكا بهما جيداً وفعلاً هما الشيء ذاته. مسافة بعيدة حملهم التيار السريع مندفعاً هادراً تحتهم، لكن الأميرتين الحسنائين تمسكتا بفارسيهما دون أن تنطقا بحرف واحد. وصل الفرسان إلى الضفة الأخرى بسلام. بعدئذ قادهم الأمر، عبر ممرات وعرة غير مطروقة ووديان قفراء موحشة إلى قلب الجبال بغية. الابتعاد عن الممرات المطروقة كلها. الخلاصة، أفلح الهاربون في الوصول إلى مدينة قرطبة، حيث جرت الاحتفالات والأفراح ابتهاجاً بعودتهم إلى الوطن والأهل فقد كانوا من أنبل العائلات، أما الأميرتان الجميلتان فقد قبلتهما الكنيسة وأقيمت لهما الأعراس. لكن في عجالتنا ونحن نروي قصة هروب الأميرتين عبر النهر ثم الجبال، نسينا أن نذكر المصير الذي آلت إليه خديجة الحصيصة. لقد كانت متشبثة كقطعة بحسين بابا، خلال عذوه عبر الفيغا، صارخة عند كل وثبة، جاعلة الأمر ذا الشاربيين الكبيرين يجدف ويسب، لكن ما إن تأهب لأن يخوض بحصانه النهر حتى غدا خوفها بلا حدود «لا تشدي علي هكذا» صاح بها حسين بابا «امسكي بحزامي جيداً، لا تخافي شيئاً» أمسكت المرأة بكلتا يديها الحزام الجلدي الذي كان يزنر الأمر ذا الظهر العريض، لكن حين توقف مع الفرسان لالتقاط أنفاسهم في أعلى الجبل، لم يكن باستطاعتهم أن يروا أثراً للوصيفة. «ماذا حل بخديجة؟» صاحت الأميرتان وقد تملكهما الرعب «الله وحده يعلم» أجاب الأمر «لقد انحل حزامي حين بلغت منتصف النهر وجرف خديجة التيار. هذه إرادة الله ! رغم أنه كان حزاماً مزخرفاً غالي الثمن».

لم يكن ثمة وقت يمكن هدره بالأسف والندامة، مع ذلك بكّت الأميرتان على فقد مربيتهما الحكيمة بكاء مريراً. لكن العجوز الممتازة لم تفقد أكثر من نصف حيواتها التسع في الماء: فعلى مسافة قريبة كان ثمة صياد سمك ألقى شبابه في النهر. علقت بها خديجة فأخرجها الصياد إلى البر فاغر الفم مندهشاً لصيده العجيب. لكن ما حدث بعد ذلك لخديجة الحصيصة، لا تذكره الحكاية.

لا شك أن حصافتها منعتها من أن تغامر بعد ذلك فتكون في متناول محمد الأعرس.

كذلك لا تذكر الحكاية إلا القليل عما فعل ذلك الحاكم الحكيم حين اكتشف فرار ابنتيه وخيانة أخلص أتباعه له. لقد كانت الحالة الوحيدة التي طلب فيها مشورة أحد، ولم يعرف أحد بعد ذاك أنه ارتكب مثل ذلك الإثم. مع ذلك، أولى عنايته كلها لحراسة ابنته الباقية التي لم يكن لديها ميل للهروب أو يعتقد، بالحقيقة، أنها ندمت سراً على عدم هروبها: إذ كانت ترى بين الفينة والفينة وهي تستند على حاجز البرج، ناظرة نظرات الحزن نحو الجبال في الاتجاه نفسه الذي تقع فيه قرطبة، كما كانت تسمع أحياناً أنغام عودها تصاحبها أغاني حب شاكية، يقال إنها كانت تندب فيها فقدان أختيها وحبيبها كما تندب فيها حياتها الوحيدة الموحشة. بعدئذ قضت نحبها وهي في ميعة الصبا حيث دفنت كما تقول الحكايات التي يتناقلها الناس، في قبو تحت البرج، وكان موتها في غير أوانه مصداً لأكثر من حكاية من حكايات التراث.

الحكاية التالية التي تبدو وكأنها تنبثق، بشكل من الأشكال من القصة السابقة، والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً جداً بأسماء تاريخية رفيعة هي موضع شك تماماً. لكن ابنة الكونت وبعض أصحابها الشبان ممن رويت لهم هذه الحكاية في إحدى الأمسيات كانوا يعتقدون أن في بعض أجزاءها الكثير من الصحة والحقيقة، أما دلوريس التي كانت أكثر تعمقاً وغوصاً في حقائق الحمراء التي لا تصدق فقد كانت تعتقد بصحة كل كلمة منها.

حكاية وردة الحمراء

بعد تسليم العرب لغرناطة، ظل ملوك الاسبان فترة من الزمن يتخذون من تلك المدينة البهيجة المقر المفضل وشبه الدائم لهم إلى أن أبعدتهم عنها صدمات متتالية من الزلازل التي هدمت معظم المنازل.

بعدئذ، مرت سنون كثيرة نادراً ما كان ينزل في غرناطة خلالها ضيف ملكي فلبثت قصور النبلاء فيها صامته مغلقة، كما بقي قصر الحمراء، مثل أي جمال مهمل. غارقاً في الوحشة والحزن بين حدائقه المهملة. كذلك برج (الطفلات)، الذي كان ذات يوم مقر الأميرات العربيات الحسنات الثلاث، فقد ناله نصيب كبير أيضاً من تلك الوحشة والحزن. لقد نسجت العناكب أغشاشها في طول القبو المذهب وعرضه، كما عششت الطوايط والبوم في تلك الحجرات التي كانت تتألق روعة بحضور زائدة وزريدة وزرهيذة. إهمال ذلك البرج ربما يعود جزئياً لبعض الأفكار الأسطورية لتي يحملها الجيران عنه. فقد أشيع أن شبح الحسناء الشابة

زهريدة ، التي عاشت وهلكت في ذلك البرج، غالباً ما يمكن رؤيته في الليالي القمرء ، وهي جالسة بجانب نافورة القاعة أو تثن وتنوح عند الحواجز، وأن أنغام عودها الفضي يمكن أن يسمعا عند منتصف الليل عابرو السبيل الذين يمرون في الوادي الضيق الصغير.

بعد طول زمن، أصبحت مدينة الحمراء أكثر ارتياداً من قبل الملوك والأمراء، فالعالم كله يعرف أن فيليب الخامس كان أول ملك من آل بوربون يستلم الصولجان الاسباني، والعالم كله يعرف أنه تزوج، كزواج ثان، اليزابيتا أو إيزابيلا (وهما اسمان للمرأة نفسها)، أميرة بارما الجميلة، كما أن العالم كله يعرف أنه من خلال هذه الرابطة الزوجية تسلم العرش الاسباني أمير فرنسي وأميرة ايطالية معاً. ولكي يقوم هذا الزوج الملكي الرائع بزيارة للحمراء، فقد كان لابد من إعداده وتجهيزه بكل الوسائل الممكنة. وبذلك غير وصول البلاط الملكي منظر القصر المهجور كله.

قرع الطبول ونفخ الأبواق، وقع حوافر الخيل في الطرق المؤدية إليه وإلى الفناء الخارجي، بريق السلاح وخفق الرايات في البرج الأمامي وعلى الأسوار، كل ذلك أعاد للذاكرة أمجاد القلعة القديمة، أيام الحرب والقتال. مع ذلك، كان ثمة شبح ناعم لطيف يهيمن على القصر الملكي كما راح يهيمن عليه حفيف الملابس، دوس الأقدام الحذرة، غمغمة أمراء الحاشية الملكية في الحجرات الأمامية والمشية البطيئة المتأنية للخدم ووصيفات الشرف في الحدائق وكذلك أنغام الموسيقى وهي تنساب عبر الشبابيك المفتوحة.

بين أفراد الحاشية الملكية كان ثمة وصيف ذو حظوة لدى الملكة اسمه روبردي ألاكون ولكي نقول إنه ذو حظوة لدى الملكة لابد لنا أولاً من أن نتحدث عما يستحقه من ثناء، ذلك أن كل من كان في حاشية الملكة اليزابيتا إنما كان يتم اختياره لفضل فيه أو جمال أو مهارة من المهارات. كان الفتى قد أكمل الثامنة عشر لتوه، رشيق القوام، ناحل الهيئة، أنيقاً رائعاً كأنطونيو أيام صباه. بالنسبة إلى الملكة كان الفتى يبدي كل التقدير والاحترام، لكنه في داخله كان وغداً زنيماً، مدلاً أفسدته سيدات البلاط وقد تمرسن بشؤون النساء أكثر بكثير مما يوحي به سنه.

ذات صباح، كان ذلك الوصيف المتبطل يتجول في رياض جنة الريف، المطة على أراضي الحمراء، وكان قد أخذ معه للتسلية بازي الملكة. خلال تجواله، رأى طائراً ينهض من أجمة وللتو رفع الغطاء عن عيني البازي ليظهر عالياً. حلق البازي في الجو، صانعاً نوعاً من الدائرة حول صاحبه، فيما كان هذا يلاحقه بناظريه وهو يطير طيرانه المتقلب إلى أن حط على إطار برج وحيد بعيد في السور الخارجي للحمراء، مشيد على حافة الوادي الذي يفصل القلعة الملكية عن أراضي «جنة الريف». إنه بالحقيقة برج «الأميرات الطفلات».

نزل الوصيف إلى الوادي ثم اقترب من البرج، لكن لم يكن له من الوادي أي مدخل كما أن ارتفاعه الشديد جعل كل محاولة لتسلقه غير ذات جدوى. لهذا بحث عن باب من ابواب القلعة ثم قام بدورة كاملة كي يصل إلى ذلك الجانب من البرج المواجه للسور. حديقة صغيرة يحيط بها من كل جانب القصب المتشابك مع الريحان كانت تنبسط أمام البرج. وهكذا شق الوصيف طريقه عبر القصب، ماراً بين أحواض الأزهار وأجمات الورود إلى أن وصل إلى الباب، لكن الباب كان مغلقاً ومرتجاً برتاج. شق في الباب أتاح له أن يختلس نظرة إلى الداخل. هناك كانت قاعة عربية صغيرة ذات جدران مزخرفة بالنقوش الشبكية وأعمدة رخامية صقيلة ونافورة من مرمر تحيط بها الأزهار. في المنتصف كان ثمة قفص مطلي بالذهب يتدلى من الأعلى، في داخله طائر غريد. تحته، وعلى كرسي، كانت ثمة قطة ملونة بالألوان السلحفاة بين بكرات من الحرير وأشياء أخرى من عدة شغل أنثوي: كما كان هنالك غيتار مزين بالأشرطة وقد أسند إلى جدار البركة.

دهش رويدي الأركن لما رآه من آثار الذوق الأنثوي ذكرته بقصص القاعات المسحورة التي تحكى في الحمراء، وربما تكون القطة ذات الألوان السلحفاة أميرة من الأميرات وقد جمدها السحر.

بلطف شديد قرع الوصيف الباب، فظهر وجه جميل من نافذة صغيرة في الأعلى سرعان ما انسحب. انتظر الوصيف متوقفاً أن يفتح الباب لكن انتظاره ضاع سدى - إذ لم يكن بالإمكان سماع أي وقع خطأ في الداخل - وكل شيء ساكن. أتراها حواسه خدعته أم أن ذلك الوجه الجميل الذي ظهر هو وجه جنينة البرج؟ مرة ثانية قرع الباب إنما بصوت أعلى. بعد حين، وفي الوقت الذي ظهر فيه الوجه المتألق مرة أخرى يختلس النظر، بدا له أنه وجه صبية حسنة في الخامسة عشرة من العمر. في الحال، رفع الوصيف قبعة الريش عن رأسه، راجياً،

بكل لطف أهل البلاد وتهذيبهم، أن يسمح له بصعود البرج للامساك ببازيه. «أنا لا أجرؤ أن أفتح الباب يا سيدي». أجابت الفتاة الصغيرة وقد صبغت الحيرة وجنتيها «عمتي تمنع ذلك». «أرجوك، أتوسل إليك، أيتها الفتاة الحسنة - إنه الطائر المفضل لدى الملكة. ولا أجرؤ على العودة إلى القصر إن لم يكن معي». «أنت إذن أحد فرسان البلاط؟».

«أجل، أيتها الفتاة الحسنة، لكنني سأخسر حظوة الملكة ومركزي إن أنا فقدت ذلك البازي».

«أيتها القديسة ماريا !!! إنكم أنتم بالذات يا فرسان البلاط من أمرتني عمتي خصيصاً بإقفال الباب في وجوهكم». «في وجوه الفرسان الفاسدين، وهو أمر حسن ولا شك، لكن ما أنا من أولئك، بل أنا مجرد وصيف بسيط لا يؤذي ولن سوف تدمر حياتي إن رفضت لي هذا الطلب الصغير».

لامس كلام الوصيف شغاف الفتاة الصغيرة، فألف حرام أن تحطم حياة ذلك الفتى من أجل أعطية صغيرة كهذه !!! كذلك من المؤكد أنه ليس واحداً من تلك الكائنات الخطرة التي كانت عمته قد وصفتها لها كجنس آكل للحوم البشر، على استعداد دائم لأن يقتل الفتيات الغافلات. إنه لطيف متواضع يقف متوسلاً متضرعاً، القبعة في يده وفاتن للغاية على ما يبدو.

رأى الوصيف الماكر أن الحامية بدأت بالتردد، فضاعف توسلاته بعبارات مثيرة إلى درجة لم يكن باستطاعة فتاة في الدنيا أن ترفض له تلك التوسلات. وهكذا نزلت حارسه البرج الصغيرة الحية إلى الباب ثم فتحت بهد مرتعشة، وإذا كانت مجرد نظرة رأى فيها محياتها من الشباك قد سحرت الوصيف، فإن رؤيته لها كاملة جعلته يندهل تماماً.

صدارتها الاندلسية المزركشة الضيقة كانت تشد على صدرها مظهرة تناسق جسدها الذي كان على حافة التفتح الأنثوي. شعرها اللامع كانت قد فرقته فوق جبينها بدقة بالغة، مزينة إياه بوردة قطفت حديثاً، طبقاً للعادة الشائعة في البلاد. صحيح أن بشرتها كانت قد لوحتها شمس الجنوب، لكن الصحيح أن ذلك أضفى على وجنتيها المزيد من النضارة والفتح وعلى بريق عينيها المزيد من التألُّق والاشراق.

بلمحة واحدة رأى رويدي أأركون هذا كله، إذ لم يكن يليق به أن يتباطأ، ثم ما إن غمغم باعترافه بالجميل حتى قفز بكل خفة صاعداً البرج الحلزوني بحثاً عن بازيه.

في الحال، عاد وطائره المتهرب على قبضة يده. في غضون ذلك، كانت الفتاة قد جلست بجانب البركة وسط القاعة تلف الحرير، ولشدة اضطرابها، تركت البكرة تسقط على البلاط. وثب الوصيف فالتقطها ثم ركع على ركبة واحدة ركعة ساحرة مقدماً إياها لها، لكن ما إن مدت يدها كي تأخذها حتى أمسك بها طابعاً عليها قبلة أكثر حرارة وإخلاصاً من أية قبلة طبعها على يد ملكته الحسناء.

« السلام لك يا مريم ! » هتفت الفتاة وقد ازدادت حمرة خديها ارتباكاً ودهشة، إذ لم يسبق لها أن تلقت مثل تلك التحية. ألف اعتذار قدم لها الوصيف المتواضع مؤكداً لها أن تلك هي الطريقة المتبعة في البلاط للتعبير عن أشد أشكال الطاعة والاحترام.

بسهولة ويسر هدأ غضبها، إن كانت قد أحست بأي غضب، لكن ارتباكها وضيقها استمرأ وهي تجلس، حمرة خديها تشتد أكثر وأكثر، وعيناها تتسمران أكثر وأكثر على الحرير الذي كانت تحاول أن تلفه فيزداد تشابكاً.

رأى الوصيف الماكر الحيرة والارتباك في المعسكر الآخر كما رأى أنه يمكن الانتفاع به جيداً، لكن الكلمات الجميلة التي يمكن أن يتلفظ بها للوصول إلى ذلك ماتت على شفثيه، فجاءت محاولاته في التغزل بها فجأة بلا تأثير، لكن ما زاد في دهشته، هو الوصيف البارع الذي كان يتصرف ألبق التصرفات وأكثرها كياسة مع سيدات البلاط الأوسع اطلاعاً والأكثر خبرة، انه وجد نفسه خائفاً مرتبكاً في حضرة تلك الصبية البسيطة ابنة الخامسة عشرة والحقيقة أنه كان للصبية البسيطة تلك من تواضعها وبراءتها حراس أكثر فعالية من الأقفال والقضبان التي أقامت عليها عمتها الحذرة. لكن أين تراه قلب الأنثى الذي يمتنع على همسات الحب الأولى؟ فالفتاة الصغيرة، بكل بساطتها وجهلها بفنون الحب، أدركت بالغريزة كل ما أخفق لسان الوصيف المرتعش في التعبير عنه إذ خفق قلبها خفق راية في الريح وهي تتأمل للمرة الأولى عاشقاً يركع عند قدميها – وأي عاشق؟! وعلى الرغم من أن حياء الوصيف كان صادقاً خالصاً إلا أنه لم يدم طويلاً، إذ

سرعان ما استعاد رباطة جأشه وثقته بنفسه في اللحظة نفسها التي جاء بها صوت حاد من بعيد.

« ها هي ذي عمتي عادت من القداس !! » صاحبت الفتاة خائفة « أرجوك يا سيدي ارحل ».

« ليس قبل أن تمنحيني تلك الوردة في شعرك ذكرى منك » . بسرعة، أخذت الفتاة الوردة من جدائلها الفاحمة صائحة، وقد ازدادت اضطراباً واحمراراً، « خذها، لكن اذهب أرجوك ».

أخذ الوصيف الوردة، لاثماً في الوقت نفسه اليد الجميلة التي أعطته إياها مغطياً إياها بالقبلات. وضع الوردة في قبعته ثم أخذ البازي على قبضته وقفز مبتعداً عبر الحديقة حاملاً معه قلب جاسنتا النبيلة.

حين وصلت العمة الحذرة إلى البرج، لاحظت اضطراب ابنة أخيها وحالة الفوضى في القاعة لكن عبارة تفسيرية واحدة كانت كافية: «بازي طارد فريسته إلى داخل القاعة». «لنا الرحمة !! أن يفكر المرء ببازي يطير داخل البرج !! هل سمع أحد ببازي في مثل هذه الوقاحة !! إذن، الطائر نفسه داخل القفص ليس في أمان !!».

كانت فريدغوندا المتيقظة من أكثر العجائز العوانس تنبهاً وحذراً. قلبها يملؤه الرعب الشديد والشك الهائل تجاه كل ما كانت تدعوه بـ«الجنس المضاد». ذلك الرعب والشك اللذان ازدادا بالتدريج مع حياة العنوسة الطويلة رغم أن تلك السيدة الطيبة لم تعان من حيل الرجال وخداعهم، بل إن الطيبة نصبت عليها حارساً يحميها. إنه وجهها الذي كان يمنع كل تجاوز أو تعدٍ على حماها، غير أن السيدات اللواتي لديهن أسباب أقل للخوف على أنفسهن يكن أكثر جاهزية لابقاء عين الرقابة على جيرانهن الأكثر اغراء.

كانت ابنة الأخ هي ابنة يتيمة لضابط سقط في ساحات القتال. تعلمت في دير وانتقلت قبل وقت قريب من معتزلها المقدس إلى حراسة عمته المباشرة التي كان ظل رعايتها يمتد عليها وعلى نحو غامض وكأنها وردة تتفتح بين ورود وأشواك برية. والحقيقة، ليس هذا التشبيه وليد المصادفة تماماً، فجمالها المتفتح الطري، إن أردنا الحقيقة، كان قد لفت أنظار الجميع، حتى في معتزلها داخل

الدير، ونظراً لشيوع تلك اللمسة الشاعرية بين سكان الاندلس، فقد أطلق عليها الناس هناك لقب «وردة الحمراء».

تابعت العمة الحذرة رقابتها اليقظة لفتاتها الصغيرة الساحرة طوال وجود البلاط الملكي في غرناطة ولكم سرت وابتهجت حين وجدت أن تيقظها قد أفلح. صحيح أن السيدة الطيبة يشوشها من حين إلى آخر رنة غيتار وأغاني حب تأتي في الليالي القمرء من أيكة الأشجار تحت البرج، إلا أنها كانت تفرض على ابنة أخيها أن تصم أذنيها عن مثل ذلك الغناء الفارغ مؤكدة لها أنه أحد الفنون التي يمارسها الجنس المضاد والتي غالباً ما تقع في شراكه العذارى الساذجات ويلقيين به نهايتهن. أواه! أي حظ أن تضطر الفتاة المسكينة للإصغاء إلى محاضرة جافة في وقت يعزف لها الحبيب فيه غيتاره ويغني أغاني الحب؟.

أخيراً، قطع الملك فيليب إقامته في غرناطة راحلاً فجأة مع حاشيته كلها. بأم عينها رأت فريدغوندا المتيقظة الحاشية الملكية وهي تنطلق من بوابة العدالة منحدره الشارع الكبير الذي يفضي إلى المدينة. حين غابت آخر دابة عن ناظريها عادت جذلى إلى برجها فقد زالت همومها كلها. لكن لدهشتها، رأت حصاناً عربياً فاتح اللون يدق الأرض بحافره عند بوابة الحديقة. ولشدة رعبها أيضاً رأت عبر أحواض الورد الكثيفة شاباً بحلة زاهية مزخرفة يركع عند قدمي ابنة أخيها. سمع الشاب وقع خطاها فودع الفتاة وداعاً رقيقاً عاجلاً وبكل خفة قفز فوق سياج القصب والريحان واثباً على ظهر حصانه غائباً عن النظر بلمحة عين.

أما جاسنتا الرقيقة، فإنها لشدة حزنها وألمها، نسيت كل شيء عن انزعاجها وضيقها منفجرة في نوبة من النشيج والبكاء ملقية بنفسها بين ذراعي عمته.

« آه !، يا لله !! » صاحت الفتاة «لقد ذهب !! لقد ذهب !! ولن أراه أبداً بعد اليوم».

« ذهب ؟! من هو الذي ذهب ؟ أي شاب ذاك الذي رأيته عند قدميك ؟! ».

« وصيف الملكة يا عمتي، وقد جاء لوداعي ».

« وصيف الملكة يا طفلي !! » رددت فريدغوندا المتيقظة بصوت خافت « ومتى تعرفت إلى وصيف الملكة ؟ ».

« صباح ذلك اليوم الذي دخل فيه البازي البرج. لقد كان بازي الملكة وكان هو يلاحقه ».

« آه !! يا لك من فتاة سخيقة ، سخيقة ، !! اعلمي أنه ليس هناك من بازي بنصف شراسة وصيفك الشاب المتواثب ذاك ، والطيور الضعيفة البسيطة مثلك بالضبط هي التي تقع فريسة لبرائنه ».

باديء ذي بدء ، أحست العمة بحنق شديد حين علمت أنه بالرغم من يقظتها وحذرهما كله ، فقد استطاع العاشقان الشابان أن يلتقيا ، تحت سمعها وبصرها تقريباً. لكن حين اكتشفت أن ابنة أخيها الطيبة القلب خرجت سليمة دون أذى ، رغم أنه لم يكن هناك قضبان أو أقفال ورغم انكشافها التام لمخالب الجنس المضاد ، فإنها عزت نفسها بإقناعها أن ذلك يعود إلى فضيلة العفة والشرف ومثلها العليا التي غرستها في ابنة أخيها عميقاً ، إن جاز القول ، حتى نخاع العظم . في الوقت الذي كانت فيه العمة تطلّي بذلك المهرم المهدىء كبرياءها ، كانت ابنة الأخ تختزن في ذاكرتها عهود الاخلاص والوفاء التي قطعها لها الوصيف وكررها كثيراً. لكن ما تراه يكون حب رجل جواب غير مستقر؟ جدول شريد يروي ، فترة من الزمن ، كل زهرة على صفته ثم يمضي مخلفاً إياها كلها ذللحزن والدموع.

أيام ، أسابيع ، شهور مرت دون أن تسمع الصبية شيئاً عن الوصيف. الرمان نضج ، العنب حان قطافه وأمطار الخريف بدأت بالتساقط جداول دافقة من الجبال. ثم تكلفت ذرى السيرانيقادات بالثلج وهدرت عواصف الشتاء وزارت عبر روابي الحمراء - مع ذلك لم يأت الوصيف. بعدئذ انقضى الشتاء وجاء الربيع بأغاريد الطيور وأريج الأزهار وعليل الأنسام ، وذوبان الثلوج على الجبال إلى درجة لم يبق منها شيء سوى تلك القلنسوة على رأس النيفادا العالية متألثة تحت أشعة الصيف الحارقة - مع ذلك لم يأت شيء من الوصيف الناسي ولم يسمع شيء.

في أثناء ذلك راحت جاسنتا الصغيرة المسكينة تزداد شحوباً وهماً فهجرت تسلياتها وانشغالاتها القديمة ليبقى حريها مشتبكاً بعضه ببعض الآخر. غيتارها لا يعزف عليه أحد ، أزهارها مهملة ، أغاريد طيرها لا يبالي بها أحد ، عيناها ، بعد ذلك الألق ، كامدتان يعشيها البكاء وهي وحيدة لا يراها أحد. ولو

كان هناك من يخطط لمعتزل مناسب لتلك الفتاة المتيمة حباً، إذن لما وجد خيراً من الحمراء ، حيث يبدو وكأن كل شيء مصمم كي يزيد الانسان رقة أحاسيس وأحلام يقظة ورومانسية. إنها جنة العشاق عيناها: فكم هو صعب إذن أن تكون وحيداً بغير حبيبك في جنة كهذه!! ليس فقط وحيداً بل مهجوراً!!

« وأسفاه، يا طفلي السخيفة! » كانت فريدغوندا الصلبة الحصينة تقول إذا ما وجدت ابنة أخيها في إحدى حالات حزنها ويأسها « ألم أحذرك من أحابيل أولئك الرجال وخداعهم؟ إذن، ما تراك تتوقعين من رجل ينحدر من عائلة متعالية متكبرة وأنت مجرد يتيمة سليلة الفقر والضعف؟ كوني على ثقة، إن كان الفتى صادقاً، فإن أباه، الذي هو ولاشك واحد من أكثر نبلاء البلاط فخاراً وكبراً، سيمنع زواجه من فتاة مثلك وضيعة فقيرة لا تملك شيئاً. لهذا، صممي واطردي تلك الأفكار الفارغة من رأسك».

غير أن كلمات فريدغوندا لم تكن تعمل إلا لزيادة اكتئاب ابنة الأخ. رغم أنها كانت تسعى جاهدة لكتمانه في قلبها فلا يظهر له أثر. في ساعة متأخرة من ليلة منتصف صيف، وبعد أن مضت عمتها إلى غرفتها تستريح، ظلت الفتاة وحيدة في قاعة البرج جالسة بجانب البركة المصنوعة من مرمر، حيث ركع الوصيف الغادر أول مرة، مقبلاً يدها، وحيث غالباً ما كان يقسم الأيمان على إخلاصه الأبدي لها. كان قلب الفتاة الصغيرة المسكينة مثقلاً بالحزن والذكريات المضنية، فبدأت دموعها تنساب، وعلى مهل راحت تتساقط قطرة تلو قطرة في بركة الماء شيئاً فشيئاً بدأ الماء الرقراق كالبلور يضطرب ويجيش ثم يبقب - يبقب، فائراً متناثراً رذاذاً إلى أن ظهرت فتاة بعلمابس عربية فاخرة إلى العيان.

رعب شديد سيطر على جاستنا إلى درجة فرت معها من القاعة ولم تغامر بأن تعود. في الصباح التالي روت لعمتها ما رآته لكن السيدة الطيبة اعتبرت ذلك مجرد تهيؤات يصورها لها عقلها المضطرب، أو ربما هي استغرقت كثيراً في النوم هناك، وراحت تحلم « قد كنت تفكرين بقصة الأميرات العربيات الثلاث اللواتي سكن في هذا البرج ذات يوم »، تابعت العمة « ثم نمت فرأيت أحلامك هذه ».

« أية قصة يا عمة ؟ أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك ».

« أنت ولاشك سمعت عن الأميرات الثلاث: زائدة وزريدة وزرهيدة اللواتي عشن حبيسات في هذا البرج بأمر أبيهن الملك ثم وافقن على الفرار مع ثلاثة

فرسان اسبان. الاثنتان الأوليان أنجزتا فرارهما لكن الثالثة أخفقت في اتخاذ القرار ويقال إنها ماتت في هذا البرج».

« الآن تذكرت أنني سمعت هذه القصة » قالت جاسنتا ،

« وأنني بكيت مصير تلك الفتاة النبيلة زرهيدة ».

« ولعلك ستبكين مصيرها أكثر وأكثر » تابعت العمة «إذا ما علمت أن حبيب زرهيدة هو جدك الأكبر، إذ ظل طويلاً ينوح على حبيبته العربية، لكن الزمن يداوي الأحزان، ويشفي الجروح وقد شفي جدك ذاك ثم تزوج سيدة اسبانية، أنت سليلتها».

طويلاً فكرت جاسنتا بكل الكلمات «إذن؟ ما رأيته لم يكن تخيلات وتهيؤات» قالت لنفسها أخيراً «إني واثقة، وإذا كان شبح زرهيدة النبيلة هو فعلاً ما أسمعه وهو يتمشى هنا وهناك في هذا البرج، فلماذا أخشاه ؟ سأراقب المكان الليلة بجانب النافورة - عسى أن تتكرر الزيارة».

حوالي منتصف الليل، وكل شيء ساكن هادئ، مضت جاسنتا فاتخذت مقعداً لها بجانب النافورة وسط القاعة. وحين دق الجرس في برج المراقبة البعيد في الحمراء معلناً منتصف الليل، بدأت مياه البركة العذبة الرقاقة تضطرب وتجيئ ثم تبقيق - تبقيق - نائرة المياه هنا وهناك إلى أن ظهرت الفتاة العربية من جديد للعيان. ويا لها من فتاة !! جميلة، غضة، بضّة، ملابسها تبرق بالجواهر وفي يدها عود فضي. رعشة شديدة أصابت جاسنتا إلى حد فقدت معه وعيها، لكنها استردت ذلك الوعي على الصوت الرقيق الناعم لتلك الفتاة - الشبح والسيماء العذبة التي كست محياها الشاحب الكثيب.

«يابنة الفناء» قالت الفتاة - الشبح «م تشكين؟ لماذا تقلق دموعك مياه بركتي وتقض آهاتك مضجعي في سكينه هذا الليل؟»

«إنني أبكي غدر الرجال وأندب عزلتي ووحشتي في هذا المكان المهجور».

«اهدئي.. ارتاحي، فلأحزانك كما لكل شيء نهاية. لكن ها أنذني أمامك أميرة عربية كانت مثلك في حبها سيئة الحظ. فارس مسيحي هو جدك الأكبر ملك علي فؤادي، وكان سيحملني إلى موطنه وإلى صدر كنيسته وقد كنت مهتدية القلب لكنني كنت افتقر للشجاعة الموازية لإيماني فتباطأت إلى أن فات الأوان.

لهذا، سمح للجنى الشرير ان يسيطر علي. وها انذي مسحورة في هذا البرج
ولسوف أظل كذلك إلى أن يأتي مسيحي طاهر يفك السحر عني ويزيل الطلسم،
فهل تقومين بتلك المهمة ؟».

«أجل» أجابت الفتاة وهي ترتعش.

«إذن، تعالي هنا، ولا تخافي. غطسي يدك في البركة ثم رشني الماء علي..
عمديني وفق تعاليم دينك. بذلك ينفك السحر عني وتستريح روحي بعد قلق».

بخطوات مرتجفة تقدمت الفتاة . غطست يدها في البركة . آخذة حفنة من
الماء بيدها . ثم رشتها على وجه الشبح الشاحب. بكثير من الطمأنينة والراحة
ابتسمت الأميرة العربية المسحورة، ثم أسقطت عودها عند قدمي جاسنتا. بعدئذ
صلبت ذراعيها البيضاءين على صدرها ثم غابت عن النظر وكأنها مجرد زخة من
قطرات ندى سقطت على ماء البركة.

انسحبت جاسنتا من القاعة يملؤها الهلع والدهشة دون أن يغمض لها جفن
طوال تلك الليلة، إلا غفوة مضطربة عند الفجر افاقت منها - فخيّل إليها أن ذلك
كله أضغاث أحلام، لكن ما إن نزلت الى القاعة حتى تأكدت أن الرؤيا حقيقة
واقعة، فهناك إلى جانب البركة كان ما يزال العود الفضي على الأرض. يتلألأ
تحت أشعة شمس الصباح. أسرع الفتاة إلى عمتها تروي لها ما حدث وتدعوها
لمشاهدة العود كشاهد على صحة قصتها. ولئن كانت قد بقيت بعض الشكوك
لدى السيدة الطيبة، فإنها كلها زالت حين لامست جاسنتا الآلة الموسيقية،
مطلقة منها نغمات عذبة إلى درجة كان بإمكانها ان تذيب أقسى القلوب. تذيب
حتى قلب فريد غوندا الحصين المنيع. ذلك الصقيع الأبدي. فتحيله إلى دفق
للفرح والسرور وما من شيء سوى النغمة الربانية يمكنها أن تحدث مثل ذلك
التأثير.

يوماً بعد يوم غدا التأثير الخارق لأنغام العود أكثر وأكثر وضوحاً. فعابر
السبيل الذي يمر بجانب البرج كان يتوقف متسماً في مكانه. إن جناز لي القول.
كالمسحور، منتشياً طرباً منقطع الأنفاس. الطيور نفسها راحت تتجمع اسراباً
أسراباً لتحط على الأشجار المجاورة، متوقفة عن تغريدها، مصغية بهدوء وكأنها
مسحورة.

في الحال انطلقت الشائعات تنقل النبا إلى البعيد، فاحتشد سكان غرناطة مندفعين إلى الحمراء كي يلتقطوا بعض أنغام تلك الموسيقى الإلهية التي تملأ أجواء برج «الطفلات».

في النهاية ، خرجت الموسيقى الصغيرة الجميلة من عزلتها: إذ راح اغنياء البلاد وأقوياءها يتنافسون على خطب ودها، أو بالأحرى ضمان سحر عودها وهو يجتذب الحشود إلى صالوناتهم. حيثما ذهبت، كانت عمتها المتيقظة تذهب حارسة لا تغفل لها عين، باثة الرعب والهلع في كل من تسول له نفسه الاقتراب من فتاتها من معجبين يذوبون طرباً وانتشاء بأنغامها. من مدينة إلى مدينة راحت تنتشر الأخبار عن قواها العجيبة: ملقا، اشبيلية، قرطبة كلها أصبحت بالتتالي مهووسة بالأمر، بل لم يعد أحد في طول الأندلس وعرضها يتكلم إلا عن موسيقى الحمراء الجميلة.

وكيف تراه يكون غير ذلك بين أناس رائعين مولعين بالموسيقى كأهل الأندلس، خاصة إذا كان العود ساحر التأثير والعازفة يلهمها الحب؟

على الرغم من أن الأندلس كلها كانت مغرمة بالموسيقى إلا أن حالة مختلفة كانت تسود البلاط الاسباني. فالملك فيليب الخامس كما هو معروف عنه كان تعيساً مصاباً بوسواس المرض، عرضة لكل أنواع التخيلات. أحياناً كان يلزم فراشه عدة أسابيع لا يفارقه البتة وهو ينتحب ويندب شاكياً متذمراً. في أحيان أخرى كان يصصر على اعتزال عرشه، الأمر الذي كان يقض مضجع زوجته الملكة، هي التي كانت تستمتع أكثر ماتستمتع بأمجاد الملك وروعة التاج، فتمسك صولجان ملكها الأحرق بيد خبيرة ثابتة.

أخيراً ، وجدوا أنه ما من شيء يمكنه أن يكون فعالاً في طرد وسواس الملك كالموسيقى وتأثير الموسيقى. لهذا، أولت الملكة جل عنايتها لأن تأتي بأفضل الموسيقيين الذين تصل إليهم يدها، كما احتفظت في بلاطها بالمغني الايطالي الشهير فارينيللي، كطبيباً يداوي الملك.

لكن، في الفترة التي نتحدث عنها، طغى نوع من الوسواس على ذهن ذلك الملك البربوني فاق كل وسواس سابق، فبعد فترة طويلة من مرض التوهم الذي تحدى أنغام فارينيللي كلها والحن الجوقات الموسيقية كلها، سيطرت على الحاكم فكرة، نسي معها الشبح واعتبر نفسه ميتاً تماماً. ولعل هذا كان سيبدو

أمراً لا ضير فيه بل مريحاً تماماً لكل من الملكة ورجال الحاشية لو أنه رضي بالبقاء في حالة من السكينة تناسب رجلاً ميتاً. لكنه ، ولكي يزعجهم، أصر على إقامة مراسم الموت عليه ولكي يربكهم أكثر مما يمكن التعبير عنه. بدأ صبره ينقد كما شرع يقرعهم بمرارة شديدة على إهمالهم وعدم احترامهم له . هم الذين تركوه دون جنازة ودفن. ترى ما عساهم يفعلون؟ أن يعصوا أوامر الملك المباشرة أمر فظيع لرجال مطيعين وفي بلاط تسوده الدقة والطاعة - لكن أن يطيعوه ويدفنوه حياً فإنه نوع من القتل المباشر للملك؟

وسط هذه الحيرة المخيفة، وصلت إشاعة إلى البلاط تتحدث عن فتاة موسيقية استطاعت أن تخلب ألباب أهل الأندلس كلهم. في الحال أرسلت الملكة الرسل كي يأتوا بها إلى إديغونسو، قصر البلاط حينذاك.

خلال بضعة أيام، وبينما كانت الملكة ووصيفاتها يتمشين في تلك الحداثق الرائعة المصممة بطرقها ومصاطبها ونوافيرها كي تكشف روعة فرساي وتفوقها جمالاً، جيء بالموسيقية الذائعة الصيت إلى حضرتها. حدقت الامبراطورة إليزابيتا بكثير من الدهشة إلى الفتاة الصغيرة البسيطة - المتواضعة التي أصابت العالم بالجنون. كانت ثيابها ما تزال تلك الثياب الأندلسية المزركشة، وعودها القضي في يدها وهي تقف مطرقة الرأس بكل بساطة الجمال وعذوبته، ذاك الذي كان ما يزال يقول إنها وردة الحمراء.

وكالعادة، كانت تصحبها عمتها المتيقظة دائماً الحذرة دائماً، فريد غوندا. وإذا كانت الملكة المهيبة إليزابيتا قد أبدت كل الاهتمام لظهور جاسنتا. فإنها كانت أكثر سروراً حين علمت أنها سليله عاتلة محترمة وإن كان قد حل بها الفقر الآن، وأن والدها كان قد سقط في ساحة الوغى دفاعاً عن التاج كما يسقط الفرسان الشجعان.

« إن كانت قدراتك توازي شهرتك » قالت الملكة « وكان باستطاعتك أن تطردي تلك الروح الشريرة التي سيطرت على ملكك فإن رعايتك من الآن فصاعداً ستكون موضع اهتمامي الشخصي وسوف تنالين كل شرف وثروة ». وفي الحال، قادت الفتاة إلى جناح الحاكم البائس، وكلها شوق لتجريب براعتها.

بعينين مسمرتين على الأرض، تبعتها جاسنتا عبر صفوف الحراس وحشود الحاشية. أخيراً وصلتا إلى غرفة واسعة مجللة بالسواد. نوافذها مغلقة لحجب

النور: فيما كانت عدة شمعات مستدقة صفراء في شمعدانات فضية ترسل ضوءاً خافتاً لا تبين معه الشخصوص إلا بالكاد: رجال حاشية ونبلاء كبار يخيم عليهم جميعاً الصمت والحزن، فيما كان يتمدد على فراش كالتابوت، الحاكم الذي سيدفن وقد صالبا ذراعيه على صدره، لا يبدو منه سوى أرنبه أنفه.

صامتة ، دخلت الملكة الغرفة ثم أومات إلى جاسنتا مشيرة إلى كرسي بلا ظهر في ركن الغرفة المعتم كي تجلس عليه وتبدأ المهمة.

في البداية لامست جاسنتا عودها بيد راجفة، لكن شيئاً فشيئاً راحت تستعيد ثققتها بنفسها وحيويتها وهي تمضي قدماً ، عازفة أكثر أنغام الدنيا تناغماً وإمتاعاً إلى درجة أن الحضور كلهم كادوا لا يصدقون أنه عزف بشري. أما الحاكم، الذي كان قد اعتبر نفسه في عالم الأرواح فقد خيل إليه أنه لحن من ألحان الملائكة أو نغمة من أنغام السماء، شيئاً فشيئاً بدأت الأنغام تتغير وبدأ صوت المغنية يصاحب الألحان، مترنمة بأنشودة من تلك الأناشيد الخرافية التي تتحدث عن أمجاد الحمراء القديمة وإنجازات العرب الرائعة. هناك روحها كلها كانت تمتزج بالأنشودة، ذلك أنه مع ذكريات الحمراء كانت تتداخل قصة حبها، فرددت الغرفة الجنائزية الألحان المنعشة متغلغلة إلى صميم قلب الحاكم الكئيب. في البداية رفع رأسه وهدق حوله: بعدئذ جلس على أريكته وقد بدأت عيناه بالللمعان - أخيراً وثب على الأرض طالباً سيفه وترسه.

كاملاً كان انتصار الموسيقى ، أو بالأحرى انتصار العود المسحور، فقد طرد شيطان الاكتئاب وإن جاز القول، عاد الميت إلى الحياة. على مصاريعها فتحت نوافذ الجناح وبكل قوتها وسطوعها دخلت اشعة الشمس الاسبانية الرائعة منيرة الحجرة التي لم تكن تعرف الضياء فيما كانت الأعين كلها تبحث عن الساحرة الجميلة التي سقط العود من يدها، وخرت على الأرض وفي اللحظة التالية كان يضمها إلى صدره رويدي ألاكون.

بعد ذلك ، اقيمت احتفالات عظيمة وعرس رائع للعروسين السعيدين غدت بعده «وردة الحمراء» حلية البلاط وبهجته كله. «لكن توقف - ليس بهذه السرعة» أسمع القاريء يهتف «فهذه قفزة سريعة إلى نهاية القصة! دعنا أولاً نعلم كيف استطاع رويدي ألاكون يتدبر أمره ويسبرر إهماله الطويل لجاسنتا؟» لا شيء

أسهل من ذلك. إنه العذر المبجل المكرم على مدى الزمان: أي معارضة والده العجوز المتكبر الذرائعي لرغباته».

علاوة على ذلك فإن الشبان الذين يحبون بعضهم فعلاً، سرعان ما يصلون إلى التفاهم ويدفنون أحزانهم كلها حالاً يلتقون.

لكن كيف تراه وافق الوالد العجوز المتكبر الذرائعي على الزواج؟ أوه !! بالنسبة إلى ذلك فقد تم التغلب على اعتراضاته وشكوكه بكلمة أو اثنتين من الملكة. خاصة. أن القاب الشرف والجوائز راحت تنهمر كزخات المطر على صاحبة الحظوة الباهرة في القصر الملكي. إضافة إلى ذلك، فقد كان لعود جاسنتا قوة سحرية وبإمكانه السيطرة على أكثر الرؤوس عناداً وأشد القلوب قسوة. وماذا حل بالعود المسحور؟

أوه !! ذلك أكثر ما في المسألة من إثارة، وهو يبرهن بكل سهولة على صحة القصة برمتها. لقد ظل ذلك العود لدى العائلة فترة من الزمن، لكن اختلسه بعد ذلك. كما يظن، المغني الإيطالي العظيم فارينيللي. غيرة وحسداً وعاد به إلى بلاده. بعد وفاته، انتقل إلى أيد أخرى في إيطاليا وآناس يجهلون قدراته الغامضة، فأذابوا ما فيه من فضة ثم نقلوا الأوتار إلى قيثارة كريمونا العتيقة، تلك الأوتار التي ما تزال تحتفظ حتى اليوم بشيء من قدراتها السحرية.

كلمة أخيرة أهمسها في أذن القارئ، لكن لا تدعها أيها القارئ تذهب أبعد - ثمة قيثارة تسحر العالم كله الآن - إنها قيثارة باغانيني!



المحارب القديم

بين المعارف المثيرين للفضول الذين تعرفت إليهم في جولاتي في القلعة، كان ثمة محارب قديم عاجز، وهو عقيد شجاع معطوب يعيش مثل بازي في برج من أبراج العرب. تاريخه، ذاك الذي كان مولعاً بالحديث عنه، نسيج فريد، لحمته وسداه مغامرات ومخاطرات، عثرات وتقلبات تجعل حياة كل إسباني مرموق تقريباً متنوعة، متقلبة كصفحات تاريخ «جيل بلاس».

في الثانية عشرة من العمر كان في أمريكا. هناك رأى جورج واشنطن ذلك الحدث الذي يعدّه من أهم الحوادث وأسعدها في حياته. منذئذ، شارك في حروب بلاده كلها، وباستطاعته أن يتكلم كلام الخبير المتمرس عن معظم سجون شبه الجزيرة وزناناتها. بعدئذ فقد ساقاً من ساقيه ثم أصابه الشلل في يديه، وهكذا بترت أعضائه منه وقطعت إلى أن أصبح نوعاً من النصب الذي يسير مجسداً مشاكل إسبانيا كلها، ففي كل مكان من جسمه ندبة من معركة أو أثر من شجار، تماماً كالحاء تلك الشجرة التي كان روبنسون كروزو يحفر خطأ عليها كل سنة من سنوات الأسر. لكن أسوأ مصاب حل بالفارس القديم الشجاع هو على ما يبدو

استلامه القيادة في «ملقا» خلال فترة من الاضطرابات والشغب نصبه فيها السكان قائداً لهم كي يحميهم من غزو الفرنسيين. فقد جر عليه ذلك عدداً من الدعاوى والقضايا الحكومية إلى حد أخشى معه أنه سيموت قبل أن ينتهي من كتابة الالتماسات والمذكرات وطبعها وما يجر ذلك من الهم والبلبال واستنزاف الجيوب والعقوبات التي يفرضها على أصدقائه، إذ ما من صديق يزوره دون أن يضطر للاصغاء إلى وثيقة مهلكة طوال نصف ساعة وأن يحمل معه نصف دزينة من الكراسيات في جعبته. لكن تلك هي الحال في اسبانيا كلها. ففي كل مكان منها تلتقي بمخلوق جدير بالاهتمام متكوم في ركن من الأركان يجتر آلامه وأحزانه. علاوة على ذلك فإن الاسباني الذي يرفع قضية أو دعوى على الحكومة يعتبر أنه صار لديه عمل يشغله بقية حياته.

لقد زرت ذلك المحارب القديم في مقره في الجزء الأعلى من «برج الخمرة». فوجدت غرفته صغيرة لكنها مرتبة تطل على منظر جميل من مناظر الفيغا. لقد كانت مرتبة بدقة تامة لا يعرفها غير الجندي. ثلاث بنادق وحزمة من المسدسات، كلها تلمع براقاً. كانت قد علقت على الجدار وجنبا إلى جنب كان قد علق أيضاً سيف وعصا فوقهما قبضتان مردودتا الحافة، واحدة للاستعراضات وأخرى للاستخدام العادي. كما كان هناك رف صغير عليه ما يقارب نصف دزينة من الكتب تشكل مكتبته كلها. أحد تلك الكتب هو مجلد مهترى عتيق صغير عن المبادئ الفلسفية، وهو كتابه المفضل. إذ كان في كل يوم يتصفحه ويقلبه. مطبقاً كل مبدأ من مبادئ الفلسفة على حالته الخاصة، شريطة أن تكون فيه لمسة ضئيلة من المראה الشاملة ويتحدث عن ظلم الدنيا. لكن رغم ذلك، كان الرجل اجتماعياً طيب القلب، وإذا ما استطعت ابعاده عن مشاكله وهمومه وكذلك عن فلسفته فإنه يغدو رفيقاً مسلياً.

إنني أحب أبناء الحظ العاثر القدامى هؤلاء وأستمتع كل الاستمتاع بقصص حملاتهم العسكرية الفجة. ولقد علمت خلال زيارتي لذلك المحارب القديم بعض الحقائق المثيرة عن قائد عسكري قديم للقلعة كان على ما يبدو يشبهه في كثير من المجالات وكان له الحظ نفسه في الحروب.

هذه الخصوصيات زادت أكثر وأكثر وأكثرت الاستفسارات التي أجريتها بين بعض سكان الحمراء القدامى، لاسيما والدماتيوزيمينيس الذي يعتبر أن بطله المفضل من بين أبطال القصص المتوارثة كلها هو ذلك الشخص الذي أهم بتقديمه للقارىء.

الحاكم والكاتب العدل

في الأيام الماضية، كان يحكم الحمراء حاكم عرف عنه أنه فارس عتيق شجاع، ولأنه فقد إحدى ذراعيه في ساحات القتال فقد كان يُعرف، عموماً، باسم «الحاكم وحيد الذراع». والحقيقة، كان الرجل يفتخر بأنه جندي قديم وكان شارباه ينفتلان عالياً حتى عينيه، حذاؤه من أحذية الحملات العسكرية وعلى جانبه سيف طليطلي طويل كالسفود ومن جيب صدره يبرز منديله الجيبى.

علاوة على ذلك، فقد كان شديد الكبرياء، شديد الحرص على الشكليات متمسكاً بكل ماله من امتيازات وحقوق منصب وتحت إشرافه، تمت المحافظة بدقة على حرمة الحمراء وعصمتها باعتبارها مقراً للملك ومنطقة للسيادة الملكية، فلا يسمح لأحد بدخول القلعة بسلاحه، حتى ولو كان ذلك السلاح سيفاً أو عصاً، إلا إذا كان من مرتبة معينة. كما كان على كل فارس أن يترجل عند البوابة ويقود حصانه من لجامه. وبما أن رابية الحمراء ترتفع كالزائدة، بالنسبة

إلى العاصمة، فلا بد من أن يكون أمراً مثيراً، إلى حد ما، لغضب القائد العام، هو الذي يأمر ولاية بكاملها أن يكون لديه موقع مستقل كالحمرء وسط منطقة نفوذه ذاتها. وقد صار الأمر أكثر إثارة للغضب عند حدوث قصتنا هذه، نظراً لغيرة الحاكم العجوز الشديدة وقابليته السريعة للغضب، هو الذي كان يشتعل ناراً لدى أقل سؤال عن سلطاته وصلاحياته، ونظراً أيضاً لحالة التشرد والانحلال التي كان يتصف بها الناس الذين راحوا يعيشون شيئاً فشيئاً في القلعة وكأنهم في ملجأ أو مصح، عاثشين نوعاً من حياة التشرد والرعاية، قائمين بالكثير من أعمال السلب والنهب على حساب سكان المدينة الشرفاء.

إذن، كان ثمة نوع من العداء ووجع القلب الدائم بين القائد العام والحاكم، لعل أقسى ما فيه بالنسبة إلى هذا الأخير، باعتباره أصغر الجارين المتنفذين هو أن يكون صعب الإرضاء متشديداً فيما يتعلق بالشرف والكرامة.

فالقصر المهيّب للقائد العام ينتصب في ساحة «نوبا»، عند أسفل رابية الحمرء مباشرة، حيث هناك دائماً زحام حرس وجند، إضافة إلى زحام السكان المحليين والموظفين. لكن، ثمة جزء ناتئ من حصن الحمرء يطل على القصر وعلى الساحة العامة أمامه، وهنا، كثيراً ما ترى الحاكم العجوز يتبختر في مشيته ذهاباً وإياباً، سيفه الطويل إلى جانبه وعينه اليقظة تتطلع نزولاً إلى منافسه، وكأنه صقر يتفحص طريدته من عشه في أعلى شجرة يابسة.

حين ينزل إلى المدينة يتم ذلك بنوع من الاستعراض المهيّب، إذ يمتطي حصانه ليسير في ركابه حراسه، أو يركب عربته الرسمية، وهي مركبة إسبانية قديمة غير عملية مصنوعة من الخشب المنقوش والجلد المذهب تجرها ثمانية بغال ويحف بها مشاة ومرافقون وخدم ببزاتهم الموحدة، وفي المناسبات التي يعتني فيها بجمال موكبه ومهابته أكثر فأكثر فإنه يترك لدى كل ناظر إليه انطباع الرهبة والإعجاب وكأنه نائب الملك. لكن الأذكىاء في غرناطة، خاصة أولئك الذين يتسكعون دائماً حول قصر القائد العام، فإنك تجدهم أميل للسخرية من استعراضه الصغير ذاك ومن حالة التشرد التي تتصف بها رعيته، فيحيونه مطلقين عليه لقباً مضحكاً هو: «ملك الشحاذين».

أحد مصادر النزاع الأشد حدة بين هذين المتنافسين القويين ادعاء الحاكم الحق في أن تمر كل الأشياء المخصصة لاستخدامه أو استخدام حاميته عبر المدينة

دون ضريبة. شيئاً فشيئاً أدى هذا الامتياز إلى نشوء تجارة واسعة النطاق هي التهريب.

إذ عشتت مجموعات من المهربين في أوكار القلعة والكهوف العديدة في جوارها متخذة منها مقرات مطورة صناعة ناجحة لها تحت أبصار جنود الحامية وأسماعهم.

أخيراً، تنبه القائد العام للأمر. فاستشار مستشاره القانوني، وهو موظف يؤدي مختلف المهام وكاتب عدل فضولي مكر يستمتع كل الاستمتاع بإيقاع حاكم الحمراء العجوز في شبك الحيرة والارتباك. وتوريطه في شرك القانون والمشاكل القانونية. أشار كاتب العدل على القائد العام بأن يصر على حقه في تفتيش كل قافلة تمر عبر بوابات مدينته وفي الحال خطر رسالة طويلة له إثباتاً لذلك الحق. لكن الحاكم مانكو جندي قديم مستقيم حازم يكره كتاب العدل أكثر مما يكره الشياطين ويكره كاتب العدل ذاك خاصة أكثر من كل كاتب عدل في الدنيا.

«ماذا؟» قال وهو يفتل شاربيه للأعلى ساخطاً «هل يطلق الحاكم رجال دواوينه كي يفارسوا علي أحابيلهم ويوقعوني في إرباكاتهم؟ قسماً لأرينه أن جندياً قديماً مثلي لا يخدعه ابن مدارس».

ثم أمسك بقلمه وخرش رسالة قصيرة بخط سيء، أصر فيها ودون أن يتنازل فيدخل في نقاش أو مجادلة، على حقه في نقل الأشياء التي تخصه دون أن تخضع للتفتيش، مهدداً بالانتقام من أي ضابط جمارك يمد يده إلى أية قافلة تسير تحت علم الحمراء. كانت القضية ما تزال موضع أخذ ورد بين الحاكمين الذرائعيين، حين وصل ذات يوم بغل محمل بمواد تموينية للقلعة، إلى بوابة زنيل حيث كان عليه أن يعبرها ليجتاز أطراف المدينة وهو في طريقه إلى الحمراء، وكان برفقة البغل عريف قديم، مجرب، خدم طويلاً بإمرة الحاكم، وعرف بأنه شجاع قاس صلب كنصل سيف طليطلي قديم.

حين وصل بوابة المدينة، رفع العريف راية الحمراء على قبة سرج البغل، منتصباً بقامته انتصاب العمود رافعاً رأسه، مندفعاً إلى الأمام لكن وهو يرمق الطرف الآخر بعين حذرة جانبية ككلب يعبر أرض أعداء جاهزا للزمجرة والعض.

«من هناك؟»، صاح حارس البوابة فرد العريف دون التفاتة من رأسه:

«جندي من الحمراء»

«ماذا معك؟»

«مؤونة للحامية»

«تقدم»

تقدم العريف مباشرة إلى الأمام يتبعه البغل والبغال، لكنه لم يسر بضع خطوات حتى اندفعت نحوه من مركز الجمارك الصغير زمرة من الرجال.

«أنت! هناك!» صاح القائد، أيها البغال، توقف وافتح تلك الرزم.

استدار العريف دورة كاملة متخذاً وضعية المعركة قائلاً «احترم علم الحمراء... هذه الأشياء للحاكم».

« طز في الحاكم وفي علمه. توقف أيها البغال، قلت لك ».

« أوقف البغل تخاطر بحياتك »، صرخ العريف صالياً بندقيته « أيها البغال، تقدم ».

نخس البغال دابته نخسة قوية. في اللحظة نفسها قفز ضابط الجمارك إلى الأمام ممسكاً بالرسن وفي الحال سد العريف بندقيته عليه وأطلق النار فأرداه قتيلاً.

وعلى الفور ساد هرج ومرج في الشارع.

ألقي القبض على العريف، وبعد رفسه ولكمه وانهمار البصاق والسخرية عليه وهو الأمر العادي الذي يقوم به الجمهور في اسبانيا كمقدمة للعقوبة القانونية التي ستأتي فيما بعد، نقل إلى سجن المدينة، في حين سمح للبغال أن يمضي بالحمولة إلى الحمراء بعد أن أجروا عليها التفتيش اللازم.

بثورة من المشاعر والأحاسيس تلقى الحاكم العجوز نبأ تلك الإهانة التي لحقت به وبعلمه اثر إلقاء القبض على عريفه ولحين من الزمن راح يرغب ويزيد في القاعات العربية متنقلاً بين حصون الحمراء مزجراً هنا وهناك محملاً بقصر القائد العام وعيناه تقدحان شرراً. ولكي ينفس عن غضبه وحنقه، أرسل رسالة يطلب فيها تسليم العريف، نظراً لأنه هو وحده من يملك الحق في محاكمة المسيئين ممن هم في إمرته. لكن القائد العام، وبمساعدة قلم كاتبه العدل المبتهج،

أجاب، بعد لأي، محتجاً بأن الاساءة ارتكبت ضمن أسوار مدينته ولحقت بواحد من ضباطه لهذا فإن محاكمة المرتكب من صلاحيته وحده. غير أن الحاكم لم يقنع بذلك بل أرسل كتاباً يكرر فيه طلبه من جديد، فرد القائد العام بعد فترة أطول من الزمن مدعماً رده بحجة قانونية أكثر إفحاماً أيضاً.

وهكذا، غدا الحاكم أكثر حرارة وإلحاحاً في طلباته بينما غدا القائد العام أكثر بروداً وغزارة في أجوبته إلى أن صار الحاكم العجوز، قلب الأسد، يزار زئير الأسد ضيقاً وغيظاً وقد رأى نفسه يقع في شرك الجدل القانوني.

على ذلك النحو راح كاتب العدل الحاذق يتسلى على حساب الحاكم، وفي الوقت نفسه يجري محاكمة العريف الذي وجد نفسه محشوراً في زنزانة ضيقة في السجن، ليس لها سوى كوة صغيرة مشبكة بقضبان الحديد يمكن أن يظهر منها وجهه ليتلقى المواساة من أصدقائه. أكداس من الوثائق والمستندات راحت تتكوم على مهل طبقاً للصيغة الاسبانية المعمول بها في المحاكمات القضائية يقف وراءها كلها كاتب العدل إلى درجة طغت على العريف وطمرته تماماً فأدين بتهمة القتل العمد وحكم بالاعدام شنقاً.

مذكرة احتجاج بعد مذكرة احتجاج راح الحاكم يرسل. تهديداً بعد تهديد راح يبعث من الحمراء لكن عبثاً، فيوم التنفيذ بات قريباً والعريف وضع في كنيسة السجن الصغيرة المخصصة للمحكومين بالاعدام الذين ينقلون إليها عادة قبل يوم التنفيذ مباشرة، بحيث يمكنهم أن يفكروا بما فعلوا وهم على وشك لقاء وجه ربهم فيندمون ويطلبون التوبة والغفران.

صمم الحاكم. وقد رأى الأمور تقترب من النهاية، أن يعالج المسألة بنفسه. ولهذا الغرض أمر باخراج مركبته الرسمية التي راحت. ومن حولها حراسة. تقعق نازلة شارع الحمراء إلى داخل المدينة. اتجه إلى بيت كاتب العدل ثم طلب إليه أن يخرج إلى البوابة. مثل جمرة متوهجة كانت عين الحاكم العجوز حين رأى رجل القانون المتكلف الابتسام وهو يتقدم نحوه بهيئة المنتصر المنتشي.

«ما هذا الذي سمعته؟» صاح الحاكم «يقولون انك ستعدم واحداً من جنودي». «وفقاً للقانون - كل ذلك طبقاً لمقتضيات العدالة». قال الكاتب العدل الوثائق من نفسه وهو يكتم ضحكته ويفرك يديه واحدهما بالأخرى ثم استأنف «بإمكانني أن أري سيادتك كل الوثائق الخطية المتعلقة بالقضية».

«هاتها هنا» قال الحاكم فأسرع الكاتب إلى مكتبه مبتهجاً بأنه ستتاح له فرصة أخرى لاستعراض عضلاته الذكية أمام المحارب القديم ذي الرأس اليباس.

بحقبة ملأى بالأوراق عاد الكاتب وشرع يقرأ ما فيها من حجج وحيثيات قانونية. في غضون ذلك، كان حشد من الناس قد تجمع مصيخاً السمع وقد مد كل منهم عنقه وفغر فاه.

«أرجوك يا رجل، اصعد إلى العربة، بعيداً عن هذا الحشد اللعين علني أسمعك على نحو أفضل» قال الحاكم.

صعد الكاتب إلى العربة، وبلمحة عين أغلق الباب ثم فرقع سوط الحوذي وفي لحظة واحدة كانت البغال، العربة، الحراس يندفعون جميعاً بسرعة هادرة كالرعد مخلفين الحشد في الخلف جاحظ الأعين دهشة وذهولاً. ثم لم يتوقف الحاكم إلى أن أودع فريسته واحدة من أمنع الزنانات في الحمراء. بعد ذاك أرسل راية هدنة وفق الطريقة العسكرية مقترحاً تبادل أسرى — العريف مقابل الكاتب العدل. ولشعوره بأن كرامته قد أهينت، أرسل القائد العام رد ازدراء ورفض. في الوقت نفسه أمر بنصب المشنقة عالياً في منتصف ساحة نوما لإعدام العريف.

«أوه!! ! أتلك هي اللعبة» قال الحاكم مانكو ثم أمر مباشرة باعداد مشنقة مماثلة على حافة الحصن الناتئ الكبير الذي يطل على الساحة.

«الآن» قال الحاكم في رسالة بعث بها إلى القائد العام.

«أشفق جنديي متى شئت، لكن حين تراه معلقاً في الساحة انظر إلى الأعلى ولسوف ترى كاتبك معلقاً في الهواء».

لكن القائد العام كان متصلباً، فاصطف الجند في الساحة وقرعت الطبول ودقت الأجراس. كما تجمع حشد ضخم من المتفرجين والفضوليين ليشهدوا التنفيذ. من جهته، صف الحاكم جنده أيضاً في الحصن كما دقت الأجراس تنعي الكاتب العدل من برج الأجراس. دفعت زوجة الكاتب بنفسها شاقة طريقها وسط الزحام يمسك بأذيالها ويلحق بها دزينة كاملة من كتاب عدل صغار وحين وصلت إلى القائد العام ألقت بنفسها عند قدميه راجية متضرعة ألا يضحى بحياة زوجها من أجلها ومن أجل عيالها الصغار «إنك تعرف الحاكم العجوز جيداً» تابعت المرأة «فلاشك أنه سينفذ تهديده ويشنق زوجي إن شنقت ذلك الجندي».

دموعها، ولولاتها وكذلك تضرعات ذريتها الكبيرة من بنات وصبيان فقت في
عضد القائد العام فأعيد العريف إلى الحمراء تحت الحراسة وهو في ثياب الاعداء،
كانه مبشر على رأسه قبعة لكنه منتصب القامة مرفوع الهامة، وجهه كصفحة
من حديد، على أن يرسل الكاتب العدل عوضاً عنه حسب عرض تبادل الأسرى.
في الحال، جيء بالكاتب العدل الواثق من نفسه الكثير الانشغال عادة من زنانتته
وهو أقرب إلى الموتى منه إلى الأحياء. لقد تبخرت غطرسته وعنجهيته كلها. بل
يقال إن شعره شاب خوفاً، كما كانت سيماها كلها تنطق بالخوف والذعر، لا
يرفع رأسه عن الأرض وكأنه ما يزال يشعر برسن حول عنقه. وضع الحاكم
العجوز يده على خاصرته وللحظة من الزمن راح يمسح الكاتب من فوق إلى تحت
مبتسماً ساخراً ثم قال «من الآن فصاعداً يا صديقي، خفف من حماسك في دفع
الآخرين إلى مشانقهم ولا تكن واثقاً كثيراً من سلامتك: حتى ولو كان القانون إلى
جانبك. لكن قبل كل شيء، انتبه في المرة الثانية كيف تطبق ما تعلمته في المدارس
على جندي قديم».



الحاكم « مانكو والجندى »

على الرغم من أن الحاكم مانكو أو «وحيد الذراع» كان قد حافظ على المظهر العسكري للحمراء. إلا أن ما بات يضايقه كثيراً إنما هو اللوم الذي كان يلقي عليه باستمرار لأن الحمراء باقت وكراً للأوغاد ورجال العصابات. فجأة قرر الحاكم العجوز القيام بالاصلاح ثم انطلق إلى العمل مزيلاً أوكار أولئك المشردين من القلعة منظفاً، من الغجر، الكهوف والمغاور التي كانت تملأ التلال المجاورة كثقوب قرص الشهد. كذلك أرسل الجند للقيام بدوريات في الطرق والممرات، مزودين بالأوامر التي تقضي بأن يلقوا القبض على كل من يرتابو في أمره.

ذات صباح صيفي مشرق. كانت هناك دورية مؤلفة من العريف العجوز المتمرس الذي ذاع صيته بعد قضية ضابط الجمارك والكاتب العدل، ومن نافخ بوق ونفرين، وكانت الدورية تجلس تحت سور «جنة الريف»، بجانب الطريق الذي

ينزل من جبل الشمس، حين سمع أفرادها وقع حوافر وصوت رجل يغني بنغمة فجأة، إنما موسيقية، أغنية من أغاني الحملات العسكرية القشتالية.

وعلى الفور ظهر أمامهم شخص صلب البنية لوحته أشعة الشمس يلبس بزة بالية لجندي مشاة، وهو يقود حصاناً عربياً قوياً كسي ظهره وفق الطراز العربي المغربي القديم.

مندهشاً من منظر جندي غريب ينحدر من سفح الجبل المنعزل وهو يقود حصانه بيده، خطا العريف إلى الأمام معترضاً طريقه.

« من هناك ؟ »

« صديق »

« من أنت وماذا تريد ؟ »

«جندي مسكين آتٍ لتوه من الحرب، برأس محطم وجيب فارغ مكافأة له».

في غضون ذلك، كان قد بات بإمكانهم أن يروه عن كثب أكثر، فرأوا في جبهته لطفة سوداء أضفت مع لحيته التي خالط سوادها البياض، نوعاً من ملامح الشيطان على سيمائه، بينما كانت نظرتة الشزراء تحمل نوعاً من بريق المزاج الطيب المائل للدعابة والندالة..

أجاب الجندي على أسئلة الدورية ثم بدا وكأنه يعتبر نفسه مخولاً بالمقابل بالحصول على أجوبة . فقال «هل يمكنني أن أسأل؟ أية مدينة تلك التي أراها، عند أسفل الرابية؟ » «أية مدينة !!» صرخ نافخ البوق «هلم !! الأمر في غاية السوء، ها هنا شخص ينزل من جبل الثلج ويسأل عن اسم المدينة العظيمة غرناطة!» .

«غرناطة!! يا لله !! أهذا ممكن؟».

«ربما لا ..» عقب نافخ البوق «وربما ليس لديك فكرة أن تلك الأبراج هناك هي أبراج الحمراء».

«يا صاحب البوق!!» رد الغريب «بربك لا تسخر مني إن كانت هذه هي الحمراء حقاً. فإن لدي بعض الأمور الغريبة التي ينبغي ان أكشفها للحاكم».

«ستتاح لك الفرصة»، قال العريف «فنحن ننوي أن نأخذك اليه». في هذه اللحظة، كان البواق قد أمسك بلجام الحصان، فيما أمسك كل من النفيرين بذراع الجندي، أما العريف فسار في المقدمة معطياً الإيعاز «أمام، سر» ثم ساروا إلى الحمراء.

رؤية جندي مشاة ممزق الثياب وحصان عربي جميل وقد اسرتهما الدورية جذبت انتباه المتعطلين المتبطلين جميعاً في القلعة. كما جذبت أنظار جماعات القيل والقال التي تتجمع عادة حول الآبار والينابيع مع أشعة الفجر الأولى.

دولاب الصهريج توقف عن دورانه. كما توقفت الخادمة التي تدوره فاعرة فاها والابريق في يدها حين مر العريف بجائزته بجوارها. ثم شيئاً فشيئاً تشكلت قافلة أشكال ألوان في إثر الدورية.

إيماءات رأس وغمزات ولمزات تشي كلها بأنها عالمة بكل شيء راحت تنتقل من واحد إلى آخر «إنه صحراوي» قال أحدهم «رجل عصابة». قال ثان «قاطع طريق» قال ثالث إلى أن ثبتوا أن الرجل هو قائد عصابة بائسة من قطاع الطرق وضع يده عليها العريف الباسل ودوريته الشجاعة.

«حسناً، حسناً» قالت العجائز الشمطاوات واحدتهم للأخرى «قائد أو غير قائد، دعه يخلص من قبضة الحاكم مانكو إن كان يستطيع، رغم أنه بذراع واحدة». في ذلك الحين، كان الحاكم مانكو يجلس في إحدى قاعات الحمراء وهو يشرب قدح الشوكولا الصباحي، بصحبته كاهنه الذي يتلقى اعترافه، وهو من الأخوة الفرنسيين في الدير المجاور. كذلك المشرفة على خدمته وهي فتاة من ملقا سوداء العينين بادية الرزانة، ابنة مدبرة بيته التي كان العالم كله يلمح إلى أنها رغم كل تظاهرها بالرزانة، ما هي إلا الفتاة العبلة الربلة الماكرة التي اكتشفت نقطة الضعف في قلب الحاكم الحديدي العجوز وتسالت عبرها فارضة سيطرتها الكاملة عليه. لكن لندع ذلك جانباً، فالشؤون الداخلية لحكام الأرض الأقوياء أولئك، يجب عدم التدقيق كثيراً فيها.

حين مررت كلمة تقول إن غريباً مشكوكاً في أمره وجد يتسلل قرب القلعة، وهو موجود بالفعل، في الساحة الخارجية في قبضة العريف بانتظار أوامر سيادته، انتفخ صدر الحاكم كبيراً وزهواً. في الحال أعاد كأس الشوكولا إلى يدي الفتاة بادية الرزانة، طالباً سيفه ذا المقبض الأشبه بالسلة متحزماً به مدلياً إياه إلى

جانبه، فاتلاً شارببيه عالياً ثم جلس على كرسي واسع عالي الظهر متخذاً هيئة الصرامة والشدة، آمراً باحضار السجين اليه. 'جىء بالسجين للتو وهو ما يزال محشوراً بين النفرين الآسرين، يتقدمهم العريف في الأمام، مع ذلك، كان لا يزال يحتفظ بهيئة الرجل العتيد الواثق من نفسه، راداً نظرة الحاكم الحادة المتفحصة بنظرة شزراء متهاونة لم تسر البتة الحاكم العجوز الحريص على الشكليات كل الحرص «حسناً أيها المرتكب» قال الحاكم بعد أن نظر إليه لحظة من الزمن صامتاً دون كلام. «ماذا تقول دفاعاً عن نفسك؟ من أنت؟».

«جندي آتٍ لتوه من ساحات حرب وقتال لم ينل منها سوى الندوب والجروح».

«جندي - أف - جندي مشاة كما تبدو من بزتك، كما أرى أن لديك حصاناً عربياً جميلاً. أظن أنك جئت به أيضاً من ساحات الحرب والقتال إضافة إلى ندوبك وجروحك». «أسعد الله سيادتك. لدي شيء غريب أحكيه لك عن ذلك الحصان. والحقيقة، لدي أكثر ما في الدنيا إثارة لأرويه لك. إنه شيء يخص أمن هذه القلعة وسلامتها، أو بالأحرى أمن غرناطة كلها وسلامتها لكنني لا أستطيع ان أتحدث إلا لك وحدك أو بحضور من تثق بهم فقط». أطرق الحاكم متفكراً لحظة من الزمن، ثم أصدر توجيهاته للعريف ورجاله بالانسحاب، إنما فقط إلى خارج الباب على أن يكونوا على أهبة الاستعداد لتلبية النداء إذا ما ناداهم «هذا الأخ الرهباني المقدس» قال الحاكم «هو موضع سري ومن يتلقى اعترافي بإمكانك أن تقول أي شيء في حضرته - وهذه الفتاة» قال وهو يوميء براسه باتجاه الوصيصة التي تربثت في مكانها بهيئة الفضول الشديد «هي بالغة الحصافة والمؤتمنة على أسراي يمكنك أيضاً أن تحدثني أمامها عن أي شيء». رمق الجندي الفتاة بنظرة هي بين الشزراء والخبثية ثم قال «اني لأرغب كل الرغبة في أن تبقى هذه الفتاة». حين انسحب البقية، بدأ الجندي قصته بلسان ذرب طليق. ولغة مطواعة أكثر مما يتصف به أبناء طبقته عادة.

«عسى الله ان يسعدك يسا سيدي الحاكم. إنني، كما ذكرت من قبل، جندي سبق له وخاض تجارب مريرة قاسية، لكن قبل أيام سرحت من الخدمة لانتهاؤ فترة تجنيدتي وقد كنت أخدم في فالادوليد. انطلقت سيرا على الأقدام الى قريتي ومسقط رأسي في الأندلس، مساء البارحة، غابت الشمس وأنا أعبر السهل الكبير الجاف، سهل قشتالة القديمة.

«توقف»، صاح الحاكم «ما هذا الذي تقوله؟ قشتالة القديمة على بعد مائتين أو ثلاثمائة ميل من هنا».

«وهو كذلك» أجاب الجندي ببرود «لقد قلت لسيادتك إن لدي أغرب قصة تروى، لكنها ليست أغرب من أن تكون صحيحة كما ستكتشف سيادتك إذا ما أعطيتني أذنًا صاغية وبعضاً من صبرك».

«هيا.. تابع.. أيها المرتكب» قال الحاكم وهو يهرم شاربيه عالياً فتابع الجندي «حين غربت الشمس نظرت هنا وهناك بحثاً عن مكان أقضي فيه ليلتي. لكن ضمن مدى بصري لم يكن ثمة أثر لإنسان أو سكان، فادركت أن علي أن أفترش أرض السهل الجرداء، وأجعل من كيسي العسكري مخدة لي. إنك جندي قديم يا سيدي خاض ساحات الوغى وإنك لتعلم أن قضاء ليلة كهذه في العراء ليس بالأمر العسير».

أوماً الحاكم برأسه علامة الإيجاب، فيما أخرج منديله الجيبى من المقبض الأشبه بالسلة ليبعد ذبابة راحت تطير وتثز حول أنفه.

«حسناً، كي أختصر القصة يا سيدي» استأنف الجندي «تابعت السير منهنك القوى أميلاً عدة أخرى إلى أن وصلت إلى جسر فوق واد ضيق عميق يجري فيه نهير صغير، يكاد يجففه حر الصيف. عند نهاية الجسر كان ثمة برج عربي، قسمه العلوي كله غدا حطاماً لكن القبو في قاعدته السفلى ما يزال سليماً تماماً. حينذاك فكرت. ها هنا مكان جيد آوي إليه وهكذا، نزلت إلى الجدول، شربت حتى الارتواء، إذ كان الماء عذبا رقيقاً وكنت ظامئاً حتى درجة التلف. بعدئذ فتحت جمعتي، أخرجت بصلة وكسرة من الخبز اليابس هي كل زادي. جلست على حجر قرب حافة الجدول ثم بدأت عشائي، وفي نيتي أن أمضي الليل في قبو البرج، وإنه لماوى عظيم بالنسبة إلى جندي عائد لتوه من الحرب كما يمكن، وأنت الجندي القديم، أن تفترض ياسيدي».

«لقد عرفت في حياتي ما هو أسوأ من ذلك بكثير» قال الحاكم وهو يعيد منديله الجيبى إلى مقبض سيفه، فتابع الجندي بهدوء رحلت أمضغ كسرتي فيصدر عنها صوت ساحق. حينذاك سمعت شيئاً يتحرك داخل القبو، أصخت السمع - إنه وقع حوافر. بعدئذ ظهر رجل من باب البرج القريب من حافة الماء وهو يقود حصاناً قوياً من لجامه، لم يكن باستطاعتي أن أتبين هيئته تماماً على

ضوء النجوم . لكن ربما كانت له هيئة مريبة لرجل يختبئ بين آثار البرج في ذلك المكان المنعزل الموحش. ربما كان مجرد عابر سبيل، مثلي، وربما كان مهرباً، بل ربما كان قاطع طريق ! من يعلم؟ لكن ، شكراً للسماء ولفقري فلم يكن لدي ما أخشى عليه، لذلك ظللت جالسا دون حراك أقضم كسرات خبزي بهدوء.

«جاء الرجل بحصانه إلى الماء قرب المكان الذي كنت أجلس فيه فأتاحت لي فرصة افضل لاستكشاف هيئته. ولشدة دهشتي رأيته يرتدي حلة عربية، عليها درع من فولاذ وعلى رأسه خوذة لامعة ينعكس عليها ضوء النجوم. كذلك، كان حصانه مسرجاً وفق الطريقة العربية، ركابه كبيران كالرفوش. قاده الرجل، كما قلت، إلى الجدول، حيث غطس الحيوان خطمه في الماء حتى العينين ثم راح يشرب إلى أن ظننت أن بطنه سينفجر.

«يا رفيق» بادرت به مخاطباً «حصانك يشرب جيداً، وإنها لعلامة حسنة أن يغطس الحصان خطمه هكذا في الماء».

«أجل هو يشرب جيداً» قال الغريب متحدثاً بنبرة عربية «لقد مرت عليه سنة كاملة مذ شرب آخر مرة».

«يا للقديسين جميعاً!!» اجبته «ذلك يقضي حتى على الجمال التي رأيتهما في إفريقيا. لكن هلم، إنك لتبدو لي أشبه بجندي فهلا جلست وشاركت جندياً زاده». والحقيقة، كنت أشعر بالحاجة لرفيق في ذلك المكان الموحش كما كنت أرغب في الأخذ والعطاء مع رجل من غير ديني. إضافة إلى ذلك، وكما تعرف سيادتكم، فإن الجندي لا يقيم كبير وزن لدين رفيقه، فالجنود في كل الأقطار هم رفاق على أرض السلم». ومن جديد هز الحاكم رأسه بالإيجاب.

«حسناً، كما سبق وقلت، دعوت الرجل لمشاركتي عشائي، على عجره بره، إذ لم يكن باستطاعتي أن أفعل ما هو دون ذلك كرماً وحسن ضيافة، قال «ليس لدي وقت أهدره في طعام أو شراب، فأمامي طريق طويل أقطعه أن يطلع الصباح».

«في أي اتجاه ؟» سألته، فأجاب:

«الأندلس»

« ذلك طريقي أيضاً » قلت له : « لذلك ، وبما أنك لن تتوقف وتشاركني الطعام ، ربما ستسمح لي أن أمتطي الحصان وراءك وأرحل معك – إنني أرى حصانك قوي البنية ، وأعتقد أنه قادر على حمل اثنين ».

« موافق » ، قال الجندي ولعله لم يكن حرياً به كجندي ومهذب أيضاً أن يرفض ، خاصة وقد عرضت عليه أن يشاركني طعامي . وهكذا امتطي الحصان ، فامتطيته خلفه : « أمسك جيداً » ، قال الرجل « فحصاني يجري بسرعة الريح » .

« لا تخف علي » قلت ثم انطلقنا في الحال .

من المشي اندفع الحصان إلى الخيب ومن الخيب إلى الجري ثم من الجري إلى العدو المجنون فقد بدا وكأن الصخور ، الأشجار ، البيوت كل شيء يطير بسرعة مجنونة خلفنا .

« أية بلدة هذه ؟ » سألته فأجابني :

« سيغوفيا » لكن ما ان خرجت الكلمة من فمه حتى كانت أبراجها قد غابت عن ناظري . بعدئذ عبرنا جبال وادي الرام ثم نزلنا إلى الإسكوريال . حاذينا أسوار مدريد ثم اجتزنا سهول لامانشا .

بهذه الطريقة كنا نصعد تلة وننزل وهدة ، نمرُّ بالأبراج والمدن وكلها غارقة في سبات عميق ثم نعبر الجبال والسهول والأنهار وهي تلمع تماماً تحت ضوء النجوم .

« ولكي أختصر القصة ولا أرهق سيادتكم ، فجأة وجدت الجندي يتوقف بجانب جبل قائلاً : ها قد وصلنا إلى نهاية رحلتنا » . تطلعت حولي لكنني لم أر أثراً لعمران ، لا شيء سوى فوهة مغارة لكن حين كنت أتطلع رأيت حشوداً من الناس بثياب عربية مغربية ، بعضهم على ظهور الخيل والبعض الآخر على الأقدام ، يصلون وكأنما الريح تحملهم من جهات الأرض الأربع ليدخلوا مسرعين في فوهة المغارة كما يدخل النحل في الخلية . وقبل أن أتمكن من توجيه سؤال واحد ، نخس الجندي مهمازه في خاصرتي حصانه فاندفع إلى خضم الحشد ليسير على طول طريق منحدر ملتف يغوص إلى أعماق الجبل ذاتها . مع اندفاعنا قدماً ، بدأ ضوء يلمع في الأمام ، ثم راح ينتشر شيئاً فشيئاً كضياء الفجر ، لكن ما مبعث ذلك الضوء أمر لم أستطع رؤيته أو تحديده . فقد غدا يشتد ويشتد حتى

صار باستطاعتي ان أرى كل شيء حولي وللتو لاحظت، ونحن نسير على طول الطريق، مغارات عظيمة تنفتح على اليمين والشمال أشبه بقاعات في دار صناعة. في بعضها تروس، خوذات، دروع، رماح، سيوف وكلها معلقة على الجدران. في بعضها الآخر أكداس من ذخائر حربية ومعدات خيام تتكوم على الأرض.

ولكم يريح قلب سيادتكم، وأنت الجندي القديم، أن ترى معدات حرب هائلة كهذه !! في مغاور أخرى. كان ثمة صفوف طويلة من الفرسان شاكي السلاح، رماحهم مسددة وراياتهم مرفوعة والكل جاهز للقتال. لكن الفرسان جميعاً كانوا يجلسون في أسرجتهم دون حراك لأنهم التماثيل. في قاعات أخرى كان ثمة محاربون ينامون على الأرض بجانب خيولهم ومشاة على شكل زمر مستعدة لاتخاذ نسق القتال، وكلهم في الثياب والعدة العربية المغربية القديمة الطراز».

«حسناً، لكي أختصر القصة يا سيدي. دخلنا أخيراً إلى مغارة ضخمة. او يمكنني القول، إلى قصر منحوت باليد، جدرانه كأنها مغطاة برقائق الذهب والفضة. مطعمة بالماس والزمرد وأصناف الأحجار الكريمة كلها.

في طرفه البعيد، كان يجلس ملك عربي على عرش من ذهب وقد اصطف امرأته على جانبيه كما وقف حرس من عبيد أفريقيا السود مشرعين سيوفهم.

الحشد كله، ذاك الذي استمر بالتدفق، ألوفاً ألوفاً، كان يعبر واحداً واحداً بالعرش، مقدمين له فروض الولاء والطاعة. بعض أفراد الحشد كانوا يرتدون أفخر الملابس المتألثة بالجواهر والماس ولا لطخة فيها أو عيب، بعضهم الآخر كانوا بعدة الحرب والقتال، فيما كان آخرون يلبسون حلاً معفرة بالتراب متعفنة ويحملون أسلحة مهشمة مثلثة يعلوها الصدا.

حتى تلك اللحظة، كنت يا سيدي قد لذت بالصمت لا أنبس ببنت شفة، فأنت تعلم أنه لا يليق بجندي أن يطرح الكثير من الأسئلة عندما يكون في مهمة. لكنني لم أعد أستطيع الصمت.

«أرجوك يا رفيق، ما معنى هذا كله؟» قلت، فأجابني الجندي «هذا هو السر العظيم والرهيب، ألا فاعلم أيها المسيحي أنك تشهد بأم عينيك بلاط أبي عبد الله، آخر ملوك غرناطة، وكذلك جيشه».

«ما الذي تقوله؟ صحت هاتفاً» أبو عبد الله طرد من البلاد قبل مئات السنين وكذلك بلاطه وجيشه وقد قضوا نحبهم جميعاً في أفريقيا».

«هذا ما هو مسجل في تواريخكم الكاذبة» أجاب العربي «ولكن اعلم أن أبا عبد الله والمحاربين الذين خاضوا معركة الكفاح الأخيرة دفاعاً عن غرناطة ما يزالون جميعاً حبيسي هذا الجبل بفعل تعويذة قوية من السحر، أما الجيش والملك اللذان غادرا غرناطة، وقت التسليم فلم يكونا إلا أشباحاً من جن وشياطين سمح لها أن تتخذ تلك الأشكال كي تخدع المسيحيين، بل دعني أخبرك أكثر من ذلك، أيها الصديق، أن اسبانيا كلها بلاد مسحورة تخضع لقوة السحر فليس هناك كهف في جبل ولا برج مراقبة وحيد في سهل ولا حصن دارس على رابية إلا وفيه محاربون مسحورون ينامون بفعل تعويذة سحرية من عصر إلى عصر ضمن أقبيتهم إلى أن تنتهي ذنوبهم تلك التي سمح الله بسببها أن تنتقل الهيمنة على هذه البلاد من أيديهم إلى أيدي الآخرين حقبة من الزمن. في ليلة القديس يوحنا من كل سنة، ولرة واحدة فقط يفك عنهم السحر، من غروب الشمس إلى شروقها ويسمح لهم بالحضور إلى هناكي يقدموا فروض الولاء والطاعة إلى مليكهم، وما الحشود التي تراها، وهي تتزاحم بالمناكب في هذه المنارة، إلا محاربون مسلحون جاؤوا من أماكنهم المسكونة في أرجاء اسبانيا كلها، أما بالنسبة إلي، فقد رأيت بأم عينك البرج الدارس قرب ذلك الجسر في قشتالة القديمة حيث أقضي الشتاء والصيف منذ مئات كثيرة من السنين وحيث ينبغي أن أعود ثانية مع انبلاج الفجر. فيما يتعلق بكتائب الخيالة والمشاة الذين رأيتهم منتظمين في صفوف في المغاور المجاورة، فما هم إلا محاربو غرناطة وقد جمدوا بفعل السحر. لقد كتب في كتاب القدر أنه حين ينفك السحر، سوف يهبط أبو عبد الله من الجبل على رأس هذا الجيش ليستعيد عرشه في الحمراء وسيطرته على غرناطة، وبحشده معاً المحاربين المسحورين من كافة أنحاء اسبانيا سيعود فيغزو الجزيرة معيداً إياها إلى حكم المسلمين».

« ومتى يحدث هذا؟ » سأله فأجاب:

« الله وحده أعلم: لقد كنا نأمل أن يوم الخلاص أصبح وشيكاً، لكن في الوقت الراهن ثمة حاكم يقظ يحكم الحمراء، إنه جندي قديم صلب يعرف باسم الحاكم مانكو، وطالما هناك محارب مثله يأمرة هذا الموقع ويقف على أهبة

الاستعداد لصد التدفقات الأولى من الجبل، فإنني أخشى أن يظل أبو عبد الله وجيشه قانعين بالبقاء دون حراك».

هنا، نصب الحاكم قامته أكثر ورفع هامته أكثر، معدلاً وضع سيفه فاتلاً شاربیه.

ولكي أختصر القصة ولا أرهقك يا سيدي، فإن الجندي، بعد أن قدم لي هذا الوصف، ترجل عن ظهر حصانه قائلاً: «امكث هنا واحرس حصاني ريثما أذهب فأقدم فروض الولاء والطاعة لسيدي أبي عبد الله». قال ذلك ثم مشى بخطى واسعة إلى الامام عبر الزحام الذي كان يضغط باتجاه العرش.

« ماذا علي أن أفعل؟ » فكرت وقد تركني وحدي انتظر هنا إلى أن يعود هذا المسلم فينقلني على ظهر حصانه الجنني إلى حيث لا يعلم إلا الله، أو أنتهز فرصتي وأخلص من جماعة الجن تلك؟

وكما تعرف سيادتكم سرعان ما يعمل عقل الجندي، خاصة وأن الحصان ملك عدو مشهور من أعداء الدين والدولة ولسوف يكون غنيمة حسنة طبقاً لقواعد الحرب. وهكذا، زحفت من مكاني في الخلف إلى متن السرج ثم شددت اللجام مغيراً اتجاه الحصان، وبالركابين العربيين نخست جانبيه موجهاً إياه بحيث يشق طريقه عبر الممر الذي دخلنا منه. حينما مررت بجانب القاعات التي كان الفرسان المسلمون يجلسون فيها صفوفاً صفوفاً دون حراك. خيل لي أنني سمعت صليل سلاح وهمهمة أصوات لم أفهم لها معنى. نخسة شديدة أخرى من ركابي للحصان فضاغف سرعته. حينذاك سمعت صوتاً خلفي كعاصفة مندفة ثم سمعت قعقة ألف من الخوافر وحشد لا يعد يندفع قدماً ثم وجدت نفسي أخرج خارج فوهة المغارة، في حين كانت آلاف من تلك الأشكال الأشباح تندفع بقوة في كل اتجاه وكأنما تحملها الرياح إلى الجهات الأربع.

في ذلك الاضطراب الشديد والارتباك، الذي حل بالحشد وجددني القى على الأرض فاقد الوعي. حين استعدت وعيي وجدت نفسي ممدداً عند حافة رابية والحصان العربي يقف إلى جانبي، ذلك أن ذراعي انزلقت أثناء السقوط، داخل اللجام، الأمر الذي منعه، على ما أظن، من الانطلاق إلى قشتالة القديمة. بسهولة يمكن لسيادتكم أن تتصور مقدار دهشتي وأنا أتطلع حولي فأرى أسيجة

الصبار والتين الهندي والنباتات الأخرى التي تثبت كلها أنني في الاقليم الجنوبي، ثم أرى تحتي تماماً مدينة كبيرة فيها أبراج وقصور وكاتدرائية عظيمة.

بحذر انحدرت نازلاً الرابعة، وأنا أقود حصاني بيدي، إذ كنت أخشى أن أركبه من جديد، خشية أن يمارس علي إحدى خدعه وينزلق بي بعيداً، اثناء نزولي التقيت بدوريتمك التي جعلتني أعرف أنها مدينة غرناطة وأنني فعلاً تحت أسوار الحمراء، قلعة الحاكم مانكو الشهير، مصدر رعب المسلمين المسحورين جميعاً.

حين سمعت ذلك، صممت في الحال أن اسعى لرؤية سيادتك كي أعلمك بكل ما رأيت وأحذرك من الأخطار التي تحيق بك وتهددك عسى أن تتخذ الإجراءات المناسبة لحماية قلعتك، بل الملكة كلها من ذلك الجيش الخفي الذي يكمن في أحشاء الأرض ذاتها:

« من فضلك، أيها الصديق، أنت المحارب الذي خاض الحملات العسكرية وخشي الكثير من ساحات الوغى » قال الحاكم « ماذا تشير علي أن أفعل كي أمنع هذا الشر؟ »..

« لا، ليس لنفري متواضع بلا رتبة.. » قال الجندي بكل تواضع « أن يدعي القدرة على أن يعلم قائداً بحكمة سيادتك وحنكته، لكن يبدو لي أن على سيادتك أن تجعلهم يسدون فوهات الكهوف ومداخل المغاور الموجودة في الجبال بمواد البناء الصلبة، بحيث يحجز أبو عبد الله وجيشه ويختم عليهم تماماً في مقراتهم تحت الأرض.. هنا صمت لحظة ثم أضاف وهو ينحني بكل احترام للراهب راسماً الصليب بكل ورع على نفسه: « وإذا كان بإمكان الأب المحترم الطيب أن يمنح بركاته لتلك الحواجز والسدادات، رافعاً عليها « فإنني أظن أنها ستقاوم سحر الكفار وتعاويزهم كلها. » لا شك أنها ستكون ذات فائدة » قال الراهب. حينذاك وضع الحاكم يده على خصره ويده الأخرى على مقبض سيفه الطليطي محدقاً إلى الجندي هازاً رأسه هذا خفيفاً من جانب إلى آخر ثم قال: « هكذا إذن أيها الصديق ؟ أنت تظن أن بالأمكان خداعي بقصة الديك والثور هذه حول جبال مسحورة وعرب مسحورين؟ اسمع أيها المرتكب !! ولا كلمة أخرى. جندياً قديماً ربما تكون، لكنك ستجد أنك أمام جندي أقدم عليك أن تتعامل معه، بل جندي ليس من السهل قهره. هـ. ي.. أنتم أيها الحرس هناك! كبلوا هذا الرجل بالحديد.. »

همت الفتاة بادية الرزاة بقول كلمة لصالح السجين، لكن الحاكم منعها بنظرة صارمة.

أحس أحد الحراس، وهو يشد وثاق الجندي بشيء كالكتلة في جيبه، سحبه فوجده كيساً جلدياً طويلاً بدا ممتلئاً تماماً. عندئذ أمسكه من إحدى زواياه ثم قلبه مفرغاً محتوياته على الطاولة أمام الحاكم وللتوا انسكب منه ما لم ينسكب من كيس قاطع طريق قط. إذ تدحرجت خواتم، جواهر، أطواق لؤلؤ، آثار أيقونات، قطع نقدية، بعضها سقط وهو يرن على الأرض ثم تدحرج بعيداً إلى الانحاء البعيدة من الحجرة.

حيناً من الزمن، توقفت إجراءات العدالة، فقد بدأ الكل يزحفون وراء الذهب اللامع والقطع الهاربة. الحاكم وحده، المشيع بالكبرياء الاسبانية الحقيقية، لبث في مكانه محافظاً على هيئته، رغم أن عينه كانت تفضحه ببريق القلق الذي كان يلعب منها إلى ان استعيدت آخر جوهرة وقطعة نقدية إلى الكيس. غير أن الراهب لم يكن سادئاً بل وجهه كله أحمر كالفرن وقد لمعت عيناه لمنظر الذهب والماس ثم هتف:

«وغد زعيم أنت!! من أية كنيسة أو دير نهبت هذه الآثار المقدسة!!»

«لا من هذا ولا من تلك، أيها الأب المقدس، وإذا كانت منهوبات مقدسة فلا بد انها أخذت قبل زمن طويل من قبل ذلك الجندي المسلم الذي ذكرته، فقد كنت على وشك أن أخبر سيادته، حين قاطعني، أنني حين وضعت يدي على حصان ذلك الجندي، وجدت كيساً جلدياً معلقاً على قوس السرج فأخذته من مكانه وأعتقد أنه يحتوي الغنائم التي غنمها في حملاته العسكرية في الماضي حين فتح العرب هذه البلاد: «رائع تماماً!! لكن في الوقت الراهن رتب نفسك على أن مقرك سيكون حجرة من حجرات .. ذاك البرج القرمزي الذي سيبقيك رغم أنه لا يخضع لأية قوة سحرية، في أمان تام مثله مثل أي كهف من كهوف عربك المسحورين».

«بإمكان سيادتك أن تفعل ما تراه مناسباً» قال السجين «ولسوف أكون شاكراً لسيادتك إيوائي بشكل من الأشكال في هذه القلعة، فالجندي العائد لتوه من ساحات الحرب، كما تعرف سيادتك، لا يأبه كثيراً لمكان نومه: شريطة أن

تكون لي زنزانة مرتبة وتعيين نظامي من الطعام، ولسوف أكون في كامل راحتي. رجائي الوحيد فقط هو أن تولي عنايتك الشديدة لقلعتك بقدر ما توليها لي الآن وأن تفكر بالإشارة التي نقلتها لك بسد المغاور والكهوف في الجبال».

هنا انتهى المشهد، فقد نقل السجين إلى زنزانة حصينة في البرج القرمزي فيما سيق الحصان العربي إلى الاسطبل وأودع كيس الجندي في صندوق سيادته الحديدي. صحيح أنه فيما يتعلق بهذا الأخير، وجه الراهب بعض الإشارات والتلميحات ، سائلاً فيما إذا كان لا ينبغي إعادة المنهوبات المقدسة مباشرة إلى حمى الكنيسة لكن بما أن الحاكم كان مهتماً كثيراً بالأمر وكان حاكماً مطلقاً على الحمراء فإن الراهب تخطى بكل حنكة ودهاء عن النقاش لكنه صمم على نقل الخبر برمته إلى رجالات الكنيسة في غرناطة.

ولكي نشرح هذه الاجراءات العاجلة والقاسية على الحاكم العجوز مانكو، من المناسب أن نلاحظ أنه في ذلك الحين، كانت جبال البوكسارا القريبة من غرناطة تعج باللصوص، وكانت إحدى عصاباتهم وهي بإمرة زعيم مقدم يدعى ما نويل بوراسكو قد استطاعت أن تبتث الرعب في القلوب. إذ كانت تلك العصابة تجوب البلاد، بل تدخل المدينة أحياناً متنكرة بأزياء مختلفة لالتقاط خبر عن رحيل قافلة تجار أو مسافرين ، أكياسهم ممتلئة جيداً فيحرصون على أن يكمنوا لهم في الأماكن البعيدة المنعزلة من طريقهم. تلك الأعمال الجريئة المتكررة لفتت انتباه الحكومة وأمر مختلف المراكز الذين تلقوا تعليمات بأن يأخذوا حذرهم وأن يلقوا القبض على كل من يرتابون فيه.

ولقد كان الحاكم مانكو متحمساً على نحو خاص عقب وصمات العار العديدة التي لحقت به وبقلعته، لذلك لم يشك قط في أنه أوقع في الشرك أحد افراد تلك العصابة الأساسيين.

في أثناء ذلك، بدأت القصة تنتشر وأصبحت حديث الناس ليس في القلعة وحسب بل في مدينة غرناطة كلها، فقد قيل أن اللص الشهير مانويل بوراسكو، مروّع جبال البوكسارا نفسه سقط في قبضة الحاكم العجوز مانكو، لهذا تجمع كل من سبق وتعرضوا للسرقة على يده، عليهم يتعرفون إلى المجرم، وكما هو معروف، تنتصب الأبراج القرمزية بعيداً عن الحمراء ، على رابية توأم يفصلها عن رابية القلعة الرئيسية الوادي الذي يمر فيه الشارع الرئيسي. وحولها لا توجد

أسوار خارجية، بل ثمة حارس يذهب ويجيء أمامها، أما الحجرة التي حبس فيها الجندي فقد كان فيها نافذة عليها شبك من قضبان حديدية، تطل على فسحة صغيرة. إلى هنا بدأ أناس غرناطة الطيبون يجيئون كي يتفرجوا عليه كما يمكن أن يتفرجوا على ضبع مضحكة وهي تكشر مزمجرة داخل القفص، مع ذلك لا أحد منهم عرف فيه ما نويل بوراسكو، فذلك اللص المخيف كان مشهوراً بهيئته الشرسة وملامحه المرعبة ولم يكن له قط ملامح الطيبة التي بدا عليها ذلك السجين، والحقيقة أن الزوار لم يأتوا من المدينة وحسب بل من انحاء البلاد كلها، لكن ما من أحد عرفه. حينذاك بدأت بعض الشكوك تتسرب إلى أذهان العامة فيما إذا لم يكن هناك شيء من الحقيقة في قصته: أبو عبد الله وجيشه حبيسا الجبل: إنها قصة قديمة تناقلتها الأجيال وسمعتها الكثير من الناس أباً عن جد لهذا راحت أعداد غفيرة من الناس تتجه إلى جبل الشمس، أو بالأحرى جبل القديسة ايلينا بحثاً عن الكهف الذي ذكره الجندي. رأوه وبصّبوا بأعينهم في ذلك التجويف العميق المظلم الذي يغوص في أعماق الجبل إلى حيث لا يعلم أحد والذي ما يزال باقياً حتى يومنا هذا — إنه المدخل الخرافي للكهف تحت الأرضي لأبي عبد الله.

شيئاً فشيئاً أصبح الجندي محبوباً من عامة الناس، فقاطع الطريق ليس بالشخصية المحترقة في اسبانيا مثلما هي حال اللص في أي بلد آخر، بل على العكس، ينظر أبناء الطبقات الدنيا إليه على أنه نوع من الفرسان، كذلك ثمة نزوع دائماً للتسامح تجاه من يأمر وينهى، لهذا بدأ الكثيرون يتناولون بالهمهمة إجراءات الحاكم العجوز مانكو القاسية، بل بدؤوا ينظرون إلى السجين نظرتهم إلى ضحية شهيد. إضافة إلى ذلك، فقد كان الجندي شخصاً مرحاً مزوفاً يجسد لكل من يقترب من نافذته الدعابة المناسبة ولكل انثى الحديث المناسب. كذلك، حصل على غيتار قديم فراح يجلس بجوار نافذته، يعزف على غيتاره ويغني الأناشيد وأغاني الحب فيمتع نساء الجوار، اللواتي رحن يتجمعن في الساحة الصغيرة في المساء ويرقصن رقصة « البوليروز » على أنغام غيتاره. كذلك فقد لاقى وجهه الذي لوحته الشمس بعد أن شذب ذقنه الخشنة استحساناً في أعين الجنس اللطيف، بل إن وصيفة الحاكم البادية الرزانة أثبتت أن نظراته الشراء لا تقاوم ابداً والحقيقة أن تلك الفتاة الطيبة القلب كانت منذ البداية قد أبدت تعاطفاً شديداً معه، بل حاولت عبثاً تليين الحاكم تجاهه والعمل خفية للتخفيف من

حدة شكوكه كما كانت تأتي له كل يوم ببعض فتات من الخبز المتبقي على مائدة الحاكم أو أي شيء من اللحم المحفوظ اضافة إلى زجاجة من خمر «فال دي بنياس» أو «ملقا» الفاخر من حين إلى حين.

على ذلك النحو نشبت الخلافات واحتدمت فأرغى الحاكم وأزبد مقسماً أغلظ الأيمان أنه يفضل ان يشنق السجين داخل الحمراء، كجاسوس القي القبض عليه وهو يتجسس في حرم الحمراء، من أن يسلمه لأحد. أما القائد العام فقد راح يهدد بإرسال قوة عسكرية لنقل السجين من البرج القرمزي إلى المدينة، في حين بدا المفتش الاعلى مصمماً على إرسال عدد من عناصر المكتب المقدس، وقد جاء في وقت متأخر من الليل من يحمل تلك التهديدات إلى الحاكم فقال «ليأتوا، إذن سيجدونني في مواجهتهم، ولا بد من أن يلقي حتفه كل من يدخل في عراك مع جندي قديم». طبقاً لذلك، فقد أصدر أوامره بنقل السجين، عند الفجر، إلى البرج المحصن داخل أسوار الحمراء، ثم قال لوصيفته الرزينة، «أسمعين يا طفلتي؟ إقرعي بابي وأيقظيني قبل صياح الديك كي أشرف على التنفيذ بنفسي». صاح الديك وبزغ الفجر لكن لا أحد قرع باب الحاكم، بعدئذ ارتفعت الشمس فوق ذرى الجبال، رسالة أشعتها المتلألئة عبر شباك الحاكم، قبل أن يقطع عليه أحلامه الصباحية العريف المتمرس الخبير الذي وقف منتصباً أمامه والرعب يطبع محياه الحديدي، «لقد هب ١١ لقد فر ١١» راح العريف يصرخ شاهقاً من أجل نفس، وقد أيقظ سيده الحاكم. «من الذي ذهب؟ من الذي فر؟». «الجندي» اللص، الشيطان، أيهم؟ لا أدري؟ زنزانتة فارغة رغم أن الباب مقفل ولا أحد يعلم كيف فر منها». «من رآه آخر مرة؟» «وصيفتك» لقد أخذت له عشاء». «ادعها لي حالاً؟» هنا حدثت مسألة مربكة أيضاً، فحجرة الوصيفة الرزينة كانت خاوية وفراشها لم يممس، اذن لا شك أنها فرت مع المجرم، خاصة وقد تبين أنها بدأت منذ بضعة أيام تكثر من التردد عليه والتحدث معه. أحس الحاكم العجوز بجرح في الصميم، مع ذلك لم يكن لديه وقت كي يوليه اهتمامه فقد بدأت مصائب أخرى تتكشف أمام عينيه. إذ ما إن ذهب إلى حجرتة الخاصة حتى وجد صندوقه المنيع مفتوحاً والكيس الجلدي مفقوداً إضافة إلى كيسين آخرين مليئين بالعملة الاسبانية القديمة. لكن كيف وأي طريق سلكه الفاران؟ فلاح عجوز يسكن في كوخ بجانب الطريق المؤدي إلى «السيरा»، صرح أنه سمع وقع حوافر مع طلوع الفجر تماماً، نظر عبر شبাকে فرأى حصاناً قوي البنية يعدو باتجاه الجبال، على ظهره خيال

وأمامه امرأة. « فتشوا الاسطبلات » صاح الحاكم مانكو. فتشت الاسطبلات في الحال وكانت الخيول كلها في مواضعها ماعدا الحصان العربي، فقد انتصبت فوق المعلق بدلاً منه هراوة غليظة عليها لوحة تحمل هذه الكلمات: «هدية إلى الحاكم مانكو: من جندي قديم».

عيد في الحمراء

أثناء إقامته في الحمراء ، حلت مناسبة هامة هي عيد القديس شفيح الكونت جاري ومنافسي القوي ، وكانت مناسبة كي يقيم احتفالاً محلياً: إذ جمع حوله أفراد الأسرة، وحاشية بيته، في حين جاء الأتباع والخدم القدامى من ممتلكاته البعيدة لتقديم فروض الاحترام والمشاركة في الأفراح التي ستقام. بالتأكيد، إنه نموذج، رغم أنه باهت ولا شك ، للنبلاء الاسبان في العهد القديم.

فالاسبان يحبون دائماً الفخامة والعظمة في أفكارهم المتعلقة بالاسلوب: قصور ضخمة، حاشية كبيرة العدد من المرافقين والخدم ذوي الجزات الموحدة، بطانة ووصفاء كثر وأتباع من كل الأصناف لا فائدة منهم، ذلك أن كرامة النبيل وشرفه يرتبطان على ما يبدو بعدد الأتباع والحواشي الذين يتسكعون في قاعاته ويطعمون على حسابه ويهدون جاهزين لالتهامه حياً. هذا، ولا شك، يعود بالأصل إلى الضرورة التي كانت تقضي بالاحتفاظ بجموع كبيرة من الرجال المسلحين خلال

الحروب مع العرب، حروب الغارات والغزوات، حين كان من المحتمل ان يشن جيش معاد غارة على النبيل وهو في حصنه، أو يدعوه ملكه فجأة إلى ساحة القتال.

بعد أن انتهت تلك الحروب ظلت العادة كما هي، وما نشأ عن الضرورة ظل بحكم التفاخر والمباهاة، فالثروات التي تدفقت على البلاد من الفتوحات والاكتشافات غدت ذلك التعلق بالمؤسسات الفخمة، وطبقاً للأعراف الاسبانية القديمة الرائعة التي يتساوى فيها الكبرياء والكرم ويتناظران، فإن الخادم الذي يكبر سنه ويتقاعد لم يكن ليتردد بل يصبح من مسؤولية العائلة ببقية حياته. ليس هذا وحسب بل إن أولاده وأولاد أولاده، وربما أقرباؤهم من اليمين والشمال يصبحون تدريجياً عائلة على العائلة. لهذا السبب، فإن قصور نبلاء الاسبان الضخمة التي تتصف بسمات الفخفة الجوفاء لكبر حجمها مقارنة بتواضع أثاثها وضآلتها، كانت مطلوبة تماماً في أيام اسبانيا الذهبية نظراً لعادات مالكيها الأبوية البطيركية. لقد كانت أفضل قليلاً من مهاجع واسعة تؤوي أجيالاً من الأتباع الذين يعيشون على حساب النبيل الاسباني. هذه العادات البطيركية لطبقة النبلاء الاسبانية انهارت بانهايار مواردها الاقتصادية، رغم أن الروح التي كانت تقف وراءها ما تزال باقية لكنها تصارع يائسة حظوظها التي تبدلت، فأفقر النبلاء ما يزال حولهم أتباع ومتعلقون بالوراثة يعيشون على حسابهم ويفقرونهم أكثر فأكثر بعضهم، كجاري الكونت مثلاً، ما يزال يحتفظ بشيء من ممتلكاته الأميرية القديمة، كما يحافظ على شيء من النظام القديم فيما تزدهم ضياعه بالسكان وتستهلك إنتاجها أجيال من المتبطلين العاطلين عن العمل.

لقد كان للكونت أرض في مختلف أنحاء المملكة، بعضها يتضمن قرى بكاملها. مع ذلك فإن الموارد التي تأتي منها ضئيلة نسبياً، بل إن بعضها، كما أكد هو نفسه لي، لم يكن يكفي إلا بالكاد لإطعام جموع الأتباع التي تعيش فيها والتي تعتبر نفسها، على ما يبدو، مخولة بالعيش دون أن تدفع أجراً وأن يتم الحفاظ عليها ضمن الصفقة فأسلافها كانت تعيش على ذلك النحو منذ الأزمان الغابرة.

لقد أتاح لي عيد قديس الكونت العجوز هذا ان ألقى نظرة على الداخل الاسباني. كانت الاستعدادات قبل يومين أو ثلاثة تتخذ من أجل الاحتفال. الخمر من كافة الاصناف يؤتى بها من البلدة مدغدة حواس الشم لدى الحراس

العجز المسنين وهي تمر بهم عبر بوابة العدالة. الخدم يسرعون هنا وهناك في القاعات، مطبخ القصر القديم عادت إليه الحياة مرة ثانية وقد وطئته أقدام الطهارة وغاسلي الأطباق وتوهجت مواقده بالنيران هي التي لم تتوهج منذ زمن طويل.

حين حل يوم العيد، رأيت الكونت العجوز بهيئته البطريركية وأفراد أسرته وأهل بيته جميعاً يتحلقون حوله، كذلك كان هناك الموظفون العاملون في أراضي البعيدة الذين يستغلونه ويستهلكون كل ما تدر عليه تلك الأراضي من واردات. بينما كان هنالك أعداد كبيرة من الخدم الطاعنين في السن والمتقاعدين يتسكعون هنا وهناك في الساحات ويتلبثون ضمن الدائرة التي تنتشر فيها رائحة الطبخ.

لقد كان يوماً بهيجاً في الحمراء، وقد توزع الضيوف في القصر قبل موعد العشاء يتمتعون بمظاهر البذخ والترف في قاعاته ونوافيره وحدائقه الغناء فيما راح يتردد صوت الموسيقى وقهقهات الضحك في رحابه كلها تلك التي كانت حتى فترة قريبة ساكنة سكون القبور.

في القاعة العربية الجميلة التي تدعى «قاعة القهرمان» أقيمت المأدبة، وكل عشاء تحضره مجموعة من الناس يدعى في اسبانيا مأدبة. على الطاولة صف كل ما ينتجه الموسم من ثمار وخضار: سلسلة لانهاية لها تقريباً من الأطباق تبين كيف تجسد المأدبة التي أقيمت في عرس كاماشو في رواية دون كيشوت الولايم الاسبانية الحقيقية. جو بهيج من القصف والمرح كان يسود المكان، إذ رغم أن الاسبان يتسمون بصورة عامة بالاعتدال إلا أنهم يقصفون ويمرحون تماماً في مناسبات كهذه، خصوصاً منهم أهل الأندلس. من جهتي، كان ثمة شيء مثير على نحو خاص في حضور مأدبة كهذه في قاعة من قاعات الحمراء الملكية يقيمها رجل ربما يعود بنسب القربى البعيدة الى ملوكها العرب وهو في الوقت نفسه سليل غونسالفو القرطبي، أحد أهم الفاتحين المسيحيين. حين انتهت الوليمة، اتجه الحضور جميعاً إلى قاعة السفراء. تلك الأداة هنا، سعى الجميع للإسهام في التسلية العامة، غناء، ارتجال شعر، رواية حكايات عجيبة أو أداء رقصات شعبية على انغام تلك الأداة الاسبانية الساحرة: الغيتار.

وكالعادة، كانت ابنة الكونت الصغيرة الموهوبة مصدر الحيوية والبهجة لذلك التجمع كله، ولقد دهشت أكثر من ذي قبل لما تكشفته عنه من قدرات عجيبة متنوعة إذ شاركت في مشهدين أو ثلاثة من الكوميديا الرائعة التي قدمتها

بعض صواحبها مؤدية إياها بقدر كبير من الكمال والروعة. كما قامت بتقليد عدد من المغنين الايطاليين المشهورين تقليداً بعضه جدي وبعضه الآخر هزلي وكل ذلك بصوت نادر النوعية: كما تأكد لي، وعلى نحو لا يقبل الجدل، أنها قادرة على محاكاة اللهجات، الرقصات، الأناشيد، حركات الفجر، وتصرفاتهم وكذلك فلاحى الفيغا بقدر عال من الفرح والسعادة، وبكثير من الروعة والسحر وبحركات أشبه بحركات السيدات. غير ان فتنة الفتون في كل شيء كانت تعمله، إنما هي عفويتها وتلقائيتها وبعدها عن كل تكلف أو ادعاء، فكل شيء من وحي اللحظة ذاتها أو تلبية مباشرة لطلب بل بدت وكأنها تجهل ما لديها من مواهب نادرة واسعة النطاق، كما كانت أشبه بطفل في فرح منزلي بكل ما أبدته من طيبة وبساطة وبراءة. والحقيقة ان أحدهم قال لي إنه لم يسبق لها أن جربت مواهبها أمام الناس بل في الحلقات المنزلية فقط كما هو شأنها في تلك المناسبة.

مقدرتها على ملاحظة كل شخص وفهم كل شخصية كانت بارزة ولا شك، ملحوظة تماماً. إذ كان حسبها أن تنظر نظرات عرضية وعابرة إلى مشهد أو تصرف أو سلوك حتى تعود فتحاكيه بقدر كبير من الصحة والحيوية. «بالحقيقة ذلك مصدر عجب دائم لنا» قالت الكونتيسة «ترى من أين ا لتقطنت الطفلة (لانيئا) تلك الأشياء وقد أمضت حياتها كلها تقريباً في البيت بين أحضان أسرته».

اقترب المساء وبدأ الغسق بالقاء ظلاله على التلال، والخفافيش بالانسلال من مكانها والطيران هنا وهناك. في تلك اللحظة خطرت فكرة في ذهن الفتاة وبعض أصحابها الشبان هي أن ينطلقوا، دليلتهم دلوريس لاستكشاف نواحي القصر الأقل ارتياداً بحثاً عن الألغاز والأسرار السحرية.

في الحال بدؤوا التنفيذ. ذهبوا إلى الجامع القديم المعتم، اختلسوا إليه نظرات سريعة خائفة ثم سرعان ما ارتدوا حين قال أحدهم إن ملكاً عربياً قتل هناك. بعدئذ غامروا بدخول المناطق الغامضة من الحمام مخيفين بعضهم بعضاً بأصوات أقنية الماء المخيفة وسقسقاتها، طائرة قلوبهم فرقا ودعابة وكأنما جاءهم إنذار من أشباح العرب. بعد ذاك غامروا فمضوا إلى بوابة الحديد، ذلك المكان المشؤوم في الحمراء. إنها بوابة خلفية، تنفتح على واد معتم، يفضي إليها طريق ضيق مستوف كان عادة مصدر رعب لدلوريس ورفيقات طفولتها، وقد سمعن أن يدا بغير جسد كانت تمتد أحياناً من الجدار لتمسك بالعابرين.

غامرت الزمرة الصغيرة من صيادي الأغاز والأسرار السحرية بالذهاب حتى مدخل ذلك الطريق المسقوف، لكن ما من شيء كان يغريهم بالمضي أبعد من ذلك في تلك الساعة من المساء، هم الخائفون من قبضة ذلك الشبح - الذراع. أخيراً عادوا جرياً إلى قاعة السفراء وهم بين الرعب والدعابة إذ رأوا فعلاً شبحين غارقين بالبياض. صحيح أنهم لم يتوقفوا كي يتفحصوهما، إلا أنه كان من المستحيل أن يخطئوا فالشبحان كانا يسطعان على نحو جلي في الغبشة المحيطة. حينذاك وصلت دلوريس وشرحت اللغز مثبتة أن الشبحين هما تمثالان لحوريتين من الرخام الأبيض أقيما عند مدخل الممر ذي القناطر. على هذا ثنى رجل عجوز رزين إنما، كما ظننت، ماكر نوعاً ما كان حاضراً وأظنه محامي الكونت أو مستشاره القانوني مؤكداً أن لذينك التمثالين صلة بواحد من اعظم أغاز الجمراء وإن هناك تاريخاً مثيراً لهما، بل أكثر من ذلك أنهما كانا يقفان تجسيدا حياً من الرخام لسرية المرأة وحكمتها، فرجاه الحضور جميعاً أن يروي قصة التمثالين. بعد لأي، استطاع الرجل ان يتذكر التفاصيل ثم روى مايشكل الجوهر الأساسي للحكاية التالية.



حكاية التمثالين الحكيمين

ذات مرة كان يعيش في جناح مهجور من الحمراء شخص صغير الحجم مرح النفس يدعى لوب سانشز وكان لوب يعمل في الحدائق فرحاً، سعيداً ، مغنياً طول النهار، مثل جندب.

لقد كان روح القلعة وحياتها. حين ينتهي عمله يجلس على مقعد من المقاعد الحجرية في الساحة يعزف على غيتاره ويغني أغاني طويلة عن «السيد» برناردو ديل كاربيو وفرناندو ديل بولفار وأبطال الاسبان الآخرين ، ذلك أن تسليّة جنود القلعة القدامى هي ان يعزفوا الألحان الأشدّ مرحاً ويجعلوا الفتيات يرقصن البوليروس والفاندانغوس.

وشأنه شأن معظم الرجال الصغار، كان لدى لوب سانشوز سيدة سمينة ضخمة الهامة هي زوجته التي كان بإمكانها أن تضعه في جيبها تقريباً – لكنه

كان يفتقر لحظ الفقراء العاديين المعروف - إذ بدلاً من عشرة أولاد لم يكن لديه سوى ولد واحد. وكان هذا الواحد فتاة صغيرة سوداء العينين في الثانية عشرة من العمر تدعى سانشيكا مرحة مثله وتجسد المتعة والبهجة لقلبه. فهي تلعب حوله وهو يعمل في الجناثن وترقص على أنغام غيتاره وهو يجلس في الظل وتركض مثل مهرة برية بين أيك الأشجار وممرات الحمراء وقاعاتها الأثرية.

مساء عيد القديس يوحنا المبارك، كان كل من في الحمراء من محبي عطل ومروجي إشاعات من رجال ونساء وأطفال قد سعدوا. إلى جبل الشمس الذي ينتصب فوق «جنة الريف» كي يسهروا ليلة منتصف صيفهم تلك على ذروته المسطحة. لقد كانت ليلة قمراء وضاءة، وكانت الجبال كلها تشع ضياء كالفضة كما كانت المدينة بقبابها ومسلات كنائسها تستلقي غارقة في الظلال هناك في الأسفل فيما كان الفيغا أشبه بأرض للجن بجداوله المسكونة وهي تتلألأ تحت ضوء القمر عبر أدغاله المعتمة.

في أعلى ذروة من الجبل، أشعلوا نار العيد، طبقاً لعادة قديمة من عادات البلاد تعود لأيام العرب. كان سكان المنطقة المجاورة هم الآخرون ساهرين وكانوا أيضاً قد أشعلوا نيران العيد هنا وهناك في الفيغا وعلى طول ثنيات الجبال وكانت كلها تتوهج توهجا يضعفه ضوء القمر.

مضت تلك الأمسية بكل حبور ومرح وهم يرقصون على غيتار لوب سانشر الذي لم يكن في يوم من الأيام أكثر مرحا مما كان عليه في تلك العطلة.

كان الرقص على قدم وساق، وكانت سانشيكا الصغيرة مع بعض لداتها يلعبن لاهيات بين آثار قلعة عربية قديمة تتوج ذلك الجبل، حينذاك وجدت، وهي تجمع الحصى في الخندق يبدأ صغيرة من الكهرمان الأسود عليها نقوش غريبة، أصابعها مضمومة والإبهام مطبق عليها بشدة. ركضت الفتاة، تكاد تطير فرحاً للقيها الرائعة إلى أمها حاملة ما لقيته، وفي الحال أصبح ذلك موضوع تخمينات وتقديرات فيما نظر البعض إلى الأمر نظرة الشك والريبة. «ارموها بعيداً» قال احدهم «إنها من آثار العرب وبناء على ذلك لابد من أن يكون منها أذى وفيها شر وسحر». «لا ، مطلقاً» قال آخر «بإمكانكم أن تبيعوها بثمن لا بأس به في سوق الصاغة». في خضم ذلك النقاش ، اقترب جندي معروق عجوز كان قد خدم في إفريقيا وكان داكن البشرة مثل أي عجوز مغربي. تفحص اليد تفحص العارف

الخبير ثم قال «لقد رأيت أشياء من هذا النوع عند المغاربة البربر. إنها ذات قدرة عظيمة على الحماية من العين الشريرة ومن الطلاس والتعاويذ السحرية بأنواعها كلها. أهنتك يا صديقي لوب، فهذه تحمل الحظ الحسن لطفلك».

عند سماعها هذا ، ربطت زوجة لوب سانشيز اليد الصغيرة المصنوعة من الكهرمان الأسود بشرائط ثم ربطته بدوره حول عنق ابنتها.

لكن منظر تلك التعويذة ذكر الحضور بكل ما سمعوا من أساطير تدور حول العرب فأهمل الناس الرقص وجلسوا جماعات جماعات على الأرض يردون القصص والحكايات القديمة التي انتقلت إليهم جيلاً بعد جيل. بعض تلك القصص كانت تدور حول عجائب ذلك الجبل نفسه الذي كانوا يجلسون عليه والذي اشتهر بأنه منطقة للجن. إحدى العجائز الهرمات قدمت وصفاً طويلاً للقصر تحت الأرضي الواقع في أحشاء ذلك الجبل حيث يقال إن أبا عبد الله ومسلميه جميعهم ظلوا هناك مسحورين. «بين تلك الآثار هناك» قالت العجوز الشمطاء مشيرة إلى ركام من التراب والحجارة في ناحية بعيدة من الجبل، «ثمة حفرة عميقة مظلمة تنحدر نزولاً حتى قلب الجبل ذاته، حفرة لو تعطونني مال غرناطة كله لا انظر داخلها نظرة واحدة. في قديم الزمان، كان هناك رجل فقير من الحمراء يرعى الماعز فوق هذا الجبل، زحف متسلقاً إلى تلك الحفرة، متتبعاً جدياً، فسقط فيها ثم خرج ثانية جاحظ العينين فاغر الفم ليروي أشياء عجيبة مما رأى إلى درجة أن كل من سمعه ظن أنه فقد صوابه، فقد ظل يهذي طوال يوم أو يومين عن العرب الأشباح الذين راحوا يتعقبونه في المغارة، بعدئذ لم يقتنع إلا بصعوبة بالغة بأن يرعى ماعزه في الجبل من جديد. لقد اقتنع أخيراً، لكن يا للمسكين! فقد ذهب ولم يعد قط. لقد اكتشف الجيران ما عزه يرعى هنا وهناك بين الآثار العربية كما وجدوا قبعته ورداءه قرب فوهة الحفرة، لكن ما من أحد سمع عنه أو رآه بعد ذلك قط».

بأنفاس مكتومة وانتباه شديد، كانت سانشيكا الصغيرة تصغي لتلك القصة. ونظراً لأنها ذات فضول عجيب فقد أحست في الحال بتوق شديد لأن تنظر داخل تلك الحفرة الخطرة. وهكذا، انسلت من بين صاحبها وأسرعت تبحث بين الآثار البعيدة، متلمسة طريقها هنا وهناك، إلى أن وصلت إلى تجويف أو حوض صغير قرب حافة الجبل حيث كان السفح، ينحدر بعدها انحداراً حاداً نحو وادي الدارة. وسط ذلك الحوض كانت تلك الحفرة تفتح فاهها، غامرت سانشيكا

بالذهاب الى الحافة ناظرة بسرعة إلى داخلها، لكن كل شيء كان معتماً أسود مما يدل على شدة عمقها وعلى نحو لا يقاس. تجمد الدم في عروقها فانسحبت الى الوراء ثم عادت تنظر من جديد وفي نيتها أن تفر بعد ذلك بعيداً. لكنها اختلست نظرة أخرى - وكأنما ذلك الرعب متعة بالنسبة إليها. أخيراً، دحرجت حجراً كبيراً دافعة إياه فوق الحافة، فهوى حيناً من الزمن دون صوت ثم سمعته يصطدم ببروز صخري مصدراً صوتاً قوياً راح بعدها يرتد من جانب إلى جانب مقعقعا مجلجلاً كجلجلة الرعد. بعدئذ سمعت صوت ترشاش وقد سقط أخيراً في الماء بعيداً بعيداً في الأسفل - ثم ساد سكون من جديد.

غير أن السكون لم يستمر طويلاً. إذ بدا وكأن شيئاً ما قد اوقظ من غفلته في تلك الهاوية المخيفة، إذ راح يرتفع من الحفرة بالتدريج صوت همهمة أشبه بطنين خلية نحل. الهمهمة صارت أعلى وأعلى حتى غدا هناك اختلاط أصوات وكأنها آتية من حشد بعيد من الناس، رافق تلك الأصوات صليل أسلحة خافت، دق صنوج ونفخ أبواق، كما لو أن جيشاً كان يتجمع في أحشاء الجبل ذاته استعداداً لمعركة.

برعب صامت، انسحبت الفتاة الصغيرة مبتعدة ثم اسرعت عائدة إلى حيث تركت أبويها وصحبها، لكنم جميعاً كانوا قد ذهبوا. النار، هي الأخرى، كانت قد انطفأت، فيما كان آخر ما بعثت من دخان يلتف متصاعداً في ضوء القمر. النيران الأخرى التي كانت قد توهجت فوق الجبال وفي الفيغا كلها كانت قد انطفأت فيما بدا وكأن كل شيء يغوص غارقاً في أحضان السكينة والراحة. نادت سانشيكا أبويها وبعض أصحابها بالاسم لكن دون جواب.

انحدرت سفح الجبل تجري ثم مرت بحدائق جنة الريف إلى أن بلغت وادي الأشجار المؤدي إلى الحمراء حين وجدت نفسها على وشك الانهيار تعباً فجلست على مقعد من تجويف خشبي عليها تسترد أنفاسها. في تلك اللحظة كان جرس برج المراقبة في الحمراء يدق منتصف الليل. وكانت السكينة في كل مكان عميقة شاملة كما لو أن الطبيعة كلها قد استغرقت في سبات عميق، باستثناء صوت خرير منخفض من جدول غير مرئي يجري تحت غطاء من الشجيرات. عذوبة الهواء وبرودته راحتا تهددها مغريتين إياها بالنوم. حينذاك وقع بصرها على شيء بعيد يلمع، ولشدة دهشتها رأت على ذاك البعد ركباً طويلاً من المحاربين العرب يتدفق هابطاً سفح الجبل وعلى طول الطرق المظلمة بأغصان

الأشجار . بعضهم مسلح بالرمح والتروس ، آخرون مسلحون بالسيوف والبلطات والكل بدروع صقيلة تلمع تحت ضوء القمر. خيولهم تتواثب تياهة رافعة رأسها لائكة شكائهم، لكن حوافرها لم تكن تصدر صوتاً أعلى من ذلك الصوت الذي تصدره وهي مكسوة باللباد. فيما بدا الفرسان جميعهم شاحبين شحوب الموتى. بينهم كانت تمتطي فرسها سيدة جميلة، على رأسها تاج وخصلات شعرها الذهبية الطويلة مزينة بالدر واللؤلؤ فيما سرج حصانها كله من القطيفة القرمزية المزخرفة بخيوط الذهب، وأذياله تنجر على الأرض. لكن الفم كان يادياً على محياها وكانت عيناها مسمرتين على الأرض، بعدئذ جاء ركب الحاشية بملايسه الزاهية وعمائمهم المختلفة الألوان. في المنتصف تماماً وعلى حصان حليبي اللون، كان الملك أبو عبد الله التشيكو بردائه الملكي المغطى بالجواهر وتاجه المشعشع بالماس. لقد عرفته سانشيكا الصغيرة من لحيته الصفراء وشبهه بصورته التي غالباً ما كانت تراها في بهو الصور في جنة الريف. بدهشة وإعجاب حملقت بذلك الموكب الملكي وهو يعبر الأشجار لامعاً متألقاً، لكن على الرغم من أنها كانت تعرف أولئك الحكام ورجال البلاط والمحاربين إلا أنهم كانوا شاحبين ساكنين إلى درجة بدوا معه خارج سياق الطبيعة ، أشبه بكائنات السحر والطلاسم . مع ذلك كانت الفتاة تتطلع بقلب شجاع ، ربما استمد شجاعته من طلسم اليد الغامضة التي كانت تتدلى من عنقها.

حين عبر الموكب وانتهى، نهضت سانشيكا تتبعه وهو يمضي قدماً إلى بوابة العدالة الكبيرة التي انفتحت أمامه على مصراعيها، فالحراس المسنون العاجزون الذين يقومون بمهمة الحراسة، كانوا يستلقون على مقاعد الحصن الأمامية الحجرية غارقين في سبات عميق بفعل السحر على ما يبدو، فيما كان موكب الأشباح يجتازهم دون صوت بأعلامه الخافقة وهيئته المنتصرة. ولعل سانشيكا كانت ستتابع، لكن لشدة دهشتها رأت فتحة في الأرض داخل الحصن الأمامي تهبط إلى أساس البرج. دخلتها لبعض المسافة ثم شجعها على المضي قدماً أنها وجدت درجات محفورة بغير حذق في الصخر ودهليزاً مضاء هنا وهناك بمصابيح فضية كانت تنبعث منها، إضافة إلى الضوء، روائح كروائح العطر. أخيراً، وقد استمرت في مغامرتها ماضية قدماً، وصلت إلى قاعة كبيرة محفورة في قلب الجبل ومؤتة أثاثاً رائعاً وفق الطراز العربي المغربي ، تنيرها من كافة أركانها وزواياها مصابيح من فضة وبللور. هنا، وعلى أريكة وثيرة كان يجلس رجل عجوز بزيه

العربي، لحيته بيضاء طويلة، وهو ينوس برأسه غافياً. في يده عصا بدت وكأنها على وشك الانزلاق من قبضته فيما كانت تجلس على بعد ما سيدة جميلة بملابس اسبانية قديمة، وعلى رأسها إكليل صغير يشع كله بالماس أما شعرها فمزين كله بالدر واللؤلؤ. بكل رقة كانت تعزف على غيتارها الفضي. في تلك اللحظة تذكرت سانشيكا الصغيرة قصة سمعتها من سكان الحمراء القدامى، عن الأميرة القوطية التي حبسها وسط الجبل ساحر عربي قديم، فجعلته يغرق في سباته كالمسحور بفضل الموسيقى. بدهشة بالغة توقفت السيدة حين رأت الفتاة الصغيرة في تلك القاعة المسحورة ثم قالت «أهي أمسية القديس يوحنا المبارك؟».

«أجل، إنها هي» أجابت سانشيكا.

«إذن اعلمي، أنه لليلة واحدة فقط يتوقف فعل السحر. تعالي هنا يا طفلي ولا تخافي. أنا مسيحية مثلك رغم أنني مقيدة هنا بفعل السحر. المسي قيودي بالتعويذة المعلقة حول عنقك، ولسوف أكون حرة طوال هذه الليلة». قالت ذلك ثم فتحت ثوبها كاشفة عن حزام ذهبي عريض يزخر خصرها وسلسلة من ذهب تثبتها إلى الأرض. دون تردد، مضت الفتاة تلمس باليد الصغيرة المصنوعة، من الكهرمان الأسود الحزام الذهبي ولتو سقطت السلسلة أرضاً. على صوتها استيقظ الرجل العجوز، شرع يفرك عينيه، لكن السيدة أسرع إلى أوتار القيثارة تداعبها بأناملها ليعود من جديد إلى إغفائه. رأسه ينوس وعصاه ترتعش في يده. «الآن» قالت السيدة «المسي عصاه بتعويذتك، يد الكهرمان». فعلت الصغيرة ذلك، فأفلتت العصا من قبضته وفي الحال، استغرق العجوز على أريكة في سبات عميق. على مهل، وضعت السيدة القيثارة الفضية على الأريكة سائدة إياها على رأس الساحر النائم. بعدئذ راحت تلامس الأوتار قرب أذنه قائلة «استمري هكذا أيتها القيثارة مخدرة حواسه إلى أن تبرز الشمس. والآن اتبعيني يا طفليتي». تابعت السيدة «ولسوف ترين الحمراء كما كانت أيام مجدها، فلديك تعويذة سحرية تبطلين بها مفعول كل سحر». بصمت تبعت سانشيكا السيدة. اجتازتا مدخل المغارة ثم عبرتا إلى الحصن الأمامي لبوابة العدالة، ومن هناك إلى ساحة الجباب أو فناء القلعة. هذا كله كان مليئاً بالجنود العرب، خيالة ومشاة متجمعين على شكل كواكب خفاقة الرايات. كذلك كان هنالك حراس ملكيون على البوابة وصفوف من العبيد السود وقد اشرعوا سيوفهم. لم يكن أحد ينبس بنبت شفة فعبرت بهم سانشيكا دون خوف في أعقاب دليلتها غير أن دهشتها بلغت

أقصى درجاتها حين دخلت القصر الملكي التي كانت قد نشأت فيه. كان ضوء القمر الساطع يضيء القاعات والساحات والحدائق كلها وكأنها في ضوء النهار لكنه كان يكشف مناظر تختلف كثيراً عما اعتادت رؤيته.

فجدران الأجنحة لم تعد مبقعة متقشرة بفعل الزمن. وبدلاً من بيوت العناكب، كانت تتدلى هناك الحرائر الدمشقية الباذخة، كما عادت تغطي الجدران صفائح الذهب ورسوم الأرابيسك بلمعانها الأصلي وجدها. كذلك لم تعد القاعات عارية جرداء. بل تتوزع فيها الأرائك والطنافس من أنفاس الأقمشة. يزينها كلها الدر واللؤلؤ وتزخرفها الحجارة الكريمة فيما كانت نوافير القاعات والحدائق قد عادت كلها ينطلق منها الماء عالياً.

كذلك، عادت الحياة الى المطابخ من جديد. الطباخون مشغولون بإعداد الأطباق الفاخرة، يشوون ويسلقون الطيور والدواجن. الخدم يسرعون ذهاباً وإياباً وقد ملئت أطباقهم الفضية بالمأكولات، وهم يعدون لمأدبة عامرة. قاعة الأسود مزدحمة بالحراس ورجال الحاشية والفقهاء، كما كانت الحال أيام العرب، وفي الطرف البعيد، في قاعة الحكم، كان أبو عبد الله يجلس على عرشه يحيط به رجال بلاطه ويهز في يده صولجانه. لكن رغم كل ذلك الاحتشاد وزحام الناس الذين كانوا يبدون في عجلة من أمرهم لم يكن يسمع صوت ولا وقع خطأ. لا شيء يعكر صفو الليل وسكينته سوى صوت رشاش الماء وهو يتساقط من النوافير. بذهول واندھاش تامين تبعت سانشيكا الصغيرة دليلتها في ارجاء القصر إلى أن وصلت إلى البوابة التي تنفتح على الدهاليز، تلك التي تقع تحت برج الأقمار الكبير. على كلا جانبي البوابة كان ينتصب تمثال حورية من مرمر. رأساهما كلاهما يلتفتان جانباً والنظرات مثبتة على النقطة نفسها داخل القبو. هنا توقفت السيدة مشيرة إلى الطفلة باتجاه تلك النقطة قائلة «هنا السر العظيم الذي سأكشفه لك جزءاً إيمانك وشجاعتك. هذان التمثالان الحكيمان يحرسان كنزاً أخفاه ملك عربي

في العهود القديمة. قولي لأبيك أن يفتش في تلك النقطة حيث يقع بصر التمثالين وسوف يلقي ما يجعله أغنى رجل في غرناطة. لكن يديك البريئتين وحدهما، وبتعويذتك هذه، يمكنهما أن تخرجا ذلك الكنز. قولي لوالدك أن يستخدمه بحكمة وعقل وأن يكسر جزءاً منه لإقامة القداسات اليومية علني أخلص من هذا السحر اللعين».

بعد أن نطقت السيدة بتلك الكلمات، مضت بالفتاة الصغيرة قدماً إلى حديقة لنداراكسا الصغيرة حيث كان القمر يرتعش على مياه البركة المنعزلة وسط الحديقة ملقياً ضياءه الساحر على أشجار البرتقال والليمون. قطفت السيدة حزمة من الريحان وضفرتها إكليلاً على رأس الصغيرة قائلة: «ليكن هذا علامة على ماكشفته لك وشاهداً على صحته، لقد دنت ساعتني وعليّ ان أعود إلى القاعة المسحورة. لا تتبعيني خشية أن يلحق بك أذى، وداعاً. تذكرني ما قلته لك وأقيمى القداسات لخلاصي». وما إن قالت السيدة ذلك حتى دخلت دهليزاً مظلماً يمر تحت برج الأقمار وغابت هناك.

في تلك اللحظة، جاء صوت ديك يصيح من بعيد حيث البيوت الريفية بعد الحمراء في وادي الدارة، كما بدأ خيط من نور بالتسلل من فوق الجبال الشرقية. كذلك هبت ريح خفيفة، وسمع صوت كأنه حفيف أوراق يابسة عبر الساحات والممرات ثم راحت الأبواب تنغلق واحداً إثر الآخر. عادت سانشيكا إلى الأماكن التي رأتها قبل لحظات مزدحمة بأشباح الناس، لكن أبا عبد الله وأشباه بلاطه كانوا قد ذهبوا جميعاً. القمر وحده كان يسطع على القاعات الخاوية فيما تعرت الأبهاء من جديد وولى كل ما كان يكسوها من روعة وجمال. لتعود مبقعة متقشرة بفعل الزمان تتدلى في كل مكان منها أعشاش العنكبوت وتضرب الخفافيش بأجنحتها هنا وهناك على غبشة الضوء وتطلق الضفادع من بركة الأسماك نقيقها الذي لا يهدأ. أسرع سانشيكا، حينذاك تشق طريقها إلى درج بعيد يفضي إلى الجناح المتواضع الذي تشغله عائلتها. كالعادة، كان الباب مفتوحاً. فقد كان لوب سانشيز أفقر من أن يحتاج إلى قفل أو رتاج. بهدوء انسلت إلى حشيتها. وازعة إكليل الريحان بجانب وصادتها ثم استغرقت في سبات عميق. في الصباح روت لوالدها كل ما حدث لها، لكن لوب سانشيز اعتبر المسألة كلها مجرد حلم ضاحكاً من الطفلة لسذاجتها. ثم انطلق إلى أعماله العادية في الحديقة. بيد أنه لم يمض طويل وقت حتى جاءت ابنته إليه راكضة مقطوعة الأنفاس. «أبي! أبحث سانشيكا» انظر إكليل الريحان الذي وضعت السيدة الجميلة حول رأسي».

بدهشة حلق لوب سانشيز، إذ كانت سوق الريحان من الذهب الخالص وكل ورقة عبارة عن زمردة متلألئة! ونظراً لأنه لم يكن معتاداً أن يرى الحجارة الكريمة، فقد كان يجهل القيمة الحقيقية للإكليل. لكنه رأى ما يكفي لإقناعه

بأن الأمر حقيقي أكثر مما يمكن للأحلام أن تكون وأن لحلم الطفلة غرضاً محدداً بشكل من الأشكال. بادىء ذي بدء بات همه ان يضمن السرية التامة حول كل ما يتعلق بابنته، لكن في هذا المجال، كان في أمان، إذ أن ابنته كانت تبدي من العقل والحكمة أكثر مما يسمح سنهما وجنسها بكثير. بعدئذ مضى إلى القبول، حيث كان ينتصب تمثالا الحوريتين المرمريتين، فلاحظ أن رأسيهما يلتفتان بعيداً عن البوابة وان نظرة كل منهما تنصب على النقطة نفسها داخل المبنى، فلم يستطع لوب سانشيز منع نفسه من الإعجاب بهذا الابتكار الأروع والأشد حكمة لحراسة سر. مد سانشيز خيطاً من عيني كل تمثال الى النقطة التي ينظران إليها. وضع علامة خاصة على الجدار ثم انسحب.

لكن طوال النهار ظل بال لوب مشغولاً بألف هم وهم، فهو لم يستطع منع نفسه من أن يظل يحوم هنا وهناك قريباً من التمثالين كما بات سريع الغضب خشية أن يكتشف أحد سر الكنز. كل خطوة تقترب من المكان تجعله يرتجف وهو لا يفتأ يفكر كيف تمر تلك السنون والقرون دون أن يخطر ببال أحد سر النظرة التي ينظرها ذاك التمثالان إلى النقطة ذاتها.

« اللعنة عليهما ! » راح يقول لنفسه سينفضحان كل شيء !! هل سمع ابن أنثى بمثل هذه الطريقة لحفظ السر؟ كذلك كان يتسلل بعيداً، حين يسمع أي وقع خطأ، وكان مجرد اختبائه قرب المكان يمكن ان يثير الريب والشكوك.

بعدئذ يمكن أن يعود بحذر، يختلس النظر من مكان بعيد ليرى إن كان كل شيء في أمان لكن رؤية التمثالين نفسها كانت تثير حنقه من جديد فيقول « إي...هناك ينتصبان محدقين دائماً، محدقين تماماً حيث ينبغي ألا يحدقا. تباً لهما !! إنهما مثل بنات جنسهما كلهن، إن لم يكن لهن ألسنة تنطق نطقت عيونهن نفسها فاضحة الأسرار ».

أخيراً، ولكي يستريح، غابت شمس ذلك اليوم الطويل المقلق فلم يعد يسمع وقع خطا في القاعات التي تردد الأصدا في الحمراء، وقد رحل آخر غريب عنها، كما أغلقت البوابة الكبيرة بالقفل والمفتاح فيما استعادت الوطاويط والضفادع والبوم نشاطها الليلي في ذلك القصر المهجور. مع ذلك، انتظر لوب سانشيز حتى الهزيع الثاني من الليل قبل أن يغامر ويذهب بابنته الصغيرة إلى قاعة الحوريتين فوجدهما تنظران كعهده بهما تلك النظرة الفاضحة إلى المكان السري للكنز. «بعد

إذنكما، أيتها السيدتان اللطيفتان»، قال سانشيز وهو يمر بينهما «سوف أحرركما من هذه المهمة التي أثقلت كاهلكما ولا شك طوال هذين القرنين أو الثلاثة من الزمان». وفي الحال مضى إلى العمل في ذلك الجزء من الجدار الذي كان قد علمه، وخلال برهة وجيزة انفتح أمامه تجويف خفي تنصب فيه جرتان كبيرتان من الفخار. حاول أن يسحبهما خارجاً، لكنه لم يستطع إذ ظلتا ثابتتين في مكانهما إلى أن لمستهما يد ابنته الصغيرة البريئة. بمساعدتها فقط استطاع أن يزحزهما من مخبئهما كما وجد، ويا لفرحه العظيم! أنهم مملوئتان قطعاً ذهبية عربية تختلط بالجواهر والحجارة الكريمة. قبل طلوع النهار، تدبر سانشيز أمره فنقل الجرتين إلى حجرتة، تاركا التمثالين الحارسين ونظراتهما ما تزال متجهة إلى ذلك الجدار الخاوي.

وهكذا، على حين غرة، أصبح لوب شانيز رجلاً ثرياً، لكن الثروة تحمل معها، كالعادة، همومها التي بدت أنها غريبة عليه تماماً. كيف تراه ينقل ثروته بعيداً بأمان؟ كيف يمكن التمتع بها دون أن يثير الريبة والشك؟ حينذاك . وللمرة الأولى أيضاً بدأ الخوف من اللصوص يتسرب إلى نفسه، فنظر بنوع من الرعب إلى حالة الأمان التي كان عليه مسكنه فأسرع يعمل في تركيب الأرتجة والأقفال على أبوابه ونوافذه، لكن رغم كل احتياطاته، لم يعد يستطع النوم بعمق. لقد غاض مرحة المألوف. كذلك لم يعد باستطاعته أن يمازح جيرانه، أو يغني لهم. وباختصار، بات أبأس كائن على قيد الحياة في الحمراء كلها. لاحظ رفاقه القدامى تغيره ذاك، فأشفقوا عليه من صميم قلوبهم ثم بدؤوا يبتعدون عنه، وكل ظنهم أنه في ضيق وعوز وأنه قد يطلب منهم المساعدة، دون أن يشكوا البتة بأن كارثته الوحيدة هي ثروته الجديدة. كانت زوجته تشاركه قلقه ذاك لكنها سرعان ما أحست براحة روحية .

لا .. لا .. ربما كان علينا قبل ذلك ان نذكر أن لوب، لكونه رجلاً ضئيل الحجم غير مراع كثيراً لمشاعر الآخرين، اعتادت زوجته في كل مسألة خطيرة تواجهها أن تبحث عن مشورة الأخ سيمون، الراهب الذي تعترف له، وهو رجل ذو رأس مدور كالكرة، أزرق اللحية، عريض المنكبين، صلب عنيد من سان فرانسيسكان المجاورة وهو الراهب نفسه الذي كان، بالحقيقة مصدر راحة روحية لنصف زوجات الجوار الطيبات. علاوة على ذلك فقد كان موضع تقدير عظيم لدى مختلف الأخوات الراهبات اللواتي كن يزودنه مقابل خدماته الروحية

بهدايا الكعك والمعجنات التي غالباً ما يصنعنها في أديرتهن ، إضافة إلى الحلويات اللذيذة والبسكويت الحلو وزجاجات المنعشات الروحية التي ثبت بالدليل القاطع أنها تعيد قوى الانسان على نحو مدهش بعد الصيام والسهر. لقد كان الأخ سيمون ناجحاً في أداء وظائفه ، وكان جلده الدهني يلمع تحت ضوء الشمس وهو يكد صاعداً رابية الحمراء في يوم حار وجاف ، مع ذلك ، ورغم حالته البائسة والحبل ذي العقد المشدود حول خصره الذي يبين الصرامة التي يعامل بها نفسه ، كان الناس يرفعون قبعاتهم عن رؤوسهم وهو يعبر بهم ، علامة التقى والورع بل حتى الكلاب كانت تشم رائحة القداسة المنبعثة من حلته فتنبح من أوجارها وهو يعبر بها. ذلك هو الأخ سيمون ، المستشار الروحي لزوجة لوب سانشيز الوديفة والأب الذي يتلقى اعترافها وموضع السر المؤتمن لنساء الطبقات الدنيا في اسبانيا

لهذا. كله ، سرعان ما عرف ، في جو من السرية الشديدة، قصة السر المخفي. فغر الراهب فاه وفتح عينيه ورسم الصليب على نفسه اثنتي عشرة مرة لدى سماعه الخبر، بعدئذ قال «يا بنة روحي اعلمي أن زوجك قد ارتكب إثماً مزدوجاً ضد الدولة وضد الكنيسة فالكنز الذي استأثر به لنفسه هو بطبيعة الحال للنتاج ، وقد وجد في أرض تعود ملكيتها للنتاج ، ولأنه أيضاً ثروة من ثروات الكفار، أخذت ، إن جاز القول، من برائن الشيطان نفسه، فالواجب أن يكرسها للكنيسة ، مع ذلك ربما ما يزال بالامكان تسوية المسألة. اثتي لي هنا بإكليل ريحانك». حين وقعت عينا الراهب الطيب على الإكليل طرفت أجفانهما المرة تلو المرة اعجاباً بحجم الاكتشاف «إذن لا بد من أن يقدم لأغراض التقى والورع. لهذا، سأخذه وأعلقه عالياً نذراً منكم وقريناً لصورة سان فرانسيسكو في كنيسةنا الصغيرة ولسوف أصلي هذه الليلة بالذات وبكل إخلاص داعياً أن يتاح لزوجك التمتع بثروته بكل راحة وهدوء. سرت السيدة الطيبة أيما سرور بإقامتها السلام مع السماء مقابل ثمن بخس كهذا، ثم ما إن وضع الأب الإكليل تحت عباءته حتى رحل بخطا القديسين إلى ديره. عاد لوب سانشيز إلى البيت فأخبرته زوجته بما حدث وفي الحال أرغى وأزبد، هو الذي كان يفتقر لتقى زوجته كما كان طوال فترة من الزمن يشكو سرا من زيارات الراهب الخاصة لبيته.

«أيتها المرأة» قال سانشيز «ما الذي فعلته؟ إنك بثرثرتك تعرضين كل شيء للخطر». «ماذا؟» صرخت المرأة الطيبة «أتمنعني من إراحة ضميري بالاعتراف

لراهبى». «كلا، أيتها الزوجة، اعترفي ما شئت بما عليك من ذنوب، لكن بالنسبة إلى نبش الكنز هذا فهو ذنبى أنا وضميرى مرتاح كثيراً بحمله». لكن لا فائدة من التذمر، فالسر افشى وليس بالمستطاع جمعه مرة ثانية إلا إذا جمع ماء سكب على الرمل، مع استثناء وحيد هو أن يكون الراهب نفسه كتوماً لا يفشى سراً.

في اليوم التالي، كان سانشيز خارج البيت، فطرق مسامع زوجته قرع خفيف على الباب ثم دخل الأخ سيمون بسيماه اللطيفة الرزينة قائلاً: «يا بنتي، لقد صليت بكل إخلاص لسان فرانسيسكو ولقد سمع صلواتي، وفي هدأة الليل ظهر لي القديس في الحلم لكن بوجه عابس وجبين مقطب ثم قال «لماذا تصلي لتبديد كنز النبلاء ذاك، في حين أنك ترى الفقر الذي تعاني منه كنيسة؟ إذهب إلى بيت لوب سانشيز واطلب باسمي بعض ذلك الذهب العربي لتجهز مذبح كنيسة بشمعدانين جميلين ولينعم هو بالبقية في سلام». سمعت المرأة الطيبة تلك الرؤيا فرسمت الصليب على نفسها بكل هلع وخوف، ثم ذهبت إلى المكان السري حيث كان لوب قد خبأ الكنز. ملأت كيساً جليداً كبيراً بقطع الذهب العربية ثم أعطته إلى الراهب الذي منحها مقابل ذلك من البركات ما يكفي، لو أن السماء تدفع، لإغنائها هي وذريتها حتى يوم القيامة. بعدئذ زلق الكيس في كم عباءته وطوى يديه على صدره ثم رحل وعلى محياه سيماء الشكر والامتنان. سمع لوب سانشيز بالهبة الثانية للكنيسة فكاد يفقد أعصابه «ياللي من رجل بائس» صرخ ملء صوته «ماذا سيحل بي؟ لسوف يسرقونني شيئاً فشيئاً؟ سوف يحطمونني تماماً حتى أعود شحاذاً». بصعوبة بالغة استطاعت زوجته أن تهدئه، مذكرة إياه بالثروة الطائلة التي ما تزال في حوزته، وكم هو شيء رائع أن يقنع سان فرانسيسكو بجزء ضئيل من تلك الثروة. لكن لسوء الحظ، كان لدى الأخ سيمون عدد من الأقارب الفقراء الذين يجب تمويلهم، هذا إن لم نذكر حوالي نصف دزينة من الأطفال اليتامى ذوي الهيئات الصلبة القاسية والرؤوس المدورة كالكرات وعدد من اللقطاء المهجورين الذين كانوا يعيشون تحت رعايته.

لهذا، راح يكرر زيارته يوماً بعد يوم حاملاً طلبات لصالح القديس دومنيك، القديس أندرو، القديس جيمس، إلى أن بلغ لوب المسكين حافة اليأس، مدركاً أنه إن لم يبتعد عن منال ذلك الراهب المقدس فإنه سيضطر لأن يقدم عروض سلام لكل قديسي الكنيسة على الإطلاق. لهذا، قرر أن يخرج بما تبقى له من ثروته، وأن يفر ليلاً دون أن يدري به أحد منتقلاً إلى ناحية أخرى من انحاء

المملكة. جلب سانشيز، وقد ملأ عليه مشروعه فكره كله بغلاً قوياً يفي بالغرض ثم ربطه في القبو المعتم لبرج الطوابق السبعة، أي في المكان نفسه الذي يقال إن بلودو أو الحصان الجني، ينطلق في منتصف الليل ويجوب شوارع غرناطة تتبعه زمرة من كلاب الجحيم. لم يكن لوب سانشيز يؤمن كثيراً بتلك القصة لكنه استفاد تماماً من الفرع الذي تثيره، موقناً كل اليقين انه ما من أحد سيجرؤ على التلصص على اسطبل الحصان - الشبح الواقع تحت الأرض.

في النهار أرسل عائلته آمراً إياها ان تنتظره في قرية بعيدة من قرى الفيغا، وحين تقدم الليل نقل كنزه إلى القبو الواقع تحت البرج ثم حمله على بغله ومضى قدماً منحدرًا، بكل حذر وتمهل، الشارع المعتم. كان لوب الشريف قد اتخذ اجراءاته بأقصى درجات التكتم والسرية، دون أن يخبر أحداً بها سوى زوجته المخلصة ورفيقة عمره الوفية، لكن بطريقة عجيبة من طرق التجلي. عرف الأخ سيمون بذلك. رأى الراهب المتحمس ثروات الكفار تلك وهي على شفا الإفلات من قبضته إلى الأبد، فصمم أن يقوم بهجومه الأخير لصالح الكنيسة، وسان فرانسيسكو. طبقاً لذلك، وحين دقت الأجراس من أجل البهائم، والحمراء كلها ساكنة هادئة، تسلل هو من ديره، منحدرًا عبر بوابة العدالة مخفياً نفسه بين أجمات الورود والغار النامية على جانبي الشارع الكبير. هنا، تلبث ساكنًا يعد أرباع الساعات، التي يدقها جرس البرج وهو يصغي الى نعيب البوم ونباح كلاب الغجر. في النهاية، سمع وقع حوافر، وعبر غصون الشجيرات الكثيفة رأى ما يشبه حصاناً ينحدر الشارع.

كتم الراهب الصلب ما يشبه الضحكة وهو يفكر بالقلب الذي سيفعله بلوب الشريف. لملم الراهب أطراف عبايته وتجمع على نفسه كقط يهم بالانقراض على فأر منتظراً إلى أن تصبح فريسته أمامه، تماماً. حينذاك اندفع كالسهم من اجمته الكثيفة الأوراق، واضعاً يداً على كتف الحصان والأخرى على كفه ثم وثب وثبة عالية يعجز عن القيام بمثلها أمهر الفرسان فوجد نفسه وقد أصبح على ظهر الحصان ورجلاه في الركاب «آه.. ها..» قال الراهب الصلب العنيف «سرى الآن من يفهم اللعبة أكثر»، لكنه لم ينه كلماته تلك حتى بدأ الحيوان يرفس ويركل، يشب إلى الخلف وإلى الأمام منطلقاً بعدئذ بأقصى سرعته نازلاً السفح. حاول الراهب كبج جماحه لكن عبثاً. فقد كان ينط من صخرة إلى صخرة ومن شجيرة إلى شجيرة، ممزقاً ثياب الراهب إرباً إرباً مطيراً إياها في الهواء. رأسه الحليق تلقى

الكثير والكثير من طرقات الأغصان وضرباتها كما أصابه الكثير من الخدوش بسبب الأشواك . ولكي يزيد طينه بلة ورعبه شدة ، فقد لحقت به زمرة من سبعة كلاب وهي تنبح أشد النباح . حينذاك أدرك ، لكن وفي وقت متأخر جداً ، أنه كان يمتطي فعلاً ظهر بللودو الرهيب .

بعيداً مضى به الحصان بعد ذاك ، وطبقاً للعبارة القديمة « اكبح شيطاناً تكبح راهباً » نزل الشارع عبر ساحة نوبا ، على طول سوق الزكاتين ، حول الفيفا رامبلا - وعلى نحو لم يسبق لصياد و كلاب صيده أن قاموا بجري أكثر جنوناً أو أثاروا جلبة أكثر جهنمية .

عبثاً راح الراهب يستنجد بقديسي التقويم كلهم ، بل حتى بالعدراء نفسها . لكنه لم يكن يذكر اسماً من تلك الأسماء حتى يبدو وكأنه مهماز جديد ينخس بللودو فيجعله ينط أعلى من المنزل . وهكذا ، طوال البقية الباقية من الليل ، ظل الأخ سيمون العائر الحظ ينقذف على ظهر الحصان هنا وهناك . حيث يريد ولا يريد إلى أن راح كل عظم من عظامه يؤلمه وكل مكان فيه يوجعه وإلى درجة محزنة أكثر من أن تذكر . أخيراً صاح الديك إيذاناً بعودة النهار . مع الصياح دار الحصان حول نفسه عائداً عدواً إلى برجه . ومرة ثانية قطع الفيفا رامبلا . أسواق الزكاتين ، ساحة نوبا وشارع النوافير والكلاب السبعة تنبح خلفه وتعوي واثبة إلى الأعلى مزمجرة . ناهشة عقبي الراهب المذعور . ومع بزوغ أشعة الفجر الأولى وصل الحصان بحمله إلى البرج . هنا ، رفس بخلفيتيه إلى الأعلى مرسل الراهب في الجو لينقلب هذا رأساً على عقب كالبهلوان . فيما غاص الحصان بعد ذلك في القبو المعتم . وفي عقبه زمرة الكلاب الجهنمية ، فحل صمت شديد بعد الجلبة الأخيرة التي كانت تصم الآذان .

ترى هل سبق وانطلت خدعة شيطانية كهذه الخدعة على راهب مقدس؟ في الصباح الباكر ، وجد أحد الفلاحين ، وهو في طريقه الى عمله . الراهب المنكود . الأخ سيمون ، متكوماً على نفسه تحت شجرة تين عند أسفل البرج . لكن في جسده من الكدمات والجروح والخدوش ما جعله عاجزاً عن الكلام أو الحركة .

برعاية شديدة ، نقل الفلاح الراهب إلى حجرته فيما تناقلت الألسن قصة مفادها أن لصوصاً اعترضوا طريقه ، فأوسعوه ضرباً وسلبوه ما معه . ثم مر يوم أو يومان قبل أن يستعيد الرجل قدرته على استخدام أطرافه . في غضون ذلك راح

يعزي نفسه بأنه على الرغم من أن البغل الذي كان يحمل الكنز قد أفلت من يديه، إلا أنه كان قد حصل من قبل على بعض العطاءات الفادرة من غنائم الكفار تلك. همه الأول كان، بعد أن تمكن من استخدام أطرافه، هو أن يفتش تحت حشيته حيث كان قد خبأ إكليل الريحان والأكياس الجلدية المملأ بالذهب التي استحوذ عليها نتيجة ورع السيدة سانشيز وتقواها، لكن ياللهول !! لقد وجد الاكليل فعلاً لكن مجرد غصن ذابل من الريحان كما وجد الأكياس الجلدية لكنها مملأ بالرمل والهباء !

رغم حزنه وكربه كله، استطاع الأخ سيمون أن يمسك لسانه ولا يبوح بسرّه، ذلك أنه إن فعل ذلك جر على نفسه الويل والثبور وعظائم الأمور: سخرية الناس وملاحقة القانون وعقوبات الكنيسة: لهذا مرت سنون كثيرة بعد ذلك دون أن ينبس ببنت شفة. على فراش الموت فقط، تكلم كاشفاً لمن يتلقى اعترافه عن امتطائه الليلي ذاك لظهر بلودو. كذلك مرت فترة طويلة من الزمن دون أن يسمع أحد بسانشيز. لقد اختفى فجأة من الحمراء، مخلفاً وراءه ذكرى طيبة عن انسان مرح حسن المعشر، رغم أنها شوهت في الفترة الأخيرة بالهم والغم الذي لاحظته على سلوكه الكثير من أصحابه قبل رحيله الغامض وذلك الفقر والضيق اللذين ساقاه بعيداً إلى نهاية ما. لكن بعد بضع سنوات كان أحد أصحابه، وهو جندي عاجز خارج الخدمة، يزور ملقاً. مرت عربة ذات ستة خيول به، فصدته ملقية به أرضاً وكادت تدهسه لكن العربة توقفت ثم خرج منها سيد كبير السن، رائع الثياب، ذو لمة مستعارة كالكيس وسيف على جنبه، لنجدة العاجز المسكين. لكن كم كانت دهشة هذا كبيرة وهو يرى في ذلك الفارس العظيم صديقه القديم لوب سانشيز الذي كان بالحقيقة يحتفل بزواج ابنته سانشيكا من أحد أبناء النبلاء الكبار في البلاد.

كانت العربة تنقل زمرة العرس: السيدة سانشيز وقد كبرت وأصبحت مدورة كالبرميل، لابسة الريش مزدانة بالآلئ والجواهر وأنواع من الحلبي لم يرها أحد منذ أيام الملكة بلقيس، ملكة سبأ. كذلك كانت الصغيرة سانشيكا قد نمت وترعرعت حتى أصبحت امرأة جميلة رشيقة حتى لتحسبها دوقة إن لم تحسبها أميرة من الأميرات. إلى جانبها العريس - وهو رجل صغير يابس العروق منكمش على نفسه كعنكبوت لكن دون أن يبرهن هذا إلا على أنه من ذوي الدم الأزرق

الحقيقي: نبيل اسباني شرعي قلما يزيد طوله عن مائة وخمسين سنتيمتراً، فقد كانت الزيجة من تدبير الأم .

بيد أن الثروة لم تفسد الرجل الطيب لوب سانشيز. فقد أبقى رفيقه القديم أياماً عدة عنده، كما احتفى به وأولم له وكأنه ملك، كذلك أخذه إلى المباريات والألعاب وصراع الثيران، وأخيراً زوده بكيس كبير من النقود يستمتع به هو نفسه وينعم، فيما أرسل كيساً آخر كي يوزعه على أصحابه القدامى في الحمراء. كان لوب قد أشاع من حوله ان أخاً غنياً له مات في أمريكا تاركاً إياه الوريث الوحيد لمنجم نحاس ، لكن مروجي الإشاعات الماكرين في الحمراء كانوا يصرون على أن ثروته كلها جاءت من اكتشافه لذلك السر الذي كانت تحرسه حوريتا الحمراء الرخاميتان، غير أنه يلاحظ أن التمثالين الحكيمين الكتومين للغاية ما يزالان حتى اليوم، يلتفتان جانباً وأعينهما مثبتة على النقطة نفسها من الجدار بنظرة مفعمة بالمغزى: مما يدفع الكثيرين لأن يفترضوا أنه ما يزال هناك كنز مخبأ في الجدار يستحق اهتمام المسافر الباحث عن المشاريع ، فيما ينظر آخرون ولا سيما الجنس اللطيف من الزوار ، بقدر كبير من الارتياح باعتبار أن ذينك التمثالين هما التمثالان الوحيدان اللذان يجسدان حقيقة عجيبة وهي أن باستطاعة النساء أن يحفظن الأسرار.

حرب صليبية لم سود « القنطرة » العظيم

خلال بحثي الصباحي في سجلات مكتبة الجامعة المتعلقة بالتاريخ القديم، وقعت على حكاية صغيرة من تاريخ غرناطة تتميز تميزاً شديداً بالحماسة المفرطة التي كانت تلهب أحياناً قلوب المسيحيين وتدفعهم للعمل ضد هذه المدينة الرائعة، إلى درجة أنها اغرتني باستخراجها من الكتاب المجلد برق الغزال والذي دفنت فيه ، بغية تقديمها إلى القارىء.

في سنة استردادها ، أي 1394، كان يسود «القنطرة» سيد عظيم وفارس شجاع يدعى مارتن يانزدي باربودو، يلتهب حماسة وحمية لمحاربة العرب. لكن لسوء حظ ذلك الفارس الشجاع التقى، كان السلم قد استتب بين القوتين المسيحية والمسلمة، إذ كان هنري الثالث قد تولى لتوه عرش قشتالة ويوسف بن محمد عرش

غرناطة وكلاهما ينزعان للمحافظة على السلم الذي ساد بين أبويهما. بحزن وأسى كان السيد العظيم ينظر إلى الرايات والأسلحة العربية التي تزين قاعة حصنه، كرموز للانتصارات التي حققها أسلافه، فيئس أكثر وأكثر على قدره في أن يعيش في مرحلة من الهدوء والسلم اللذين يكرهما كل الكراهية.

في النهاية، تجاوز نفاذ صبره كل حد، وحين رأى أنه ليس بمستطاعه أن يخلق حرباً عامة يشارك فيها فقد قرر أن يصطنع حرباً صغيرة خاصة به. هكذا، على الأقل، هي الرواية التي تحكيها سجلات التاريخ القديمة رغم أن هناك روايات أخرى تعطي السبب التالي كدافع لذلك القرار المفاجيء بشن حملة عسكرية.

ذات يوم كان السيد العظيم يجلس إلى مائدته مع عدد من فرسانه. فجأة دخل القاعة رجل طويل نحيل معروق، على محياه سيما الشراسة وفي عينيه شرر النار، فعرف فيه الجميع ذلك الراهب الذي كان أيام شبابه جندياً، لكنه بعد ذاك اعتزل الحياة ليعيش متوحداً في كهف من الكهوف. تقدم الراهب إلى الطاولة ضارباً إياها بقبضة بدت كأنها من جديد، ثم قال «أيها الفرسان، لماذا تجلسون هنا كسالى عاطلين؟ أسلحتكم معلقة على الجدران بينما يسيطر أعداء دينكم على خير ناحية في البلاد؟».

«أيها الأب المقدس، ماذا تريدنا أن نفعل؟ سأل السيد العظيم و«الحروب قد انتهت كما ترى وسيوفنا قد غلثتها معاهدات السلام؟».

«اسمعوا كلماتي» أجاب الراهب «بينما كنت جالساً في الهذيع الأخير من الليل، عند مدخل، كهفي، متفكراً بالسموات، رأيت رؤيا عجيبة تشبه الحلم. رأيت القمر مجرد هلال لكنه مشع كما تشع الفضة وأكثر، وقد علق في السماء فوق مملكة غرناطة.

تطلعت إليه فرأيت نجماً وهاجاً ينطلق من قبة السماء، جاراً وراءه نجوم السماء كلها لتنقض جميعاً على القمر وتطرده بعيداً ثم تمتلئ السماء بنور ذلك النجم الوهاج. بعدئذ، وعيناي ما تزالان مبهورتين بذلك المشهد الغريب العجيب، وقف إلى جانبي شخص ذو جناحين كالثلج وملامح ساطعة كالنور ثم قال «أنت، يا رجل الصلوات، اذهب إلى سيد القنطرة العظيم واحك له الرؤيا التي رأيت. إنه هو النجم الوهاج المقدر له أن يطرد الهلال من البلاد، فليشهر

سيفه بشجاعة وليتابع العمل الطيب الذي بدأه بيلازو قديماً وليكن على ثقة أن النصر سيصحب رايته.

اصغى السيد العظيم الى الراهب وكأنه يصغي الى رسول في السماء ثم تبع نصيحته في كل شيء. إذ أرسل طبقاً لمشورته اثنين من أعتى محاربيه المسلحين حتى آخر شعرة في رأسيهما بوفادة الى ملك العرب. دخل المحاربان بوابات غرناطة دونما إزعاج فالأمتان في حالة سلام ثم شقا طريقهما إلى الحمراء حيث أدخلوا في الحال إلى الملك الذي استقبلهما في قاعة السفراء. على الفور سلماه الرسالة هكذا ، مباشرة ودونما مقدمات «إننا آتون أيها الملك، من قبل الدون مارتن يانيزدي باربودو، سيد القنطرة العظيم الذي يؤكد أنه هو وحده الحق والصواب وأنكم انتم الزيف والضلال كما يتحداكم للنزال في مبارزة مفردة بينك وبينه فإن أبيت ذلك يعرض عليك نزلاً بمائة فارس مقابل مائتين أو أي عدد تريده منا مقابل ضعفه منكم. ولتذكر أيها الملك أنه ليس باستطاعتك ان ترفض هذا التحدي، بل لا بد من أن تستجيب له بأي شكل تريد».

«لا شك أن سيد القنطرة هذا رجل مجنون» رد الملك يوسف وشعرات لحيته ترتعش «كي يرسل رسالة كهذه، وأنتما غران أحمقان كي تأتيا بها».

قال ذلك ثم أمر بالقائهما في زنزانة لتلقيتهما درساً في الدبلوماسية وحسن التصرف، كما عوملاً، وهما في طريقهما الى الزنزانة، شر معاملة من قبل الناس، الذين أغاظتهم كثيراً تلك الإساءة الموجهة الى ملكهم وقومهم. سمع سيد القنطرة العظيم بانباء المعاملة السيئة التي تعرض لها وفده دون أن يعطيها قيمتها الحقيقية، لكن الراهب استمتع كل الاستمتاع حين نقلت له «الرب نفسه أصاب ذلك الملك بالعمى كي يسقط في الهاوية»، قال الراهب «وطالما لم يرسل لك جواباً للتحدي الذي أرسلته له، اعتبر أنه قد قبل التحدي. لذلك، اجمع قواك وسر إلى غرناطة ولا تتوقف قبل أن ترى بوابة إلفيرا، وكن على ثقة أن معجزة ستحدث لصالحك، فسوف تجري معركة عظيمة: وسوف ينهزم العدو لكن دون أن يصاب جندي واحد من جنودك». دعا السيد العظيم كل محارب متحمس لمساعدته في تلك الحرب الصليبية وخلال فترة وجيزة، اجتمع تحت رايته ماينوف على ثلاثمائة فارس وألف من المشاة. كان الفرسان جنوداً قدامى ومحاربين متمرسين مجهزين للمعركة شاكى السلاح، لكن المشاة لم يكونوا كذلك فكلهم أغرار وبغير نظام. مع ذلك كان على النصر أن يتم بمعجزة والسيد العظيم

رجل شديد الإيمان يعرف تمام المعرفة أنه بقدر ما تكون الوسيلة أضعف تكون المعجزة أعظم. لهذا، وبثقة كاملة بالنفس، انطلق بجيشه الصغير وقد تقدم راهبه الجيش، حاملاً صليبه على عمود طويل يرفرف فوقه علم القنطرة.

حين اقتربوا من قرطبة، جاءتهم الرسل وكلهم مسرع بالأوامر من ملك قشتالة بوقف الحملة. لكن السيد العظيم كان رجلاً عنيد الرأس متصلب الرأي، وبعبارة أخرى كان رجلاً يسيطر على ذهنه فكرة واحدة «لو كنت أقوم بأية مهمة أخرى» قال السيد العظيم للرسل «إذن لأطعت الأوامر الآتية من سيدي الملك، لكنني هنا مرسل من قبل قوة أعلى من الملك، وخضوعاً لتلك الأوامر العليا فإنني اتقدم، ولسوف تكون خيانة عظمى أن أعود دون أن أنجز المهمة التي كلفت بها». وهكذا نفخت الأبواق ورفع الصليب عالياً من جديد واستأنفت عصبة المتحمسين مسيرتها. أثناء مرورها في شوارع قرطبة كان الناس يندهشون لرؤية راهب يحمل صليباً على رأس حشد من المحاربين لكن حين علموا أن النصر - المعجزة أتت وأن غرناطة ستدمر، راح الشغيلة، المهنيون، أصحاب الحرف الصغيرة يلقون بأدوات عملهم جانباً ويلتحقون بالحملة الصليبية، كما تبع الحملة زمرة من المرتزقة على أمل النهب والسلب.

غير أن عدداً من الفرسان ذوي المراتب والذين كانوا يفتقدون للإيمان بالمعجزة الموعودة، ويخشون في الوقت نفسه نتائج اندفاع متهور إلى بلاد العرب كهذا، تجمعوا عند جسر الوادي الكبير ساعين لتثبيط همة السيد العظيم ومنعه من عبوره، لكنه أعطاهم الأذن الصماء فهو لا يسمع رجاء ولا توسلاً لا ترغيباً ولا تهديداً، كما غضب أتباعه من تلك المعارضة لقضيتهم الدينية وهاجوا وماجوا واضعين نهاية الجدل بنفخهم الأبواق من جديد ومن جديد رفع الصليب رفعة النصر عبر الجسر.

على الطريق كان الحشد يتزايد وهو يمضي قدماً وحين وصل السيد العظيم إلى «قلعة الرجال» التي تنتصب فوق جبل يطل على سهل الفيغا، سهل غرناطة، كان ما ينوف على خمسة آلاف راجل يسرون تحت لوائه.

عند القلعة جاءهم ألونزوفرناندز القرطبي، سيد أغيلار، وأخوه ديبغو فرناندز، قائد قشتالة العسكري، وفرسان آخرون من المشهود لهم بالبسالة والخبرة، معترضين طريق السيد العظيم «أي جنون هذا يا دون مارتن؟» قالوا

له «لدى الملك العربي مائتا ألف من المشاة وداخل أسواره خمسة آلاف من الفرسان. ماذا باستطاعتك، أنت وحفنتك هذه من الخيالة ورعاعك الصاخبين هؤلاء أن تفعلوا إزاء قوة كهذه؟ فكر بالكوارث التي حلت بالقادة المسيحيين الآخرين الذين عبروا هذه الحدود الصخرية بعشرة أضعاف قوتك. فكر أيضاً بالشر الذي ستجربه على هذه المملكة نتيجة حماقة من هذا النوع يرتكبها رجل بمكانتك وأهميتك يا سيد القنطرة العظيم. توقف، نتوسل اليك، طالما أن الهدنة ما تزال قائمة. تريث ضمن الحدود بانتظار جواب ملك غرناطة على تحديدك. إن وافق على منازلتك إفرادياً، أو ببطلين أو ثلاثة، كانت تلك مسألتك الشخصية وقاتلت بمفردك باسم الرب، أما إن رفض، فيمكنك أن تعود مرفوع الرأس والعار والشنار له وحده».

تأثر عدة فرسان ممن كانوا حتى تلك اللحظة قد تبعوا السيد العظيم بدافع الحماسة الشديدة فقط، بتلك الأقوال والحجج وفي الحال اقترحوا عليه أن يستمع لتلك النصيحة.

«أيها الفرسان» قال السيد العظيم موجهاً خطابه إلى الونزوفرناندز القرطبي وصحبه «أشكركم على النصيحة التي قدمتموها لي بكل هذا اللطف والكراسة لكن، إن كنت هنا فقط من أجل مجد شخصي، فأرجو أن لا ينالني شيء من ذلك العبد، لكنني هنا وهمي الوحيد أن أحقق نصراً عظيماً للدين الذي وعدني الرب أن يحققه لي بمعجزة من عنده. أما أنتم أيها الفرسان» قال وهو يلتفت إلى أتباعه من الفرسان الذين ترددوا «فإن كانت قلوبكم قد خذلتكم، أو كنتم قد ندمتم على المشاركة في هذا العمل الطيب، أقول لكم باسم الرب عودوا تصحبكم بركتي، لكن بالنسبة إلي وحتى لو لم يقف إلى جانبي أحد سوى الراهب المقدس فإنني بالتأكيد سأمضي قدماً إلى أن أغرس هذه الراية المقدسة على أسوار غرناطة أو أهلك وأنا أحاول ذلك». «دون مارتين يانيز دي باربودو» أجاب الفرسان «ما نحن بالرجال الذين يديرون ظهورهم لقائدهم مهما يكن مشروعه متهوراً. لقد تكلمنا حذراً وحيطة فقط فامض إذن، وإن كان ثمة الموت فكن على ثقة أننا إلى الموت نتبعك». حينذاك، كان الجنود العاديون قد نفذ صبرهم فصاحوا بصوت واحد «إلى الأمام! إلى الأمام!»، وهكذا، أعطى السيد العظيم إشارة التقدم، ومن جديد رفع الراهب الصليب عالياً وهم ينحدرون رتلاً زاحفاً على سفح الجبل مرددين أناشيد النصر الرزينة. تلك الليلة، خيموا عند نهر أزبور. في الصباح التالي، وكان يوم أحد، عبروا الحدود ثم توقفوا أول مرة عند «أضاليا» أو البرج المنعزل الذي شيد

على صخرة ليكون موقعاً أمامياً لمراقبة الحدود والالذار عند حدوث غارة لهذا السبب كان يدعى «برج الجاسوس».

أمام ذلك البرج وقف السيد العظيم داعياً حاميته الصغيرة للاستسلام فكان الرد وابلا من الحجارة والسهام جرحت يده وقتلت ثلاثة من رجاله.

«كيف هذا أيها الأب؟» قال للراهب «لقد أكدت لي أنه ما من رجل من رجالي سيصاب أو يقتل». «صحيح يا بني. لكنني كنت أقصد أنه لن يقتل في المعركة الكبيرة مع ذلك الملك الكافر. ترى أي حاجة بنا لمعجزة من أجل الاستيلاء على برج صغير؟».

اقتنع السيد العظيم بالحجة وللتو أمر بتكديس الخشب على باب البرج بغية حرق البرج بمن فيه. في غضون ذلك كانت المؤن قد أفرغت من أحمالها على ظهور البغال، وكان رجال الحملة قد جلسوا بعيداً عن مرمى السهام على المرج الأخضر كي يتناولوا طعامهم عسى أن يزودهم بالقوة التي يتطلبها العمل المضني الذي ينتظرهم. أثناء انشغالهم ذاك، أجفلوا وقد ظهرت فجأة جمهرة عظيمة من الفرسان العرب. فحامية «أضاليا» كانت قد أرسلت إنذارها بإشعال النار والدخان على نرى الجبال وهكذا. من ذروة إلى ذروة مضى ما معناه. «قد عبر العدو الحدود». وفي الحال انطلق ملك غرناطة بقوة كبيرة لمواجهة الخطر.

طار رجال الحملة، وقد أخذوا على حين غرة، إلى سلاحهم يستعدون للمعركة، فيما أمر السيد العظيم خيالاته الثلاثمائة - بالترجل عن خيولهم والقتال راجلين دعماً لمشاته. لكن العرب شنوا هجومهم بغتة إلى درجة أنهم فصلوا الخيالة عن المشاة ومنعوا أي اتحاد بينهم. صاح السيد العظيم صيحة الحرب القديمة «سانتياغو ! سانتياغو ! واسبانيا الغالية !» ثم اندفع هو وفرسانه إلى أتون المعركة، لكن كان يحيط بهم عدد لا يحصى من المقاتلين وكانت تنهمر عليهم من كل حذب وصوب السهام، الحجارة، الرماح الخفيفة وطلقات القربينات (البنادق القديمة). مع ذلك ظلوا يقاتلون دون خوف صانعين مذبة كبيرة. الراهب نفسه خاض غمار القتال، بيد يحمل الصليب وبالأخرى يشهر السيف ضارباً به كالمجنون ذات اليمين وذات الشمال مجندلاً العديد من الأعداء إلى أن سقط على الأرض مثخناً بالجراح. رآه السيد العظيم يسقط كما رأى حماقة تنبؤاته لكن بعد أن فات الأوان، مع ذلك جعله اليأس يقاتل بشراسة أكثر إلى أن سقط هو الآخر

وقد غلبته الكثرة. فرسانه المخلصون كانوا يضاھونہ حماسة مقدسة، فما من فارس أدار ظهره هارباً ولا طلب رحمة بل قاتلوا جميعاً إلى ان سقطوا صرعى. أما المشاة فكثير منهم قتلوا لكن أخذ الكثير منهم أسرى، فيما فر البقية إلى «قلعة الرجال». وحين جاء العرب لتجريد ضحايا المعركة وجدوا أن جروح الفرسان كلها في الصدور.

تلك هي الكارثة التي انتهى إليها ذلك المشروع المجنون. بعده، راح العرب يتباهون به باعتباره البرهان الحاسم على عظمة دينهم وتفوقه ممجدين ملكهم رافعيه إلى السماء وهو يعود بالنصر إلى غرناطة.

تلك الحملة، كما هو مبين وعلى نحو مقنع، كانت مشروعاً إفرادياً مخالفاً تماماً لأوامر ملك قشتالة الصريحة، لذلك استمر السلام بين الملكتين قائماً، ليس هذا وحسب بل إن العرب أظهروا كل مشاعر الاحترام لبسالة السيد العظيم العائر الحظ وبكل طيبة خاطر سلموا جثمانه للدون لو نزو فرناندز القرطبي الذي جاء من القلعة طلباً لها. وهكذا، تجمع مسيحيو الحدود لإقامة آخر مراسم التكريم له واضعين جثمانه على عربة دفن وقد لف بعلم القنطرة، واضعين أمامه الصليب المحطم، رمز آماله المهشمة وخيبته القاتلة.



قصة رومانسية

من اسبانيا

في الشطر الأخير من إقامتي في الحمراء، غالباً ما كنت أنزل على مكتبة الجزويت. في الجامعة، مستمتعاً أكثر وأكثر بسجلات التاريخ الاسبانية القديمة التي وجدتتها هناك مجلدة بجلد الغزال وقد استمتعت على نحو خاص بتلك التواريخ الطريفة التي تتناول العهود التي كان فيها العرب يحتفظون بموطىء قدم لهم في شبه الجزيرة، ورغم كل ما فيها من تعصب أعمى وعدم تسامح أحياناً، إلا أنها ملأتى بالفصول النبيلة والعواطف الكريمة، كما يحس فيها المرء بنكهة شرقية رفيعة عبققة لا توجد في السجلات الأخرى لتاريخ شبه الجزيرة حين كانت أوربية خالصة — والحقيقة أن اسبانيا، حتى في الوقت الراهن، هي بلاد منفصلة، مقطوعة تاريخاً، عادات، أعرافاً ونمط تفكير عن بقية أوروبا. إنها بلاد رومانسية لكن ليس لرومانسيتها عاطفية الرومانسية في أوروبا المعاصرة. إنها مستمدة بصورة

رئيسية من مناطق الشرق بكل ما فيها من إشراق وألق ، مستمدة من المدرسة العالية - التفكير للفروسية العربية الشرقية .

إن فتح العرب لتلك البلاد قد حمل معه حضارة أرقى و طرازاً أنبل في التفكير إلى اسبانيا القوطية، فالعرب أناس شاعريون لامعو الذكاء، سريعو البديهة، أصحاب إباء وشهامة، وحكمة وعقل، وقد تشربوا بعلوم الشرق وآدابه، وحيثما كانوا يقيمون مركز قوة ونفوذ، يصبح على الفور مركز استقطاب للمتعلمين والناخبين، كما كانوا يقومون بتشذيب وصقل الناس الذين يفتحون بلادهم، وشيئاً فشيئاً كان ذلك الاهتمام بالتعليم والصقل يعطيهم حقاً وراثياً، على ما يبدو، في موطىء قدمهم ذاك في البلاد ولا يعود احد ينظر إليهم على أنهم غزاة دخلاء، بل جيران منافسون، وشبه الجزيرة التي مزقت الى عدد من الدويلات المسيحية والمسلمة على السواء، ظلت على مدى قرون ساحة قتال، حيث كان فن الحرب قد أصبح شغل الرجال الرئيسي كما كان يتم بأعلى درجة من درجات الفروسية الرومانسية، ذلك أن الأرضية الأساسية من الحقد والعداء واختلاف الدين كانت شيئاً فشيئاً قد فقدت حدتها. والدول المجاورة، رغم اختلاف العقائد، كانت أحياناً تعقد فيما بينها التحالفات، الدفاعية منها والهجومية، بحيث كان الصليب والهلال غالباً ما يشاهدان جنباً إلى جنب وهما يقاتلان ضد عدو مشترك. في أيام السلم أيضاً، كان شبان الطبقة النبيلة من كلا المذهبين يلجأون إلى المدن نفسها، مسيحية كانت أم مسلمة ليلتحقوا بالمدارس التي يتعلمون فيها العلوم العسكرية، بل حتى في أيام الهدنة المؤقتة للحروب الدموية، كان المحاربون الذين عادوا لتوهم من العراق الشديد ضد بعضهم بعضاً، يلقون جانباً عداواتهم ويلتقون في مباريات ومبارزات ودية ويشاركون في الأنواع الأخرى من الاحتفالات والمهرجانات ويتبادلون المجاملات بروح نبيلة كريمة . على ذلك النحو، أصبحت الشعوب المختلفة تمتزج معاً وتختلط بنوع من التواصل السلمي، وإذا كان هناك أي تنافس فإنما يكون على درجة عالية من الرقي والنبيل الذي يتناسب مع روح الفارس الشهم النبيل. لهذا السبب ربما، كان المحاربون من العقيدتين المختلفتين يطمحون للتفوق بعضهم على البعض الآخر في الشهامة والمروءة كما في البسالة والاقدام، والحقيقة، أن فضائل الفروسية وشمائلها كانت قد شذبت وصقلت إلى درجة بلغت أحياناً حد التقبيد وصعوبة الإرضاء، لكن أحياناً أخرى كانت نبيلة ومؤثرة على نحو لا يمكن التعبير عنه. إن حوليات تلك الأيام ملأى بالأمثلة التي

توضح تلك الحالة الرفيعة من الرقي والنبيل والكرم الرومانسي والرفعة والتركيز على الشرف والكرامة مما ينشر الدفء ويبعث الراحة في النفس حين يقرأه المرء. إنها موضوعات جاهزة لتكون مادة لمسرحيات وأشعار وطنية، هي التي كانت مادة رائعة لتلك الاناشيد والأغاني التي تجدونها في كل مكان في إسبانيا والتي تشكل أنفاس الحياة للشعب الاسباني، والتي استخدمت على هذا النحو لكي تمارس تأثيرها على شخصية الانسان التي لم تستطع قرون من الانهيار والتراجع تدميرها، بحيث أن الاسبان، رغم عيوبهم الكثيرة، ما يزالون حتى الوقت الحاضر، وفي جوانب عديدة أكثر شعوب أوروبا رقي عقل وكبرياء روح. صحيح أن رومانسية الشاعر مستمدة من المصادر التي ذكرت، إلا أن لها مثل كل رومانسية أخرى، تكلفاتها وتصرفاتها، إنها تجعل الاسباني في بعض الأحيان دعياً مغروراً، ميالاً لأن يتجاوز، في مسائل الشرف والكرامة، حدود المنطق والعقل والأخلاق السليمة، نزاعاً وسط الفقر والعوز لأن يؤثر التمسك بسلوك «الفارس العظيم».

وأن ينظر بازدراء تام الى المهن اليدوية وكل سبل كسب العيش لدى الطبقات الدنيا من الشعب، لكن «نفخة» الروح هذه تحديداً، وعلى الرغم من أنها تملأ دماغه زبداً وبخاراً، إلا أنها ترفعه فوق كل ضعة وخسة، وعلى الرغم من أنها تبقيه في حالة من الفقر والعوز إلا أنها تحميه من الرعاعية، لكن لكي لا أستطرد أكثر، يسرني أن أقدم للقارئ ثمرة من ثمرات قراءاتي الصباحية في مكتبة الجزويت الجامعية القديمة، وهي حكاية جميلة أخذتها من أحد السجلات التاريخية المحترمة التي أشرت إليها:



حكاية الدون

« مونيو سانشو دي مينوجوسا »

في أروقة دير من أديرة سان دومينغو في سيلوس ، قشتالة ، لا تزال هناك نصب بالية لكن رائعة لعائلة الفرسان هينو جوسا التي كانت ذات يوم صاحبة قوة ونفوذ . بين ذلك الركام البالي ثمة تمثال من رخام لفارس بكامل عدته وسلاحه وقد انضمت يداه الواحدة إلى الأخرى وكأنه يصلي . على أحد جانبي ضريحه نقش بالرسم النافر، صور عصابة من الفرسان المسيحيين وهم يأسرون قافلة من العرب ذكوراً وإناثاً على الجانب الآخر، رسم الفرسان أنفسهم وهم يركعون أمام مذبح. الضريح شأنه شأن معظم النصب المجاورة، في حالة بئس تقارب الحطام كما أن النقوشات عليه باقت غامضة يصعب أن يفهمها إلا الخبير المتمرس بالآثار القديمة. مع ذلك. فإن القصة المتعلقة بالضريح والنقش ، ما تزال محفوظة في السجلات الاسبانية القديمة وهي كما يلي:

في ماضي الزمان، وقبل عدة مئات من السنين، كان هنالك فارس نبيل من قشتالة يدعى الدون مونيو سانشودي هينو جوسا، يملك حصناً على الحدود صد الكثير من غارات العرب وغزواتهم . سبعون فارساً كانوا هم قوته وجنده، وكلهم قشتاليون اصلاء محاربون اشداء، فرسان أقوياء لكانهم رجال من حديد. بهؤلاء الرجال كان الدون يجوب أراضي العرب غازياً مغيراً . مما جعل اسمه يبعث الرعب في القلوب في منطقة الحدود كلها. جدران القاعة في حصنه كانت مغطاة كلها بالرايات والسيوف والخوذ الاسلامية وكلها دلائل ترمز لشجاعته وبسالته . علاوة على ذلك كان الدون مونيو صياداً ماهراً لديه كلاب صيد من كل الأنواع، خيول لطرذ الطرائد ، بزاة للقنص. كانت متعة الرجل حين لا يكون منشغلاً بأعمال الحرب والقتال، أن يطرق الغابات في الجوار وقلما كان يركب حصانه وينطلق بعيداً بغير كلاب صيد وأبواق، رمح الصيد في يده، والبازي على قبضته وحاشية من الصيادين في ركابه.

غير أن زوجته الدونا ماريا بالاسين ، كانت بطبيعتها رقيقة لطيفة غير مهياة كثيراً لأن تكون زوجة فارس مغامر قاس صلب كزوجها، ولشد ما أراقت تلك السيدة المسكينة من دموع حين كان ينطلق في مشروع من مشاريعه الجريئة تلك ولشد ما كانت تصلي وتدعو ربها من أجل أمانه وسلامته.

ذات يوم، كان ذلك الفارس المقدام في الصيد والقنص وقد كمن في حرج كثيف، على تخوم غابة خضراء، موزعاً أتباعه هنا وهناك لاستشارة الطرائد وسوقها باتجاهه. لم يكن قد مضى على مكمنه وقت طويل، حين ظهر موكب من العرب، رجالاً ونساء، على الطرف الآخر للحرج ، لم يكونوا مسلحين بل كانوا يرتدون أزهى الملابس ، ثياباً مطرزة مزخرفة، شالات فاخرة من الهند، حلياً وأساور من الذهب وماساً وجواهر تتلألأ تحت أشعة الشمس. على رأس ذلك الموكب البهيج كان هنالك فارس شاب يفوق أقرانه رفعة في الشرف ورقياً في السلوك وروعة في الملابس. وإلى جانبه فتاة، أزاح الهواء نقابها جانباً فتجلت بوجه فائق الجمال وعينين مطرقتين أرضاً بحياء العذاري لكنهما تشعان رقة ومرحاً.

شكر الدون مانيو طالعه على إرساله جائزة كهذه له منتشياً في سره لمجرد التفكير بأن يعود إلى بيته وزوجته بأسلاب أولئك الأعداء المتلألئة. للتو، وضع بوق قنصه على شفتيه نافخاً نفخة دوت لها أرجاء الغابة. أسرع صيادوه من كل

حذب وصوب وسرعان ما وجد الموكب نفسه محاصراً من الجهات الأربع مما اضطره لأن يرفع راية الاستسلام.

راحت الحسناء العربية تفرك يديها يأساً وقنوطاً، كما راحت وصيفاتها وحاشيتها من النساء يولولن صائحات صارخات، لكن الفارس وحده ظل محتفظاً برباطة جأشه. سأل عن اسم الفارس المسيحي أمر ذلك الرهط من الخيالة. قالوا له انه الدون مونيو سانشو دي هينو جوسا، فأشرق وجهه ثم اقترب منه قائلاً «أيها الدون مونيو سانشو، إن صيتك لذائع في كل مكان بأنك فارس عنيد ومقاتل رهيب في ساحة الوغى لكنك متشرب بشيم الفروسية والشهامة والنبل وإني لعلی ثقة أنني سأجذك هكذا. إنك ترى أمامك عبد الله ابن القائد العربي هناك وأنا في طريقي لإقامة عرسي على هذه الفتاة. المصادفة وحدها ألقطنا بين يديك لكنني واثق كل الثقة بشهامتك ومروءتك. خذ كل ما معنا من ذهب وجواهر، واطلب ما تشاء، من فدية، لكن لا تعرضنا للذل والمهانة». حين سمع الفارس الطيب ذلك الرجاء ورأى جمال العروسين الشابين، رق قلبه وتحركت شهامته ثم قال «لا سمح الله أن أعكر صفو عروسين سعيدين هكذا. انتم بالحقيقة، سوف تكونون أسرى لدي مدة خمسة عشر يوماً، تقضونها بالصون والحفظ داخل حصني ولكنني أطالب كغاز، بحق الاحتفال بزفافكما».

قال ذلك ثم بعث بأسرع فرسانه كي يسبق الركب فيعلم الدونا ماريًا بالاسين بوصول موكب العرس ذاك، في حين سار هو وفرسانه مع الموكب لا كآسرین بل كحرس شرف. حين اقتربوا من الحصن، كانت الرايات ترفع عالياً على الأسوار، والأبواق تنفخ من التحصينات وحين اقتربوا أكثر، أنزل الجسر المتحرك على الخندق وخرجت الدونا ماريًا لاستقبالهم تصحبها سيدات الحصن وفرسانه، وصيفاتها ووصفائها، مغنوها وموسيقيوها. بالأحضان تلقت الدونا العروس الصبية العفراء، مقبلة إياها كما تقبل الأخت اختها سائرة بها إلى داخل الحصن. في غضون ذلك، أرسل الدون مونيو الرسل في كل اتجاه آمراً بأن يأتوا بالمؤن والأطعمة من كل صنف ولون من أنحاء البلاد كلها، ثم جرى الاحتفال بزفاف الحبيبين العربيين كأبهج وأمتع الاحتفالات. خمسة عشر يوماً ظل الحصن في حالة فرح وابتهاج. فأقيمت مبارزات وجرت مباريات وصراع ثيران، ولائم ورقص على أنغام الغيتار وأغاني الشعراء، بانتهاء الخمسة عشر يوماً، قدم الدون الهدايا اللاتئة

للعروسين ثم نقلهما وحاشيتهما إلى خارج الحدود بأمان وسلام. هكذا ، في الأيام القديمة، كانت شهامة الفارس الاسباني ومروءته.

بعد سنوات من ذلك الحادث، دعا ملك قشتالة نبلاءه للمشاركة في حملة عسكرية ضد العرب وكان الدون مونيو أول من لبى النداء، مع فرسانه السبعين وكلهم مجرب في الحروب مقدم. شبكت الدونا ماريا، زوجته ، يديها حول عنقه قائلة - و اأسفاه يا سيدي!! ما أكثر ما تغري قدرك بك ، فمتى يا ترى ينطفئ ظمأك للمجد!!

«معركة واحدة أخرى» أجاب الدون مونيو «معركة واحدة من أجل مجد قشتالة، وأقسم لك إنني بعد هذه المعركة، سأغمد سيفي وأذهب مع فرساني للحج إلى ضريح سيدنا في بيت المقدس». للتو انضم فرسانه اليه مقسمين قسمه. حينذاك فقط أحست الدونا ماريا بشكل من أشكال الراحة والطمأنينة. لكنها ظلت تشعر بأنها مثقلة القلب حزينه لرحيل زوجها، ترقب رايته وهي تبتعد بعينين دامعتين إلى أن غيبتها عن الأبصار أشجار الغابة.

إلى سهول الحمراء قاد ملك قشتالة جيشه . هناك التقوا بالجيش العربي قرب «أكليس» في معركة طويلة دامية، كان المسيحيون فيها يتأرجحون باستمرار بين كر وفر ولم يكن يعيدهم إلى الكر إلا نشاط قادتهم وعزيمتهم. أثخن الدون مونيو بالجراح لكنه أبى أن يترك ساحة القتال. أخيرا انهزم المسيحيون واشتد الضغط على الملك، مهدداً بخطر التعرض للأسر.

نادى الدون مونيو فرسانه كي يلحقوا به لانقاذ الملك صائحاً ملء صوته «الآن ، آن الأوان لاثبات إخلاصكم . فلتموتوا كما يموت الشجعان !! إننا نقاتل من أجل حقنا، وإذا متنا متنا شرفاء». قال ذلك ثم اندفع برجاله حائلاً بين الملك ومطارديه، متمكناً أخيراً من صد هؤلاء تاركاً فسحة من الزمن لنجاة مليكه، إلا أن فرسانه جميعاً سقطوا ضحايا إخلاصهم بعد أن قاتلوا حتى آخر نفس. بين يدي فارس عربي شديد البأس وقع الدون مونيو وحيداً مفرداً. ولأن ذراعه اليمني كانت قد جرحت من قبل فقد كانت معركته خاسرة وسرعان ما سقط صريعاً. بسقوطه كانت المعركة قد انتهت فترجل الفارس لسلب ما في حوزة فارسه الصنديد من غنائم. لكن ما إن حل رباط الخوذة عن رأسه ورأى أمامه محيا الدون

مونيو حتى أطلق صرخة مدوية داقاً على صدره «الويل لي !! لقد ذبحت من أحسن إلي !! فارس الفرسان !! أعظم الرجال شهامة ومروءة !!»

على الرغم من أن المعركة كانت تجري في سهل سلمانارا، إلا أن الدونا ماريا ظلت في حصنها فريسة القلق والاضطراب عيناها مسمرتان أبداً على الطريق الآتي من بلاد العرب، لتسأل من حين إلى حين المراقب في البرج «ماذا ترى؟».

ذات مساء، ومع ظلال الغسق، نفخ الحارس بوقه ثم صاح «إنني أرى ركباً كثير العدد يلتف مع الوادي. هو خليط من عرب واسبان. راية سيدي في المقدمة. أخبار مفرحة !!» هتف الحارس القديم «سيدي يعود بالنصر والكثير من الأسرى... عندئذ دوت في أفنية القصر وقاعاته صيحات الفرح كما رفعت الرايات ونفخت الأبواق وقرعت الطبول وأنزل الجسر المتحرك. فانطلقت الدونا ماريا مع حاشيتها من سيدات وفرسان، خدم وحشم للترحيب بسيدها العائد من الحرب. لكن مع اقتراب الركب رأت عربة نعش فخمة مجللة بالقطيف الأسود وقد تمدد عليها محارب وكأنما هو يستريح. لقد كان بكامل سلاحه، خوذته على رأسه وسيفه في يده كما لو أنه لم يقهر قط وحول النعش شعارات النبالة الخاصة بعائلة هينوجوسا. عدد من الفرسان العرب كانوا يرافقون النعش وكلهم بثياب الحداد وسيماء الحزن والاكتئاب. وصلوا فألقى قائدهم بنفسه عند قدمي الدونا ماريا مخفياً وجهه بين يديه. نظرت إليه فرأت فيه الفارس عبداً لله الذي كانت ذات يوم قد رحبت به هو وعروسه في قصرها لكنه اليوم جاء بجثمان زوجها الذي ذبحه في المعركة دون أن يعرفه.

في احد أروقة دير سان دومينغو أقيم ضريح الدون، وعلى حساب العربي عبد الله، دليلاً بسيطاً على حزنه لموت الفارس الشهم الدون مونيو وإجلالاً لذكراه. أما الدونا ماريا الرقيقة المخلصة فسرعان ما لحقت بسيدها إلى القبر وعلى واحدة من حجارة القوس الصغير الذي أقيم بجانب ضريحها نقشت العبارة البسيطة التالية «هنا ترقد ماريا بالاسين زوجة مونيو سانشو دي هينوجوسا». غير أن حكاية الدون مونيو لم تنته بموته، ففي اليوم نفسه الذي جرت فيه المعركة على سهول سلمانارا، كان قند لفت الكنيسة المقدسة في بيت المقدس يقف عند بابها الخارجي، حيث رأى ركباً من فرسان مسيحيين يتقدم وكأنه أتى للحج. كان القند لفت اسباني الأصل وحين اقترب الحجاج عرف قائدهم: إنه الدون مونيو سانشو دي هينوجوسا الذي كان يعرفه جيداً في الأيام الماضية. في الحال

أسرع الى البطريك مخبراً إياه عن المرتبة الرفيعة للحجاج القادمين عند الباب. لهذا السبب انطلق البطريك بموكب عظيم من كهنته ورهبانه مستقبلاً الحجاج بما يليق بهم من حفاوة وتكريم. لقد كانوا سبعة فارساً إضافة إلى قائدهم، والكل من المحاربين الشجعان الأشداء، يحملون خوذاتهم بأيديهم وعلى وجوههم شحوب الموتى. لم يحيوا أحداً ولم ينظروا إلى اليمين أو الشمال، بل دخلوا الكنيسة الصغيرة ثم ركعوا أمام ضريح السيد المخلص، متممين صلواتهم بسكينة وصمت. حين انتهوا، نهضوا كما لو أنهم راحلون. أسرع البطريك ومرافقوه للتحديث إليهم، لكنهم لم يستطيعوا أن يروا أحداً فقد اختفوا عن العيان، تعجب الجميع «ما تراه معنى ذلك كله؟» لكن البطريك دون في كتابه تاريخ ذلك اليوم وأرسل الى قشتاله يسأل عن أخبار الدون مونيوس سانشو، فجاء الجواب: في ذلك اليوم بالذات قضى نحبه ذلك الفارس النبيل وفرسانه السبعون في ساحة الوغى.

لهذا، لا بد من أن يكون ما رآه البطريك وحاشيته في القدس أرواح أولئك الفرسان المسيحيين المباركة وقد جاءت للوفاء بعهد كانوا قد قطعوه وهم أحياء في أن يحجوا إلى الضريح المقدس في بيت المقدس. هكذا كان الإيمان القشتالي في الأيام القديمة، يحافظ فيه المؤمن على كلمته حتى وإن كان في القبرا

لكن إن كان هنالك من يشك بالظهور العجائبي لأولئك الفرسان — الأشباح، فما عليه إلا أن يرجع إلى «تاريخ ملوك قشتالة وليون» بقلم الراهب الوريق الفهامة «فراي برود نسيو دي سانديفال» أسقف بامبلونا حيث سيجد القصة مسجلة في تاريخ الملك دون الونزو السادس في الصفحة مائة واثنين، وإنها لحكاية أثنى بكثير من أن تترك للشكاكين المرتابين.

الشعر والشعراء في الأندلس العربية

خلال الفترة الأخيرة من إقامتي في الحمراء. زارني أكثر من مرة مغربي من تطوان، كان يسرني كثيراً التجوال معه في التلال والمتنزهات وجعله يشرح لي الكتابة العربية، وهي المهمة التي سعى لأدائها بكل إخلاص لكن، على الرغم من أنه أفلح في إعطائي فكرة عنها، إلا أنه يئس من تشريبي بالفكرة التي يحملها هو عن روعة لغة الشعر وجمالها، فقد قال لي إن نكهة الشعر كلها تضيع في الترجمة، مع ذلك فقد تشربت بما يكفي ليزيد من ارتباطاتي الممتعة بهذا الصرح الخارق للعادة، فربما ليس هنالك أثر يعبر عن عصره وناسه أكثر من الحمراء: تلك القلعة الكالحة خارجاً والقصر الباذخ داخلاً، الحرب تكشر فوق أسواره، وأنغام الشعر تنسرب في قاعاته الرائعة المعمار. بلا مقاومة، يجد المرء نفسه وهو ينتقل بخياله إلى تلك الأيام، حين كانت إسبانيا العربية الإسلامية منطقة إشعاع للحضارة والنور وسط أوروبا المسيحية إنما الغارقة في الظلام، فقد كانت، خارجياً

قوة حربية تقاتل من أجل البقاء لكن داخلياً دولة مكرسة للآداب والعلوم والفنون، حيث الفلسفة تصقلها العاطفة فتتحول إلى حكمة ومأثورات وحيث وسائل الترف الحسية تتسامى بها وسائل التفكير والخيال.

بلغ الشعر العربي، كما قيل لنا، ذروة روعته أيام الأمويين في اسبانيا الذين ركزوا، ولفترة طويلة من الزمن، قوة الخلافة العربية وعظمتها في قرطبة. لقد كان معظم حكام تلك السلالة اللامعة هم أنفسهم شعراء، أحد أواخرهم هو محمد بن عبد الرحمن الذي عاش حياة الترف والانغماس في اللذات في قصر الزهراء الشهير وحدائقه الغناء، يحيط به كل ما يمكن أن يثير الخيال ويبهج الأحاسيس. فقصره ملاذ الشعراء ووزيره، ابن زيدون، هو «هوراس» اسبانيا العربية وذلك لأشعاره الرائعة التي كانت تروى بحماسة حتى في قاعات خلافة الشرق. هذا الوزير تعلق بهوى الأميرة ولادة بنت محمد هذا، معبودة بلاط والدها، الشاعرة من الطراز الأول والمشهورة بجمالها شهرتها بموهبتها. وإذا كان ابن زيدون هو «هوراس» اسبانيا العربية الاسلامية فقد كانت ولادة شاعرتها «سافو». لقد أصبحت الأميرة شغل الوزير الشاغل وموضوع هواه وأشعاره، ولا سيما تلك الرسالة التي وجهها لها والتي، كما يقول المؤرخ القلقشندي، لم يعرف تاريخ الأدب ما يضاهيها رقة وأسى. وإذا كان الشاعر قد عرف السعادة في حبه أم لا، فإن المؤلفين الذين رجعت إلى كتبهم لم يذكروا ذلك، لكن أحدهم يلح إلى أن الأميرة كانت حبيبة عاقلة بقدر ما كانت جميلة مما جعل كثيراً من عشاقها يطلقون التهنيدات سدى. والحقيقة، أن هيمنة الحب والشعر على جو الزهراء المساع البهيج، سرعان ما بلغت النهاية إثر قيام انتفاضة شعبية، فر محمد وعائلته إثرها ملتجئاً إلى قلعة «اكليس» قرب طليطلة حيث غدر به القائد هناك وسجنه وبذلك كانت نهاية السلالة الأموية.

على أن انتهاء تلك السلالة اللامعة التي ركزت كل شيء في قرطبة، كان لصالح الأدب في اسبانيا العربية بصورة عامة. يقول القلقشندي «بعد انقراض العقد وتناثر لؤلؤه، تقاسم ملوك الدويلات الصغيرة بينهم ملك بني أمية، فراحوا ينافسون بعضهم بعضاً في اجتذاب الشعراء والعلماء إلى عواصمهم مغدقين عليهم الهبات والعطايا بسخاء لا حدود له» هكذا كان ملوك اشبيلية وهم من السلالة 'ستنيرة بني عباد. «الذين على أيديهم» كما يقول الكاتب نفسه «قطفت الثمار، رمان وعنب ونخيل، فاصبحوا مركز استقطاب للفصاحة شعراً ونثراً. كل

يوم من أيام حكمهم مهرجان للأدب، تاريخهم يزخر بأعمال الفخار ومآثر البطولة تلك التي ستدوم مدى الزمان حية خالدة في ذاكرة الانسان».

مع ذلك، ما من مكان استفاد، من وجهة نظر الحضارة والرقى، من سقوط خلافة الأندلس أكثر مما استفادت غرناطة إذ كانت تلي قرطبة في العظمة رغم أنها تفوقها جمال موقع ورومانسية. فاعتدال مناخها، حيث يخفف حر الصيف وقيظه الانسام الآتية من الجبال المكلفة بالثلج، وكذلك خصوبة وديانها ووفرة رياضها وحدائقها كلها كانت تدفع الحواس باتجاه الاسترخاء والاستمتاع وتنزع بالعقول منزع الحب والشعر. لهذه الأسباب كلها، ازدهر ذلك العدد الكبير من شعراء الغزل في غرناطة ولهذه الأسباب ظهرت أناشيد الحب تلك التي توضع بشذا الحب والحرب وتضفر أكاليل الغار على رؤوس الفرسان حتى في أعمالهم الحربية نفسها.

تلك الأناشيد التي ما تزال تشكل فخر الأدب الاسباني وبهجته إن هي إلا أصداء لقصائد الفروسية والغزل التي كانت في الماضي تبهج بلاط الملوك في الأندلس وتبعث في قلوبهم المسرة، والتي ، كما يدعي مؤرخ حديث لغرناطة، تعود إليها أصلاً قصيدة «ريمة القشتالية» وذلك اللون من «فنون المسرح» الذي يقدمه الجوالون. في غرناطة، كان ينظم الشعر كلا الجنسين. «لو أن الله» كما يقول القلقشندي «لم يهب غرناطة من هبة سوى أنه جعلها مسقط رأس الكثير من الشاعرات ، لكفاها مجداً وشرفاً».

ولعل أشهر تلك الشاعرات هي حفصة التي ، كما يقول المؤرخ القديم نفسه، اشتهرت بجمالها ومواهبها وحسبها وغناها، لكن للأسف، لم يبق لنا إلا القليل من شعرها على شكل أبيات متفرقة ومقطوعات صغيرة تخاطب في إحداها حبيبها أحمد، وهي تتذكر أمسية قضياها معاً في حديقة «المؤمل».

وحديقة المؤمل تذكرها كتب العرب لما اشتهرت به من جداول وينابيع، ورود وأزهار وخاصة شجر السرو منها . لقد سميت بهذا الاسم تيمناً بالوزير عبد الله ، حفيد ابن حبوس، سلطان غرناطة. إذ نفذت، بإدارة هذا الوزير، الكثير من أعظم الخدمات العامة. فقد شق قناة تأتي بالماء من جبال الفقار لري الروابي والبساتين شمالي المدينة، كما أنشأ منتزهاً عاماً كله من أشجار السرو وأقام حدائق غناء يجد فيها الناس السلوان لهمهم وغمهم «واسم المؤمل» كما يقول القنطري «يجب أن

يكتب بماء الذهب ويخلد إلى الأبد . ولعله خلد فعلاً لارتباطه بالحديقة التي زرعها ولورود ذكره في أشعار حفصة ولرب كلمة عارضة من شاعر تمنح الخلود ! لعل القارىء يتوق الآن لأن يعرف شيئاً عن حفصة هذه وقصتها مع حبيبها، وبذلك يحقق التواصل مع واحدة من أجمل القصص المحلية في غرناطة، لكن النتف التالية هي كل ما استطعت استخلاصه من قلب الظلمة والنسيان اللذين يلفان ألمع الأسماء والعبقريات في اسبانيا العربية. عاش أحمد وحفصة في القرن السادس للهجرة، أي القرن الثاني عشر الميلادي. وأحمد هذا هو ابن قائد «قلعة الرجال» خطط له أبوه لأن، يعيش حياة عسكرية وسياسية بحيث يكون مساعداً له . لكن الفتى كان ذا ميول شعرية وكان يفضل حياة الأدب، والدعة في قصور غرناطة المترعة بهجة ومتعة. لهذا، أحاط نفسه بكل ماله علاقة بالفن والشعر والكتب مقسماً وقته بين الدرس والعلاقات الاجتماعية. كذلك كان مولعاً بالرياضة الميدانية، كما كان لديه خيول وبزاة وكلاب صيد، وقد كرس نفسه للأدب فاشتهر بمعرفته الواسعة وتآليفه في النثر والشعر تلك التي ذاع صيتها لجمالها وفائدتها حتى صار اسم أحمد على كل شفة ولسان. ولأنه كان رقيق القلب، هشاً، شديد التأثر بسحر المرأة وفتونها، فقد أصبح العاشق المقيم لحفصة التي بادلتها هي الأخرى الحب، ولحين من الزمن، بدا طريق ذلك الحب سهلاً ممهداً. فالعاشقان كلاهما في ميعة الصبا، وكلاهما رفيع المحتد عالي المرتبة يضاهي الآخر شهرة وثروة، يعجب بموهبة الآخر ويتغزل بها تغزله بشخصه كما أنهما كليهما يعيشان في منطقة وجدت لتكون دنيا الحب والشعر. في البداية جرى التواصل بينهما شعراً فكان ذلك بهجة لغرناطة ومتعة، إذ راحا يتبادلان الأشعار والرسائل يوماً بعد يوم ، « تلك الأشعار التي » كما يقول المؤرخ العربي المقري « تشبه هديل الحمام ». لكن، وهما في نورة سعادتهما، طرأ تغير على حكم غرناطة ففي تلك الفترة وضع الموحدون، وهم قبيلة بربرية من جبال الأطلس، يدهم على اسبانيا العربية وسيطروا عليها، ناقلين مقر الحكم من قرطبة إلى مراكش. منذئذ راح السلطان عبد المؤمن يحكم اسبانيا من خلال ولاته وقادته العسكريين. وقد عين ابنه «سيدي أبا سعيد» والياً على غرناطة . باسم أبيه حكم سيدي أبو سعيد حكم الملك المطلق ، لكنه كان غريباً عن البلاد ومغربي المولد. لذلك سعى لأن يقوي نفسه باجتذاب رجالات المجتمع ذوي الأصل العربي والنقوذ الشعبي، ولهذا السبب جعل من أحمد، الذي كان قد بلغ حينذاك ذروة شهرته وشعبيته ، وزيراً

له. حاول أحمد رفض المنصب لكن الوالي أصر عليه. وهكذا ، في حفلة صيد وقنص، ومع بعض أصحابه المرحين، أرخى العنان لمزاجه الشعري فرحاً بخلاصه من قيود سيد مستبد وانتشاء بتحرره من واجبات المنصب مثلما يفرح وينتشى بازي أطلقه صاحبه لأجواء الحرية يحلق بها حيث يشاء. لكن الناس بالمرصاد وما نطق به أحمد نقله إلى سيدي أبي سعيد مخبر همام قائلاً «أحمد يزدرى قيودك ويحتقر سلطتك» وفي الحال عزل الشاعر من منصبه. بالطبع لم يشكل خسارته لمنصب مضجر كهذا أي حزن أو أسى لرجل مرح الطبع رائق المزاج، لكنه سرعان ما اكتشف السبب الحقيقي لعزله، فالوالي كان غريمه، إذ كان قد رأى معشوقته حفصة وأصبح مغرمًا بها، والأسوأ من ذلك ان حفصة كانت قد بهرت بالفتح الجديد الذي صنعت.

حيناً من الزمن عالج أحمد المسألة باستخفاف، ملتجئاً إلى التعصب بين العرب والبربر ، فسيدي أبو سعيد كان ذا بشرة داكنة كالزيتون « كيف يمكن أن تتحملي ذلك الرجل الأسود؟ قال بازدراء «وحق الله، بعشرين ديناراً أشتري لك من سوق النخاسة عبداً خيراً منه».

وبلغت تلك الإهانة مسامع سيدي أبي سعيد فأوغرت صدره أكثر وأكثر.

في أوقات أخرى كان أحمد يستسلم للحزن والاكتئاب، متذكراً الأيام السعيدة الماضية لائماً حفصة على تقلبها، محذراً إياها بنبرة يائسة من أنها ستكون سبب موته، لكن دون أن تبالي كثيراً بكلماته تلك . فأن يكون عاشقها ابن السلطان نفسه فكرة سيطرت على خيال الشاعرة وخلبت لبها.

غير أن الغيرة واليأس كادا يصلان بأحمد إلى حافة الجنون، وبدافع منهما اشترك في مؤامرة ضد العائلة الحاكمة، لكن المؤامرة انكشفت والمتآمرين فروا من غرناطة إلى حصن من حصون الجبال، أما أحمد فالتجأ إلى ملقا حيث اختبأ هناك وفي نيته أن يرحل بحراً إلى فالنسيا لكن أحداً وشى به فحملوه مقيداً بالأغلال والأصفاد إلى زنزانة في السجن بانتظار حكم سيدي أبي سعيد.

في السجن، زاره ابن أخ له وسجل وصفاً لتلك الزيارة . لقد تأثر ذلك الفتى حتى درجة البكاء لم رأى عمه العظيم الشهير الذي كان قد بلغ درجة عالية من المجد والسؤدد وهو مكبل بالقيود كأي مجرم فاعل للشر، فقال أحمد له «لماذا تبكي؟ أمن أجلي تريق هذه الدموع؟ أمن أجلي أنا الذي استمتع بكل ما يمكن

للدنيا أن تقدم من متع للانسان؟ لا .. لا تبك علي . لقد أخذت نصيبي من الدنيا، فقد حضرت أعظم الولائم، أكلت أشهى المأكولات. شربت بأقداح البلور، نمت على فرش من ريش، رفلت بالخز والحريز، امتطيت أعتق الخيول، استمتعت بأجمل النساء، فلاتبك علي وما انقلاب حظي الآن إلا سنة القدر التي لا مناص منها. لقد ارتكبت من الأعمال ما يجعل العفو محالاً، وإنني أنتظر عقابي».

وكان تصويره صحيحاً، فانتقام سيدي ابي سعيد لم يكن يرضى بأقل من حياة غريمه ، غله لم يكن يشفيه إلا رؤيته لدمه مهراقاً على الأرض. وهكذا، أعدم أحمد العائر الحظ في ملقا، الأول من جمادى عام 559 للهجرة (نيسان) 1164م . بلغ الخبر مسامع حفصة القلب فطغى عليها الحزن والأسى وأكلت قلبها الحسرة والندامة فلبست الحداد وهي تتذكر الكلمات التي كان يحذر بها، لائمة نفسها على أنها سبب موته. ما حل بحفصة بعد ذلك، لم أستطع أن أعلم شيئاً عنه أو أجد أثراً لأخبارها، سوى أنها توفيت في مراكش عام 1184، وقد مات عشيقاها كلاهما، فسيدي أبو سعيد مات بالطاعون في مراكش عام 1175م وقد ترك بعده ذكرى لإقامته في غرناطة، هي قصر شيده على ضفاف الزنيل. الآن لم يعد هنالك أثر لحديقة المؤمل، ذلك المكان الذي شهد أيام الصبا والشباب لأحمد وحفصة^(*) لكن بالإمكان تحديد موقعها من قبل الباحث المتتبع للآثار الشعرية القديمة.

(*) : المقصود هنا هي حفصة بنت الحاج الركونية: شاعرة أديبة كان لها دور في الحياة السياسية والادبية في غرناطة فقد ذكرها المؤرخون تمدح سلطان الموحدين عبد المؤمن بن علي وغيره من الأمراء وقد أولع بها الوزير أحمد أبو جعفر بن سعيد وعاشا فترة من الزمن يتبادلان الحب ومن أشعارها في أبي جعفر هذا قولها :

ثنائي على تلك الثنايا لأنني	أقول على علم وأنطق عن خبر
وأنصفها لا أكذب الله انني	رشت بها ريقاً أرق من الخمر

واتفق أن بات أبو جعفر بن سعيد معها في بستان بحوز مؤقّل على ما يبييت به الروض والنسيم من طيب النفحة ونضارة النعيم فلما حان الانفصال

قال أبو جعفر:

عشية واراننا بحوز مؤمل	رعى الله ليلاً لم يرح بمذمم
إذا نفحت هبت بريا القرنفل	وقد خفقت من نحو نجد أريجة
قضييب من الريحان من فوق جدول	وغرد قمري على الدوح واثثنى
عناق وضم وارثشاف مقبل	يرى الروض مسروراً بما قد بدا له

فأجابته بقولها:

ولكنه أبدى لنا الغل والحسد	لعمرك ما سر الرياض بوصلنا
ولا غرد القمري إلا لما وجد	ولا صفق النهر ارتياحاً لقرننا
فما هو في كل المواطن بالرشد	فلا تحسن الظن الذي أنست أهله

ومن شعرها الجميل قولها:

إلى ما تشتهي أبداً يميل	أزورك أم تزور فإن قلبي
وفرع نؤابستي ظل ظليل	فتغري مورد عذب زلال
إياؤك عن بثينة يسا جميل	فجعل بالجواب فما جميل

المترجم

رحلة بحثاً عن « وثيقة دلولو »

أحد أهم الأحداث التي جرت داخل الحمراء هو رحيل ما نويل، ابن أخي الدونا أنطونيا إلى ملقا كي يقدم امتحانه كطبيب. لقد سبق لي وحدثت القاريء الكريم أنه يتوقف، على نجاحه وحصوله على الشهادة، وإلى حد كبير، زواجه بابنة عمته دلوريس وكذلك مستقبلهما وحظهما معاً، أو هكذا على الأقل أخبرني ماتيوزيمنس وقد أكدت لي مجريات الأحداث المختلفة إخباره هذا. مع ذلك كانت علاقة حبهما تجري بهدوء وكتمان، ولعلي ما كنت لأكتشفها بنفسي لو لم ينبهني إليها ماتيوزيمنس الذي يرقب كل شيء ولا تفوته شاردة ولا واردة.

في الحالة الراهنة، كانت دلوريس أقل تحفظاً، وقد انهمكت عدة أيام في إعداد مانويل المخلص لرحلته، مرتبة ثيابه كلها رازمة إياها على خير وجه، وقبل كل شيء كانت قد صنعت له سترة سفر اندلسية أنيقة بيديها. في الصباح المحدد لرحيله، جيء ببغل قوي إلى بوابة الحمراء وللتو باشر العم بولو، وهو

جندي قديم خارج الخدمة، بوضع عدة الركوب على ظهره، والحقيقة أن هذا الجندي القديم هو إحدى عجائب ذلك المكان بوجهه المتيبس الجلد الغائر الخدين وبشرته التي سفعتها الشمس المدارية الحارة وأنفه الروماني الطويل وعينه السوداوين الجاحظتين، إذ غالباً ما كنت أراه يقرأ باهتمام بالغ ظاهرياً في مجلد قديم، جلده من رق الغزال، محاطاً أحياناً بمجموعة من أخوانه الخارجين من الخدمة أيضاً، بعضهم يجلس على الحاجز وبعضهم الآخر يستلقي على العشب مصغين بانتباه شديد، فيما هو يقرأ على مهل وتأن كتابه المفضل، متوقفاً أحياناً كي يفسر أو يشرح لمستمعيه الأقل معرفة وتنوراً .

ذات يوم انتهزت مناسبة كي استعلم بنفسي عن ذلك المجلد القديم الذي بدا أشبه بكتاب مقدس لديه فتبين لي أنه كتاب ظريف من أعمال بدر بنيتو فيجو يدور حول السحر في اسبانيا، كهوف سلمنسة وطليلة الغامضة، مطهر سان بتريسيو (سان باتريك) ومواضيع سحر أخرى مشابهة. منذ ذلك الحين ركزت انتباهي على ذلك الجندي القديم.

في المناسبة الراهنة، رحت أسلي نفسي بمراقبته وهو يعد مطية مانويل بكل التوقعات المسبقة. لجندي يعد نفسه لحملة عسكرية. بادئ ذي بدء قضى وقتاً لا بأس به في تعديل سرج ثقيل من الطراز القديم بحيث يتناسب مع ظهر البغل، إذ كان مرتفعاً في الأمام والخلف، له ركابان من الطراز المغربي كأنهما رفشان، بل ان منظره كله يوحي بأنه أثر من آثار الحمراء القديمة. بعدئذ قام بوضع جلد خروف على مقعد السرج العميق الغور وتسويته ثم القى فوقه رداء يمكن استخدامه كعباءة أو غطاء مقعد ثم وضع الخرج وفي كلا جانبيه قربة يمكن ان يوضع فيها الخمر أو الماء وأخيراً الترابوشو أو الراية التي كان الجندي القديم يعلقها خلفه لتمنحه البركة والتوفيق فبدأ الأمر أشبه بإعداد فارس عربي في الأيام القديمة لمبارزة أو مباراة في ساحة الفيرا رامبلا. كان عدد من متسكعي القلعة العاطلين عن العمل قد تجمعوا حوله مع بعض العجز وكلهم يتفرج أو يعرض مساعدته أو يلقي النصائح، الأمر الذي كان يزعج العم بولو كل الإزعاج. عندما انتهت الاستعدادات، ودع مانويل الأهل وأمسك العم بولو بالركاب، فامتطى متن بغله، عدل له الأحزمة والسرج ثم حياه التحية العسكرية، بعدئذ التفت إلى دلوريس التي كانت تقف وكلها إعجاب بفارسها المغوار وقد انطلق البغل خيباً «آه»

دلوروسيتا!!« هتف الجندي العجوز بإيمارة رأس وطرفة جفن «ما أروع مانويل في سترته!!» فاحمرت الفتاة خجلاً ثم ضحكت وهي تجري الى البيت.

أيام مرت دون ان تأتي أخبار مانويل، رغم أنه كان قد وعد بأن يكتب، فبدأت دلوريس تقلق وقلبها يتخوف، هل حدث له شيء على الطريق؟ هل رسب في الامتحان؟ بعدئذ حدث طارئ في بيتها الصغير زارها قلقاً ولبالاً، إذ كان يضاهي تقريباً فرار حمامتها، ففي الليل فرت قطتها ذات الظهر الأشبه بظهر السلحفاة ونطت إلى سقف الحمراء الآجري لينطلق في هدأة الليل مواء مخيف، إذ كان بعض الهررة الهرمة غير مهذب تجاهها، فقد حدث تدافع وعراك بالمخالب ثم انقلب كلا الطرفين على السطح إلى أن سقطا من ارتفاع عال إلى ارض الرابية بين الأشجار. بعدئذ لم ير أحد ولم يسمع شيئاً عن القطة الهاربة فاعتبرت دلوريس ذلك نذير شر أكبر.

لكن بعد مرور عشرة أيام، عاد مانويل بالنصر وقد فوّض عن جدارة بأن يقتل أو يشفي المرضى وانتهى بذلك كل غم وهم لدى دلوريس. في المساء تجمع الأصدقاء والمتعلقون بحواشي السيدة أنطونيا لتهنئتها وتقديم الاحترام للسيد الطيب الذي قد تكون حياتهم وموتهم جميعاً في يديه. اغتنمت المناسبة كي أطور معرفتي به «او. سيدي» هتفت دلوريس «أنت الذي تتوق كثيراً لمعرفة كل ما يتعلق بتاريخ الحمراء القديم. العم بولو يعرف عنها أكثر من أي إنسان آخر. أكثر من ماتيو زيمينيس وأفراد عائلته كلهم معاً. هيا.. هيا.. عم بولو! ارو للسيد تلك القصص التي رويتها لنا ذات مساء عن العرب المسحورين والجسر المسكون بالجن على نهر الدارة. ارو له قصة الرمان المتحجر القديم الذي ما يزال على أمه من أيام الملك تشيكو.

لكن، كان لابد من مرور بعض الوقت قبل أن يستطيع الجندي العجوز أن يتخذ وضع الراوية، إذ هز رأسه في البدء قائلاً «كلها حكايات فارغة لا تستحق أن تروى لرجل مثله!» ثم لم أفلح في جعله يتكلم إلا بعد أن اضطررت لأن أروي بعض الحكايات بنفسي. حينذاك فقط، فتح جعبته، فكان ما فيها مزيجاً غريباً مما سمعه في الحمراء وما قرأه في كتاب بدرو فيجو، ولسوف أبذل جهدي كي أقدم للقارئ الجوهر الأساسي لما رواه لي، لكن دون أن أعده بتقديم ذلك بكلمات العم بولو ذاتها.

مكافئة الجندي المسحور

ما من أحد إلا وسمع بكهف القديس سيبريان في سلمنسة، حيث كان يدرّس سرّاً في الأزمنة القديمة علم التنجيم، قراءة الكف، استحضار الأرواح، وكل ما هنالك من فنون السحر والشعوذة على يد حافظ لهذه الفنون قديم قدم الزمان، أو كما كان البعض يقول، على يد الشيطان نفسه متخفياً بزي ذلك الرجل. لقد سدّ الكهف منذ زمن طويل ونسي الناس حتى موقعه، رغم أن مدخله يقع طبقاً للأقوال المتوارثة، في مكان ما قريب من المكان الذي ينتصب فيه الصليب الحجري في ساحة كرافاجال الصغيرة، يؤكد هذه الأقوال إلى حد ما ظروف القصة التالية.

ذات مرة كان هنالك طالب من سلمنسة يدعى دون فنسنت، هو من ذلك الصنف المرح إنما المتعيش على الصدقات، الذي ينطلق على طريق العلم دون قرش في جيبه والذي ينتقل خلال عطلة الدراسة من بلدة إلى بلدة ومن قرية إلى قرية متسولاً كي يحصل على المال الذي يمكنه به أن يتابع دراسته في الفصل القادم.

في ذلك الحين، كان ذلك الطالب يتهياً للانطلاق في تجواله، ولكونه موسيقياً بشكل من الأشكال، فقد علق غيتاره على ظهره على يسلي به القرويين مقابل وجبة طعام أو مأوى ليلة.

حين مردون فنسنت بالصليب الحجري في ساحة كرافاجال الصغيرة، رفع قبعته متمماً بصلاة قصيرة للقديس سيبريان طالباً منه التوفيق وحسن الحظ. في تلك اللحظة اطرق برأسه إلى الأرض فوق بصره على شيء صغير يلمع عند أسفل الصليب. التقطه فتبين له أنه خاتم مصنوع من معدن مزيج: ذهب وفضة. على الخاتم نقش مثلثان متقاطعان بحيث يشكلان نجمة. هذا النقش، كما يقال، رمز القبلانية (مذهب سري يهودي) ابتكره سليمان الحكيم نفسه وهو ذو قوة بالغة في كل ما يتعلق بالسحر، لكن الطالب البسيط الذي لم يكن حكيماً ولا ساحراً لم يكن يعرف شيئاً عن الأمر كله. أخذ الخاتم باعتباره هدية من القديس سيبريان مكافأة له على صلاته، زلقه في إصبعه، انحنى للصليب، ثم سوى غيتاره على ظهره وانطلق فرحاً مبتدئاً تجواله.

ليست حياة الطالب الذي يتعيش على الصدقات في اسبانيا بالحياة الأبأس في العالم، خاصة إذا كانت لديه موهبة ما في أن يجعل نفسه مقبولاً لدى الناس. إنه يتجول على راحته من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة وحيثما تقوده نزواته أو فضوله، فخوارنة البلاد الذين عاش معظمهم تجربة التسول هذه حين كانوا هم أنفسهم يدرسون، غالباً ما يرأفون به ويقدمون له المأوى ليلاً والوجبة المريحة نهاراً وربما ينقدونه بعض القروش في الصباح. كذلك حين يمثل امام الباب بعد الباب في شوارع المدن فإنه غالباً ما يلقي بعض الرأفة والإشفاق. إذ ليس هناك ما يعيبه في تعيشه على الصدقات مع دراسته، خاصة ان الكثير من كبار العلماء في اسبانيا بدؤوا حياتهم بتلك الطريقة. لكن إذا كان الطالب، شأن صاحبنا هذا الذي نتحدث عنه، شاباً حسن الهيئة جميل المنظر، حسن المعشر وبإمكانه أيضاً ان يعزف الغيتار فمن المؤكد أنه سيلقى الترحيب والود لدى الفلاحين والابتسامات والملاطفات من زوجاتهم وبناتهم.

بهذه الطريقة، إذن، كان طالبنا الموسيقي الرث الثياب يشق طريقه هنا وهناك قاطعاً نصف المملكة، وقد صمم تصميماً راسخاً على أن يزور غرناطة، مدينتنا الشهيرة قبل أن يعود إلى دراسته. أحياناً، كان يتكوم على نفسه لقضاء الليل في حظيرة خراف كاهن القرية وأحياناً يلتجئ إلى بيت فلاح مسكين إنما

حسن الضيافة يستظل سفحه، فيجلس عند باب الكوخ وغيتاره بين يديه يعزف أنغامه ويغني أغانيه فيبعث البهجة والسرور في قلوب سكانه البسطاء أو يطلق العنان لموسيقى الفاندانغو أو البوليروس دافعا بفتيان الريف وفتياته السمراوات للرقص في غسق المساء اللطيف، ثم يرحل في الصباح مودعاً بالكلمات اللطيفة من مضيئه ومضيفته، وبالنظرات اللطيفة وربما بعصاة يد من الابنة.

أخيراً، بلغ الغاية العظمى لتجواله الموسيقي. وصل إلى المدينة الذائعة الصيت، غرناطة، فحيا بعجب وابتهاج أبراجها العربية وسهولها الجميلة وجبالها المكلفة بالثلج، اللامعة تحت أشعة شمس الصيف. وغني عن القول بأي توق وشوق دخل بواباتها وتجول في شوارعها وحملق مذهولاً بآثارها الشرقية ونصبها. لقد كان كل وجه انثوي يطل من شباك أو يتألق في شرفة هو، بالنسبة إليه، وجه زبيدة أو زريدة كما أنه لم يكن يستطيع رؤية سيدة مهيبة في «المضافة» إلا ويتخيلها أميرة عربية، هو على أتم الاستعداد لأن يفرش رادئه المدرسي تحت قدميها.

موهبتة الموسيقية، مزاجه الحسن، مرحه وحسن هيئته، كل ذلك هياً له ترحاباً شاملاً من كل من يلقاه رغم ثيابه البالية. على ذلك المنوال عاش عدة أيام حياة المرح والسرور في العاصمة العربية القديمة ومحيطها. أحد الأمكنة التي كان يرتادها من حين إلى حين هو نبع أبي نواس في وادي الدارة، وهو أحد المنتجعات الشهيرة في غرناطة وقد كان كذلك منذ أيام العرب. هنا أتيحت الفرصة للطالب لأن يلاحق أبحاثه عن جمال المرأة وهو فرع من فروع الدراسة كان قليل الميل إليه.

أجل، هنا كان يتخذ مقعداً له مع غيتاره، يرتجل بعض أغاني الحب للمعجبين من الفتيان والفتيات أو يحرضهم بموسيقاه على الرقص هم الجاهزون دائماً لأن يرقصوا. على ذلك النحو كان منهمكا ذات ليلة، حين رأى رجل دين يقترب، ومع اقترابه كانت كل يد ترتفع إلى رأسها لامسة قبعتها. إذن، لا شك أنه رجل ذو مكانة وبالتأكيد هو امرأة الطيبة إن لم يكن القداسة الحية بذاتها، قوي البنية، متورد الوجه، يتنفس من كل مسام جلده دفء الجو مستمتعاً بممارسة المشي. على طول الطريق، ومن حين إلى آخر، كان يخرج من جيبيه قطعة نقدية يمنحها لشحاذ من الشحاذين بهيئة إحسان فريد من نوعه «آه - يا للأب المبارك» كانت الصيحات تنطلق خلفه «ليمنحه الرب العمر الطويل عسى ان

يصبح أسقفاً . ولكي يدعم خطاه، وهو يصعد الرابية، كان يستند بلطف ، ومن حين إلى آخر، على ذراع فتاة من الجلي أنها كانت الحمل المدلل لدى ألطف رجال الدين ذاك. آه يالها من فتاة أندلسية من رأسها إلى أخمص قدميها: بدءاً من الوردية في شعرها وحتى جواربها المخرمة فالحذاء الأشبه بحذاء الجنيات، أندلسية في كل حركة من حركاتها، في كل ثفن من ثفنيات جسدها: أندلسية ناضجة تذوب أنوثة لكن مع ذلك متواضعة جداً خجول جداً عيناها دائماً على الأرض، تصغي إلى كلمات رجل الدين، وإذا ما نظرت صدفه إلى هذا الجانب أو ذاك فإنها سرعان ما ترتد لتتسمر عيناها على الأرض من جديد.

تطلع الكاهن الطيب بحب ومودة إلى الجمع المتحلق حول النبع ثم جلس بشيء من الاعتداد بالذات على مقعد حجري، في حين اسرعت الفتاة تملأ له كاساً من الماء الرقاق. بتأن وتلذذ راح يرشفها. بعد أن اضاف لها واحدة من تلك القطع الاسفنجية من السكر المجد على شكل البيض والغالي على قلوب الأبيقوريين الاسبان، وحين أعاد الكأس إلى يد الفتاة، قرص وجنتها بحب ولطف لا حدود لهما.

«آه يا لرجل الدين الطيب» همس الطالب لنفسه «أية سعادة يمكن للمرء أن يلقاها إذا ما أتيح له قضاء ليلته في حظيرة خرافه وبصحبتة مثل ذلك الحمل المدلل».

لكن أنى له نعمة كتلك النعمة؟ عبثاً جرب الطالب قدراته على الإمتاع تلك التي وجدها لا تقاوم لدى فتيات الريف وخوارنته. لا ، لم يسبق له أن لامس أوتاره بمثل تلك البراعة والحدق، ولم يسبق لشفتيه ان سكبتا بمثل ذلك الدفء والحميا أغاني الحب لكن وأسفاه لم يكن يتعامل مع خوري او فتاة ريف. فالكاهن الهام لم يكن يستمتع بالموسيقى ، على ما يبدو، والفتاة الحبيبة لم تكن ترفع عينيها عن الأرض قط فترة قصيرة من الزمن مكثا عند النبع، ثم أسرع الكاهن الطيب عائداً إلى غرناطة، نظرة حبيبة واحدة نظرتها الفتاة إلى الطالب وهي تنسحب، لكنها كانت كافية لأن تسحب قلبه من صدره.

بعد رحيلها ، استفسر الطالب عنهما. إنه الأب توماس، أحد قديسي غرناطة، نموذج النظام والدقة في ساعة استيقاظه، ساعة صلاته، ساعة طعامه وساعة شرابه، في قيلولته وراحته، بل حتى في لعبة «التريسيلو» في المساء مع

بعض سيدات الحلقة الكاتدرائية. إنه يتمشى في وقت محدد وفي وقت محدد يذهب إلى النوم كي يستعيد قوته من أجل يوم آخر من الواجبات الماثلة والنظام المماثل. مطيته بغل رشيق مطواع ومديرة بيته سيدة بارعة في إعداد أشهى المأكولات لمائدته اما الحمل المدلل ذاك فما هو إلا الفتاة التي تمهد له الوسادة في الليل وتأتيه بالشوكولا في الصباح.

الآن، وداعاً لحياة الطالب المرحّة الخالية من الهم، فالنظرة الجانبيه من المقلّة البراقة كانت نهاية ذلك كله. ليل نهار لم يعد باستطاعته ان يبعد عن ذهنه صورة تلك الفتاة البالغة الحياء، فمضى يبحث عن بيت الكاهن، لكن وأسفاه إنه فوق طبقة البيوت التي يمكن لطالب شريد مثله ان يصل اليها . كذلك لم يكن في قلب الكاهن ذرة عطف عليه، إذ لم يسبق له أن عاش حياة الطالب الشريد المضطر لأن يغني لقاء عشائه، وهكذا بات الطالب يحاصر البيت نهاراً مختلساً نظرة من تلك الفتاة بين الحين والحين إذا ما أطلت من شباك أو ظهرت في شرفة، لكن ما كان لتلك النظرات ان تزيدّه إلا جوى واضطراباً دون أن تمنحه بصيص أمل، في الليل كان يعزف تحت شرفتها ويغني، وذات ليلة خفق قلبه فرحاً وقد ظهر شيء أبيض من النافذة ، لكن وأسفاه لم يكن ذلك سوى قبعة الكاهن الليلية.

ما من عاشق كان أكثر ولهاً قط، وما من فتاة كانت أكثر حياءً قط، وهكذا استمر الحال إلى ان أوشك الطالب المسكين على اليأس. أخيراً حلت أمسية القديس يوحنا، حين يتجمع أبناء الطبقة الدنيا في الدارة والزنيل ليلة منتصف الصيف تلك. وكم هم سعداء أولئك الذين يستطيعون، في تلك الليلة المشهودة، أن يغسلوا وجوههم بتلك المياه حين يقرع جرس الكاتدرائية منتصف الليل تماماً، ففي تلك اللحظة بالضببط، تكون لتلك المياه قدرة هائلة على إضفاء الحسن والجمال على الوجوه، ولما كان الطالب بلا عمل يشغله ، فقد حمل نفسه على التحرك مع الجموع الحاشدة إلى أن وجد نفسه في وادي الدارة الضيق تماماً تحت رابية الحمراء العالية وأبراجها القديمة المرتفعة. الحوض الجاف للنهر، الصخور التي تحيط به، الحداثق المتدرجة مصاطب مصاطب فوقه، كلها كانت تعج بالحياة وقد توزع عليها الناس جماعات جماعات يرقصون تحت عرائش العنب وأشجار التين على أنغام الغيتار والصنج.

حيناً من الزمن، مكث الطالب في حالة من الحزن والصمت، متكئاً على واحدة من أشجار الرمان الضخمة البائسة المتحجرة، تلك التي توشي أطراف الجسر الصغير فوق الدارة. نظرة دامعة ألقاها على المشهد المغم فرحاً وسروراً، حيث كان لكل فتى فتاته أو بالأحرى لكل حبيب حبيبته، ثم تنهد متأسياً على وحدته ووحشته، ضحية نظرة حيية من عين حوراء وجهتها له أصعب الفتيات منالاً، كما تأسى على ثيابه الرثة التي اغلقت، على ما يبدو، باب الأمل في وجهه. شيئاً فشيئاً، بدأ يجذب انتباهه جار له يماثله وحدة ووحشة. إنه جندي طويل قاسي الملامح يخالط لحيته الشيب، متمسك إلى الجانب الآخر من شجرة الرمان وكأنه حارس. وجهه كأنه البرونز بفعل الزمن، يلبس درعاً إسبانياً قديماً ويحمل ترساً ورمحاً وينتصب كالتمثال دون حراك، لكن ما أدهش الطالب كل الإدهاش أنه على الرغم من مظهره وعتاده الغريب هذا، فإن أحداً من الجمهور لم يلحظ وجوده، على الرغم من أن الكثيرين مروا به بل إن بعضهم لامسه واحتك به.

«هذه مدينة العجائب منذ قديم الزمان» فكر الطالب «ولا شك أن هذه واحدة من تلك العجائب التي ألفها السكان إلى درجة لم تعد تثير دهشتهم، أو حتى انتباههم.» لكن فضوله كان قد بلغ أشده، ونظراً لأنه اجتماعي النزعة فقد خاطب الجندي:

«درع نادرة تلك التي تلبسها أيها الرفيق، ترى هل أستطيع ان أسألك من أي فرقة أنت؟».

«من الحرس الملكي لهرديناند وإيزابيلا» جاءه جواب الجندي وقد انفتح فكاه عن مفاصل بدت وكأنها صدئت لطول الزمان. «يا أمنا مريم!! إنها ثلاثة قرون مذ كانت تلك الفرقة في الخدمة.» «وعلى مدى ثلاثة قرون ما زلت أحرس هذا المكان، أما الآن فإنني على ثقة ان نوبتي في الحراسة قد انتهت. ترى هل ترغب في أن تكون ثرياً فرفع الطالب ذيل عباءته المرقعة الممزقة جواباً على السؤال.

«فهمت. إذن، إن كان لديك الإيمان والشجاعة، اتبعني تحصل على الثروة.» «مهلاً يارفيق، أن أتبعك أمر يتطلب قدراً من الشجاعة وأنا امرؤ لا يملك ما يخشى ان يخسره سوى حياته وغيتار قديم ليس بذي قيمة كبيرة، أما ما يتعلق بإيماني فالأمر مختلف ولا ينبغي ان يوضع موضع التجربة. إن كان هناك

أي عمل إجرامي عليّ أن أقوم به كي أصلح حظي وأحصل على الثروة، فلا تحسب أن عباأتي الرثة هذه تجعلني أقوم به».

هنا، التفت الحارس إليه بنظرة كلها ضيق وانزعاج ثم قال «سيفي هذا لم يشهر قط إلا من أجل العرش والإيمان، إنني مسيحي مخلص ثق بي ولا تخش شراً».

على الفور تبعه الطالب وقد استبد به العجب، إذ لاحظ أنه ما من أحد أولى انتباهه لحديثهما وأن الجندي كان يشق طريقه بين جماعات الشبان اللاهين دون أن يلحظه أحد وكأنه خفي لا تراه العين.

عبر الجندي الجسر ثم شق طريقه عبر ممر منحدر ضيق متجاوزاً طاحونة عربية قديمة وقناة ماء . بعدئذ صعد الوادي الضيق الذي يفصل منطقة جنة الريف عن منطقة الحمراء. في تلك اللحظة كانت آخر أشعة الشمس الغاربة تخضب بحمرتها رؤوس أسوار الحمراء وقد برزت عالياً، فيما بدأت أجراس الدير تقرع داعية للاحتفاء باليوم التالي، وأشجار التين تلقي بظلالها الكثيفة على الوادي إضافة إلى عرائش العنب والريحان وكذلك لأبراج الخارجية وأسوار القلعة. كل شيء كان قد أمسى معتماً موحشاً، كما بدأت الخفافيش المولعة بالنسق تطير هنا وهناك . في النهاية، توقف الجندي عند برج بعيد مهدم، مصمم على ما يبدو لحراسة قناة مائية أيام العرب. بعقب رمح، ضرب الجندي قاعدة البرج فسمع الطالب صوت قعقة ثم بدأت الحجارة الصلدة تنشق وتتباعد إلى أن غدت الفتحة باتساع الباب.

«باسم الثالوث المقدس، ادخل» قال الجندي «ولا تخف شيئاً لكن قلب الطالب كان يرتعش ارتعاش ريشة في مهب الريح مع ذلك، رسم إشارة الصليب ثم غمغم بالسلام على مريم لاحقاً بدليله الغامض إلى قبو عميق حفر في قلب الصخر تحت البرج وقد غطيت جدرانه بالكتابة العربية. أشار الجندي إلى مقعد حجري محفور على طول أحد جوانب القبو، ثم قال : «انظر ! هو ذا مضجعي طوال ثلاثمائة عام » فحاول الطالب المذهول ان يداعبه مازحاً : «إذن، وحق القديس انطوني المبارك، لا بد أنك كنت مستغرقاً في سبات عميق كيلا تحس بقسوة مضجعتك !».

«بالعكس، فعيناى لم تعرفا الرقاد والمراقبة دون انقطاع كانت قدرى. اصغ الى قصتي. لقد كنت أحد الحراس الملكيين لإيزابيلا وفرناند، لكن في إحدى الغارات أسرنى العرب وفي هذا البرج حبست، وحين جرت الاستعدادات لتسليم القلعة للعاهل المسيحي، هيمن علي فقيه مسلم مقنعا إياي بأن أساعده في إخفاء بعض كنوز أبي عبد الله في هذا القبو. على خطأي ذاك عوقبت العقاب الذي أستحق، فالفقيه كان ساحرا مغربيا يستحضر الارواح وبقدرته الشيطانية تلك، أبقاني مسحورا كي أحفظ كنوزه. لا بد أن شيئا ما قد حدث له، إذا أنه لم يعد قط فلبثت منذ ذلك الحين مدفونا وأنا على قيد الحياة.

سنون وسنون مرت، زلازل زلزلت هذه الرابية، وحجراً بعد حجر سمعتها تتساقط من فوق ذلك البرج لتتدحرج أرضاً بمرور الزمان وتأثير عوامل الطبيعة لكن جدران هذا القبو المحمية بالطلسم ظلت تتحدى كلا من الزمان والزلازل.

مرة كل مائة عام، وفي احتفال القديس يوحنا، كان الطلسم ينفك عني متيحاً لي فرصة الخروج والانتصاب على جسر الدارة، حيث لقيتني أنتظر مجئ من لديه القدرة على فك ذلك السحر عني إلى الأبد. لكنني كنت أنتظر عبثاً، فأنا أسير وكأنني في سحابة لاتراني أعين البشر حتى جئت أنت الليلة فكنت أول من يبادرني بالخطاب منذ ثلاثمائة عام. إنني أرى السبب، ففي إصبعك خاتم سليمان الحكيم الذي يبطل كل سحر، وباستطاعتك الآن أن تحررني من هذا السجن الرهيب أو تتركني أتابع حراستي هنا مائة سنة أخرى.

بعجب أخرس، أصغى الطالب الى الحكاية، هو الذي كان قد سمع حكايات كثيرة عن الكنز المخبأ في اقبية الحمراء يحرسه طلسم سحري، إنما كان ينظر اليها كلها على أنها خرافات. في تلك اللحظة فقط، أحس بقيمة الخاتم الذي وهبه له بشكل من الأشكال القديس سيبريان، لكن، وعلى الرغم من أنه كان مزوداً بتعويذه بالغة القوة، فقد كان ما يزال أمراً رهيباً بالنسبة اليه أن يجد نفسه في مكان كذلك المكان، وجهاً لوجه أمام جندي مسحور يتعين عليه، طبقاً لقوانين الطبيعة، أن يكون راقداً في قبره منذ أكثر من ثلاثمائة عام.

تلك هي القاعدة، لكن شخصية من هذا النوع هي استثناء القاعدة وليس بالامكان الاستخفاف بها، وهكذا، أكد له الطالب أن بإمكانه الاعتماد على صداقته وطيب سريرته وأنه سيفعل كل ما في وسعه من أجل خلاصه. «إنني أثق

بدافع أشد قوة وفعالية من الصداقة» قال الجندي ثم اشار الى صندوق حديدي ثقيل مقفل بأقفال وعليه كتابة عربية. «ذلك الصندوق يحوي كنزاً هائلاً من الذهب والجواهر والأحجار الثمينة. أبطل الطلسم السحري الذي يأسرني ولك نصف ذلك الكنز».

«وما عساي أفعل لإبطاله؟».

هنا لابد من مساعدة كاهن مسيحي لإبطال قوى السحر والظلام، وفتاة مسيحية للمس ذلك الصندوق بخاتم سليمان ولابد من أن يتم ذلك ليلاً لكن كن على حذر. هذا عمل خطير لا ينبغي أن يتم بدافع من شهوة، إذ على الكاهن أن يكون مترهباً متبتلاً، أنموذجاً للطهر والقداسة، كما أن عليه أن يميّز شهواته كلها قبل أن يأتي هنا بصوم شديد طوال أربع وعشرين ساعة متواصلة، أما الفتاة فعليها أن تكون عذراء طاهرة ثبت بالتجربة والبرهان أنها فوق الإغراء والإغواء. لا تتباطأ في تقديم مثل هذا العون. بعد ثلاثة أيام تنتهي فرصتي. إن لم يتم خلاصي قبل منتصف الليلة الثالثة ظللت حارساً مائة سنة أخرى.

«لاتخف» قال الطالب «بأم عيني أرى الفتاة والكاهن اللذين وصفت، لكن كيف يمكنني أن أعود الى هذا البرج من جديد؟» .

«خاتم سليمان يفتح الطريق لك»

في الحال، انطلق الطالب خارج البرج وهو أكثر فرحاً وبهجة مما كان عليه حين دخوله، وفي الحال أيضاً انغلق الجدار خلفه ليبدو صليداً مصمتاً كما كان من قبل.

في الصباح التالي، وبكل إقدام وشجاعة مضى الى بيت الكاهن، لاطالباً مشرداً مسكيناً يكسب قوته بغيثاره، بل سفيراً من عوالم الأشباح يملك مفاتيح الكنوز المسحورة. في مفاوضاته، لم ينطق بشيء خاص بل كل ما فعل هو إثارة حماسة الكاهن العظيم لإنقاذ جندي قديم من جنود الإيمان وصندوق كبير من صناديق الملك تشيكو من قبضة الشيطان نفسه. حينذاك أية صدقات يمكن أن يوزعها! أية كنائس يمكن أن يبنيها! وكم من أقرباء فقراء يمكن أن يثريهم بذهب العرب وكنوزهم!

كانت الفتاة العذراء الطاهرة على أهبة الاستعداد لتقديم يد العون، وهو المطلوب لفعل التقى والورع ذاك، وإذا كان بالإمكان تصديق نظرة حيية ترشقها عينها بين الحين والحين فقد بدأ السفير يرى أثراً من ميل في تينك العينين الحيتين. على أن الصعوبة الكبرى تجسدت في الصوم الذي كان على الكاهن الطيب أن يتحملة. مرتين حاول الرجل ومرتين أثبت الجسد أنه أقوى من الروح. في اليوم الثالث فقط، تمكن الرجل من مقاومة إغراء الطعام، لكن كان السؤال مايزال قائماً: هل يصمد الى أن يفك الطلسم أم لا ؟

في الهزيع الاوسط من الويل، تلمست المجموعة طريقها صاعدة الوادي على ضوء مصباح، حاملة سلة من طعام لطرد شيطان الجوع حالما تلقى الشياطين الاخرى في البحر الاحمر.

بخاتم سليمان فتحت الجماعة طريقها الى البرج، فكان الجندي هناك جالساً على الصندوق المكين المسحور ينتظر ذلك الوصول. بالأسلوب المناسب قرأ الكاهن الرقى والتعاويذ ثم تقدمت الفتاة فلمست أقفال الصندوق بخاتم سليمان، وفي الحال انفتح الغطاء عالياً لتلمع تحته أكداش هائلة من الذهب والجواهر والحجارة الكريمة.

«هلموا نأخذ مانستطيع ثم نعود ثانية» صرخ الطالب منتشياً طرباً وهو يتقدم حاشياً جيوبه، لكن سرعان ماصاح به الجندي:

«مهلاً، مهلاً، دعنا نخرج الصندوق كله ثم نقتسم مافيه» بكل همة وعزم مضوا يفعلون ذلك، لكنها كانت مهمة صعبة فالصندوق ثقيل للغاية وقد انغرس هناك منذ قرون، لكن في الوقت الذي شغلوا فيه على ذلك النحو، مال الكاهن الطيب علي أحد جانبيه وشن هجوماً شديداً على السلة لطرد شيطان الجوع الذي كان يرغي ويزبد في أحشائه، وخلال لحظة من الزمان التهم قطعة من اللحم ثم غسل مجراها بزجاجة من خمرة دي بيناس، وامتناناً لنكهة اللحم، فقد منح قبلة من القلب «للحمل المدلل»، فتاته التي كانت تهتم برعايته، وقد تم ذلك بهدوء تام في إحدى الزوايا لكن الجدران الواشية بالثرثرة نقلت ذلك في الحال وكأنها حققت ظفراً، فلم تترك تحية عنيفة أثراً أفظع من آثار تلك التحية. إذ أطلق الجندي، على صوتها نفسه، صرخة يأس حادة، كما أن الصندوق الذي كان قد ارتفع نصف ارتفاعاً، سقط عائداً الى حيث كان، مرتجاً من جديد. بعدئذ، وجد

الكاهن، الطالب والفتاة جميعاً أنفسهم خارج البرج الذي انغلق في إثرهم جداره مطلقاً هزيماً كهزيم الرعد. وا أسفاه! لقد انهى الكاهن الطيب صيامه قبل الأوان!

حين استعاد الطالب وعيه من هول الصدمة والمفاجأة، أراد أن يدخل البرج من جديد، لكنه علم، ويا لهول ما علم!! لقد أوقعت الفتاة لشدة رعبها، خاتم سليمان، وأين أوقعته؟ داخل القبو.

باختصار، دق جرس الكاتدرائية بعد ذلك منتصف الليل، فعاد مفعول الطلسم، محتماً على الجندي أن يظل حارساً على الكنز مائة سنة أخرى، أي مايزال هو والكنز هناك حتى هذا اليوم. كل ذلك لأن ذلك الكاهن الرقيق القلب قبل فتاته. «آه!! أيها الأب! أيها الأب!» صاح الطالب وهو يهز رأسه أسى وحرزناً، فيما كانوا ثلاثتهم يعودون منحدرين الوادي «اخشى أنه كان في تلك القبلة من الإثم أكثر مما فيها من الطهارة!».

بعد ذلك تنتهي الحكاية كما تناقلتها الأجيال، لكن، ثمة مصدر يقول إن الطالب كان قد حشاً جيبه من ذهب الكنز بما يكفي لجعله يشق طريقه في الحياة إلى درجة ازدهرت معها أعماله وأعطاه الكاهن الطيب «الحمل المدلل» زوجة له، ربما ليصلح الخطيئة التي ارتكبها في القبو. بعد ذلك، أثبتت الفتاة المحصنة أنها مثال الزوجة الصالحة مثلما كانت مثال الخادمة المخلصة، فقد أنجبت لزوجها العديد من الأولاد، وإن كان الأول قد جاء عجيباً متميزاً، فقد وضعت أمه بعد سبعة أشهر من زواجها، وعلى الرغم من أنه كان ابن سبعة، فقد كان أشد أخوته صلابة وأقواهم بنية، أما البقية فقد ولدوا جميعاً أبناء تسعة.

لكن حتى يومنا هذا، لاتزال قصة الجندي المسحور إحدى أشهر الحكايات المتناقلة في غرناطة، رغم أنها تروى بطرق عديدة، فعامة الناس يؤكدون أنه لايزال يقف حارساً، في ليلة منتصف الصيف، بجانب شجرة الرمان العملاقة المتحجرة عند نهاية جسر الدارة، لكن دون أن يستطيع أحد رؤيته إلا من أسعده الحظ وامتلك خاتم سليمان.

ملاحظات حول « حكاية الجندي المسحور »

بين الاساطير الاسبانية القديمة، ثمة أسطورة عن وجود كهوف عميقة يتم فيها تعليم فنون السحر، إما بواسطة الشيطان نفسه، أو عجوز مسن مكرس لخدمته. أحد أشهر تلك الكهوف كهف سلمنسة الذي يذكره الدون فرانسيسكو دي توريبلانكا في الجزء الاول من كتابه عن السحر. هنا، كما يقول، يلعب الشيطان نفسه دور العراف، مقدماً أجوبة لأولئك الذين يأتون اليه لي طرحوا أسئلة مصيرية كما هي الحال تماماً في كهف تروفونيس الشهير، والدون فرانسيسكو، رغم انه يسجل هذه القصة إلا أنه لا يصدقها: مع ذلك يؤكد أن أحد حافضي المقدسات، ويدعى كلمنت بتوسي، كان يعلم سرا فنون السحر في ذلك الكهف، كما أن بدر فيجو الذي استفسر عن المسألة يدونها على أنها من معتقدات الرعاع وان الشيطان ذاته كان يعلم فنون السحر هناك فيقبل سبعة طلاب فقط كل مرة وعلى أحدهم، الذي يتم اختياره بالقرعة، أن يكرس نفسه له، جسداً وروحاً الى الابد. بين إحدى مجموعات الطلاب تلك، كان ثمة فتى هو ابن المركيز دي فليينا

الذي وقعت عليه القرعة بعد أن أكمل دراسته. مع ذلك، نجح في خداع الشيطان تاركاً له ظله بدلاً من جسده. أما دون جوان دي ديوس، أستاذ العلوم الانسانية في الجامعة، في مطلع القرن الثامن عشر، فيقدم نسخة أخرى عن القصة استخلصها، كما يقول، من مخطوطة قديمة، لكن لا بد من أن نلاحظ انه شوه الجزء مافوق الطبيعي من القصة ملغياً الشيطان منها كلية. إذ يقول انه بالنسبة الى كهف سان سيبريان. فكل مانستطيع أن نؤكدده هو انه يقع حيث ينتصب الصليب الحجري في الساحة الصغيرة أو المكان الذي يدعى "سميناري كرافجال" حيث كانت كنيسة الابرشية سان سيبريان. وهناك مهبط من عشرين درجة يفضي الى غرفة المقدسات تحت الأرض وهو قبو واسع أشبه بالكهف، كان حافظ المقدسات يعلم فيه ذات مرة السحر، علم التنجيم الشرعي، الضرب بالرمل، التنجيم بالماء، التكهن بالنار، قراءة الكف، استحضار الارواح، الى آخر ما هنالك من فنون السحر.

وتمضي القصة فتقول أن سبعة طلاب كانوا يتعلمون على يد حافظ المقدسات في إحدى الدورات، لقاء راتب محدد. وقد أجريت القرعة بينهم لمعرفة من سيدفع عوضاً عن الجميع، باعتبار أن من تقع عليه القرعة يتوجب عليه أن يبقى في غرفة المقدسات الى أن يقترب موعد الدفع، وفي الممارسة التي باتت مألوفة وعادة متبعة منذ ذلك الحين. وقعت القرعة على هنري دي فلينا، ابن المريكيز نفسه الذي ذكر اسمه، لكنه لاحظ انه حدث خداع وتحايل في إجراء القرعة كما ارتاب في ان يكون حافظ المقدسات مطلعاً مسبقاً على النتيجة، لذلك رفض القرعة، وللسبب نفسه سجن هناك. وللمصادفة فقد كان هناك، في زاوية معتمة من غرفة المقدسات، جرة ضخمة أو خزان فخاري لحفظ الماء، وكانت تلك الجرة متشققة وفارغة. في تلك الجرة تدبر الفتى أمره فخبأ نفسه. عاد حافظ المقدسات في الليل مع خادمه حاملاً الشموع والعشاء. فتح الباب فلم يجد أحداً في القبو، فيما وجد كتاب السحر مفتوحاً على الطاولة. بخوف شديد، تراجع تاركاً الباب مفتوحاً فهرب منه فلينا. بعدئذ تستمر القصة لتقول انه بواسطة السحر جعل نفسه غير مرئي - والآن، أمام القارئ نسختا القصة وبامكانه ان يختار. لكن لا بد لي فقط

من أن الفت الانتباه الى أن هنري دي فلينا هذا عاش في زمن جوان الثاني ملك قشتالة الذي كان خاله، وقد اشتهر بمعرفته بالعلوم الطبيعية، ولعل هذا مع السبب في وصمه بممارسة فنون السحر في عصر الجهل ذاك، إذ يتحدث عنه نان بريز دي غوزمان، حين يذكره في كتابه الرجال المتميزين، بكثير من

التبجيل والتقدير لسعة معرفته وإطلاعه، لكنه يقول انه كرس نفسه لفنون العرافة والكهانة، تفسير الاحلام والاشارات والنذر.

بموت فلينا، انتقلت ملكية مكتبته الى الملك الذي جاء من يحذره بأنها تحوي كتباً تتعامل مع السحر، وليس من اللائق قراءتها، فأمر الملك بنقلها بعربات الى مقر الاسقف المحترم كي يتم فحصها. ولان المطران كان أكثر تقى مما هو علماً، وكانت بعض الكتب تتعامل مع الرياضيات واخرى مع علم التنجيم وفيها رسوم وبيانات ومخططات ورموز للنجوم، فيما كانت بعض الكتب الأخرى عن الكيمياء أو السيميا، كما كان يسميها العرب، مع كلمات أجنبية وغامضة. فقد بدا هذا كله في عين المطران التقى الورع نوعاً من السحر والتنجيم واستحضر الارواح، لهذا أمر بحرقها فذهبت تلك الكتب كلها طعاماً للنار كما حدث لمكتبة دون كيشوت.

خاتم سليمان :

رسمه مؤلف من مثلثين متساويي الاضلاع، متقاطعين بحيث يشكلان نجمة سداسية تحيط بها دائرة. وطبقاً للتراث العربي، فان الله سبحانه وتعالى حين منح سليمان خيار البركات والنعمة فاختر الحكمة، نزل عليه من السماء، خاتم نقش عليه هذا الرسم فكانت تلك التعويذة الغامضة سر حكمته وعظمته وسعاده . وبها حكم وازدهر. لكن نتيجة ارتداد مؤقت عن الفضيلة وهفوة بسيطة ارتكبها، اضاع الخاتم في البحر، وفي الحال عاد سليمان الحكيم الى مستوى البشر العاديين، ثم لم يعف عنه ربه إلا بالصلاة والتوبة حيث سمح له أن يجد خاتمه في بطن سمكة وبذلك استعاد هبته السماوية، ولكي لا يفقدها كلية من جديد، فقد أفضى للآخرين بسر الخاتم.

هذا الخاتم، كما يروى، استخدمه بعض المسلمين كما استخدمه قبلهم عرب الجاهلية. كذلك استخدمه قبل هؤلاء العبريون «من أجل مشاريع شيطانية وأعمال أسطورية بغیضة»، ومن يرغب في معرفة المزيد عن هذه المسألة، فما عليه إلا أن يعود إلى أطروحة الأب العلامة «أثناسيوس كيركر» وعنوانها «القبلانية السراسينية».



وداع المؤلف لغرباطة

فجأة ، قطعت إقامتي الهادئة السعيدة في الحمراء رسائل وصلتني ، وأنا غارق في جو الترف الشرقي في قاعة الحمامات الباردة ، تدعوني لمغادرة فردوسي الإسلامي والانخراط من جديد في مشاغل العالم الأغبر وزحامه . ترى كيف سأواجه متاعبه ومشاكله بعد تلك الحياة التي عشتها من الدعة والنعيم والهناء؟ كيف سأتحمل رعايته بعد شاعرية الحمراء؟.

لكن لابد مما ليس منه بد ، وهكذا باشرت باتخاذ الاستعدادات اللازمة للرحيل ، فقد جاؤوا إلي بمركبة ذات عجلتين تدعى «ترتانا» تشبه إلى حد كبير عربة مغطاة لتكون مطية نقلي أنا وشاب إنكليزي عبر مرسيا فأليكانت ففالنسيا ونحن في طريقنا إلى فرنسا ، كما أتوا بشاب طويل الأطراف كان في يوم من الأيام رجل عصابات وربما قاطع طريق ليكون دليلنا وحارسنا . في الحال اتخذت الاجراءات لكن الرحيل صعب . يوماً بعد يوم كان يؤجل ، ويوماً بعد يوم كنت أقضي وقتي متسكعاً بين واقعي المفضلة ويوماً بعد يوم كانت تبدو لي أكثر إمتاعاً وبهجة .

كذلك ، غدا عالمي المنزلي والاجتماعي الصغير ، الذي كنت أتحرك ضمن دائرته ، أغلى وأغلى على قلبي ، في حين أقنعني الاهتمام الشديد الذي أبداه

الناس من حولي برحيلي القادم ان مشاعري تجاههم ليست سدى، فهم يبادلونني بالمثل رقة مشاعر وحرارة عواطف.

والحقيقة، أنني لم أجزؤ، حين حل يوم الرحيل، على المغامرة بالذهاب إلى بيت السيدة الطيبة أنطونيا لوداع أهل البيت، فقد أحسست أن قلب دلوريس الصغيرة، على الأقل، مفعم حتى الحافتين رقة وتعاطفاً بل كان على وشك أن يفيض. لذلك ودعت القصر وأهليه وداعاً صامتاً ثم نزلت إلى المدينة وكأنني أنوي العودة. لكن الترتانا والدليل كانا جاهزين هناك. تناولت وجبة الظهيرة مع زميلي في السفر ثم انطلقنا راحلين.

متواضعاً كان الموكب وكثيباً كان رحيل الملك تشيكو الثاني!! مانويل، ابن أخي السيدة انطونيا، ماتيو دليلي إنما في تلك الساعة سيدي الذي لا عزاء له. واثنان أو ثلاثة من عجز الحمراء المسنين الذين كنت قد عقدت معهم أواصر صحبة للقليل والقال، هؤلاء هم الذين جاؤوا لوداعي. إذ أن إحدى عادات اسبانيا القديمة الحسنة هي الذهاب أميال لاستقبال صديق قادم ومصاحبته أبعد مسافة ممكنة وقت رحيله. هكذا إذن. انطلقنا: دليلنا ذو الساقين الطويلتين في الامام وبندقيته على كتفه، مانويل وماتيو على كلا جانبي الترتانا والعجز المسنون في الخلف.

إلى الشمال من غرناطة قليلاً. يبدأ الطريق بصعود الروابي شيئاً فشيئاً. هنا، ترجلت من المركبة وصعدت الطريق متمهلاً مع مانويل الذي اغتنم هذه المناسبة كي يسر إلي سره الدفين ويحدثني عن شؤونه الصغيرة هو ودلوريس، تلك التي كنت على علم مسبق بها من قبل. وقد نقلها لي ماتيو زيمينيس العارف بكل شيء والكاشف لكل شيء. كان دبلومه الطبي قد مهد الطريق لاتحادهما، لكن كان ينقصهما قرار من البابا بتحليل زواجهما بسبب القرابة العصبية بينهما. وإذا ما استطاع الحصول على منصب طبيب القلعة، فإن سعادته ستكتمل. حينذاك، هنأته على حسن تقديره وذوقه الذي أبداه في اختياره لشريكة حياته، راجياً له كل سعادة مفكنة في حياته الزوجية، مبدياً كل الثقة بأن دلوريس الصغيرة ذات القلب الرقيق ستمنحه مشاعرها وأحاسيسها كلها بدلاً من أن تمنحها للقطب الضالة والحمام.

لحظة حزينة كانت تلك اللحظة التي ودعت فيها أخيراً أولئك الناس الطيبين ثم رأيتهم ينحدرون السفح على مهل ملتفتين من حين إلى آخر إلينا،

ملوحين بأيديهم تلويحة الوداع الأخيرة. صحيح، أنه كان لدي مانويل ما يأمل أن يفرحه ويحمل لقلبه البهجة. لكن ماتيو المسكين بدا مثبطاً تماماً: إنه سقوط محزن بالنسبة إليه، أشبه بالسقوط من مرتبة الوزير الأول ومدون التاريخ الرئيسي إلى مرتبة المواطن العادي بعباءته البنية البالية وهزاله الواضح ونسجه للشرائط، هو الشيطان المسكين الذي كان، رغم إساءاته أحياناً، قد كسب من تعاطفي أكثر مما كنت أتصور. ولعلني كنت سأجد الكثير من العزاء أثناء رحيلي ذاك لو استطعت أن أحُدس مسبقاً بالخط الحزن الذي كان ينتظره والذي ساهمت إلى حد ما في صنعه، ذلك أن الأهمية التي أوليتها على ما يبدو، لحكاياته وقصصه ومعارفه المحلية، وكذلك صحبته لي في رواحي ومجيئي، كل ذلك كان قد رفع من تقديره لمواهبه وفتح طريقاً جديداً له، فغداً ابن الحمراء منذئذ دليلها النظامي وصاحب الراتب الجيد حتى قيل لي أنه، بعد ذلك، لم يضطر قط للعودة إلى عباءته الرثة التي رأيتها يرتديها أول مرة.

قبل غروب الشمس وصلت إلى حيث كان الطريق يلتف صاعداً الجبال فتوقفت لإلقاء النظرة الأخيرة على غرناطة، ومن هناك رأيت منظرًا رائعاً للمدينة وسهل الفيغا والجبال المحيطة. ذلك أن البتل الذي وقفت عليه كان يقع في الجهة المقابلة لقل الدموع الذي اشتهر في التاريخ بأنه المكان الذي انطلقت منه «آخر تنهيدة لعربي». في تلك اللحظة، انتابتنني بعض مشاعر المسكين أبي عبد الله وهو يودع فردوسه خلفه دون أن يرى أمامه إلا طريقاً وعراً أجرد يفضي به إلى المنفى. وكالعادة، كانت الشمس الغاربة تضيء مسحة من كآبة على جبال الحمراء المصبوغة بالحمرة، فلم أستطع إلا بالكاد أن أرى النافذة ذات الشرفة في برج الأقمار، حيث غالباً ما كنت أستغرق في أحلامي البهيجة هناك، أما الحدائق والرياح الكثيفة التي تحيط بالمدينة، فقد كان الغروب يضيء عليها صفرة الذهب الأخاذة، فيما كانت غبشة أمسية صيفية تتجمع فوق الفيغا. كل شيء كان عذباً جميلاً لكنه محزن موجه لقلبي الراحل وعيني المودعة ففكرت للتو: «لأسرع بالابتعاد عن هذا المنظر قبل أن تغرب الشمس علني أحمل ذكراها بكل ما فيها من روعة وجمال».

بتلك الأفكار تابعت طريقي بين الجبال، مبتعداً شيئاً فشيئاً عن غرناطة لتغيب عن ناظري هي والفيغا والحمراء جميعاً، منهياً بذلك حلماً من أمتع أحلام الحياة، ربما يحسب القارئ أنه من نسج الخيال.

الفهرس

3	الحمراء / القسم الأول
7	إهداء المترجم
9	مقدمة الطبعة العربية
25	مقدمة طبعة 1815م
27	الرحلة
47	قصر الحمراء
57	ملاحظات حول الهندسة المعمارية العربية
61	مفاوضات هامة توصل المؤلف إلى قصر أبى عبد الله
67	سكان الحمراء
71	قاعة السفراء
76	المكتبة اليسوعية
85	الذي أنهى بناء الحمراء يوسف أبو الحجاج
89	الغرفة الفامضة
97	منظر عام من «برج التجار»
103	الشريد
107	الشرفة
113	مغامرة البناء
117	قاعة السباع
123	ابن سراج
133	تذكرة بأبى عبد الله
137	أعياد غرناطة العامة
143	التقاليد المحلية
147	بيت «ديك الطقس»

153 الحمراء / القسم الثاني
155 حكاية المنجم العربى
171 ملاحظة حول المنجم العربى
173 زوار يأتون إلى الحمراء
177 آثار باقية وسلالات
181 جنة الريف
183 حكاية الأمير أحمد الكامل أو «سائح الحب»
213 «تجوال بين التلال»
221 قصة ميراث عربى
239 برج الطفلات
261 حكاية وردة الحمراء
277 حكاية المحارب القديم
279 الحاكم والكاتب العدل
287 الحاكم « مانكو والجندى »
303 عيد في الحمراء
309 حكاية التمثالين الحكيمين
325 حرب صليبية لسيد «القنطرة» العظيم
333 قصة رومانسية من اسبانيا
337 حكاية الدون «مونيو سانشو دي مينو جوسا»
343 الشعر والشعراء في الأندلس العربية
351 رحلة بحثاً عن «وثيقة دبلوم»
355 حكاية الجندي المسحور
367 ملاحظات حول «حكاية الجندي المسحور»
371 ودام المؤلف في غرناطة

الهيئة الاستشارية:

د. عبيد الملك مرتاض
د. صلاح فضل
د. منذر عياشي
د. عبيد الله الغدامي
د. عبيد النبي اصطيف
د. قاسم المقداد

المدير المسؤول :

فأحر السباعي

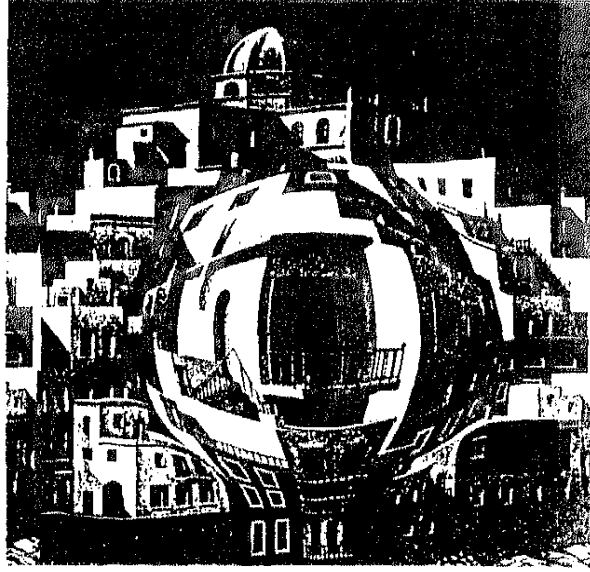
حلب / المحافظة - شارع القاهرة - بناية السباعي (ط ١)
تليفون: 679531 - 664742 * فاكس: 21-247756 00963

ع - 1996/1/100

الحمراء : قصة أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي
على الأندلس واسبانيا / تأليف واشنطن ايرفينغ ؛ ترجمة هاني
يحيى نصري ، عبد الكريم ناصيف . - حلب مركز الانماء
الحضاري ، 1996 . - 2 مج في 1 ؛ 30 سم .

1 - 823 أم ا ي ر ح 2 - 914.6 ا ي ر ح 3 - العنوان
4 - ايرفينغ 5 - نصري 6 - ناصيف

مكتبة الأسد



إن فتح العرب لإسبانيا قد حمل معه حضارة
أرقى وطرازا في التفكير أنبل، فالعرب أناس شاعريون،
لامعو الذكاء سريعو البديهة، أصحاب إباء وشهامة
وحكمة، وعقل، وقد تشربوا علوم الشرق وآدابه،
وحيثما كانوا يقيمون مركز قوة ونفوذ يصبح على الفور
مركز استقطاب للمتعلمين والناخبين كما كانوا يقومون
بتشذيب وصقل الناس الذين يفتحون بلادهم ...

وليس هناك من أثر يعبر عن عصره وإناسه أكثر
من الحمراء: تلك القلعة الكالحة خارجاً والتحصن الباذخ
داخلاً، الحرب تكشر فوق أسواره وأنغام الشعر
تنسرب في قاعاته بلا مقاومة، يجد المرء خياله ينتقل
إلى تلك الأيام، حين كانت إسبانيا العربية الإسلامية
منطقة إشعاع للحضارة والنور وسط أوروبا الغارقة في
الظلام، فقد كانت الحمراء، خارجياً، قوة حربية
تقاتل من أجل البقاء لكن داخلياً دولة مكرسة للآداب
والعلوم والفنون

واشنطن إيرفينغ